تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب
في العُصُور الوسطى

تأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور





تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب
في العصور الوسطى

تأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
جامعة القاهرة



رقم الكتاب : 1912
اسم الكتاب :تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب
المؤلف : د. سعيد عبد الفتاح عاشور
الموضوع : تاريخ
رقم الطبعة : الثانية
سنة الطبع : 1424 هـ 2003 م.
القياس : 17 × 24
عدد الصفحات : 368

منشورات : **دار النهضة العربية**
بيروت – لبنان

الزيدانية – بناية كريدية– الطابق الثاني
تلفون : 736093 / 743167 / 743166 1 961 +
فاكس : 736071 / 735295 1 961 +
ص.ب 0749- 11 رياض الصلح
بيروت 072060 11 – لبنان
بريد الكتروني : e-mail:darnahda@cyberia.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الاول

ماهية الحركة الصليبية

أحوال الغرب الأوربى عند بداية الحركة الصليبية :

اعتاد المؤرخون أن يبدءوا الكلام عن الحروب الصليبية بالإشارة إلى أحوال الشرق الأدنى فى القرنين العاشر والحادى عشر ، فيتعرضون للدولة العباسية أيام ضعفها حتى كان ظهور السلاجقة ثم ينتقلون إلى الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين فى آسيا الصغرى وكيف أدت استغاثة البيزنطيين بالغرب الأوربى وبالبابوية عقب موقعـــة مانزكرت إلى إثارة الحرب الصليبية .

ومع اعترافنا بوجاهة اتخاذ أحوال الشرق الأدنى مدخلا للحروب الصليبية ، إلا أننا نرى أن المدخل الطبيعى للموضوع يأتى من ناحية الغرب لا الشرق . حقيقة إن الاستغاثة ضد المسلمين أتت من الشرق ، ولـكن البواعث التى دفعت الغرب الأوربى إلى تلبية تلك الاستغاثة ، والإسراع بالاستجابة لها والرد عليها رداً عمليا ، هذه البواعث كلها غربية ولا يمكن فهمها إلا بالوقوف على أوضاع الغرب الأوربى وقت قيام الحروب الصليبية . ولا أقل من إلقاء نظرة سريعة على غرب أوربا فى العصور الوسطى لنستطيع فهم البواعث التى حركت الحركة الصليبية .

أعقب سقوط الإمبراطورية الرومانية فى غرب أوربا على أيدى الجرمان سنة ٤٧٦ فترة قاتمة امتدت حتى القرن الحادى عشر ، أطلق بعض المؤرخين

على تلك الفترة فى التاريخ الأوربى اسم « العصور المظلمة » . ولم تقتصر مظاهر التأخر والانحلال التى أصابت المجتمع الأوربى فى تلك الفترة على الانحلال السياسى ، وإنما امتد التدهور إلى الجوانب الاجتماعية والثقافية والإقتصادية . وإذا كان غرب أوربا قد شهد صحوة ملحوظة على أيام شارلمان فى أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع ، فإن هذه الصحوة جاءت قصيرة العمر ولم تلبث جموع الفيكنج أن أخذت تنزح من الشمال لتغير على مواطن الحضارة وتدمرها فى غرب أوربا ، فى الوقت الذى أوغل الهنغاريون فى وسط القارة حتى شرق ألمانيا ، يخربون ويفسدون . وفى وسط تلك الأزمات تحايل الغرب الأوربى بالنظام الإقطاعى للحصول على قدر من الأمان والحماية ، فانحلت السلطات المركزية منذ القرن التاسع ، وتنازل الأباطرة والملوك عن كثير من حقوقهم وسلطاتهم لأمراء الإقطاع . ولكن إذا كان كبار الأمراء الإقطاعيين قد نجحوا فى حماية رعاياهم من الهجمات الخارجية ، فإن أولئك الرعايا دفعوا الثمن غالياً فى ظل نظام اعتمد على الاقنان وعبيد الأرض وقام على أساس تحكم القوى فى الضعيف .

ولم يكن فى استطاعة البابوية والكنيسة الغربية أن تسهم بأى جهد لتعديل تلك الأوضاع ، لأن الكنيسة نفسها — التى ظلت منذ سقوط الامبراطورية الغربية فى أواخر القرن الخامس تمثل أكبر قوة فى المجتمع الغربى — تعرضت هى الأخرى لموجة جارفة من الإنحلال والذبول فى القرنين التاسع والعاشر ، فجرف التيار الإقطاعى رجال الدين وتصدع سلطان البابوية ، وانحط المستوى الخلقى لرجال الكنيسة[1] .

على أن تلك الغمة لم تلبث أن أخذت تنكشف فى القرن الحادى عشر .

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٤١—٣٤٢ .

ويميل بعض الباحثين إلى إعطاء سنة ١٠٠٠ للميلاد أهمية خاصة فى تاريخ أوربا على أساس أن هذه السنة تمثل نقطة تحول كبرى فى تاريخ غرب أوربا[1] . ومع أننا لا نؤيد مبدأ اختيار سنة بعينها لتحديد بداية حركة حضارية فى التاريخ ، إلا أنه لا يمكننا أن نتجاهل الصحوة الكبرى التى تعرض لها غرب أوربا منذ القرن الحادى عشر ، وهى الصحوة التى بلغت ذروتها فى القرن الثانى عشر واستمرت بعد ذلك حتى نبعت منها النهضة الأوربية فى القرن الخامس عشر[2] .

ويطلق المؤرخون على هذه الصحوة التى تعرض لها المجتمع الغربى منذ القرن الحادى عشر اسم « نهضة القرن الثانى عشر » . وليس هذا مجال الخوض فى تفاصيل هذه النهضة ، وإنما تكفى الإشارة إلى أنها مست جميع أركان الحياة فى غرب أوربا . ففى المجال السياسى بدأت أوربا تشعر بنوع من الاستقرار بعد أن انتهت إغارات الفيكنج ، فأخذ ملوك الغرب يسعون سعيا حثيثاً لتدعيم سلطانهم فى بلادهم . وفى المجال الثقافى أخذ الأوربيون يعملون فى نهم لتحصيل أكبر قدر من العلوم والمعارف التى استقوها وترجموها عن الكتب العربية ، وبالتالى فقد بدأ التطور الذى نبتت منه الجامعات لأول مرة فى غرب أوربا . وفى المجال الاقتصادى ظهر نشاط المدن وبخاصة فى شمال إيطاليا ، وصحب هذا النشاط هجرة كثير من أقنان الأرض إلى المدن للعمل فيها مما أدى إلى تطور اجتماعى خطير[3] .

ثم إن هذه الصحوة الكبرى التى تعرض لها المجتمع الأوربى منذ القرن الحادى عشر كان لها أيضاً مظهرها الواضح فى مجال الدين . ذلك أن

(1) Archer : The Crusades, p. 14.

(٢) سعيد عاشور : النهضات الأوربية ص ١١١—١١٢ .

(٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٩٢ وما بعدها .

الـكنيسة تعرضت عندئذ لحركة إصلاح شاملة تعرف باسم الحركة الـكلونية وقد بدأت هذه الحركه بقصد إصلاح الحياة الديرية فى القرن العاشر ، ولـكن لم يلبث أن اتسع نطاقها فى القرن الحادى عشر حتى أصبح هدفها الرئيسى إصلاح الـكنيسة بوجه عام وعلاج الأمراض الخطيرة التى شكت منها الـكنيسة عندئذ ، وأهمها السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى [١] . وإذا كانت الـكنيسة قد أفلحت فى علاج السيمونية وزواج رجال الدين داخليا عن طريق عدة مجامع عقدت فى القرن الحادى عشر ، فإن السعى لحل مشكلة التقليد العلمانى أوقع الـكنيسة فى صراع عنيف مع السلطة العلمانية ، وهو الصراع الذى نطلق عليه النزاع بين البابوية والإمبراطورية فى العصور الوسطى [٢] . وقد بدأت أولى حلقات هذا النزاع سنة ١٠٧٦ — أى قبل الحملة الصليبية الأولى بنحو عشرين عاماً — واستمر بعد ذلك سنوات طويلة ؛ وفيه حشدت كل من البابوية والإمبراطورية جميع قواها وإمكانياتها للتغلب على الطرف الآخر .

وخلاصة القول أن النهضة التى بدأت مظاهرها فى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر أمدت الغربيين بطاقة هائلة وأمدت الـكنيسة بقوة جبارة كان لا بد من استنفادها . ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن النزاع بين البابوية والإمبراطورية إنما جاء وسيلة لاستنفاد الطاقة التى تزود بها المجتمع الغربى منذ القرن الحادى عشر . على أنه كان من المتعذر أن تستنفد هذه الطاقة كلها محليا وفى صراع داخلى ، وصار لابد من البحث عن منفس خارجى لتوجيه قدر من تلك الطاقة إليه . وعندئذ ظهرت فكرة الحرب

(1) Thompson : The Middle Ages, vol. 1, pp. 427—428.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٤٥ وما بعدها .

الصليبية لتهيء للغرب الأوربى ميدانا واسعاً يستغل فيه نشاطه المـكبوت وحماسته المنطلقة .

ماهية الحركة الصليبية :

ولعل السؤال الذى يواجهنا بعد ذلك هو : ما المقصود بالحركة الصليبية ؟ الواقع إن الإجابة على هذا السؤال تعددت بتعدد النوافذ التى أطل منها المؤرخون على الموضوع . فهناك من المؤرخين من نظر إلى الحروب الصليبية على أنها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، وهو الصراع التقليدى القديم الذى ظهر بوضوح فى النزاع بين الفرس واليونانيين ثم بين الفرس والروم . ومن الواضح أن هذا الصراع القديم بين الشرق والغرب لا يمكن ربطه بأى عامل دينى ، حيث أنه دار فى عصور كان الشرق والغرب جميعاً وثنيين ؛ وربما بدا من الأرجح ربطه بالعامل الحضارى بوصفه صراعا بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين وأسلوبين فى الحياة متباعدين . ويرى أنصار هذا الرأى أن الصراع بين الشرق والغرب ظل كالبركان يهدأ حيناً ويثور أحياناً حتى كانت نهاية القرن الحادى عشر فاشتد غليانه وثورانه ، وعندئذ وجد منفساً فى الحرب الصليبية . وزاد من حدة ثوران البركان فى تلك المدة أنه وجد سبباً جديداً قويا للخلاف بين الشرق والغرب ، هو الخلاف الدينى بين الإسلام والمسيحية .

وهناك فريق آخر من المؤرخين رأى أن الحركة الصليبية وما ارتبط بها من محاولات كبرى ومشاريع عديدة لغزو الوطن العربى — وبخاصة فى الشرق الأدنى — ليست فى حقيقة أمرها إلا الحلقة الأخيرة فى سلسلة الهجرات الـكبرى التى صحبت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية [١] . ذلك أن سقوط تلك الإمبراطورية

(1) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land ; p. 15

سنة ٤٧٦ أعقبته موجات من الهجرات التى قام بها المواطنون فى بلاد الإمبراطورية الغربية . وقد تفاوتت هذه الهجرات فى مداها الزمنى وفى اتجاهاتها وأثرها ، ولكنها كلها أتت نتيجة الشعور بالفزع والقلق الذى نجم عن سقوط الإمبراطورية ودخول عناصر جديدة من الجرمان داخل أراضيها . وكان الناس فى غرب أوربا فى العصور الوسطى يتصورون الإمبراطورية فى صورة دعامة كبرى لا بد للعالم منها ولا حياة لهم بدونها ، لأنها تعنى الاستقرار والنظام والأمن والحضارة. وفى ضوء هذه العقيدة يمكننا أن نفسر شعور الفزع والرعب والقلق الذى انتاب الناس عندما سقطت الإمبراطورية فى الغرب ، إذ رأوا فى ذلك نذيراً بنهاية العالم وفنائه وظنوا أن الساعة لا بد وأن اقتربت . و بالإضافة إلى ذلك فإنه يلاحظ أن سقوط الإمبراطورية الغربية جاء نتيجة تدفق جموع الجرمان وقبائلهم داخل أراضى الإمبراطورية ، الأمر الذى ترتب عليه زعزعة أركان المجتمع الرومانى القديم وقيام مجتمع جديد هو خليط من الرومان والجرمان . ولم يلبث الجرمان أن اعتنقوا المسيحية ، فأمدوا العالم الرومانى بروح جديدة وحيوية دافقة ظهر أثرها فى كثير من الهجرات التى اتجهت إلى شمال افريقية ، وانجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا . وينادى بعض الباحثين بأن الحركة الصليبية فى حد ذاتها ليست إلا الحلقة الأخيرة فى سلسلة الهجرات التى اعقبت سقوط الإمبراطورية الغربية فى القرن الخامس .

وهناك فريق ثالث من المؤرخين يرى أن الحركة الصليبية ليست إلا انطلاقة كبرى decumanus fluctus نتجت عن عملية الإحياء الدينى التى بدأت فى غرب أوربا فى القرن العاشر والتى بلغت أشدها فى القرن الحادى عشر ، كما سبق أن أشرنا . ذلك أن حركة الإصلاح الكلونية كانت فى حقيقة أمرها حركة إحياء دينى بكل معانى الكلمة ، ترتب عليها عودة البابوية إلى سطوتها القديمة السابقة ، وتحقيق نوع من الإشراف المركزى الدقيق على كافة الكنائس الغربية ، وتقوية

الجهاز الكنسى وتدعيمه ، وربط أطرافه بالمركز الرئيسى فى روما ، ثم إثارة نوع من الحماسة الدينية بوجه عام فى الغرب الأوربى . ومهما يكن من أسباب الحرب بين البابوية والإمبراطورية وعنف تلك الحرب ، فإن الاتجاه المتزن نادى دائماً بألا يحارب الأخ أخاه ، ولذلك ظهر شعور قوى فى القرن الحادى عشر بالرغبة فى العثور على منفس خارجى تستهلك فيه تلك الطاقة الهائلة التى نجمت عن حركة الإحياء الدينى فى غرب أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر . وإذا كان الغربيون قد عرفوا الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالشام منذ القرنين الرابع والخامس، إلا أن مشاريع الحج ظلت فردية ، وإذا خرجت جماعة من غرب أوربا للحج فإن عدد أفرادها كان لا يتجاوز غالباً أصابع اليد الواحدة[1] . أما القرن الحادى عشر فقد عرف لأول مرة ظاهرة الحج بالجملة « en masse » ، فكان يخرج للحج بضعة مئات، تحت زعامة أسقف أو نبيل ، ويتجهون سوياً من غرب أوربا فى صورة مظاهرة دينية سلمية قاصدين الأراضى المقدسة بالشام[2] . ومن أبرز هذه الجماعات الكبرى ، تلك التى خرجت من نورمنديا سنة ١٠٦٤ بزعامة رئيس أساقفة مينز ، ثم تلك التى خرجت بزعامة روبرت الأول أمير فلاندرز سنة ١٠٨٩[3] .

ويرى هذا الفريق من المؤرخين أن الحروب الصليبية التى بدأت الدعوة لها سنة ١٠٩٥ ليست إلا استمراراً لحركة الحج الجماعى إلى بيت المقدس ، مع حدوث تطور فى الأسلوب ، وهو أن الحج الجماعى صار حربياً بعد أن كان سلمياً . ويدلل أصحاب هذه النظرية على رأيهم بأنه إذا كان عدد الحجاج الذين خرجوا سنة ١٠٦٤ مع رئيس أساقفة مينز قد بلغوا سبعة آلاف حملوا معهم بعض الأسلحة

(1) Iogra : Hist. des Croisades, pp. 3—11.
(2) Setton : A Hist. of the Crusades, vol 1, p. 76.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 269.

للدفاع عن أرواحهم فى الطريق ، فهل هناك فارق بين ذلك الموكب وأية حملة صليبية تالية سوى فى الأسلوب الذى اتبعه كل فريق فى بلاد الشام ؟ أما ذلك التطور فى الأسلوب فمرجعه تلك الأخبار التى أخذت تصل إلى الغرب الأوربى عن سوء معاملة الحجاج بعد استيلاء السلاجقة على بيت المقدس سنة ١٠٧١ ثم استيلائهم على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وطرد البيزنطيين منها ، مما جعل الغرب يؤمن بأنه لا بد من استخدام القوة لتأمين عملية الحج إلى الشام[1] .

وأخيراً فإن هناك رأى رابع أخذ به بعض الباحثين ورأى فى الحروب الصليبية الوسيلة التى تحايل بها الغرب الأوربى للخروج من أوضاع العصور الوسطى والانطلاق إلى حياة أوسع أفقاً . ذلك أن الغربيين ظلوا طوال العصور الوسطى يعيشون داخل دائرة معينة حددت أفقها الكنيسة تحديداً ضيقاً ، وكان كل من يحاول الخروج على هذه الدائرة يتعرض لغضب الكنيسة وطرده من رحمتها ، وبئس المصير . على أن الاتصالات التى تمت بين الغرب الأوربى والمسلمين — سواء المسلمين فى الأندلس أو فى المشرق — أظهرت للأوربيين أن الحياة أوسع أفقاً مما يظنون ، فأخذت نسبة كبيرة من الناس فى غرب أوربا تشعر بضيق الحياة وشدة وطأة الكنيسة ورجالها . وهكذا جاءت بشائر النهضة الأوربية الوسيطة فى القرن الحادى عشر مصحوبة برغبة الناس فى التخلص من القيود المفروضة عليهم ، وتطلعهم إلى حياة أفضل . وكان من المتعذر فى الظروف التى أحاطت بالناس فى غرب أوربا فى ذلك الوقت تحقيق أمنيتهم إلا بالمشاركة فى حركة ضخمة مثل الحركة الصليبية تدعو لها البابوية وتؤيدها الكنيسة ، وفى الوقت نفسه تمكنهم من الخروج إلى أرض الله الواسعة للوصول إلى حياة دنيوية أفضل . وبعبارة أخرى

(1) Setton : op. cit., vol. 1, p. 78.

فقد كانت الحروب الصليبية خير فرصة أتيحت للغربيين للجمع بين الخلاص فى الدنيا والثواب فى الآخرة .

هذه هى أهم النوافذ التى أطل منها الباحثون على الحروب الصليبية . ونستطيع نحن فى ضوء الآراء السابقة وغيرها أن نعرف الحركة بأنها :

« حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربى المسيحى فى العصور الوسطى ، واتخذت شكل هجوم حربى استعمارى على بلاد المسلمين وبخاصة فى الشرق الأدنى بقصد امتلاكها . وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التى سادت غرب أوربا فى القرن الحادى عشر ، واتخذت من استغاثة المسيحيين فى الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق » .

أدوار الحركة الصليبية ومداها الزمنى :

جرى الوضع فى كتب التاريخ على تحديد المدى الزمنى للحركة الصليبية بين سنتى ١٠٩٥ ، ١٢٦١ . ولكن هذا التحديد فى الواقع لا يعنى سوى الدور الحاسم التقليدى فى تلك الحركة ، وهو الدور الواقع بين الدعوة للحملة الصليبية الأولى وطرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام . وسنرى أن الحركة الصليبية بمعناها الواسع لها جذور ومقدمات سبقت سنة ١٠٩٥ زمنيا ، كما أن التيار الصليبى استمر بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١ ، الأمر الذى ترتب عليه عدم توقف الحروب الصليبية طوال القرن الرابع عشر وشطر كبير من القرن الخامس عشر . ومن هذا يبدو أن تحديد المدى الزمنى للحركة الصليبية بين سنتى ١٠٩٥،١٢٩١ إنما هو تحديد خاطىء لا يقوم على أساس سليم ولا يعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة ، وإنما يكتفى بعلاج مبتور يشمل جزءا من تلك الحركة ، لا يعبر عن جذورها وأصولها من ناحية ولا عن ذيولها وبقاياها من ناحية أخرى .

ومن ناحية أخرى يلاحظ عدم صحة ما جرى العرف عليه من تحديد الحملات الصليبية التى خرجت من الغرب إلى الشرق فى المدة الواقعة بين نهاية القرن الحادى عشر ونهاية القرن الثالث عشر بثمان حملات . والواقع أنه غير معروف بالضبط لماذا فازت بعض الحملات بترقيم عددى فى التاريخ دون البعض الآخر . فمنذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة ١٠٩٨ ، لم يمر عام واحد دون مجىء جموع صليبية جديدة ، و بعض هذه الجموع فاقت فى كثرة أعدادها وفى أهمية ما حققته من نجاح الحملات الصليبية المألوفه التى فازت بأرقام فى التاريخ، ومع ذلك فإن معظم هذه الجموع أو الحملات لم تمنح أرقاما تضفى عليها قسطا من الأهمية فى التاريخ .(١)

أما الحملات الثمان التى فازت بأرقام عددية ميزتها فى التاريخ ، فقد اتجهت أربع منها نحو الشام (الأولى والثانية والثالثة والسادسة) واثنتان ضد مصر (الخامسة والسابعة) وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) ، وأخرى نزلت بشمال افريقية (الثامنة) . ولا يعرف على وجه التحديد السبب فى تمييز هذه الحملات بإعطائها أرقاما عددية دون غيرها من الحملات ، وإن كان يبدو أن السر فى هذا التمييز إنما يرجع إلى ما حصلت عليه من شهرة بسبب ما حققته من نجاح فى الأراضى المقدسة (مثل الحملة الأولى) أوما كان لها من اتجاه خاص جديد غير مألوف فى غيرها من الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة) ؛ أو لخروجها تحت زعامة كبار ملوك الغرب (الثانية والثالثة والسادسة والسابعة والثامنة) .

(1) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 3.

الفصل الثاني

بواعث الحركة الصليبية

يتضح من تعريفنا للحركة الصليبية أن هذه الحركة حركتها بواعث حقيقية وأسباب قوية ، انبعثت من صميم المجتمع الأوربى الغربى . حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين عندما تعرضوا لضغط السلاجقة وغزوهم لأراضى الإمبراطورية استغاثوا بالبابوية وطلبوا النجدة العاجلة من الغرب الأوربى ؛ ولكن لو لم يكن لدى الغرب عندئذ أسباب قوية جعلته يتحرك لما لبى نداء الاستغاثة ولما استجاب لدعوة الامبراطورية البيزنطية فى تلك السرعة والقوة .

وسنحاول فى هذا الفصل أن نلقى نظرة سريعة على البواعث التى أدت بغرب أوربا إلى القيام بحركة من أهم الحركات فى تاريخ البشرية بوجه عام ، وفى تاريخ العصور الوسطى على وجه التحديد .

الباعث الدينى :

اعتاد مؤرخو المدرسة القديمة أن ينظروا إلى الحروب الصليبية من زاوية واحدة هى زاوية الدين ، وأن يعالجوها علاجا مبتورا فى ضوء العامل الدينى وحده ؛ متجاهلين ما فاضت به الحركة الصليبية من بواعث سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية . من ذلك أن ريان Riant عرف الحروب الصليبية بأنها « حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضى المقدسة بالشام » .(١)

(1) Archives de l'Orient Latin, I, ps. 2, 22.

حقيقة إن الحركة الصليبية لها فى اسمها وطريقة الدعوة لها والروح التى كيفت بعض أحداثها ما يجعل الصنة الدينية واضحة فيها ؛ ولكن ليس معنى ذلك أن التيار الدينى هو المسؤل الوحيد عند إثارة تلك الحركة والقوة الوحيدة الموجهة لها . وإن المدقق فى تاريخ الحروب الصليبية ليسترعى نظره أن الروح الصليبية ذاتها كثيراً ما فترت فى بعض حلقاتها ، وأن الباعث الدينى كثيراً ماذاب وسط التيارات السياسية والاقتصادية بوجه خاص[١] .

وللوقوف على قيمة الباعث الدينى فى الحركة الصليبية يجدر بنا أن نتأمل أوضاع الحياة فى الغرب الأوربى فى العصور الوسطى ، وما اعترى تلك الأوضاع من تطورات حتى أواخر القرن الحادى عشر ، وذلك حتى لا ننزلق فى الطريق نفسه الذى انزلق فيه كثير من المؤرخين السابقين ؛ وهم الذين اعتادوا أن يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة فى سوء أحوال المسيحيين فى البلاد الإسلامية فى العصور الوسطى وما تعرضوا له من اضطهادات وحشية ، وكيف أن كنائسهم خربت وأديرتهم أغلقت وطقوسهم عطلت . . . فضلا عما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات وما تعرضوا له من معاملة سيئة من حكام البلاد الإسلامية التى مروا بها .

ومن الواضح أن هذا المدخل للحروب الصليبية مدخل مضلل بعيد عن الحقيقة والتاريخ ، ليس فقط بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات معظمها لا أساس له من الصحة ؛ بل أيضاً لأن الدخول إلى تاريخ الحركة الصليبية من هذا الباب الوهمى كفيل بأن يصرف الباحث عن المدخل الحقيقى للموضوع . فالقول بأن الحروب الصليبية أتت رد فعل للاضطهاد الذى تعرض له المسيحيون — الشرقيون والغربيون — فى البلدان الإسلامية ، إنما هو إدعاء باطل لا يتفق وروح

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades pp. 1—2.

الإسلام وطبيعة الدعوة إليه ، وما أحاط به القرآن أهل الكتاب من رعاية وعناية ، وما أمر الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من دعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة « فإن أسلموا فقد اهتدوا و إن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد[١] » .

ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً فى كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة هانئة ، تشهد عليها الرسالة التى بعث بها ثيودسيوس بطرق بيت المقدس سنة ٨٦٩ إلى زميله إجناتيوس بطرق القسطنطينية ، والتى امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق ، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أى تدخل فى شئونهم الخاصة ، وذكر بطرق بيت المقدس بالحرف الواحد فى رسالته : « إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أى أذى أو تعنت »[٢] حقيقة إن التاريخ يشير إلى تعرض المسيحيين أحياناً فى بعض البلدان الإسلامية لنوع من الضغط أو الاضطهاد ، ولكن هذه حالات فردية شذت عن القاعدة العامة التى حرص الإسلام دائماً عليها ، وهى التسامح المطلق مع أهل الكتاب . وإذا كان بعض المؤلفين الأوربيين قد تمسكوا بهذه الحالات الفردية وأرادوا أن يتخذوها دليلا على تعسف حكام المسلمين مع المسيحيين فى عصر الحروب الصليبية ، فلعل هؤلاء الكتاب نسوا أو تناسوا ما صحب انتشار المسيحية ذاتها من اضطهادات ومجازر بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى . وحسبنا ما قام به خلفاء الإمبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية ، وما قام به شارلمان فى القرن الثامن من فرض المسيحية

(١) « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لاحجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » .
(سورة الشورى ١٤ ، ١٥)

(2) Thompson : Economic and Social Hist. vol. 1, p. 385

على السكسون والبافاريين والآفار بحد السيف حتى أنه قتل من السكسون وحدهم فى مذبحة فردن الشهيرة أكثر أربعة آلاف فرد جملة واحدة ؛ وما ارتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة فى محاولتهم نشر المسيحية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطىء البحر البلطى [1] هذا كله فضلا عما أتاه المبشرون الجزويت فى القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية فى الهند [2] .

ويضيف أحد كبار المؤرخين الأوربيين إن حالات الاضطهاد الفردية التى تعرض لها المسيحيون فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى فى القرن العاشر بالذات لا يصح أن تتخذ بأى حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية ، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية فى ظل الحكم الإسلامى فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة ، وإنما سمح لهم أيضاً بتشييد كنائس وأديرة جديدة جمعوا فى مكتباتها كتباً دينية متنوعة فى اللاهوت [3] .

ومن الواضح أن مثل هذه الروح السامية التى عومل بها المسيحيون فى البلدان الإسلامية لا ينتقص من قدرها إطلاقاً ما قام به رجل عرف بشذوذه — مثل الخليفة الحاكم بأمر الله — من تصرفات تجاه أهل الذمة . ولم يكد الحاكم يموت سنة ١٠٢١ إلا وعاد المسيحيون فى مصر والشام يحظون بما ألفوه دائماً من رحابة صدر الإسلام والمسلمين ، كما عقد الصلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، كما وفد الحجاج كعادتهم يزورون الأماكن المقدسة فى أمن وسلام [4] .

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٩ ، ١٩٤ ، ٦٤٣ — ٦٤٩ .

(٢) توماس أرنولد : الدعوة الى الإسلام ص ٣١٠ .

(3) Vasiliev : Byzantine Empire, I, p. 393.

(4) Setton : op cit., vol. I, p 74.

وإذا كان دعاة الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر قد دأبوا على الدعاية لحركتهم فى غرب أوربا عن طريق المناداة بأن أحوال المسيحيين فى آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة ، فإن هناك أكثر من مؤرخ أوروبى مسيحى منصف قرروا فى صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئاً من أوضاع المسيحيين فى الشرق ، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالا من إخوانهم الذين عاشوا فى قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها ؛ « وأن ما اعترى المسيحيين فى الشام وآسيا الصغرى من متاعب فى ذلك العصر ، إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين لأنه لا يوجد أى دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم » [1] .

ولكن هل معنى كل ذلك أن الباعث الدينى ليس له أى أثر فى تحريك الحروب الصليبية ؟ وهل يفهم من كلامى السابق أن العامل الدينى يصح إهماله تماما عند الكلام عن القوى التى وجهت الحركة الصليبية منذ القرن الحادى عشر ؟ الواقع أننى لم أقصد ذلك مطلقا وإنما أردت أن أصحح اعتبارين طالما وقع فيهما كثيرون عند معالجة موضوع الحركة الصليبية . أما الإعتبار الأول فهو أنه ليس من الصواب إطلاقا القول بأن هناك اضطهاد فريد فى نوعه حل بالمسيحيين فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى فى القرن الحادى عشر مما يصح أن يكون سببا لاستثارة الغرب الأوربى . وإذا كان بعض دعاة الحملة الصليبية الأولى — وعلى رأسهم البابا أوربان الثانى نفسه — قد استغلوا فكرة الاضطهاد هذه للاستهلاك المحلى فى الدعاية لمشروعهم فى غرب أوربا ؛ فإن عامة الناس فى مختلف بلدان الغرب الأوربى لم يكن يهمهم كثيراً أمر إخوانهم المسيحيين الشرقيين فى البلدان الإسلامية . والاعتبار الثانى هو أنه لا صحة إطلاقا للفكرة الخيالية

---

(1) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, vol. 1, p. 391.

التى ظلت سائدة أمدا طويلا والتى صورت الصليبيين الذين أخذوا يفدون من غرب أوربا إلى الشرق الأدنى منذ نهاية القرن الحادى عشر فى صورة المسيحيين المخلصين الذين جرفهم شعور التقوى والورع إلى هجره الوطن والأهل والأحباب فى سبيل تحقيق رسالة دينية سامية ، وأنهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من أجل غرض واحد هو خدمة الصليب والاستشهاد فى سبيله .

حقيقة إن العصور الوسطى فى الغرب الأوربى عرفت فى التاريخ باسم « عصور الإيمان » ، وحقيقة إننا نسمع الكثير عن سلطان الكنيسة ورجالها على قلوب الناس فى غرب أوربا فى تلك العصور ؛ وحقيقة إن التاريخ يثبت أن الكنيسة الغربية ممثلة فى شخص زعيمها البابا هى التى دعت للحرب الصليبية سنة ١٠٩٥ وأن هذه الدعوة ترتب عليها ما حدث من خروج الناس أفواجا فى شكل حملات صليبية ضخمة إلى الشرق الأدنى . ولكن فكرة شن حرب دينية على المسلمين واستخلاص الأراضى المقدسة منهم لم تكن الباعث الأول الذى دفع البابوية إلى القيام بتلك الدعوة ، ودفع جموع الناس — من أمراء وعامة — إلى تلبية نداء البابا فى سهولة ويسر والخروج أفواجا من غرب أوربا قاصدين الشرق الأدنى .

أما عن البابوية فكانت قد بلغت فى القرن الحادى عشر درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ ، مما فتح أمامها آفاقا واسعة لتجعل سلطاتها عالمية ، بمعنى أن يكون البابا — بوصفه خليفة المسيح والقديس بطرس — الزعيم الروحى لجميع المسيحيين فى الشرق والغرب[1] . والمعروف أن البابوية ظلت دائما ترغب فى إخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لزعامتها ، ولكن النزاع الذى استحكمت حلقاته بين الأباطرة البيزنطيين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى جعل من

(1) Vasiliev : op. cit., II, p. 397.

المتعذر حتى ذلك الوقت القيام بمحاولة جدية لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية وإزالة ما بينهما من شقاق[١] وأخيرا جاء استنجاد الأباطرة البيزنطيين بالغرب الأوربى ضد السلاجقه فى القرن الحادى عشر ليتيح فرصة ذهبية للبابا للظهور فى صورة الزعيم الأوحد للشعب المسيحى كافة فى صراعه ضد المسلمين ، ولمحاولة إدماج الكنيسة الشرقية فى الكنيسة الغربية تحت زعامة خليفة القديس بطرس ، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضى المقدسة فى فلسطين[٢] .

هذا عن البابوية ، أما عن جمهرة الصليبيين الذين استجابوا لنداء البابوية وخرجوا قاصدين الشرق الأدنى ، فلم يكن الهدف الدينى هو الباعث الرئيسى الذى دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة فى الحركة الصليبية . وقد اعترف كثير من المؤرخين الأوربيين الذين عالجوا هذا الموضوع بأن غالبية الصليبيين الغربيين الذين أسهموا فى الحركة الصليبية تركوا بلادهم إما بدافع الفضول أو لتحقيق أطماع سياسية ، وإما للخلاص من حياة الفقر التى كانوا يحيونها فى بلادهم فى ظل النظام الإقطاعى ، وإما للهرب من ديونهم الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها ، وإما فرارا من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم ، وإما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية فى بلاد الشرق[٣] . وأى وازع دينى كان عند ألوف الصليبيين الذين شاركوا فى الحملة الصليبية الرابعة والذين اتجهوا نحو القسطنطينية — وهو البلد المسيحى الكبير — لينهبوا كنائسها ، ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب وهم جميعاً إخوانهم فى الدين ؟ ؟ وهكذا يبدو أنه إذا أردنا أن

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٥٢ — ٥٠٦ ، ٤٣٦ — ٤٣٧ .
(2) Ostrogorsky : Hist. of Byzantine State, p. 320.
(3) Thompson : op. cit., vol. 1, p. 302.

نعرف الأسباب الحقيقية للحركة الصليبية ، فعلينا بالبحث فى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر .

الباعث الاقتصادى:

أثبتت الأبحاث الحديثة قوة العامل الاقتصادى وأهميته فى تحريك كثير من الهجرات والحروب الهامة فى التاريخ . ونحن مع اعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية ، نميل إلى تأكيد أهمية العامل الاقتصادى بالذات فى تلك الحركة .

ذلك أن جميع الوثائق المعاصرة تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية فى غرب أوربا — وبخاصة فرنسا — فى أواخر القرن الحادى عشر . فالمؤرخ المعاصر جيوبرت نوجنت Guibert Nogent يؤكد أن فرنسا بالذات كانت تعانى مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، فندر وجود الغلال وارتفعت أثمانها ارتفاعا فاحشا مما ترتب عليه حدوث أزمة فى الخبز . وفى ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نفسر لماذا كانت نسبة الصليبيين الفرنسيين المشتركين فى الحملة الصليبية الأولى أكبر من الوافدين من أى بلد آخر فى غرب أوربا .

ومهما يقال من أن هذه الأزمة كانت مفتعلة ، افتعلها التجار المستغلون — وجلهم من اليهود — فالذى يهمنا هو أنه كانت هناك أزمة اقتصادية فعلا فى الغرب الأوربى عند الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، وأن هذه الأزمة ألجأت الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش[1] . وزاد من سوء الأحوال الاقتصادية فى الغرب الأوربى فى ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين ، وهى الحروب التى لم تنجح الكنيسة أو الملوك فى وقفها ، مما أضر بالتجارة وطرقها

(1) Thompson : op. cit., I, p. 392.

والزراعة وحقولها أبلغ الضرر . وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام أولئك الجوعى فى غرب أوربا بابا جديداً للهجرة ، وطريقا للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة التى عاشوا فيها داخل أوطانهم .

ولم يكن عجبا أن ضمت الحملة الصليبية الأولى جموعا غفيرة من المعدمين والفقراء والمساكين وطريدى القانون . وجميعهم كانوا يفكرون فى بطونهم قبل أن يفكروا فى دينهم ، بدليل ما أتوه طوال طريقهم إلى القسطنطينية من أعمال العدوان والسلب والنهب ضد الشعوب المسيحية التى مروا بأراضيها ، مما يتعارض مع أى وازع دينى .

ثم إن الباحث فى تاريخ الحركة الصليبية يلحظ حماسة منقطعة النظير من جانب المدن التجارية — فى إيطاليا وغير إيطاليا من الغرب الأوربى — للمساهمة فى تلك الحركة ، سواء بعرض خدماتها لنقل الصليبيين عن طريق البحر إلى الشرق ، أو فى نقل المؤن والأسلحة وكافة الإمدادات إلى الصليبيين بالشام ، أو مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على الموانى البحرية ببلاد الشام وتقديم المعونة البحرية للدفاع عن هذه الموانى ضد هجمات الأساطيل الإسلامية . وهنا أيضاً نستطيع أن نقرر أن جمهوريات إيطاليا البحرية لم تكن مدفوعة إلى تقديم جميع تلك المساعدات للصليبيين بوازع دينى ، وإنما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة ، ورأت فى الحروب الصليبية فرصة طيبة يجب اقتناصها لتحقيق أكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً[1] . وسنرى فى صفحات هذا الكتاب أن البندقية لم تتورع عن تضليل حملة صليبية كبرى ، فوجهتها نحو غزو القسطنطينية — وهو البلد المسيحى الآمن — بدلا من أن تتركها

(1) Heyd : Hist du Commerce, I, pp. 131 — 133.

فى طريقها الطبيعى المرسوم لها ضد المسلمين . وكان ذلك عندما رأت البندقية أن مصالحها المادية الصرفة تتطلب مهاجمة القسطنطينية وليس غزو مصر .

والواقع إن الصليبيين بالشام كانوا لا يمكنهم الاستغناء عن مساعدة أساطيل « الثلاثة الكبار » — البندقية وجنوا و بيزا — حيث أن هذه الأساطيل قامت بدور فعال فى ربط بلاد الشام الصليبية بالغرب الأوربى . وإذا كانت هذه الجمهوريات الإيطالية قد قدمت المساعدة المطلوبة للصليبيين ، فإنها لم تفعل ذلك إكراما للكنيسة وابتغاء لمرضاة الله ، وإنما مقابل معاهدات عقدتها مع القوى الصليبية بالشام وحصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية هامة . ففى معظم موانى الشام ومدنه الكبرى التى استولى عليها الصليبيون تمتعت المدن الإيطالية التجارية باعفاءات خاصة ، فضلا عن شارع وسوق وفندق وحمام ومخبز خاص بتجار المدينة الإيطالية التى قدمت خدماتها لحاكم الإمارة الصليبية التى يتبعها الميناء . ولم تلبث مرسليا بجنوب فرنسا أن حذت حذو المدن الإيطالية فحصلت على امتيازات كبيرة لتجارها فى عديد المدن الصليبية بالشام ، إذ منح الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس تجـار مرسليا حياً خاصا بهم فى مدينة القدس ذاتها سنة ١١١٧ ، ثم أعفاهم الملك فولك من الضرائب بعد ذلك ، حتى لجأ الملك بلدوين الثالث سنة ١١٥٢ إلى منحهم امتيازات وإعفاءات من الضرائب فى كافة الموانى الصليبية فى فلسطين .

وهكذا اصطبغت الحركة الصليبية من أول أمرها بصبغة اقتصادية استغلالية واضحة . فكثير من المدن والجماعات والأفراد الذين أيدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا إلى الشرق ، لم يفعلوا ذلك لخدمة الصليب وحرب المسلمين ، وإنما جريا وراء المال وجمع الثروات وإقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم فى قلب الوطن العربى ، بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها والحصول على أكبر قدر ممكن من

الثروة . حقيقة إن الاستعمار بمعناه الحديث لم تتضح معالمه إلا بعد الانقلاب الصناعى فى القرن الثامن عشر ، ولكن ليس معنى ذلك أن العالم لم يعرف الاستعمار منذ أيام الفينيقيين واليونانيين القدامى . وفى العصور الوسطى كانت الحروب الصليبية «أول تجربة فى الاستعمار الغربى قامت بها الأمم الأوربية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق » ؛ وذلك على قول أحد المؤرخين المحدثين[1] .

وليس أدل على سيطرة النزعة الاستعمارية الاستغلالية على عقول كثير ممن أسهموا فى الحركة الصليبية مما نشأ من منازعات ومخاصمات ، بل حروب أهلية بين الصليبيين بعضهم و بعض فى بلاد الشام. وقد استمرت هذه الحروب و بخاصة بين الثلاثة الكبار ـ البندقية وجنوا و بيزا — فى أشد الأوقات حرجا بالنسبة للصليبيين ؛ أى فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر عندما أخذت البقايا الصليبية بالشام تتساقط فى أيدى المسلمين واحدة بعد أخرى .

وعبثا ذهبت صيحات العقلاء من البابوات ورجال الدين وملوك قبرس ليوحد الصليبيون صفوفهم أمام الخطر الذى يوشك أن يعصف بهم جميعاً ؛ فقد كانت المنافسات التجارية والخصومات المادية بين الصليبيين الاستعماريين بعضهم و بعض أعمق جذوراً وأقوى أثرا وأكثر نفعا من شعور الولاء للدين والكنيسة .

الباعث الاجتماعى :

تألف المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى من ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين — من الكنسيين والديريين — ، وطبقة المحاربين — من النبلاء

(1) Thompson : Economic and Social Hist., I, p. 397.

والفرسان — ، وطبقة الفلاحين — من الأقنان ورقيق الأرض . وكانت الطبقتان الأولتان أقلية تمثل فى مجموعها الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية ، فى حين ظلت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية المغلوبة على أمرها ، والتى كان على أفرادها أن يعملوا و يشقوا ليسدوا حاجة الطبقتين الأولتين[1] .

والواقع إن آلاف الفلاحين عاشوا فى غرب أوربا عيشة منحطة فى ظل نظام الضيعة ، حيث شيدوا لأنفسهم أكواخ قذرة من جذوع الأشجار وفروعها غطيت سقوفها وأرضيتها بالطين والقش، دون أن تكون لها نوافذ أو بداخلها أثاث عدا صندوق صغير من الخشب و بعض الأدوات الفخارية والمعدنية البسيطة[2] . وكان معظم أولئك الفلاحين من العبيد والأقنان الذين ارتبطوا ارتباطا وراثيا بالأرض التى يعملون عليها ، وقضوا حياتهم محرومين من أبسط مبادىء الحرية الشخصية ، فكل ما يجمعه القن يعتبر ملكا خاصا للسيد الإقطاعى لأن القن محروم ، حتى من الملكية الشخصية[3] .

ثم إن أولئك الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات ، فكان عليهم أن يقدموا خدمات معينة للسيد الإقطاعى مثل فلاحة أرضه الخاصة، فضلا عن تسخيرهم فى أعمال شاقة مثل إنشاء طريق أوحفر خندق أو إصلاح جسر. كذلك كان على الفلاحين دفع مقررات معينة مثل ضريبة الرأس التى يتعين على كل قن دفعها سنويا رمزا لعبوديته ، هذا عدا الضرائب المفروضة

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٦٣ .
(2) Boissonade : Life and Work in Med. Europe, p. 85.
(٣) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٧٧—٧٩ .

على ماشيته وما تنتجه أرضه من خضروات[1]. فإذا أضفنا إلى ذلك الاحتكارات العديدة التى ألزم الفلاحون بقبولها ، أدركنا مدى الهوان والذلة التى عاشت فيها غالبية الشعب الأوربى فى القرن الحادى عشر . فالسيد الإقطاعى صاحب الضيعة هو الذى يمتلك طاحونة وفرنا ومعصرة بل أحيانا البئر الوحيد فى الضيعة . وفى هذه الحالة يصبح كل قن ملزما باحضار غلته إلى طاحونة السيد لطحنها، ويحمل خبزه إلى فرن السيد لخبزه ، وكرومه وزيتونه وتفاحه إلى معصرة السيد لعصرها ... كل ذلك مقابل أجور معينة يقدمها الأقنان والفلاحون لسيدهم الإقطاعى وهم صاغرون . فإذا امتلك فلاح طاحونة يدوية أو غير ذلك من الأجهزة التى من حق السيد الإقطاعى وحده أن يحتكرها ، صار ذلك جرما خطيرا يحاكم عليه[2] .

وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس فى غرب أوربا يحيون حياة شاقة مليئة بالذل والهوان . وكان ذلك فى الوقت الذى علت الدعوة للحرب الصليبية ، فوجدت تلك الألوف من البؤساء فى الغرب الأوربى فرصتها قد حانت للتخلص مما كانت ترسف فيه من ذل العيش ونكد الدنيا . ومهما يكن فى الدعوة الجديدة من أخطار ، فإن أخطارها هانت أمام الفاقة والهوان والذلة التى كتب على جمهرة العوام أن يعيشوا فيها فى غرب أوربا دون أمل فى الخلاص . فإذا ماتوا فى تلك الحرب الصليبية الجديدة فإن الموت كان أحب إليهم من حياة الجوع والذل والعبودية . وإن وصلوا إلى الأراضى المقدسة سالمين فإن حياتهم الجديدة لن تكون بأى حال أسوأ من حياتهم التى يحيونها فعلا فى بلادهم الأصلية .

(1) Heaton : Economic Hist. of Europe, p. 95.
(2) Painter : Med. Society, p. 51.

ومن هذا يبدو جليا أنه إذا كانت ألوف العامة من أهل غرب أوربا قد أسهموا فى الحركة الصليبية ، فإنما دفعتهم إلى ذلك عوامل اجتماعية واقتصادية هامة ، فوجدوا فى تلك الحركة منفذا إلى حياة أفضل . ونستطيع أن نقرر أنه لو تيسرت لتلك الجموع فى بلادهم الأصلية حياة حرة وقدراً مناسباً من كرامة العيش ، لما غامروا بترك أوطانهم جريا وراء وعود خيالية أسرفت الكنيسة فى تقديمها .

الباعث السياسى :

ولكن إذا كانت الفاقة والحرمان والذل والهوان هى التى دفعت الغالبية العظمى من الصليبيين إلى الترحيب بالدعوة الجديدة والمشاركة فى الحركة الصليبية بحثاً عن حياة أفضل ، فما الدافع الذى دفع عدداً لا بأس به من ملوك أوربا وأمرائها وفرسانها إلى المشاركة فى تلك الحركة ؟.

أما عن ملوك الغرب الذين شاركوا فى الحروب الصليبيةمثل فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس وفردريك الثانى ، فيثبت التاريخ أن معظمهم لم يخرج من بلاده لحرب المسلمين إلا تحت ضغط البابوية وإلحاحها ، بل تهديدها . وربما كان هذا الحكم بعيدا عن الصحة فى حالة واحدة هى حالة لويس التاسع ملك فرنسا ، الذى اشتهر بورعه وتقواه وتدينه حتى لقبه معاصروه بالقديس ، والذى أراد أن يعبر عن حماسته الدينية تعبيرا عمليا بالمشاركة فى الحركة الصليبية مشاركة فعالة . أما من عداه فإن تاريخ البابوية وتاريخ غرب أوربا وتاريخ الحركة الصليبية يشهد على السفارات العديدة التى دأب البابوات على إرسالها بين حين وآخر إلى ملوك أوربا يلحون عليهم فى الخروج على رأس جيوشهم إلى الشرق لمحاربة المسلمين .

وإن من يدرس تاريخ الغرب الأوربى فى تلك الفترة من العصور الوسطى يعرف جيدا مدى قوة البابوية وعظم سلطانها ، وأن ملكا من ملوك الغرب كان لا يستطيع أن يعصى لها أمرا أو يرد لها طلبا ، وإلا تعرض للحرمان والطرد من الكنيسة ورحمتها ، فلا يستطيع الاحتفاظ بعرشه أو بولاء شعبه . وأبرز مثل لدينا الامبراطور فردريك الثانى الذى أخذ البابوات واحد بعد آخر يلحون عليه فى الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين . ولم يجد الإمبراطور دافعاً يدفعه للقيام بتلك الخطوة فظل يماطل مرة بعد أخرى والبابوية تتوعد وتهدد حتى أصدرت ضده قرار الحرمان ؛ وعندئذ خرج الإمبراطور – مكرها لا بطل – على رأس فئة قليلة من رجاله قاصدا الشام ، وبادر بمجرد وصوله إلى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبى ليشرح له موقفه وأنه « ماله غرض فى القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج! »[1] .

هذا عن الملوك ، أما الأمراء الذين أسهموا فى الحركة الصليبية ، فمعظمهم كان يجرى وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها قبل وصولهم إلى الشام وبعد استقرارهم فيها . والمعروف أن النظام الإقطاعى ارتبط دائماً بالأرض ، وبقدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية فى المجتمع . وفى ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التى يمكن أن تواجه الأمير أو الفارس هى عدم وجود إقطاع أو أرض له ، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ . وقد أدت طبيعة النظام الإقطاعى فى الغرب الأوربى إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض ، لأنه من القواعد الأساسية فى هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذى يرث الإقطاع ، فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه[2] . ومن الواضح أن هذا المبدأ يعنى بقاء

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٤٩ .

بقية الأبناء بدون أرض ، وهو وضع ممقوت فى المجتمع الإقطاعى ؛ الأمر الذى جعل الفرسان والأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع أو الالتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع . وكان أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح بابا جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان المحرومين من الأرض فى غرب أوربا ، فلبوا نداء البابوية وأسرعوا إلى المساهمة فى تلك الحركة لعلهم ينجحون فى تأسيس إمارات لأنفسهم فى الشرق تعوضهم عما فاتهم فى الغرب . حتى أولئك الأمراء الذين كانت لهم إقطاعاتهم وأراضيهم فى بلادهم الأصلية ، وجدوا فى المشاركة فى الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم .

ولا أدل على تغلب النزعة السياسية عند الأمراء الغربيين الذين أسهموا فى الحركة الصليبية من الخلافات التى كثيراً ما دبت بينهم و بين بعض ، مما أنزل بالغ الضرر بالصالح الصليبى . وسنرى بين صفحات هذا الكتاب كيف أن أمراء الحملة الصليبية الأولى أخذوا يقسمون الغنيمة وهم فى طريقهم إلى الشام ، أى قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلا ، وكيف استحكم النزاع فيما بينهم أمام أنطاكية من أجل رغبة كل منهم فى الفوز بها ، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً فى الطريق قنع بذلك الكسب وتخلى عن مشاركة إخوانه الصليبيين فى الزحف على بيت المقدس ، وهو الهدف الأساسى للحملة . كذلك سنرى أن الصليبيين بعد أن استقروا فى بلاد الشام كثيراً ما دب الخلاف فيما بينهم حول حكم إمارة أو الفوز بمدينة ، وعبثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض بعض تلك المشاكل وتذكر الأمراء الصليبيين بالشام أن المسلمين يحيطون بهم ، وأن الواجب يستدعى تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم . ولكن تلك الصيحات ذهبت مع الريح لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسياً ، ولم يكن يهمهم كثيراً رضاء البابا أو سخطه . بل إن بعض الأمراء الصليبيين بالشام لم يحجموا - كما سنرى - عن

محالفة القوى الإسلامية المجاورة ضد إخوانهم الصليبيين ، مما يدل على أن الوازع الدينى كثيراً ما ضعف عند أولئك الأمراء أمام مصالحهم السياسية .

يضاف إلى ذلك كله عامل آخر شجع كثيراً من فرسان الغرب الأوربى على المشاركة فى الحركة الصليبية . ذلك أنه من المعروف أن النظام الإقطاعى ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالفروسية والحرب واظهار الشجاعة ، وأن حياة السلم كانت تعنى البطالة بالنسبة لمحاربين محترفين لا عمل لهم إلا القتال والحرب . وعندما كثرت الحروب الإقطاعية وهددت المجتمع الغربى تهديداً خطيراً ، تدخلت البابوية ونادت بما يعرف باسم « هدنة الله » وهى أوقات معلومة يحرم فيها القتال . وعندئذ بحث الفرسان الغربيون عن ميادين جديدة يستعرضون فيها عضلاتهم ، فابتكروا المبارزة . ولكن المبارزات بين الفرسان كانت تتم بطريقة تمثيلية استعراضية استهدفت إظهار أكبر قسط من المهارة بأقل قدر من الإصابات وإراقة الدماء[1] . لذلك لم يقنع الفرسان بتلك الوسيلة ، حتى إذا ما ظهرت الدعوة الصليبية فتحت أمامهم باباً واسعاً لإظهار شجاعتهم والتعبير عن مواهبهم الحربية ، بغض النظر عما فى المشاركة فى تلك الحركة الجديدة من سعى مشكور وذنب مغفور .

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٦٨ .

الفصل الثالث

الأتراك وإحياء قوة المسلمين

ظهور السلاجقة — طغرل بك :

فى الوقت الذى تنازعت السيادة على المسلمين فى الشرق الأدنى خلافتان ، إحداهما فاطمية شيعية والأخرى عباسية سنية ، وفى الوقت الذى ساءت أحوال هاتين الخلافتين ، الأولى بسبب سياسية الخليفة الحاكم بأمر الله وازدياد نفوذ الوزراء العظام ، والثانية بسبب تفاقم سلطان بنى بويه الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين سيطرة تامة ؛ فى ذلك الوقت ظهرت قوة فتية على مسرح الشرق الأدنى — هى قوة الأتراك — لتبث فى العالم الإسلامى روحا جديدة ، مما أدى إلى تغيير ميزان القوى مرة أخرى بين المسلمين والبيزنطيين فى الشرق الأدنى[1] .

والملحوظ أن بنى بويه اعتراهم الضعف منذ أواخر القرن العاشر للميلاد بسبب المنازعات بين أمرائهم . وكان ذلك عندما ظهرت قوة أخرى فى إيران — هى قوة الغزنويين الأتراك — الذين استطاعوا أن يقضوا على آخر الأمراء السامانيين سنة ٩٩٩ . ولم يلبث أن تمكن محمود الغزنوى (٩٩٨ — ١٠٣٠) من السيطرة على إقليم خراسان بأكمله ، كما انتزع من البويهيين جزءاً من عراق العجم ، مما يشير إلى ازدياد نفوذ العنصر التركى فى العالم الإسلامى[2] . وبينما واصل الغزنويون فتوحاتهم فى شرق إيران والهند ، إذا بقبيلة أخرى — هى

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p 302.
(2) Setton : A Hist. of the Crusades, vol. 1, p. p. 139—140.

قبيلة السلاجقة — تخرج من منطقة الإستبس المحيطة ببحر آرال لتوغل فى إقليم خراسان .

والسلاجقة قوم من الأتراك الغز ، نسبوا إلى جدهم سلجوق بن تقاق وعاشوا أول أمرهم فى إقليم تركستان حتى نزحوا إلى بلاد الإسلام على حدود نهر سيحون ، وهناك اعتنقوا الديانة الإسلامية . وبعد وفاة سلجوق رحل السلاجقة إلى إقليم بخارى حيث ظلوا يتبعون الغزنويين تبعية غامضة ، حتى ثاروا عليهم فى نهاية الأمر ، واستطاع زعيمهم طغرل بك الاستيلاء على نيسابور عاصمة خراسان سنة ١٠٣٨ (٤٢٨هـ) فى الوقت الذى كان الغزنويون مشغولين عن تلك الأحداث بفتوحاتهم الجديدة فى الهند[1] . وأخيراً تنبه السلطان مسعود الغزنوى إلى خطر السلاجقة ، فحاول أن يقضى على ذلك الخطر ولكن بعد فوات الأوان ، إذ أنزل به طغرل بك الهزيمة فى مايو سنة ١٠٤٠ وغنم السلاجقة « من العسكر المسعودى ما لا يدخل تحت الاحصاء » ؛ وبذلك تمت سيطرة السلاجقة على خراسان واقتصر نفوذ الغزنويين على أفغانستان[2] . وعندما أدرك مسعود الغزنوى أنه من الصعب اخضاع السلاجقة عن طريق القوة ، حاول استمالتهم ودفع خطرهم بالحيلة والسياسة ، فكتب إليهم يعدهم «بالمواعيد الجميلة والخلع النفيسة ، وأمرهم بالرحيل إلى آمل الشط — وهى مدينة على جيحون — ونهاهم عن الشر والفساد» ولكن السلاجقة استخفوا بالرسول ولم يطمئنوا إلى نية السلطان مسعود ووعوده وقالوا « نحن لا نطيعه ولا نثق إليه»[3] .

وفى ذلك الوقت اختار بقية زعماء السلاجقة من أسرة طغرل بك أن يعمل كل منهم لحسابه الخاص ، فأخذو يتوسعون على حساب المسلمين والبيزنطيين

(1) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .
(2) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. p 303—304.
(3) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

جميعا ، ونجحوا فعلا فى بسط سيطرتهم على أجزاء واسعة من فارس وشمال العراق وأرمينيا وآسيا الصغرى . أما طغرل بك نفسه فقد نظم دولته الجديدة وأقر النظام فيها ، كما استولى على الرى سنة ١٠٤٢ — ١٠٤٣ ، وعلى أصبهان سنه ١٠٥٠ واتخذ الأخيرة حاضرة لدولته[١] . ومن ذلك المركز الجديد ، أخذ طغرل بك يتدخل فى شئون الخلافة العباسية .

والواقع إن الخلافة العباسية كانت تمر عندئذ بمحنة قاسية بعد أن ظلت قرابة قرن — أى منذ سنة ٩٤٥ — ترزح تحت وصاية بنى بويه وسيطرتهم . ذلك أن بنى بويه عملوا على الحد من نفوذ الخليفة العباسى فى بغداد ، فضلا عن البلاد الأخرى التابعة للدولة العباسية . ثم إن اعتناق بنى بويه للمذهب الشيعى وتعصبهم لذلك المذهب وإرغامهم السنيين على الاشتراك فى أعياد الشيعة ، كل ذلك أدى إلى انتشار الفتن المذهبية فى العراق[٢] . وكان أمير الأمراء من بنى بويه فى أواسط القرن الحادى عشر هو الملك الرحيم أبو النصر خسرو فيروز (١٠٤٨ — ١٠٥٥) الذى ترك مقاليد الأمور لفئة من أعوانه ، ظهر منهم رجل مغامر اسمه المظفر أبو الحرث أرسلان المعروف بالبساسيرى[٣] . ولم يتورع البساسيرى هذا عن تدبير مؤامرة للقضاء على الخلافة العباسية وإدخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية ، بل إنه راسل فعلا الخليفة المستنصر الفاطمى فى هذا الشأن[٤] . وإزاء ذلك الخطر لم يسع الخليفة القائم بأمر الله العباسى سوى أن يستنجد بالسلاجقة السنيين لمساعدته فى إنقاذ الخلافة العباسية . وفى الوقت الذى قصد البساسيرى

---

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٣٤ هـ ، سنة ٤٤٢ هـ .

(٢) يروى ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٤٠ هـ « فى هذه السنة فى المحرم زادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم من السنة ، وكان ابتداؤها أواخر سنة أربع وأربعين ، فلما كان الآن عظم الشر واطرحت المراقبة للسلطان واختلط بالفريقين طوايف من الاتراك »

(٣) وصفه ابن القلانسى (ص ٨٧) بأنه « واحد من الغلمان الأتراك عظم أمره واستفحل شأنه ... واستولى على العباد والبلاد »

(٤) جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص ٩٨ — ١٠٠ .

دار الخلافة فى بغداد « ونهبها وأحرقها ونقض أبنيتها واستولى على كل مافيها » سار طغرل بك إلى بغداد سنة ١٠٥٥ ليقضى على البساسيرى ويقتله . وهكذا حل السلاجقة محل البويهيين فى الوصاية على الخلافة العباسية « وتقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرل بك بجوامع بغداد ، فخطب له يوم الجمعة »[١] .

ولا شك فى أن ما قام به طغرل بك من إنقاذ الخلافة العباسية والمذهب السنى أضفى عليه مكانة خاصة فى العالم الإسلامى . هذا إلى أن طغرل بك استطاع بتلك الخطوة أن يحقق للمسلمين قدراً كبيراً من الوحدة هم أحوج ما يكونوا إليها عندئذ ؛ فصارت إيران والعراق تؤلف وحدة كبيرة دانت بالزعامة الروحية للخليفة العباسى و بالزعامة الدنيوية للسلطان السلجوقى[٢] . أما طغرل بك نفسه فقد خلع عليه الخليفة العباسى وأضفى عليه ألقاب التشريف ، كما زوجه الخليفة من ابنته[٣] .

وهكذا تبدل الموقف فى العالم الإسلامى عند وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣ ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٤٧ هـ .

(2) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 304.

(٣) يلاحظ أنه إذا كان السلاجقة قد ظلوا فى ذلك الدور الأول من تاريخهم قوة واحدة كبرى ، الا أنهم لم يلبثوا أن انقسموا داخل هذا الإطار الى خمسة بيوت : —

١ — بيت طغرل بك وتسمى دولته دولة السلاجقة الكبرى ، وقد ملكوا خراسان والرى والعراق العربى والجزيرة وفارس والأهواز ، واستمرت دولتهم من سنة ١٠٣٩ (٤٢٩ هـ) حتى سنه ١١٢٧ (٥٢٢ هـ) عندما سقطت على يد الخوارزمية .

٢ — بيت سلاجقة كرمان ، وهم عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن ساجوق ، وهو أخو ألب أرسلان . واستمرت دولتهم من سنه ١٠٤١ (٤٣٢ هـ) حتى سقطت على يد الغز التركمان سنة ١١٨٧ (٥٨٣ هـ) .

٣ — سلاجقه عراق العجم وكردستان ، وقد استمرت دولتهم من سنة ١١١٧ (٥١١ هـ) حتى سقطت على يد الخوارزمية سنه ١١٩٤ (٥٩٠ هـ) .

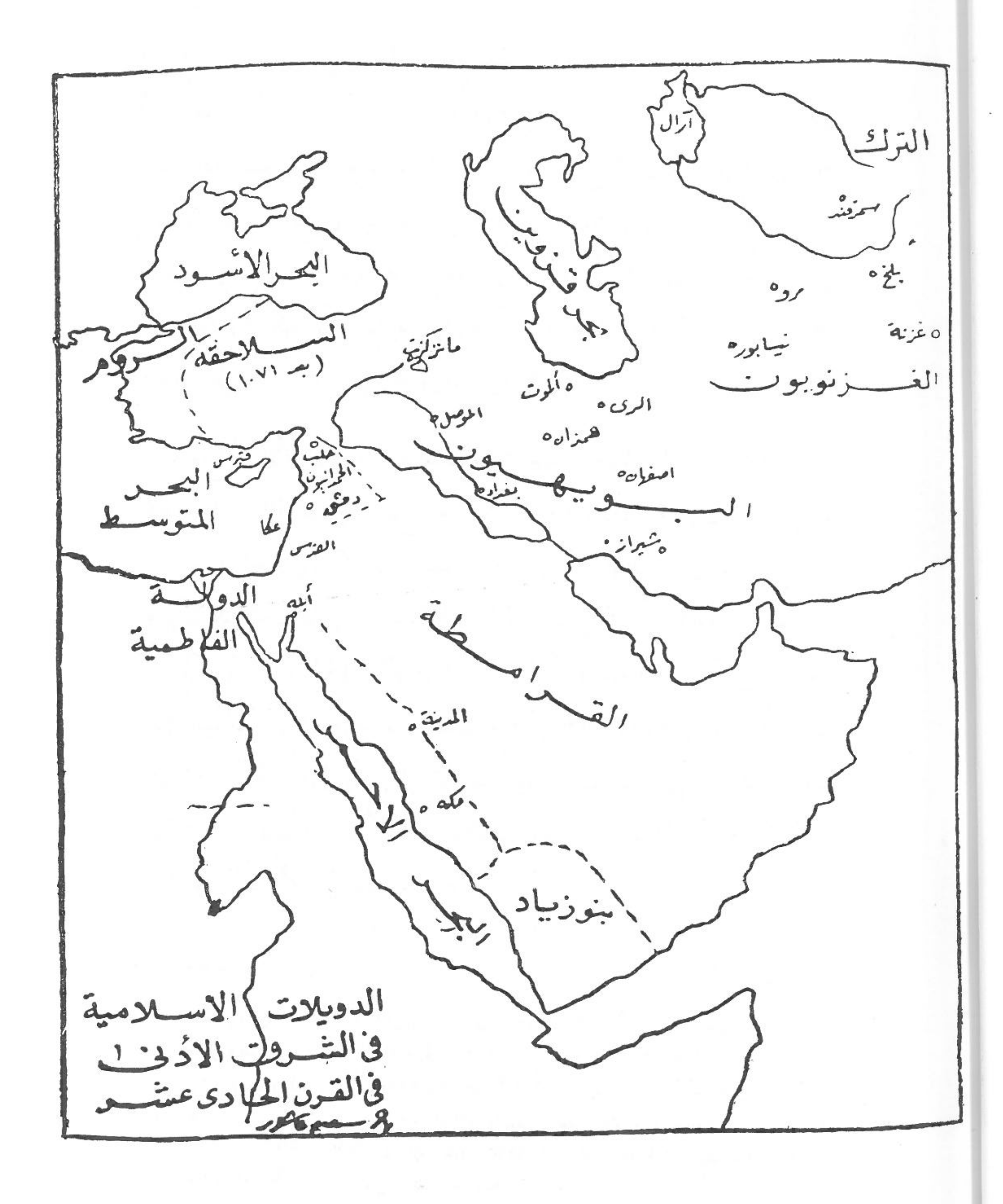
٤ — سلاجقه الشام ، وهم من بيت تتش بن ألب أرسلان ، وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٩٤ (٤٨٧ هـ) واستمرت حتى سنة ١١١٧ (٥١١ هـ) .

٥ — سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، وكانوا من بيت قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق ، وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٧٧ (٤٧٠ هـ) ولم تسقط إلا على يد الاتراك العثمانيين سنة ١٣٠٠ (٧٠٠ هـ) وبذلك كانت أطول دول السلاجقة عمراً .

فبعد أن كانت الامبراطورية البيزنطية تجد على حدودها الشرقية فى القرن العاشر دولة إسلامية منحلة سياسياً ومنقسمة على نفسها مذهبيا وحربيا ، إذا بالعنصر التركى الذى ظهر على مسرح الأحداث فى القرن الحادى عشر يبث فى الدولة الإسلامية ، روحاً جديدة وعزيمة قوية ويهيىء للمسلمين فى الشرق الأدنى قدراً من الوحدة مكنتهم من استئناف التوسع من جديد ، وبخاصة على حساب جيرانهم البيزنطيين .[1] وكان ذلك فى الوقت الذى دخلت الدولة البيزنطية دور ركود جديد بعد الصحوة التى مرت بها فى القرن العاشر ؛ مما أتاح فرصة مواتية للسلاجقة للتوسع على حساب البيزنطيين فى آسيا الصغرى توسعاً آمنا مطرداً فى القرن الحادى عشر .[2]

على أنه ينبغى ألا نعتقد أن الغزو السلجوقى لأراضى الدولة البيزنطية اتخذ طابعاً إجماعياً مفاجئاً . فمنذ النصف الأول للقرن الحادى عشر اعتادت الدولة البيزنطية أن تتعرض بين حين وآخر لغزوات قام بها بعض المغامرين من الأتراك السلاجقة ؛ أمثال ابراهيم بن ينال وقتلمش . من ذلك ما قام به ابراهيم بن ينال سنة ١٠٤٨ من غزو أرمينيا — التى كان الأباطرة البيزنطيون قد ضموها إلى دولتهم كما سبق أن أوضحنا — فأوغل السلاجقة فى الأراضى البيزنطية حتى وصلوا إلى ملازكرد وأرزن و بلغوا طرابيزون على شاطىء البحر الأسود ، وعندئذ أكثر السلاجقة من « القتل فى الروم وهزموهم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم »[3] . ومع ذلك فإنه يبدو أن طغرل بك لم يكن راغباً فى فتح باب العداء عندئذ مع القسطنطينية ، فأمر باطلاق سراح القائد البيزنطى الذى أسره ابراهيم

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 302.
(2) Vasiliev, op. cit., I, p. 355.
(3) Grousset : Hist. de l'Armenie, p. p. 595—596. &
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٠ هـ .



ابن إينال[١] ، وأرسل بعثة إلى القسطنطينية ، لعقد الصلح .[٢] وليس معنى ذلك أن الأمور هدأت سريعاً بين السلاجقة والبيزنطيين ، إذ استمر المغامرون من السلاجقة يشعلون نار الحرب مع البيزنطيين ، فاجتاح السلاجقة إقليم قرس سنة ١٠٥٢ ، بل إن طغرل بك نفسه غزا أرمينيا سنة ١٠٥٤ ودمر ما صادفه من قرى ومزارع فيما بين بحيرة فان وجورجيا وأرزن[٣] ؛ وإن كانت الجيوش البيزنطية لم تمكنه بأى حال من الاستيلاء على ما نزكرت ، فاكتفى بأن « حصرها وضيق على أهلها ، ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها » .[٤]

ومع أن الأتراك السلاجقة استطاعوا فى عهد قسطنطين التاسع (١٠٤٢ — ١٠٥٤) مد إغاراتهم إلى جميع أنحاء أرمينيا بغية السلب والنهب ، إلا أنهم لم ينجحوا فى احتلال مركز قوى يثبتون فيه . على أن الموقف تغير عندما اشتدت هجمات السلاجقة على أراضى الدولة البيزنطية بين سنتى ١٠٥٧ ، ١٠٨١ ، فاجتاحوا كبادوكيا ونهبوا ملطية (اكتوبر ١٠٥٧) .[٥] وفى سنة ١٠٥٩ أوغل السلاجقة حتى سيواس وذبحوا فريقاً من أهلها ثم عادوا محملين بالأسلاب والغنائم . ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن إغارات السلاجقة استمرت حتى وفاة طغرل بك سنة ١٠٦٣ تستهدف غالباً السلب والنهب دون أن يحاولوا الاستقرار وإقامة دولة لهم داخل أراضى الدولة البيزنطية[٦] .

---

(١) يذكر ابن الاثير أن طغرل بك أسر « قاريط ملك الأبخاز ، فبذل فى نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف فلم يجبه إلى ذلك » (حوادث سنه ٤٤٠ هـ) .

(٢) ويقول المقريزى أن ملك الروم هو الذى أرسل يطلب الهدنة من طغرلبك « وعمر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرلبك » (السلوك ج ١ ص ٢٣) .

(3) Grousset : Hist. de. l'Armenie, p. p. 596—597.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنه ٤٤٦ هـ .

(5) Setton : op. cit., I, p p. 144—147.

(6) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. XXX.

ألب أرسلان وموقعة مانزكرت :

و بوفاة طغرل بك وقيام خليفته ألب أرسلان (١٠٦٣ — ١٠٧٢) مكانه فى الحكم ، دخلت سياسة السلاجقة تجاه الدولة البيزنطية دوراً جديدا ، إذ غدت هذه السياسة تستهدف الاستيلاء على أراضى تلك الدولة وامتلاكها ، بدلا من مجرد القيام بإغارات محدودة للسلب والنهب . ففى سنة ١٠٦٥ استولى ألب أرسلان على آنى ثم على قرس ، وهما العاصمتان القديمتان لأرمينيا ، والمركزان الأساسيان لقوة البيزنطيين ونفوذهم فى الأقاليم الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى[١] و بعد أن دمر السلطان ألب أرسلان مدينة آنى اضطر إلى العودة إلى فارس ليخضع بعض أقربائه الذين ثاروا ضده . ومنذ ذلك الوقت غدا الطريق مفتوحا أمام السلاجقة إلى داخل الأناضول بعد أن استولوا على قلب أرمينيا ، فاستمروا منذئذ — دون أن يرتبطوا بخطة حربية معينة — يجتاحون القرى والضياع ، متجنبين بقدر الاستطاعة المراكز القوية المحصنة ، حتى دمروا إقليم كابادوكيا بأكمله ، ثم وصلوا إلى قيصرية فخربوها سنة ١٠٦٧ ، واعتـــدوا على كنيسة القديس باسل[٢] كل ذلك والامبراطور البيزنطى قسطنطين العاشر دوقاس (١٠٥٩ — ١٠٦٧) جامد لا يتحرك ولا يحاول إنقاذ البناء الكبير الذى شيده أسلافه فى القرن العاشر ، وبخاصة باسل الثانى .

على أنه لم يلبث أن تولى عرش الامبراطورية بعد ذلك رجل نشيط على جانب من الكفاية الحربية ، هو رومانوس الرابع (١٠٦٧ — ١٠٧١) فبدأ بإصلاح الأوضاع الداخلية فى الدولة ، ثم أعاد تنظيم الجيش البيزنطى الذى صارت الفرق الأساسية فيه تتألف من جند مرتزقة من النورمان الإيطاليين والتركمان الأسيويين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٦ هـ .

(2) Vasiliev : op. cit., I, p. 355.

فضلا عن الفرنجة الغربيين . وبذلك الجيش غير المتجانس شرع الامبراطور رومانوس الرابع فى استرداد الأناضول حتى الفرات شرقاً من جموع السلاجقة . وعلى الرغم من الظروف القاسية التى أحاطت برومانوس ومهمته ، إلا أنه نجح إلى حد كبير فى تحقيق غرضه . هذا وإن كانت خفة الأتراك السلاجقة وسرعة حركتهم لم تمكنه من تنفيذ برنامجه وفق ما كان يشتهى [1] .

وقد سلك رومانوس الرابع طريق سيواس وقيصرية للوصول إلى مرعش على الحدود بين الشام وقيليقية (سنة ١٠٦٨) . ولم تكد تنتهى تلك السنة حتى كان الامبراطور قد وصل إلى منبج « فى عسكر كثيف » على الضفة الغربية لنهر الفرات — وهناك ترك حامية فى أرتاح شرقى انطاكية [2] . ولكن جموع السلاجقة لم توقف نشاطها فى تلك الأثناء ، وإنما واصلوا إغاراتهم المدمرة حتى نهبوا عمورية فى قلب فريجيا ، وبذلك لم تعد أرمينيا تقف حاجزا بين السلاجقة وقلب آسيا الصغرى ، وصارت مسالك تلك البلاد مألوفة لهم [3] . على أنه إذا كان السلاجقة قد أوغلوا بهذه الصورة فى قلب آسيا الصغرى ، إلا أنهم حرصوا دائما على عدم الاصطدام بالجيش الامبراطورى ، حتى أنهم كثيرا ما كانوا يتركون خلفهم ما جمعوه من مغانم ومكاسب . ثم كان ان استطاع رومانوس الرابع — على الرغم من ثورة أحد زعماء النورمان المرتزقة فى قيليقية — أن يطارد السلاجقة حول قيصرية وأن يوغل فى غرب أرمينية ، وإن كان قد قلل من شأن هذه الانتصارات الهزيمة التى أنزلها السلاجقة بحاكم ملطية البيزنطى ، ثم استيلاء السلاجقة على تلك المدينة . وفى سنة ١٠٧٠ أنزل السلاجقة هزيمة

(1) Ostrogorsky : op. cit; p. 304.
(2) Grousset : Hist. de l'Armenie, p. 626. &
ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٢ هـ.
(3) Vasiliev : op. cit; I, p. 355.

أخرى بالقائد البيزنطى مانويل كومنين قرب سيواس وأسروا ذلك القائد . هذا مع ملاحظة أن الرها — فى بلاد النهرين — ظلت طوال تلك الأثناء فى قبضة البيزنطيين ، فصمدت لجميع الهجمات التى تعرضت لهـا من جانب السلاجقة [1] .

أما ألب أرسلان فكان قد انتهى فى ذلك الوقت من تصفية المشاكل الداخلية فى دولته ، فعاد من إيران وقد صمم على اتباع سياسة الجهاد الدينى العام ضد الروم وكان أن استولى ألب أرسلان على ملازكرد (مانزكرت) سنه ١٠٧٠ ، وهى تقع شمالى بحيرة فان ، وكانت من البقايا الأخيرة التى تبقت للدولة البيزنطية فى أرمينيا ، ثم اتبع ذلك باسترداد ملطية مرة أخرى من البيزنطيين . وأخيراً قصد الرها « لحصرها فلم يظفر منها بطائل » ، وعندئذ اتجه ألب أرسلان على رأس قواته ضد حلب — وأميرها وقتئذ رشيد الدولة محمود المرداسى — فخضعت حلب للسلاجقة وأعلن بنو مرداس تبعيتهم لألب أرسلان الذى « خلع على محمود (المرداسى) وأعاده إلى بلده » [2] .

وفى تلك الأثناء شرع رومانوس الرابع فى القيام بمحاولة جديدة لاسترداد أرمينيا — وكان ذلك فى ربيع سنة ١٠٧١ — فخرج على رأس جيش ضخم يتألف من مائة ألف مقاتل ، وإن كان معظم هذا الجيش مؤلفاً من مرتزقة من النورمان والتركمان ، مما جعله مفتقراً إلى حسن التنظيم . وعند وصول رومانوس الرابع إلى أرزن ارتكب خطأً كبيراً بتقسيم قواته ، فأرسل جزءاً من جيشه لمهاجمة مدينة خلاط ، فى حين سار هو على رأس بقية الجيش تجاه مانزكرت واستولى عليها فعلا . ولم يكد ألب أرسلان يسمع تلك الأخبار حتى ترك حلب قاصداً أرمينية حيث اتبع السياسة التقليدية للسلاجقة وهى تجنب الاصطدام

(1) Grousset : L'Empire de Levant, p. 165.
(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٦٣ هـ .

بالجيوش البيزنطية . وعندما أرسل ألب أرسلان إلى الإمبراطور رومانوس الرابع يطلب مهادنته ، رد الإمبراطور قائلا « لا هدنة إلا بالرى » أى أنه ينوى غزو بلاد السلاجقة حتى يصل إلى قلب دولتهم بالرى ؛ وعندئذ انزعج السلطان ألب أرسلان ، ولم يعد هناك مفر من القتال[1] .

وفى ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١ التقى ألب أرسلان بخصمه رومانوس الرابع جنوبى ملازكرد (مانزكرت) ، أو على وجه التحديد بين مانزكرت وخلاط . وفى الموقعة الحاسمة التى دارت بين الطرفين حلت الهزيمة بالبيزنطيين ووقع الإمبراطور رومانوس الرابع نفسه أسيراً « وقتل من الروم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى »[2]. ويقال إن الإمبراطور البيزنطى أبلى بلاء حسناً وحارب بشجاعة وبسالة حتى سقط فرسه قتيلا من تحته ؛ ولكن الخيانة لعبت دورها عندئذ فى إضعاف قوة البيزنطيين ، إذ انفض عنهم جنودهم المرتزقة من التركمان واستجابوا لنداء رابطة الدم فانضموا إلى جانب السلاجقة . بل إن بعض القادة البيزنطيين تخلوا عن إمبراطورهم فى تلك اللحظة الحرجة فأشاعوا خبر الهزيمة والمعركة ما زالت دائرة ، وعندئذ فر الجند تاركين الإمبراطور يقع فى قبضة أعدائه[3] .

ومهما يكن من أمر ، فإن موقعة ملازكرد (مانزكرت) كانت أكبر كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الحادى عشر . وليس هذا مجال الإفاضة فى أثر هذه الموقعة فى التاريخ البيزنطى ، وإنما تكفى الإشارة إلى أنها جاءت دليلا على نهاية دور الدولة البيزنطية فى حماية المسيحية من ضغط الإسلام، وفى حراسة الباب الشرقى لأوربا من غزو الأسيويين ، وبذلك صار على الغرب

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٣ هـ .

(٢) المرجع السابق والسنة نفسها .

(3) Vasiliev : op. cit; I, p. 356.

الأوربى أن يقوم بدوره فى هذا المضمار بدلا من اعتماده حتى ذلك الوقت على الإمبراطورية البيزنطية . وبعبارة أخرى فإن موقعة مانزكرت تبرر — فى نظر كثير من المؤرخين — ما حدث سنة ١٠٩٥ من دعوة للحرب الصليبية فى الغرب الأوربى ، على أساس أن هذه الدعوة إنما جاءت رد فعل للكارثة التى حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١[1] .

على أنه ثمة حقيقة أخرى أكسبت موقعة ملازكرد (مانزكرت) أهميتها الخطيرة فى التاريخ ، هى أن المجتمع البيزنطى كان قد بلغ عندئذ درجة من الانحلال جعلته لا يقدر خطورة تلك الكارثة . حقيقة إن انتصار السلاجقة فى ملازكرد كان لا يعنى — بالنسبة لأفقهم المحدود فى ذلك الوقت — أكثر من امتلاكهم أرمينيا ثم أنطاكية والرها . وفى ضوء هذه الحقيقة عامل السلطان ألب أرسلان أسيره الإمبراطور رومانوس الرابع معاملة طيبة ، فأحسن وفادته ثم أطلق سراحه بعد ثمانية أيام من أسره ، وأعاده إلى بلاده معززاً ؛ بعد أن جهزه بعشرة آلاف دينار يستعين بها على السفر[2] . ويبدو أن كل ما كان يطمع فيه ألب أرسلان هو أن تقف الامبراطورية البيزنطية موقف الحياد إزاء جهود السلاجقة لتوحيد الدولة الإسلامية فى الشرق الأدنى ، وأن يقوم الامبراطور برد خصوم السلطان الفارين من وجهه إلى الأراضى البيزنطية[3] . وهكذا بدلا من أن يستغل ألب أرسلان انتصاره فى محاولة احتلال بقية آسيا الصغرى ، إذا به يتجه سنة ١٠٧٢

---

(1) Ostrogorsky, op. cit; p.305.

(٢) يروى ابن العبرى أن ألب أرسلان عندما رأى الإمبراطور الأسير وبخه وقال له : « ألم أرسل لك فى المهادنة فأبيت ؟ » فقال : دعنى من التوبيخ وافعل ما تريد . فقال السلطان « ما عزمت أن تفعل بى إن أسرتنى ؟ » فقال « القبيح ! » قال له : « فما تظن أننى أفعل بك ؟ » قال « إما أن تقتلنى وإما أن تشهرنى فى بلادك ، والأخرى بعيدة وهى العفو وقبول الاموال واصطناعى نائباً عنك » . قال : « ما عزمت على غير هذا » . ففداه بألف ألف دينار وأن يطلق كل أسير عنده من المسلمين . (ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٨٥) .

(3) Setton : op. cit; , ps.I; 149, 193.

إلى الأطراف الشرقية من دولته لإخضاع بلاد ما وراء النهر (جيحون) [١] .
ولكن البيزنطيين — بانشقاقهم وانقسامهم على أنفسهم — هم الذين وسعوا الفتق وضاعفوا من خطر الهزيمة ؛ فلم يكفهم ضياع أرمينيا ، وإنما تسببوا فى فتح أبواب آسيا الصغرى على مصاريعها أمام السلاجقة . ذلك أن أخبار كارثة ملاز كرد لم تكد تصل إلى القسطنطينية حتى أعلن ميخائيل السابع امبراطورا (١٠٧١ — ١٠٧٨) . وعند إطلاق سراح رومانوس الرابع ألقى القبض عليه وسملت عيناه ، وعلى تلك الصورة توفى رومانوس بعد ما أبداه من شجاعه فى مانزكرت [٢] .

أما ألب أرسلان فقد قتل سنة ١٠٧٢ أثناء حروبه فى بلاد ماوراء النهر (جيحون) ، فخلفه ابنه ملكشاه (١٠٧٢ — ١٠٩٢) الذى ثبت دعائم دولة السلاجقة حتى اتسعت فى عهده وامتدت من حدود الصين شرقا حتى بحر مرمرة غربا . [٣] ومع ذلك فإنه من الخطأ الاعتقاد فى أن امتداد دولة السلاجقة غربا على عهد ملكشاه إنما جاء ثمرة جهوده الشخصية ، لأنه من الحقائق التى تسترعى انتباهنا أن هذا السلطان لم تطأ قدمه أرض الأناضول ، وإنما قام بمتابعة الحرب ضد البيزنطيين أحد أقارب ملكشاه وهو سليمان بن قتلمش الذى تمكن من بسط نفوذ السلاجقة على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى تقريبا [٤] . وساعد سليمان

(١) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٣ — ٤٦٥ هـ .

(2) Vasiliev : op. cit, I, p. 356.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٦٥ هـ ؟ ابن العبرى ص ١٨٦ .

(٤) حدث فى أواخر أيام السلطان طغرل بك أن انشق عليه أحد أبناء عمومته وهو قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق ، ونزح إلى المنطقة الجبلية الواقعة جنوبى بحر قزوين ومعه بعض التركمان . ولم يلبث قتلمش أن أعلن الثورة على ألب أرسلان ، واختار أبناء قتلمش — ومع كل منهم عصبية من التركمان — أن يحتموا بجبال آسيا الصغرى وفيافيها . وقد ظهر من هؤلاء الأبناء سليمان بن قتلمش الذى أخذ يعمل على التوسع فى آسيا الصغرى لحسابه الخاص ضد ملكشاه والبيزنطيين جميعاً ؛ مما يعتبر مقدمة لدولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى .
(Setton : op. cit; I. p. 150.).

ابن قتلمش فى تحقيق سياسته الحالة التى أمست عليها آسيا الصغرى من انحلال اجتماعى ونقص فى السكان ، بعد أن هجر كثيرون أرضهم ، وبخاصة فى الجهات الشرقية والشمالية من شبه الجزيرة مما ترك الطريق مفتوحا أمام السلاجقة لاحتلال الضياع الخربة التى هجرها أصحابها من البيزنطيين فى آسيا الصغرى .

توسع السلاجقة فى آسيا الصغرى :

ثم كان أن قامت حرب أهلية جديدة داخل الدولة البيزنطية ، مكنت السلاجقة من الاستيلاء على فريجيا وبيثينا حتى بحر مرمرة ، ومن الاستيلاء على ليديا وأيونيا حتى بحر إيجة . وحسبنا دليل على انحلال أوضاع الامبراطورية البيزنطية فى القرن الحادى عشر أنه تولى عرش الامبراطورية فى مدى ست وخمسين سنة (١٠٢٥ - ١٠٨١) ثلاثة عشر امبراطورا منهم امرأتان ، بمعدل أربع سنوات تقريبا لكل امبراطور ، مما يشهد على حالة عدم الاستقرار التى كانت تعيش فيها الامبراطورية فى ذلك العصر . ثم إن جميع أولئك الأباطرة — باستثناء واحد أو اثنين — كانوا على قدر ضئيل من المقدرة والكفاية ، مما أتاح فرصة طيبة للطامعين من حكام المدن والولايات للثورة والاستقلال عن الحكومة المركزية فى القسطنطينية [١] .

وقد حدث فى مستهل سنة ١٠٧٨ أن خرج نقفور (Nicephorus Botaneiates) - حاكم إقليم عمورية فى فريجيا - على الأمبراطور ميخائيل السابع دوقاس . ولم يتردد نقفور الثائر فى إعلان نفسه إمبراطورا باسم نقفور الثالث ، بل إنه استعان بالسلاجقة الذين تدفقوا على غرب آسيا الصغرى واستولوا باسم الحاكم الثائر على كثير من المدن مثل نيقية ونيقوميديا وخلقدونيا والبسفور . وكانت هذه أول مرة يحتل فيها السلاجقة نيقية بوصفهم حماة الأمبراطورية ، أى باسم الإمبراطور

(1) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. 1. f.

نقفور الثالث (١٠٧٨) .[١] وإذا كانت تلك المدن قد ظلت من الناحية الشكلية تابعة للامبراطورية البيزنطية ، إلا أن الحاميات الامبراطورية الجديدة التى قامت فيها جاءت من نوع غريب ، إذ تألفت من رجال يدينون بالإسلام ويجدون لذة فى الإغارة على القرى والضياع المجاورة للنهب والتدمير ، فضلا عن أنهم قطعوا الاتصال بين القسطنطينية وداخلية الأناضول . ولم تكد تنتهى سنة ١٠٧٨ إلا وكانت حامية نيقية السلجوقية قد رفعت راية العصيان فى وجه نقفور الثالث الذى أقامها فى تلك المدينة.[٢] وفى تلك المرة لم يعدم السلاجقة وسيلة للعثور على خائن بيزنطى جديد ـ اسمه نقفور أيضاً Nicephorus Melessenus عقد اتفاقية مع سليمان بن قتلمش ، فتعهد الأخير بمساعدة الثائر فى الاستيلاء على القسطنطينية مقابل حصول السلاجقة على نصف المدن والأقاليم التى سبق أن ساعدوا نقفور الثالث فى الاستيلاء عليها[٣] .

وكان أن أقلع نقفور الأخير من كوس سنة ١٠٨١ ومعه جموع جديدة من السلاجقة ، فاحتلوا نيقية وبيثينا بأكملها . وكان احتلال السلاجقة لتلك المراكز وغيرها نهائياً وثابتاً فى تلك المرة . ولكن إذا كان السلاجقة قد باشروا نشاطهم الحربى عندئذ بوصفهم حلفاء لنقفور الثائر ، إلا انه حدث فى السنة نفسها (سنة ١٠٨١) أن صفت الامبراطورية مشاكلها الداخلية بإعلان ألكسيوس كومنين امبراطورا أوحداً ، ودخول نقفور الثائر فى طاعة الامبراطور الجديد ، وعندئذ رفض السلاجقة وزعيمهم سليمان بن قتلمش الاعتراف بأى حق للامبراطورية البيزنطية فى المدن والأراضى التى احتلوها فى آسيا الصغرى .[٤] وقد اختار سليمان بن قتلمش السلجوقى مدينة نيقية لتكون مركزاً له، وهى المدينة التى أصبحت

(1) Vasiliev : op. cit., I, p. 357.
(2) Ostrogorsky : op. cit; p. p. 308—309.
(3) Ostrogorsky : op cit; p. 308.
(4) Vasiliev, op. cit; I, p. 357.

أول عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم فى الأناضول ، حتى حلت محلها قونيه فيما بعد (١٠٨١—١٣٠٢) . كذلك خسر البيزنطيون فى ذلك الوقت نيقوميديا التى لم يستطع الامبراطور ألكسيوس كومنين استردادها إلا بعد أن توفى سليمان سنة ١٠٨٦ . ثم كان أن احتل الأتراك السلاجقة مدينة أزمير على بحر إيجة ، فقام أميرها التركى زاخاس بانشاء اسطول مكنه من غزو الجزر الكبيرة القريبة من شاطىء آسيا الصغرى ، بل لقد هدد القسطنطينية ذاتها[١] . وفى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة استطاعت أسرة دانشمند التركمانية تأسيس إمارة قوية حول قيصريه وسيواس وأماسيا ، وكانت هذه الإمارة مستقلة عن سلطنة الروم وتابعة للسلطان ملكشاه مباشرة .[٢] ولا شك فى أن هذه الامارات العديدة التى نشأت فى ظل حركة التوسع السلجوقى ، والتى أخذت كل منها تعمل لحسابها الخاص تحت ستار سلجوقى عام ، أقول إن هذه الامارات جعلت مهمة استرداد آسيا الصغرى صعبة وشاقة أمام المسيحيين[٣] .

وهكذا كان الأتراك — عند قيام ألكسيوس كومنين امبراطوراً على الدولة البيزنطية سنة ١٠٨١ — هم السادة الحقيقيون فى آسيا الصغرى من الفرات شرقا حتى بحر مرمرة غربا[٤] . على أنه من المهم أن نلاحظ أنه لم توجد وحدة تربط أولئك الأتراك ، وإنما ظل الأمراء المحليون — مثل زاخاس أمير أزمير ، ودانشمند فى كابادوكيا — لا يعترفون بالطاعة لسليمان بن قتلمش . وبعبارة أخرى فقد ظلت آسيا الصغرى دون سلطة سياسية موحدة تسيطر عليها حتى قيام سلطنة قونية سنة ١٠٩٢ على يد قلج أرسلان الأول ، ابن سليمان[٥] .

(1) Ostrogorsky : op. cit; p. 319.
(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 170—173.
(3) Cam. Med. Hist, vol. 4, p. 331.
(4) Setton : op. cit; vol. 1, p. 213.
(5) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. p. 331—332.

أما سواحل آسيا الصغرى ـ السواحل الشمالية المطلة على البحر الأسود بما فيها طرابيزون ، والسواحل الجنوبية المطلة على البحر المتوسط حتى قيليقية ـ فقد ظلت فى قبضة البيزنطيين . ولعله مما يسترعى انتباهنا أنه بينما كانت نيقية على مشارف البسفور بيد الأتراك السلاجقة منذ سنة ١٠٨١ ، فإن هناك مدن أخرى متطرفة فى الشرق ـ فى الشام مثل أنطاكية وشرق الفرات مثل الرها ـ بقيت تابعة للدولة البيزنطية ، فقامت بها حاميات بيزنطية وزعماء من الأرمن يعترفون بالسيادة للقسطنطينية ، واستمرت أنطاكية على ذلك الوضع حتى سنة ١٠٨٥ والرها حتى سنة ١٠٨٧[1] .

ولم تلبث أن أخذت المدن الكبرى فى آسيا الصغرى تستسلم واحدة بعد أخرى للأتراك بعد أن خربت الأراضى المحيطة بها بسبب كثرة ما تعرضت له من هجمات مما جعل كثيرا من اهالي المدن والضياع البيزنطيين يهجرونها ويتركونها قاعا صفصفا ليحتلها الأتراك . ويبدو أن سليمان بن قتلمش حرر كثيرا من عبيد الأرض الذين كانوا يفلحون ضياع كبار الملاك البيزنطيين فى آسيا الصغرى ، وبذلك اكتسب ولاء تلك الفئة التى طالما قاست الكثير من الاستعباد والظلم . ولعل هذه الحقائق كلها هى التى جعلت من الصعب على آل كومنين وعلى رجال الحملات الصليبية التى أخذت تند من الغرب منذ أواخر القرن الحادى عشر استرداد أراضى الأناضول من الأتراك بعد أن انتشرت فيها قبائل السلاجقة والتركمان وضربوا فيها خيامهم حتى غدت وكأنها قطعة من مراعى القرغيز[2] .

(1) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. 12.
(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. 173.

الفصل الرابع

الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر

النورمان فى آسيا الصغرى :

استعان الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع بجموع من النورمان المرتزقة ، الوافدين من صقلية وجنوب إيطاليا ، وكان يرجو أن يتمكن بفضل هذه القوة من صد خطر السلاجقة فى آسيا الصغرى[1] . وقد برز من هؤلاء المغامرين النورمان رجل طموح اسمه رسل باليل Roussel de Bailleul أراد أن يستغل الصراع بين البيزنطيين والسلاجقة فى الشرق لتحقيق مكاسب خاصة لنفسه ، ففكر فى إنشاء دولة مستقلة فى الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً[2] . ولم يلبث رسل باليل أن أعلن عصيانه سنة ١٠٧٣ فأخضع لحسابه الخاص الجهات المحيطة بقونية وأنقره ، وأخذ يوجه هجماته ضد البيزنطيين حيناً والسلاجقة أحياناً . وهكذا وجد القائد البيزنطى اسحق كومنين ـ الذى كان مكلفاً بمحاربة السلاجقة فى آسيا الصغرى ـ نفسه بين نارين مما أوقعه أسيراً فى قبضة السلاجقة[3] .

ولم يستطع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع السكوت عن خيانة رسل ، وهو المفروض أن يكون أجيراً للامبراطورية خاضعاً لها مطيعاً لأوامرها ، فأرسل الإمبراطور حملة جديدة ضد رسل بقيادة حنا دوقاس عم الإمبراطور . ولكن هذه الحملة منيت هى الأخرى بالهزيمة جنوبى عمورية وأسر القائد البيزنطى تلك المرة

(1) Setton : op. cit, I, p. 200.
(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance I, p. 283.
(3) Schlumberger: Recits de Byzance et des Croisades, p. 82.

أيضاً[١] . ولم يلبث أن ازداد بأس رسل و بطشه بعد أن شعر بقوته وتفوقه على الإمبراطورية الهزيلة ، فشق طريقه إلى البسفور فى مواجهة القسطنطينية ؛ حيث أحرق بعض القرى البيزنطية . ثم إن رسل لجأ إلى إعلان أسيره حنا دوقاس إمبراطوراً حتى يكسب نفسه وحكمه صبغة شرعية[٢] .

وهنا خشى الامبراطور ميخائيل السابع أن يفعل النورمان بالأناضول مثلما فعلوا فى البلقان ، لذلك استنجد بالسلاجقة ضد النورمان مما ترك أبلغ الضرر بالنفوذ البيزنطى ، لما ترتب على ذلك من تثبيت أقدام الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى[٣] . ذلك أن سليمان بن قتلمش عقد اتفاقية مع الامبراطور البيزنطى سنة ١٠٧٤ تعهد فيها السلاجقة بتقـــديم المساعدة المطلوبة للأمبراطورية ، بشرط استيلائهم على الأراضى التى يفتحونها . ولم يكن مع رسل دى باليل أكثر من ثلاثة آلاف من المغامرين النورمان ، فلم يستطع الصمود فى وجه السلاجقة وحلت به الهزيمة ، وإن كان قد استطاع أن يحتفظ لنفسه برقعة ضيقة من الأرض قرب سيواس ، ومن هناك أخذ يحاول مرة أخرى ضرب البيزنطيين بالسلاجقة وتهديد موانى البحر الأسود . وصادف عندئذ وصول قائد سلجوقى جديد إلى الأناضول — هو تتش — الذى أخـــذ بدوره يساعد البيزنطيين ، فاستدرج رسل باليل حتى قبض عليه ثم سلمه للقائد البيزنطى الجديد فى آسيا الصغرى ، وهو ألـكسيوس كومنين الذى غدا امبراطورا فيما بعد[٤] .

وهكذا استسلم أتباع رسل من النورمان فى آسيا الصغرى ، وفشلت تلك المحاولة التى قام بها النورمان لإقامة دولة لهم فى الأناضول ، وذلك قبل أن يقيم

(1) Ostrogorsky : op. cit; p. 307.
(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 284.
(3) Schlumberger : Recits de Byzance. p. p. 84—85
(4) Brehier : op. cit; p. 284.

الصليبيون النورمان إمارة لهم فى أنطاكية بعشرين سنة . ومهما يكن من أمر ، فإن أهمية حركة رسل باليل ترجع إلى كونها أول محاولة قام بها بعض الغربيين لتثبيت أقدامهم فى الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية ، فضلا عما ترتب عليها من ازدياد نفوذ السلاجقة فى آسيا الصغرى[١] .

دولة الأرمن الأولى فى طوروس:

اتخذت حركة انتشار السلاجقة فى آسيا الصغرى اتجاها أفقيا من الشرق إلى الغرب ، عبر أرمينيا وكابادوكيا وفريجيا وبيثينا وأيونيا ، حتى شملت جميع الجهات الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة . أما الأقاليم الجنوبية والشرقية من آسيا الصغرى — حول طوروس وملطية ثم الرها وأنطاكية — فلم يتجه إليها السلاجقة فى أول الأمر ، مما أدى إلى عزل تلك المنطقة عن بقية بلاد الامبراطورية البيزنطية ، ثم وقوعها بين شقى الرحى فى الصراع القائم بين البيزنطيين والسلاجقة فى آسيا الصغرى . ولم تلبث هذه الأقاليم أن أصبحت مركزا لحركة إحياء أرمينية فريدة فى نوعها وذات أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الحروب الصليبية ، لأنها تفسر لنا السهولة التى استطاع بها الصليبيون بعد عشرين سنة الوصول إلى الجزيرة والشام والاستيلاء على الرها وأنطاكية[٢] .

وكانت الامبراطورية البيزنطية قد منحت ملوك أرمينيا وأمراءها ضياعاً واسعة فى إقليم كابادوكيا . مما ترتب عليه هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى ذلك الإقليم فى شرق آسيا الصغرى[٣] . ولـكن توسع الأتراك السلاجقة فى كابادوكيا واستقرارهم فى ذلك الإقليم ، جعل أولئك الأرمن يبحثون عن مأوى

(1) Grousset : L'Empire du Levant p. p. 168—169.
(2) Grousset : Hist. de l'Armenie, p. 554.
(3) Setton : op. cit; p. 179.

جديد ، فاتجهوا نحو إقليم قيليقية الجبلى فى جنوب شرق آسيا الصغرى ، وتركزوا فى الجهات المحيطة بملطية والرها وأنطاكية[١] .

وليس هناك من شك فى أن تلك الهجرة الأرمينية ترتب عليها تغيير معالم المنطقة ، فضلا عن أن الحكومة البيزنطية — رغم عدائها التقليدى للأرمن بسبب الخلاف المذهبى بين الكنيستين[٢] — استطاعت أن تجد فى ذلك الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى جنوداً اعتمدت عليهم فى مواجهة الغزو السلجوقى . ويأتى فيلاريتوس براخاميوس Philaretos Brakhamios[٣] على رأس زعماء الأرمن الجسورين الذين أفادوا من عجز الامبراطورية البيزنطية عن حماية أراضيها فى جنوب شرق آسيا الصغرى . وكان هذا القائد الأرمنى قد عمل تحت قيادة الامبراطور رومانوس الرابع، حتى إذا ما حلت هزيمة مانزكرت بذلك الامبراطور سنة ١٠٧١، رفض فيلاريتوس الاعتراف بالامبراطور الجديد ميخائيل السابع[٤] .

وهنا يلاحظ أن الأرمن فى شرق آسيا الصغرى استخفوا بالبيزنطيين بعد هزيمة مانزكرت سنة ١٠٧١ . وفى الوقت نفسه عمل الأرمن على استرضاء السلاجقة بقدر المستطاع ومهادنتهم[٥] . ولم يلبث فيلاريتوس أن دعم مركزه حول مرعش ورعبان والابلستين ، حيث أقام إمارة قوية مستقلة عن الحكومه البيزنطية ، ازدادت منعة بعد أن نجح فى استرداد ملطية التى كان السلاجقة قد استولوا عليها سنة ١٠٦٩ . وعندما ظهرت قوة فيلاريتوس واتضحت أهميته ، دخل فى تبعيته بعض زعماء الأرمن المجاورين ؛ الذين كانوا بدورهم قد انتزعوا أجزاء متفرقة من قيليقية . وهكذا أصبح فيلاريتوس يسيطر على ثلاث مدن رئيسية

---

(1) Iorga : L'Armenie Cilicienne p. p. 87—88.
(2) Idem, p. 89.
(٣) أطلق عليه ابن الأثير اسم الفلادروس (الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ)
(4) Brehier : op. cit; p. 284.
(5) Cam. Med. Hist, vol. 2, p. 260

فى قيليقية ، هى طرسوس والمصيصة وعين زربة . وفى سنة ١٠٧٧ أرسل فيلاريتوس أحد رجاله للاستيلاء على الرها من البيزنطيين، فحاصرها ستة أشهر حتى استسلمت له المدينة أخيراً بفضل مساعدة من بداخلها من الأرمن . أما أنطاكية فقد قتل آخر حاكم بيزنطى عليها سنة ١٠٧٨ ، نخشى أمراء المدينة وأهلها — ومعظمهم من الأرمن — أن يستولى السلاجقة المسلمون عليها ؛ ولذلك سلموها مختارين لفيلاريتوس[١] .

والواقع إن المسيحيين فى أنطاكية والرها وغيرهما من المدن والأقاليم الشرقية التابعة للدولة البيزنطية ، وجدوا أنفسهم وسط محيط واسع من الأتراك السلاجقة، بعد أن قطع الطريق بينهم و بين قلب الامبراطورية البيزنطية ، مما تعذر معه وصول نجدات إليهم من القسطنطينية ، لذلك لم يجدوا أمامهم مخرجاً سوى تكوين إمارات صغيرة مستقلة تحت زعامة الأرمن وقيادتهم ؛ وهم الفريق الوحيد بين المسيحيين الشرقيين فى تلك المنطقة الذين احتفظوا بكيانهم وروحهم الحربية[٢] .

وهكذا وضع فيلاريتوس أساس دولة ارمينية جديدة فى جنوب شرق آسيا الصغرى ، وهى الدولة التى اكتمل نموها فيما بعد — أى فى القرن الثالث عشر — على عصر روبان وهيثوم ملوك أرمينيا الصغرى[٣]. حقيقة إن الأباطرة البيزنطيين —أو على وجه التحديد الثلاثة الأوائل من آل كومنين (١٠٨١ — ١١٨٠)— استردوا جزء من تلك الدولة الأرمينية التى وضع أساسها فيلا ريتوس ؛ ولكن ذلك لم يحل دون استمرار دولة الأرمن فى طوروس[٤] . ولم يلبث الامبراطور نقفور الثالث (١٠٧٨ — ١٨٠١) أن اتبع سياسة حكيمة استهدفت تدعيم

---

(1) Brehier : op. cit; p. 285.
(2) Grousset : L'Empire du Levant. p. 180.
(3) Iorga : L'Armenie Cilicienne, p. 89.
(4) Vasiliev : op. cit; vol. 2, p. 415.

العلاقات الطيبة مع ذلك الزعيم الأرمنى ، فى الوقت الذى أظهر فيلاريتوس من جانبه اعتدالا وحكمة ، فاعترف بسيادة الامبراطورية ، وإن كان قد ظل مستقلا من الناحية العملية . ثم إن فيلاريتوس كان حذراً تجاه جيرانه المسلمين ، فاعترف فى حكمه للجهات القريبة من الموصل بالتبعية لبنى عقيل ؛ وهم أمراء الموصل العرب[١] . ويذكر المؤرخ ميخائيل السريانى أن فيلاريتوس أراد أن يؤمن ممتلكاته من ناحية السلطان ملكشاه أيضا ، وأنه كان مستعدا — إذا دعى الأمر — لاعتناق الإسلام فى سبيل خدمة مصالحه الخاصة[٢] .

على أن السلاجقة كانوا لايمكن أن يغضوا البصر تماما عن تلك الإمارة الأرمينية التى اعترضت طريق توسعهم إلى الشام . لذلك انتهز سليمان ابن قتلمش السلجوقى فرصة الاضطراب الذى حدث فى دولة فيلاريتوس نتيجة لتآمر ابنه ضده ، وباغت أنطاكية « وملكها سرقة » سنة ١٠٨٥ ، أى قبل استيلاء رجال الحملة الصليبية عليها بثلاث عشرة سنة[٣] . وهنا نلاحظ أن قصر المدة بين استيلاء السلاجقة المسلمين على أنطاكية سنة ١٠٨٥ وفتح الصليبيين لها سنة ١٠٩٨ أمر له دلالته بالنسبة لدارس تاريخ الحروب الصليبية ، لأن تلك الفترة القصيرة لم تكف لمحو معالم الحكم البيزنطى وإزالة بقايا الإدارة البيزنطية

---

(١) سيطر العقيليون على الموصل سنه ٩٩٦ على يد الأمير حسام الدين المقلد ، وظلوا يحكمون هذه المدينة حتى سنة ١٠٩٦ عندما انتزعها منهم كربغا (كربوقا) السلجوقى . وفى الفترة التى نتكلم عنها كان حاكم الموصل من بنى عقيل هو شرف الدولة أبو المكارم مسلم أمير الموصل من سنه ١٠٦١ حتى ١٠٨٥ .

(٢) كذلك يؤكد المؤرخ ابن الأثير أن فيلاريتوس (الفلادروس) مثل بين يدى السلطان ملكشاه ، وأن الأخير « أمره على الرها ، فلم يزل عليها حتى مات وأخذها الأمير نزار (بزان) » .

(الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٠ هـ) .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١١٧ .

من المدينة ، مما جعل الدولة البيزنطية تتمسك بحقها الشرعى فى أنطاكية وتصر على ذلك الحق منذ اليوم الأول الذى قامت فيه إمارة أنطاكية الصليبية[١] .

وثمة ملاحظة أخرى هى أن الإمارة الأرمينية التى أقامها فيلاريتوس لم تندثر تماما من صفحة التاريخ فى عصر الحروب الصليبية ، لأنه فى الوقت الذى سقطت أنطاكية فى أيدى المسلمين ثم الصليبيين ، احتفظ أحد الأرمن من رجال فيلاريتوس — واسمه جبريل — بملطية ، وإن كان قد أعلن ولاءه للسلاجقة[٢] . ومثل ذلك حدث أيضاً فى الرها ، فباستثناء فترة قصيرة احتل فيها الأمير التركى بوزان (١٠٨٧ — ١٠٩٤) مدينة الرها ؛ استطاع ثوروس — وهو قائد أرمنى آخر كان أبوه من رجال فيلاريتوس — أن يحكم المدينة حتى وصول الصليبيين[٣] . حقيقة إن تتش — أخو السلطان ملكشاه — استولى على الرها سنة ١٠٩٤ ، ولكنه أقر ثوروس فى حكم المدينة[٤] .

وهكذا مهد الحكم الأرمنى فى شرق آسيا الصغرى وأطراف العراق والشام لحكم الصليبيين الغربيين ، كما سيتضح لنا عند دراسة تاريخ الحملة الصليبية الأولى وتأسيس إمارة الرها الصليبية سنة ١٠٩٧. كذلك مهد ذلك الحكم الأرمنى لنشأة مملكة أرمينيا الصغرى الصليبية فى أواخر القرن الثانى عشر ، وهى المملكة التى قامت فى الركن الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى ، ونهضت بدور بارز فى تاريخ الحروب الصليبية بل فى تاريخ الشرق الأدنى فى تلك الحقبة ، كما سنشرح ذلك بالتفصيل فيما بعد .

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. XL 111.
(2) Setton · op. cit; I, p. 299.
(3) Chalandon : Hist. de la Premiere Croisadc, p. 175 & Runciman : A Hist. of the Crusades, I; p. 75.
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ .

السلاجقة و بلاد الشام :

يلاحظ أن استيلاء الأتراك على أنطاكية لم يتم دون إثارة عدة خلافات فى صفوف المسلمين فى الشرق الأدنى . ذلك أن فيلاريتوس رضى بأن يحكم أنطاكية بوصفه تابعا لأمير الموصل شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى ، وأن يدفع لهذا الأمير جزية إشارة لتلك التبعية . و يبدو أن شرف الدولة أراد أن يستفيد من حالة عدم الاستقرار السائدة فى المنطقة المحيطة به لإقامة دولة قوية تمتد من كردستان إلى شمال الشام ؛ ولذلك تحالف مع السلاجقة سنة ١٠٧٨ للاستيلاء على حلب من بنى مرداس ، وهم القبيلة العربية المنافسة الذين ظلوا يحكمون حلب منذ نصف قرن[١] .

وفى ذلك الوقت حضر إلى الشام الأمير السلجوقى تاج الدولة أبو سعيد تتش ابن السلطان العادل ألب أرسلان، وأخو ملكشاه[٢] . وكان سبب حضوره إلى الشام أن أخاه ملكشاه « أقطعه الشام وما يفتحه فى تلك النواحى »[٣] . وكان أن بدأ تتش بمحاصرة حلب بمساعدة الأمير شرف الدولة مسلم ، ولكن مسلم لم يلبث أن أدرك خطورة سياسته لما يترتب عليها من تثبيت أقدام السلاجقة فى بلاد الشام . لذلك أسرع مسلم العقيلى إلى التخلى عن تتش الذى لم يستطع الاستيلاء على حلب بمفرده فرفع الحصار عنها واتجه جنوبا صوب دمشق .

وقد أسرع مسلم من الاستفادة من الموقف فى شمال الشام عقب انسحاب تتش ، فاستولى على حلب سنة ١٠٧٩ من صاحبها سابق المرداسى ، و بذلك أصبح مسلم

---

(١) كان أمير بنى مرداس فى حكم حلب عندئذ هو أبو الفضائل سابق بن محمود ، وهو آخر أمراء تلك الأسرة (١٠٧٦ — ١٠٧٩) .
(انظر زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص ٢٠٤) .

(٢) يلقب ابن القلانسى تاج الدولة تتش بلقب السلطان (ذيل تاريخ دمشق ص ١١٢) .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣١ ، ابن الاثير : الكامل : حوادث سنة ٤٧١ هـ .

العقيلى سيد حلب والموصل واعتقد أن فى استطاعته مقاومة السلاجقة والحد من نفوذهم . ثم إن الأمير مسلم لم يكتف بأن خدع تتش أخا السلطان ملكشاه واستولى على حلب عن طريق تلك الخدعة ، و إنما دخل أيضاً فى صراع مكشوف مع سليمان بن قتلمش الذى سبق أن رأينا جهوده فى فتح الأناضول . ذلك أن سليمان استولى فى أوائل سنة ١٠٨٥ على أنطاكية من فيلاريتوس ، وهى المدينة التى أدعى بنو عقيل أحقيتهم فى ملكيتها ، و بذلك بدأ الصراع بين سليمان بن قتلمش من جهة والأمير شرف الدولة مسلم من جهة أخرى ، وهو الصراع الذى لم ينته إلا باستيلاء السلاجقة على الشام[١] . وقد دارت معركة ضخمة بين الطرفين المتنازعين قرب أنطاكية فى صيف سنة ١٠٨٥ انتهت بهزيمة الأمير مسلم ومقتله ، وعندئذ اتجه سليمان بن قتلمش مباشرة لحصار حلب[٢] التى قاومت الحصار بقيادة الشريف حسن الحتيتى[٣] .

أما تتش — أخو ملكشاه — فكان فى تلك الأثناء قد استولى على جزء كبير من بلاد الشام ، فاتجه بعد فشله فى الاستيلاء على حلب إلى دمشق سنة ١٠٧٩ حيث وجد أنصارا للسلاجقة .

ذلك أن أحد القادة الأتراك من أتباع السلطان ألب أرسلان — واسمه أتسز ابن أوق — كان قد قام قبل ذلك بسبع سنوات بغزو فلسطين ودمشق لحسابه الخاص[٤] . ولم تنته سنة ١٠٧١ إلا وكان أتسز قد استولى من الفاطميين على الرملة و بيت المقدس وفلسطين بأكملها ، عدا أرسوف . وفى سنة ١٠٧٥—١٠٧٦ استولى أتسز أيضاً على دمشق والمنطقة المحيطة بها . وعندما ثارت بيت المقدس

---

(1) Setton : op. cit. I, p. p. 150—152.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ٢ ص ٩١ — ٩٢ (مطبوع) .

(٣) وهو الشريف أبو على الحسن بن هبة الله الهاشمى المعروف بالحتيتى .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ — ٩٩ .

ضده وأعلنت تبعيتها للخليفة الفاطمى ، آخضعها آتسز فى عنف وأحدث فيهامذبحة رهيبة سنة ١٧٠٦ ـ ١٠٧٧ .

على أن أتسز لم يلبث أن فشل فى محاولته غزو مصر سنة ١٠٧٧ بعدأن تصدى له أمير الجيوش بدر الجمالى وأنزل به الهزيمة[1] .ويبدو أن هذا النصر الذى أحرزه بدر الجمالى شجعه على إرساله حملة لأسترداد دمشق ، فشرع الفاطميون فى حصارها فعلا فى الوقت الذى اخذ تتش يزحف من حلب إلى دمشق ، مما جعل الفاطميين يؤثرون الانسحاب ، فى حين رحب اتسز بمقدم تتش « وخدمه و بذل له الطاعة والمناصحة وسلم البلد إليه »[2] . ومع ذلك ، فإن تتش لم يرض بأن يكون أتسز إلى جانبه فى دمشق ، ففكر فى التخلص منه ، وقتله فعلا سنة ١٠٧٩ : و بذلك لم يعد هناك من ينافس تتش فى دمشق «فأحسن السيرة فى أهله وعدل فيهم »[3] . و بذلك صار تتش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام،وكان ذلك فى الوقت الذى استنجد به أهل حلب سنة ١٠٨٦ ضد سليمان بن قتلمش الذى أخذ يحاصر مدينتهم فى شدة وعنف[4] .

وهكذا اصبحت المعركة المقبلة فى شمال الشام محصورة بين اثنين من أمراء السلاجقة،أحدهما سليمان بن قتلمش فاتح الأناضول من نيقية إلى انطاكية،والثانى هو تتش أخو السلطان ملكشاه نفسه . وكان أن اصطحب تتش قائده ارتق بن اكسب ــ الذى أقطعه بيت المقدس — واتجه نحو حلب لمنازعة سليمان تلك

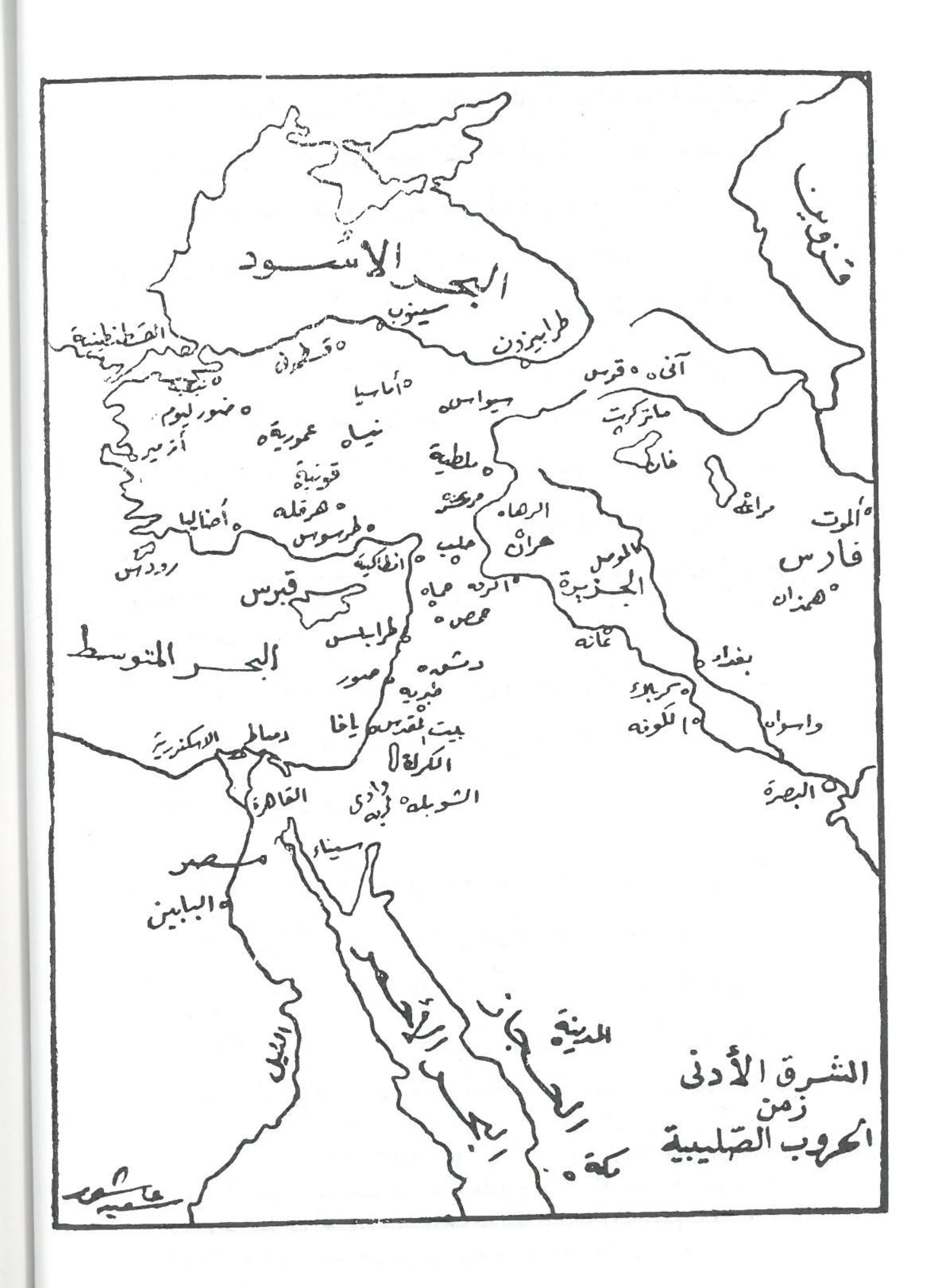
---

(1) Setton : op. cit, I, p. 94.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٠٩ — ١١٢ . ويروى النويرى أن أتسز صاحب دمشق أرسل إلى تتش « يستنجده على العساكر المصرية لأنها كانت قد حاصرته بدمشق من قبل أمير الجيوش بدر الجمالى » .
(نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٢) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥ — ١٦ (مطبوع) .



المدينة الهامة . وفى المعركة التى دارت بين الطرفين قرب حلب انهزمت قوات سليمان الذى خر قتيلا فى المعركة سنة ١٠٨٦ [١] . ومن الواضح أن مقتل سليمان بن قتلمش ترتبت عليه نتائج خطيرة بعيدة الأثر . ذلك أنه لم يخلف سوى طفلا صغيرا هو قلج أرسلان دواد ، مما جعل الأناضول يبقى بين سنتى ١٠٨٦، ١٠٩٢ دون حاكم قوى من السلاجقة ، فأتيحت الفرصة لصغار الأمراء من التركمان للظهور . ثم إن عدم وجود رجل قوى من زعماء السلاجقة فى الأناضول فى تلك الفتره بالذات أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحملة الصليبية الأولى لأنه مكن الصليبيين عند وصولهم إلى آسيا الصغرى من أن يشقوا طريقهم فى غير صعوبة كبيرة إلى الشام ، فاستولوا على نيقية ، واحرزوا انتصارهم على السلاجقة فى موقعة ضور ليوم ، كاسيلى . هذا كله بالإضافة إلى أن مقتل سليمان بن قتلمش عند حلب أثار الفرقة فى صفوف السلاجقة ، وجعل سلاجقة الروم لا يغفرون لأقربائهم سلاجقة فارس والشام ذلك الجرم . ولذلك لم يقدر للسلاجقة مطلقا أن يتحدوا جميعاً لمواجهة الخطر الصليبى ، ولم يحاول أبناء بيت ملكشاه وتتش أن يتعاونوا مع سلاجقة الروم — وهم خلفاء سليمان بن قتلمش — لإقامة جبهة قوية تحول دون وصول الصليبيين إلى الشام . وهكذا شاء حسن حظ الصليبيين أن يواجهوا كل فرع من بنى سلجوق على انفراد ، مما مكنهم من إنزال الهزيمة بكل بيت من بيوتهم على حدة [٢] .

أما عن تتش فيبدو أن انتصاره أمام حلب جعله سيد الموقف فى بلاد الشام بأكملها . هذا وإن كان أخوه الأكبر السلطان ملكشاه قد أخذ يتخوف من اتساع نفوذه ، ولذا لم يتركه ينعم بالشام منفردا . وقد استغل ملكشاه فرصة إصرار أهل حلب على ألا يسلموا مدينتهم إلا للسلطان ملكشاه نفسه ، واتجه من

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ س ٩٦ — ٩٧ (مطبوع) .

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p XLVI.

عاصمته أصبهان إلى حلب عن طريق الموصل ، وذلك ليقوم بتنظيم أوضاع بلاد الشام [١] . ولم يلبث أن استولى على قلعة جعبر وعلى منبج [٢] ، حتى إذا ما اقترب ملكشاه من حلب رأى تتش أنه من الحكمة أن يبتعد عنها [٣] . وكان أن دخل السلطان ملكشاه حلب ليعيد توزيع الإمارات الشامية ، فمنح حلب لحاجبه المخلص قسيم الدولة آقسنقر مؤسس البيت الزنكى (سنة ١٠٨٧) « فعمرها وأحسن السيرة فيها » [٤] ؛ ثم توجه ملكشاه بعد ذلك إلى أنطاكية فتسلمها من الحسن ابن طاهر وزير سليمان بن قتلمش ، ثم اتجه إلى السويدية — وهى ميناء انطاكية القريب — فصلى على شاطىء البحر « وحمد الله على ما انعم عليه مما تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب » [٥] .

أما الرها فقد منحها ملكشاه لقائد آخر من الأتراك اسمه بوزان (بُزان) ، فى حين صارت أنطاكية — التى ظلت دون حاكم منذ وفاة سليمان بن قتلمش — من نصيب قائد تركى آخر هو مؤيد للدولة ياغى سيان [٦] . وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وفلسطين ، كما ظلت بيت المقدس بيد الأمير أرتق ، وبعد وفاة أرتق سنة ١٠٩١ خلفه ابنه سكمان الأول . وهكذا استطاع ملكشاه أن يمنع أخاه تتش من إقامة دولة كبيرة موحدة بالشام [٧] . وكما أن ظهور تتش

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ س ٩٩ — ١٠٠ (مطبوع) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنه ٤٧٩ هـ .

(٣) يروى ابن واصل أن الأمير أرتق أشار عندئذ على تاج الدولة تتش « بأن يكبس السلطان » ؛ ولكن تتش رد عليه قائلا « لا أكسر جاه أخى الذى أنا مستظل بظله ، فإنه يعود على بالوهن أولا » .

(ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ س ١٨ — مطبوع) :

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنه ٤٧٦ هـ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ س ١٠١ (مطبوع) .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ س ١٩ (مطبوع) .

(7) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. p. 263—264.

على مسرح الأحداث فى شمال الشام سنة ١٠٨٦ أدى إلى مقتل سليمان بن قتلمش مما ترتب عليه حرمان آسيا الصغرى من رجل قوى يتزعم السلاجقة ضد خطر الصليبيين المقبل ، فكذلك جاء تدخل ملكشاه بعد ذلك ضد تتش حائلا دون قيام سلطنة للأتراك فى الشام ، مما جعل هذه البلاد تعانى الكثير من فوضى الانقسامات . وفى كلتا الحالتين استفاد الصليبيون من ذلك النزاع والانقسام بين أمراء آسيا الصغرى والشام . هذا بالإضافة إلى أن السلطان ملكشاه اصطحب معه عند عودته إلى فارس الأمير الصغير قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش [1] .

على أن تلك الأوضاع لم ترض تتش ، فلجأ إلى السياسة ، وتوجه إلى أخيه السلطان ملكشاه فى بغداد سنة ١٠٩١ واسترضاه ، واستأذنه فى التوسع ببلاد الشام على حساب الفاطميين؛ وعندئذ أذن له ملكشاه بالعود ، « وأمر آقسنقر صاحب حلب وتوران (بوزان) صاحب الرها أن يسيرا فى خدمة أخيه (تتش) بعساكرهما إلى أن يستولى على ما هو للمستنصر العلوى صاحب مصر بساحل الشام ، ويتوجها معه إلى مصر ليملكها ! » . [2] وكان أن بدأ تتش بمحاصرة حمص حتى استولى عليها من صاحبها ابن ملاعب « وكان الضرر به وبأولاده عظيما على المسلمين » وأسر ابن ملاعب نفسه ولديه ، ثم استولى تتش على عرقه وأفاميه وحاصر طرابلس ، ولكنه لم يلبث أن انصرف عنها . [3]

وهكذا غرقت بلاد الشام فى بحر من الفوضى بسبب المنازعات بين السلاجقة بعضهم وبعض ، وبين السلاجقة والفاطميين ، وبين كل من السلاجقة والفاطميين

---

(١) استطاع قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش العودة بعد ذلك إلى ملكه الذى ورثه عن أبيه بآسيا الصغرى ؛ وقد عرف قلج هذا فى التاريخ باسم « ابن سليمان » كما أطلقت عليه الحوليات الصليبية المعاصرة اسم « سليمان » . انظر :

Setton : op. cit; vol. 1; p. 163.

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٢ .

(٣) المرجع السابق ورقة ٣٢ — ٣٣ .

من ناحية والبيوت العربية التى كونت لنفسها إمارات مستقلة ببلاد الشام من ناحية أخرى . وزاد من خطورة تلك الفوضى التى عمت بلاد الشام عندئذ ، أنها جاءت فى الوقت الذى أخذ الخطر الصليبى يلوح فى سماء الوطن العربى فى الشرق الأدنى .

تفكك دولة السلاجقة :

يبدو أن ملكشاه كان يحلم وهو فى حلب سنة ١٠٨٧ بإقامة دولة إسلامية واسعة تركية — عربية ، على غرار الدولة العباسية بجناحيها العربى والفارسى — أيام ازدهارها ونضرتها . وكان أن عهد ملكشاه فعلا بشئون الحكم فى دولته إلى أحد رجاله المؤمنين بهذه الفكرة ، وهو الوزير الشهير نظام الملك أبو على الحسن بن اسحق الطوسى . على أن هذا الوزير اعتمد على العنصر التركى فى تنفيذ سياسته ، وهؤلاء الأتراك كانوا سنيين متشددين، مما أغضب العنصر الفارسى الشيعى فى الدولة . وهكذا لم يهدأ الشيعة إلا بعد مقتل نظام الملك فى خريف سنة ١٠٩٢ بيد رجل ديلمى من الباطنية ، مما أحدث فراغاً ضخماً ؛ بل هزة عنيفة بجسم دولة السلاجقة [1] ، وذلك « لما كان عليه (الوزير نظام الملك) من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن والعلم ، وحب الخير وحميد السياسة » [2] . أما ملكشاه فكان قد زوج ابنته للخليفة العباسى المقتدى ، وأنجبت هذه الزيجة طفلا صغيراً اسمه جعفر [3] ، مما أثار فى نفس ملكشاه رغبة قوية فى أن يتولى هذا الطفل الخلافة فيجمع بين ملكى العباسيين والسلاجقة. ولتحقيق هذه الأمنية اكتفى ملكشاه بأن جعل أصبهان مقره الصيفى،

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٢ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٠ هـ .

فى حين نقل مقره الشتوى إلى بغداد ، ثم لم يلبث أن دعا الخليفة العباسى إلى التنازل عن الخلافة لابنه جعفر . ولم تمض على هذه الدعوة بضعة أيام إلا وتوفى ملكشاه فى نوفمبر سنة ١٠٩٢ ، وقيل إن الخليفة العباسى دس له السم [١] .

وقد جاءت وفاة السلطان ملكشاه إيذاناً بتفكك امبراطورية السلاجقة . ذلك أن السلطان ملكشاه كان له ثلاثة أبناء أشقاء هم بركياروق (بركيارق) ومحمد وسنجر . على أن ملكشاه كان قد تزوج زوجة جديدة أنجبت له سنة ١٠٨٧ ابناً رابعاً هو محمود الذى كان فى الخامسة من عمره تقريباً عند وفاة أبيه . وسرعان مادب النزاع بين محمود الصغير وأمه تركان خاتون من ناحية ، و بركياروق (بركيارق) أكبر أبناء ملكشاه — وكان فى الخامسة عشر من عمره — من ناحية أخرى [٢] . وانتهى النزاع بأن احتفظ محمود بأصبهان وفارس ، على أن تكون بقية الدولة السلجوقية بما فيها لقب السلطنة من نصيب بركياروق . على أن محمود وأمه لم يلبثا أن توفيا بعد قليل — خلال سنة ١٠٩٤ — وعندئذ اتجه بركياروق « فى الحال إلى أصبهان فدخلها وملكها » [٣] .

ولكن الخطر الأكبر الذى هدد بركياروق جاء من ناحية عمه تتش الذى لم يرض عن التنظيم الذى أجراه أخوه ملكشاه فى بلاد الشام سنة ١٠٨٦ — ١٠٨٧ . ففى الوقت الذى كان تتش يؤمل أن تكون بلاد الشام كلها من نصيبه ؛ إذا بالسلطان ملكشاه — كما مر بنا — يعطى حلب لحاجبه آقسنقر ، و بذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وأواسط الشام . لذلك لم يكد تتش يسمع

(١) اختلفت روايات المؤرخين فى سبب وفاة ملكشاه ، فذكر ابن الأثير مثلا (حوادث سنة ٤٨٥ هـ) أنه خرج للصيد فعاد مريضاً ، وأن سبب مرضه أنه أكل من لحم الصيد دون أن يستوفى اللحم النضج « فثقل مرضه ، وكانت حمى محرقة » .
انظر أيضاً ابن العبرى ص ١٩٤ .

(٢) عن أحداث هذا النزاع ، انظر ابن الأثير ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ .

بوفاة أخيه ملكشاه حتى أسرع إلى الاستفادة من حالة الفوضى وعدم الاستقرار التى أمست فيها الدولة السلجوقية لتحقيق مطامعه ، فاستولى على هيت « وعاد إلى دمشق يتجهز لطلب السلطنة » [١] . و بعد أن جمع تتش عساكره « وأخرج الأموال » اتجه نحو حلب حيث طلب من آقسنقر الاستسلام له . وعلى الرغم مما كان يضمره آقسنقر من عداء لتتش ، إلا أنه لم يجرؤ على المعارضة ، لأنه رأى « اختلاف أولاد صاحبه ملكشاه وصغرهم ، فعلم أنه لايطيق دفع تتش فصالحه وصار معه ، وأرسل إلى ياغى سيان صاحب أنطاكية و إلى بوزان صاحب الرها وحران ، يشير عليهما بطاعة تاج الدولة تتش حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه » [٢] . وهكذا خضع آقسنقر وياغى سيان وبوزان — أى حلب وأنطاكية والرها — للأمير تتش « وخطبوا له فى بلادهم » ؛ فجمع تتش هذه القوى الثلاثة وزحف بها على فارس يبغى الحصول على السلطنة . وفى الطريق استولى تتش على الرحبة « وخطب لنفسه بالسلطنة » ثم سار إلى نصيبين «ففتحها عنوة وقهراً وقتل من أهلها خلقاً كثيراً» (فبراير ١٠٩٣) ، كما عزل إبراهيم ابن قريش العقيلى أمير الموصل واستولى عليها (ابريل ١٠٩٣) و بذلك انتهت أسرة بنى عقيل فى الموصل [٣] . كذلك استولى تتش على ميافارقين من حكامها بنى مروان الأكراد [٤] ، و بعد ذلك دخل فارس عن طريق أذربيجان لخلع بركياروق .

ولم يكد تتش يقترب من خصمه حتى حدثت المفاجأة ، إذ تخلى عنه آقسنقر

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ . ويذكر ابن الأثير أن تتش كان فى طريقه إلى بغداد لمقابلة أخيه ملكشاه ، وبينما هو فى هيت بلغته وفاة أخيه السلطان فعاد إلى دمشق

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٨ .

(٤) كان آخر حكام بنى مروان فى ميافارقين هو أبو المظفر منصور ، (١٠٧٩ — ١٠٩٣) — انظر زامباور : معجم الأنساب ص ٢٠٧ .

أمير حلب و بوزان أمير الرها « وسارا إلى بركياروق » ، و بذلك لم يبق مع تتش إلا ياغى سيان أمير أنطاكية. وكان انسحاب آقسنقر و بوزان محطما لخطة تتش الذى آثر أن ينسحب بسرعة عائدا إلى الشـــام فى حين « انبسطت يد بركياروق واستقامت أحواله » ودخل بغداد دخول الظافر فى نهاية سنة ١٠٩٣ [١].

وكان أول ما فكر فيه تتش عند عودته إلى الشام هو الإنتقام من آقسنقر أمير حلب و بوزان أمير الرها بعد أن خاناه وتخليا عنه وقت الشدة . لذلك بدأ تتش بمهاجمة حلب فى صيف سنة ١٠٩٤ ، وعندئذ اتحد آقسنقر و بوزان ، فى حين أرسل بركياروق إليهما نجدة قوية بقيادة الأمير كربغا (كربوقا) . [٢] ولم تلبث أن دارت المعركة بين الطرفين قرب حلب ، فانتصر تتش انتصارا حاسماً ووقع آقسنقر فى يده فقتله على الفور [٣] ، فى حين فرت فلول الجند المنهزمين إلى حلب حيث اعتصموا بها وأرسلوا إلى السلطان بركياروق يطلبون النجدة . على أن تتش أسرع إلى اللحاق بهم ، فاستولى على حلب ، وعندئذ وقع فى يده كربغا و بوزان ؛ فضربت عنق بوزان صاحب الرها وحمل كربغا أسيراً إلى حمص [٤].

و بعد أن قضى تتش فى حلب بضعة أيام زحف على الفرات ، فاستولى على حران والرها ، ثم « سار إلى الديار الجزرية فملكها جميعاً ثم ملك ديار بكر وخلاط » ؛ وبعد ذلك قصد فارس لمنازلة بركياروق فخضعت له أذربيجان واحتل

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٩ — ١١٠ (مطبوع) .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٥ (مطبوع) .
(٣) يروى ابن العديم أنه عند ما وقع آقسنقر فى يد تتش ، سأله الأخير « لو ظفرت بى ما كنت صنعت ؟ » قال : « كنت أقتلك » فقال له : « فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علىّ » فقتله .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٧ (مطبوع) .

همـــذان والرى [١] . وكان الموقف حاسما بالنسبة لبركياروق ، فاتجه من أصبهان إلى الرى لمواجهة خصمه ، ودارت المعركة قرب الرى فى أوائل سنة ١٠٩٥ . وللمرة الثانية تعرض تتش للخيانة بعض أعوانه المقربين إليـــه « فانهزم عسكر تاج الدولة تتش واستبيح ونهب ، وقتل فى ذلك اليوم تاج الدولة وخواصه فى الحرب » . [٢] وهنا نلاحظ أن أعوان تتش وأمراءه كانوا يتخلون عنه ساعة الشدة لقسوته وعنفه و بأسه ، مما جعلهم يخشون على أنفسهم وعلى مطامعهم منه . وعلى العكس أدى ضعف بركياروق ولين عريكته إلى اتجاه الأمراء نحوه؛ حيث أن شخصيته ستمكنهم من تحقيق مطامعهم الشخصية . وهكذا جاء انتصار بركياروق إيذانا بانحلال قوة السلاجقة فى الوقت الذى بدأت الاستعدادات للحرب الصليبية تجرى فى الغرب الأوربى . [٣]

ثم إن بركياروق (بركيارق) اكتفى بحكم فارس و بغداد ، دون أن يحاول ضم بلاد الشام إليه . وكان تتش قد ترك ولدين هما فخر الملوك رضوان وشمس الملوك دقاق ، فأخذ الأول ملك حلب وأخذ الثانى ملك دمشق [٤] ، وذلك دون أى اعتراض أو تدخل من جانب بركياروق . وكان كل ما طلبه بركياروق من رضوان هو إطلاق سراح كربغا الذى كان تتش قد سجنه بعد أسره . ولم يكد يفرج عنه حتى حصل كربغا على إذن من بروكياروق

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٤ .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١١٩ (مطبوع) .
ويروى ابن القلانسى أن رأس تتش قطع « وطيف به فى العسكر ، ثم حمل إلى بغداد وطيف به فيها » (ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠) .
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. LI.
(٤) قتل رضوان أخويه أباطالب وبهرام . أما أخوه الثالث دقاق فقد راسله ساوتكين الخادم — نائب تتش فى دمشق — يدعوه لتسلم المدينة . وكان أن غادر دقاق حلب سراً « وهرب إلى دمشق من غير أن يعلم به أحد » ؛ وعندئذ أرسل رضوان قوة للحاق به ، ولكن تتش وصل سالماً « وصارت دمشق وبلادها بحكمه » (ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢١ — مطبوع) .

للاستيلاء على الموصل فحاصرها بضعة أشهر واستولى عليها من آخر أمرائها العرب من بنى عقيل،وهو الذى كان تتش قد تركه بالموصل. أما فى القطاع الشرقى من دولة السلاجقة ، فقد منح بركياروق أخاه سنجر ملك خراسان وما وراء النهر .[1]

وهكذا لم تحل سنة ١٠٩٦ إلا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة ، هى : سلطنة فارس (أصبهان) وعلى رأسها السلطان بركياروق نفسه الذى كانت له السيطرة على بغداد ؛ ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها أبو الحرث سنجر ؛ ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش؛ ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش . وأخيراً سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش . هذا مع ملاحظة أن بيت دانشمند التركمانى فى كبادوكيا أفاد من الفترة التى قضاها قلج أرسلان فى الأسر لتحقيق استقلال ذاتى ، مما زاد من حدة الانقسام فى آسيا الصغرى . وخلاصة القول أنه إذا كان السلاجقة قد أثبتوا فى وقت من الأوقات أنهم سيوف الإسلام الزائدون عنه ، فإن هذه القوة لم تلبث أن انفلت وتفتتت عند فجر الحركة الصليبية ، مما صار له أكبر الأثر فى نجاح الحملة الصليبية الأولى .[2]

وليت الانقسام والانحلال الداخلى فى دولة السلاجقة قد وقف عند ذلك الحد بل لقد حدث سنة ١٠٩٩ أن ثار محمد تبر وهو أخ ثالث لبركيا روق[3] ؛ مما جعل بلاد فارس والعراق مسرحا للحروب بين الأخوين حتى انتهى الأمر بالصلح بينهما فى اوائل سنة ١١٠٤، فاحتفظ بركياروق بأصبهان وفارس وعراق العجم على أن تكون

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

(2) Gibb : The Damascus Chronicle, p. 14.

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

« السلطنة له »، وأخذ محمد تبر أذربيجان وأرمينيا وديار بكر والموصل[1] ؛ فى حين ظل الأخ الثالث — وهو أبو الحرث سنجر — يحكم خراسان وما وراء النهر[2]. ولا شك فى أن تلك الحروب الطويلة بين الإخوة أدت إلى تحطيم البيت السلجوقى من ناحية ، وبقاء سلطنة فارس مقسمة بين ملكيات ثلاث مستقلة من الناحية العملية من ناحية أخرى . أما الخليفة العباسى فى بغداد فقد انتهز فرصة الصراع بين بركياروق وأخوته ، وما نجم عن ذلك الصراع من إضعاف قوة الطرفين ، وعمل على تحرير نفسه من سيطرة السلاجقة جميعاً ، « وقطع دعوة الترك من بغداد » .[3]

ومن جهة أخرى فإن قبيلة بنى مزيد البدوية على الضفة الغربية لنهر الفرات استغلت الظروف التى أحاطت بالسلطان بركياروق واستقلت عن سلطانه . وقد بنى شيخ هذه القبيلة — وهو صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدى — منزله الحلة سنة ١١٠٢ واتخذها مقرا له . وبذلك قامت إمارة عربية امتدت من هيت إلى الكوفة وواسط ، وصارت خطرا هدد الأتراك وحال دون استمرار سيطرتهم على العروبة وأرضها[4] . ولم يتردد أمراء الحلة فى سبيل تحقيق هذه الغاية فى محالفة الصليبيين ، كما سيلى فيما بعد .

أما فى بلاد الشام ، فإن السيادة السلجوقية أخذت تنحسر سريعاً . ذلك أن ابنى تتش — وهما رضوان صاحب حلب (١٠٩٥ — ١١١٣) ودقاق صاحب

---

(١) ذكر ابن العبرى أن ممتلكات محمد تبرهى « ديار بكر والجزيرة والموصل والشام» ومن الواضح أن ذكر الشام هنا غير صحيح حيث كانت دمشق وحلب فى حوزة ابنى تتش ، (تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧) .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٧ ؟ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥هـ.

(٣) النويرى : نهاية الارب ج ٢٥ ورقة ٢٧ .

(٤) المرجع السابق ورقة ١٢ .

دمشق (١٠٩٥ — ١١٠٤) لم يتمتعا بالمقدرة السياسية التى تمكنهم من مواجهة الأوضاع القلقة التى عاشت فيها بلاد الشام فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر . ولعل أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة فى بلاد الشام والعراق وغيرهما عندئذ هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة لاتجمعها رابطة إلا الاتصال بالبيت السلجوقى . ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابكة ؛ وبعض هذه الوحدات صغير جداً لايتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة . وأتابك لفظ تركى معناه « مربى الملك » ، فكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضفوا عليه هذا اللقب إمعاناً فى تكريمه[1] . ومن أظهر تلك الأتابكيات أتابكية دمشق، ومؤسسها ظهير الدين طغتكين الذى كان مملوكا ثم قائداً للملك تتش وأتابكا لابنه دقاق أى مربياً له . وقد استمرت هذه الأتابكية من سنة ١١٠٤ حتى سنة ١١٥٤ . أما أتابكية الموصل فمؤسسها عماد الدين زنكى بن آقسنقر وقد استمرت من سنة ١١٢٧ حتى سنة ١٢٦٢[2] . وعدا ذلك وجد عدد كبير من الأتابكيات التى أخذت تظهر تباعاً على أنقاض دولة السلاجقة فى الشام وسنجار والجزيرة وأربل وأذربيجان وفارس وغيرها[3] .

أما فلسطين ، فقد سبق أن أشرنا إلى أن تتش كان قد أقطعها قائده التركمانى أرتق ، الذى خلفه سنة ١٠٩١ ولداه سقمان (سكمان) وإيلغازى (إيل غازى) . ولكن حدث سنة ١٠٩٨ أن أفاد الفاطميون من تعرض السلاجقة لغزو الصليبيين، فخرج من مصر جيش فاطمى تحت قيادة الوزير الأفضل نفسه لمحاصرة بيت المقدس « ونصب عليه المناجيق » ، حتى اضطر الأراتقة إلى الانسحاب من المدينة فى

(1) Setton : op. cit, vol. I, p. 162.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٣٤ وما بعدها .

(3) Gibb : op. cit, p. 23,f.

أغسطس من العام نفسه . ولم تلبث بقية فلسطين أن سقطت بعد ذلك فى أيدى الفاطميين[1] . هذا إلى أن الوزير الأفضل أرسل من مصر إلى رضوان ملك حلب يدعوه إلى طاعة الخليفة المستعلى بالله الفاطمى وإقامة الدعوة له ، ووعد الأفضل رضوان أن يمده بالمساعدة ضد خصومه ، فاستجاب رضوان لذلك « وتقدم بالدعوة للمصريين على سائر منابر الشام التى بيده ... للمستعلى ثم للأفضل ثم لرضوان ... » هذا ، وإن كان رضوان لم يستمر على ذلك الوضع سوى بضعة أسابيع أعاد بعدها الدعوة « للامام المستظهر (العباسى) ثم للسلطان بركياروق ثم لنفسه »[2] .

ومن جهة أخرى فإن الفاطميين استغلوا تفوقهم البحرى على السلاجقة وظلوا يسيطرون على ساحل الشام[3] . هذا وإن كان الفاطميون قد خسروا طرابلس قرب منتصف القرن الحادى عشر عندما استقل بها أحد أتباعهم وهو القاضى الشيعى ابن عمار أبوطالب . وقد استطاع ابن عمار هذا وخليفتاه جلال الملك أبو الحسن على (ت ١٠٩٨) ثم فخر الملك أبو على عمار (١٠٩٨ – ١١٠٨) أن يجعلا من طرابلس إمارة غنية اشتهرت بمدرستها التى حوت مكتبه ضمت عشرة آلاف مجلد. على أن قيام هذه الإمارة البحرية الصغيرة لايخفى الحقيقة الواقعة، وهى زيادة تفتت بلاد الشام سياسياً. ولاشك فى أن عملية التجزئة التى تعرضت لها بلاد الشام على ذلك الوجه ، فى الوقت الذى شق الصليبيون طريقهم إلى بلاد الشام ، كانت من العوامل الرئيسية التى ساعدت الصليبيين فى تحقيق أطماعهم . وقد أدرك هذه الحقيقة وذكرها المؤرخ الصليبى وليم الصورى[4] .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٩ (مطبوع)

(٣) يذكر ابن الأثير (الكامل ، حوادث سنة ٤٨٢ هـ) أن الجيش الفاطمى الذى خرج من مصر فى تلك السنة استولى على صور وصيدا وعكا وجبيل « واستعمل أمير الجيوش على هذه البلاد الأمراء والعمال » .

(4) Giullaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. Occid II). 1015-1016.

ولم يكن ملك السلاجقة فى الأناضول أقل تفتتاً عندئذ من بقية دول السلاجقة فى الشرقين الأدنى والأوسط . ذلك أن مملكة السلاجقة فى آسيا الصغرى لم تلبث أن تدهور بها الحال عقب الخاتمة المؤلمة لحياة مؤسسها سليمان بن قتلمش ، وهو الذى قتله تتش — كما سبق أن ذكرنا — سنة ١٠٨٦ . ومنذ تلك السنة حتى سنة ١٠٩٢ ظل ابن سليمان الصغير ، وهو قلج أرسلان ، شبه أسير فى فارس ، تحت رقابة ملكشاه . وفى تلك الفترة التى قضتها آسيا الصغرى دون سلطان عمل الأمراء المحليون — مثل أبى القاسم أمير نيقية وزاخاس أمير أزمير والملك غازى بن دانشمند أمير كابادوكيا — على الاستقلال عملياً[1] . وكانت نيقية عاصمة السلاجقة فى الأناضول ، ومن ثم فقد أخذ أميرها أبو القاسم يحلم بأن يحل محل بيت سليمان بن قتلمش فى حكم آسيا الصغرى . ولم تقف أحلام أبى القاسم عند هذا الحد ، بل بات يحلم أيضاً بالاستيلاء على القسطنطينية ، وشيد أسطولا لهذا الغرض ولكن البيزنطيين حطموا أسطوله[2] .

وعندما استرعت أطماع أبى القاسم السلطان ملكشاه ، أرسل ضده حملة حاصرته فى نيقية سنة ١٠٨٦ ، مما جعل أبا القاسم يستنجد بالإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين . وبعد ذلك بقليل عاد ملكشاه وأرسل إلى الأناضول حملة كبيرة على رأسها بوزان أمير الرها للقضاء على أبى القاسم والاستيلاء على نيقية[3] . وقد حاول بوزان أن يقنع ألكسيوس كومنين بالتخلى عن مساعدة أبى القاسم مقابل التعهد برد بعض الأراضى التى فى حوزة السلاجقة للبيزنطيين[4] . ولكن ألكسيوس أدرك أنه من الخير له أن يجاوره أمير صغير مثل أبى القاسم بدلا من السلطان ملكشاه ، وفعلا قدم الإمبراطور البيزنطى مساعدته لأبى القاسم ، وبفضل هذه

(1) Cam. Med. Hist. vol 4. p. 331.
(2) Setton : op. cit, vol I, p. 215—216.
(3) Chalandon, Alexis Comnene, p. 102.
(4) Idem, p. 125.

المساعدة تمكن الأخير من الدفاع عن نيقية ؛ ورفع حصار بوزان عنها . ولم يلبث أبو القاسم أن طلب عفو ملكشاه ودخل فى طاعته ، فقتله الأخير سنة ١٠٩٢[1] .

وعند وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ أطلق خليفته بركياروق سراح قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش ، الذى غدا حاكم نيقية وزعيم سلاجقة الروم . وإذا كان الامبراطور ألكسيوس كومنين قد نجح فى تلك الفترة فى انتزاع بعض مراكز من السلاجقة فى آسيا الصغرى ، فإن زاخاس أمير أزمير كان أكثر خطورة على الامبراطورية البيزنطية ، إذ شيد اسطولا واستولى به على عدة جزر هامة مثل لسبوس وخيوس وسادوس ورودس . ولم يلبث أن ازداد الخطر على الدولة البيزنطية عندما تزوج قلج أرسلان من ابنة زاخاس أمير أزمير . على أن اسحق كومنين استطاع بسياسته الماكرة أن يفرق بين الطرفين ، أى بين قلج أرسلان وحميه ، وأن يجعل قلج أرسلان ينقلب ضد حميه ، فى الوقت الذى كان زاخاس يحاصر أبيدوس مفتاح الدردنيل . ولم يلبث أن استدرج قلج أرسلان زاخاس وقتله ، وبعد ذلك تم الوصول إلى تسوية بين قلج أرسلان من ناحية والامبراطور ألكسيوس كومنين من ناحية أخرى[2] .

أما الركن الشمالى الشرقى من آسيا الصغرى فلم يكن فيه لقلج أرسلان أى نفوذ ، إذ قامت هناك إمارة الدانشمند (١٠٦٣ — ١١٧٤) التى أسسها الأمير التركمانى أحمد غازى ، والتى قامت على حساب الممتلكات البيزنطية فى كابادوكيا وأماسيا وجانجرا ونكسار (قيصرية الجديدة)[3] . وكان الدانشمند يعترف بالتبعية

(1) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 331.
(2) Vasiliev : op. cit., I, p. 385 & Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 304.
(3) Setton : op. cit, vol. I, p. p. 163—164.

للسلطان ملكشاه سلطان السلاجقة فى فارس ، وبالتالى لم يعترف مطلقا بسيادة سليمان بن قتلمش . وقد قام ابن الدانشمند وخليفته الملك غازى جمشتكين (١٠٨٤ — ١١٢٦) بالاستيلاء على قسطمونى من البيزنطيين . وكان التنافس وسوء العلاقات مستحكما دائما بين السلاجقة فى الأناضول من ناحية، وإمارة الدانشمند التركمانية من ناحية أخرى ، بحيث لم تتحد القوتان إلا عندما أحستا بأن الجيوش الصليبية توشك أن تعصف بهما جميعا[1]

وهكذا نخرج مما سبق بأن توسع السلاجقة جهة الغرب توقف حوالى سنة ١٠٩٥ ، مما جعل الظروف مناسبة لأن تسترد الدولة البيزنطية سيادتها على الأقل على الجهات الساحلية فى بيثنيا وأيونيا . وكان البيزنطيون والأتراك متعادلين فى القوة فى ذلك الوقت على الرغم من انقسام الأتراك على أنفسهم . ولكن بوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق لمساعدة البيزنطيين بدأت كفة المسيحيين ترجح على كفة الأتراك المسلمين.

الشقاق بين المسيحيين الشرقيين :

وإذا كان الانقسام بين البيوت العربية والتركية فى العالم الإسلامى قد مهد لانتصار الصليبيين؛ فإن الشقاق فى العالم المسيحى بين الكنائس الشرقية سهل وقوعها تحت حماية الكنيسة الرومانية الغربية ، أو بعبارة أخرى ساعد هذا الشقاق الأخير على قيام دولة للصليبيين الكاثوليك فى الشرق . ذلك أن العداء المذهبى بلغ أشده بين البيزنطيين والأرمن والسريان اليعاقبة ، وذلك عقب حركة التوسع البيزنطية فى الشرق فى القرن العاشر ، مما جعلهم يتعرضون جميعا لكارثة

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. LVII–LVIII.

مشتركة فى القرن الحادى عشر ، ولا يستفيد من هذا الموقف سوى الغربيين الكاثوليك[1] .

من ذلك أنه لم يكد يمضى قليل على ضم أنطاكية للامبراطورية البيزنطية فى عهد حنا شمشقيق ، إلا وبدأ رجال الدين البيزنطيون حملة اضطهاد ضد إخوانهم رجال الدين الأرمن . كذلك حدث بعد أن اتخذ الأرمن آنى عاصمة لهم[2] ، أن تعرض بطرس الأرمنى ثم ابن اخيه جاجك الأول (٩٩٠–١٠٢٠) لمتاعب جديدة بقصد إجبارهم على التسليم بمبادىء الكنيسة الأرثوذكسية . أما الملوك الذين تخلوا عن ممالكهم الوراثية الامبراطورية البيزنطية ليأخذوا بدلا منها إقطاعات فى كابادوكيا ، فقد وجدوا أنفسهم فريسة لضغط الأباطرة البيزنطيين حتى يعتنقوا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية ولذلك نجد المؤرخين المعاصرين من الأرمن – مثل متى الرهاوى – يظهرون ارتياحهم للكارثة التى حلت بالبيزنطيين فى مانزكرت ، بل لقد بلغ بهم الأمر إلى مديح ملكشاه والأمراء لما حققه من راحة بال للأرمن[3] . وقد اتهم البيزنطيون القوات الأرمينية التى اشتركت فى موقعة ملازكرت بأنها تقهقرت ولم تثبت ، كما أنه حدث بعد موقعة مانزكرت أن انتقم المهاجرون الأرمن فى كابادوكيا باضطهاد رجال الدين الأرثوذكس . من ذلك أن جاجك الثانى ملك آنى السابق قبض على مطران قيصرية الأرثوذكسى وحبسه فى جوال محكم ومعه كلب شرس حتى قضى نحبه . وقد رد

(١) عن أصول الانشقاق بين الكنيستين الأرمينية والبيزنطية انظر :
Grousset : L'Empire du Levant p. p. 76—78.

(٢) كانت مدينة آنى أول عاصمة للأرمن فى مقرهم الجديد فى جنوب شرق آسيا الصغرى قبل أن ينقلوا عاصمتهم إلى سيس فيما بعد ، ومازالت بعض أسوار هذه المدينة وآثارها قائمة تشهد على رقى مستواهم الحضارى فى القرنين العاشر والحادى عشر . انظر
Schlumberger : Recits I, p. 127 & Vssiliev, op. cit, I, p. 314.

(3) Mathieu d'Edesse (Rec. Hist. Cr. Doc. Arm. p.p. 46-48).

البيزنطيون على ذلك بأن نصبوا كمينا للملك جاجك الثانى حتى تصيدوه . وقتلوه سنة ١٠٧٩ [1] .

ولم يكن حنق المسيحيين السريان على البيزنطيين أقل شدة ، لاسيما بعد أن استرد البيزنطيون أنطاكية والرها . وهنا أيضاً أساء رجال الدين البيزنطيين إلى الكنيسة المحلية . لذلك لم يتمالك ميخائيل السريانى نفسه من الفرح عندما حلت الهزيمة بالامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث على يد المسلمين قرب حلب سنة ١٠٣٠ [2] . وتعبر كتابات ميخائيل السريانى تعبيراً صادقاً عن استيائه لأن البيزنطيين يضطهدون السريان واليعاقبة ، وقال إنه لذلك يفضل سيطرة الأتراك السلاجقة على حكم البيزنطيين لأن الأتراك ينهبون ويسلبون ولكنهم لا يتعرضون للعقيدة ، فى حين أن اضطهاد البيزنطيين لحرية العقيدة أشد نكاية وأسوأ أثراً .

وهكذا يبدو كيف أن الحركة التى قامت بها الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر لاسترداد أراضيها وتوطيد نفوذها فى شرق آسيا الصغرى وفى بلاد الشام أدت إلى استياء مختلف العناصر التى كان من الممكن أن تظل حليفاً طبيعياً الامبراطورية ضد الصليبيين الكاثوليك . وقد كان لهذا الشعور أثره فى تسهيل قيام الامارات اللاتينية فى الشرق لأن الأرمن والسريان واليعاقبة لم يشعروا بنفور من الصليبيين الغربيين مثلما نفروا من البيزنطيين الأرثوذكس . وهكذا نظر الأرمن فى قيليقية والرها إلى الصليبيين الغربيين على أنهم محرروهم وحلفاؤهم ، كأن عصر الحروب الصليبية شهد تقارباً ملحوظاً بين الكنيسة الأرمينية والبابوية [3] هذا فى الوقت الذى أحسن الصليبيون

(1) Grousset : Hist· de l'Armenie, p.p. 620—622.
(2) Runciman : A History of the Crusades, I. p. 75.
(3) Iorga : L'Armenie Cilicienne, p. 91.

الغربيون معاملة الأرمن والسريان بوجه عام ، ووجدوا فيهم حلفاء طبيعيين ليس ضد المسلمين فحسب ، بل ضد البيزنطيين [1] .

الدولة البيزنطية بين السلاجقة والنورمان :

لم تقتصر الكوارث التى تعرضت لها الدولة البيزنطية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر على ما فعله الأتراك بالأقاليم الآسيوية للامبراطورية ، وإنما تعرضت الأقاليم الأوربية فى ذلك الوقت أيضاً لخطر النورمان ، مما أوقع القسطنطينية بين نارين .

والمعروف أن القرن الحادى عشر شهد هجرة جموع غفيرة من النورمان الوافدين من دوقية نورمنديا فى غرب فرنسا إلى جنوب إيطاليا ووسطها فضلا عن صقلية . وكان زعيم تلك الجموع سنة ١٠٤٢ وليم هوتفيل ، ولكن الفضل يرجع إلى روبرت جويسكارد فى تأسيس دولة النورمان فى إيطاليا وصقلية ، بعد أن تم إعلانه دوقاً على أبوليا وكالبريا سنة ١٠٥٩ [2] وحسب روبرت جويسكارد هذا أنه انتزع من البيزنطيين آخر معاقلهم فى إيطاليا مثل أوترنتو وبرنديزى سنة ١٠٦٢ ثم بارى عاصمتهم سنة ١٠٧١ ، أى فى نفس الوقت الذى تعرضت الجيوش البيزنطية فى آسيا الصغرى لكارثة ما نزكرت على أيدى السلاجقة [3] . ولعل هذه الحقيقة الهامة هى التى جعلت المؤرخ فاسيليف يقرر خطورة سنة ١٠٧١ بالذات فى التاريخ البيزنطى بأجمعه [4] . وبعد أن نجح النورمان أيضاً فى انتزاع صقلية من المسلمين ، أخذوا يوجهون أبصارهم نحو الشاطىء الشرقى للبحر الأدرياتى للاستيلاء على أبيروس ومقدونيا ، بل لقد طمعوا فى القسطنطينية نفسها ، ثم باتوا

(1) Settou : A Hist. of the Crusades, vol. 2, p. 634.
(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٣٠ — ٣٣١ .
(3) Haskins : The Normans in European History, p. 200,f.
(4) Vasiliev, op. cit, I, p. 361.

يحلمون بمواصلة الحرب ضد المسلمين فى الشرق ، إتماماً لحربهم ضد المسلمين فى صقلية[1] .

وفى الوقت الذى نزل فريق من النورمان بزعامة وليم هوتفيل وروبرت جويسكارد فى إيطاليا البيزنطية ، اتجه فريق آخر من المغامرين النورمان نحو الدولة البيزنطية نفسها ودخلوا فى خدمتها جنداً مرتزقة . وقد رأينا كيف أفاد هذا الفريق الأخير من الكارثة التى حلت بالبيزنطيين على أيدى السلاجقة ، وحاولوا أن يؤسسوا لأنفسهم إمارات مستقلة فى آسيا الصغرى . وأوضح مثل لهذا النوع من المغامرين النورمان رسل باليل الذى سبق أن أشرنا إليه ، والذى صار فى وقت ما مهيمنا على إقليم كابادوكيا والجهات المجاورة (١٠٧٣ — ١٠٧٤)[2] .

وكان أن حاول روبرت جويسكارد أن يحذو حذو رسل باليل ويقيم دولة نورمانية فى الأناضول على حساب البيزنطيين والسلاجقة جميعاً . لذلك أنزل روبرت قواته فى صيف سنة ١٠٨١ عند افلونا ومنها اتجه إلى دورازو حيث هزم قوات ألكسيوس كومنين واستولى على ذلك الموقع الهام فى أوائل سنة ١٠٨٢[3] . وبعد ذلك زحف روبرت على القسطنطينية مباشرة ولكنه اضطر أثناء زحفه عليها إلى العودة إلى إيطاليا حيث كانت أحوالها تستدعى وجوده ؛ فترك قيادة قواته فى البلقان فى صيف سنة ١٠٨٢ لابنه بوهيموند الذى صار فيما بعد بطلا من أبطال الحملة الصليبية الأولى[4] .

وقد استطاع بوهيموند أن ينزل الهزيمة بألكسيوس كومنين أكثر من مرة، كما استولى على عدة مراكز هامة فى أبيروس ومقدونيا وتساليا بحيث أوشكت الامبراطورية على السقوط فى أيدى النورمان مما جعل ألكسيوس كومنين

(1) Longnon : Les Francais d'Outremer au Moyen—Age, p. p. 26—28.
(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 168—169.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 4, p. 329.
(4) Ostrogorsky : op. cit, p. 317.

يسرع إلى الاستنجاد بسليمان بن قتلمش زعيم سلاجقة الروم الذى أمد الإمبراطور بسبعة آلاف رجل ، وبفضل هذه النجدة استطاع الأمبراطور البيزنطى أن يواجه الموقف وأن يحرز انتصاراً على بوهيموند فى تساليا ، فعاد بوهيموند إلى إيطاليا لإحضار إمدادات جديدة (سنة ١٠٨٣)[1] .

ولم يلبث أن حاول روبرت جويسكارد وابنه بوهيموند معاودة الكرة ، وتحديا الأسطول البندقى — المحالف للبيزنطيين — قرب كورفو[2] ؛ ولكن الحرب طالت بين الطرفين على سواحل ابيروس حتى توفى روبرت فى صيف ١٠٨٥ ، فانسحب النورمان بعد ذلك من البلقان عائدين إلى إيطاليا[3] .

ومع ذلك فإن خلفاء روبرت من ملوك النورمان — وبخاصة بوهيموند — لم ينسوا مطلقا طريق الشرق ، وهو الطريق الذى لم تلبث الحروب الصليبية أن أمدتهم بفرصة طيبة لاختراقه . والواقع إن المشاركة فى الحركة الصليبية كانت بالنسبة لبوهيموند تجديدا لحملة ١٠٨١ ، ومحاولة أخرى لتأسيس مملكة للنورمان فى المشرق ، وهو الأمر الذى تحقق فعلا باستيلاء النورمان على أنطاكية ، وإقامة إمارة لهم فيها .

(1) Vasiliev, op. cit, II, p. 381.
(2) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. p. 70—71.
(3) Cam. Med Hist; vol. 4, p. 330.

الفصل الخامس

الدعوة للحملة الصليبية الاولى

البابا أوربان الثانى وإعلان الحرب الصليبية :

أوضحنا فيما سبق أن الحروب الصليبية بمعناها الشامل بدأت فعلا قبل القرن الحادى عشر ، أى قبل أن يدعو البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥ للحملة التى عرفت فى التاريخ باسم الحملة الصليبية الأولى . فمنذ توسع المسلمين فى حوض البحر المتوسط ، والحروب لم تنقطع بينهم و بين المسيحيين الأوربيين . وقد اتخذت تلك الحروب صبغة دينية فى كثير من أدوارها ، واشتهرت من بين ميادينها آسيا الصغرى وأسبانيا وشمال أفريقية وصقلية ، فضلا عن بعض جزر البحر المتوسط مثل صقلية وكريت [١] .

على أنه بحلول القرن الحادى عشر واتجاه الغرب الأوربى نحو إرسال حملات كبرى لاسترداد بيت المقدس من المسلمين ، بدأت المرحلة النشطة فى الحركة الصليبية . والواقع إنه منذ كارثة مانزكرت التى حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١ وأباطرة الدولة الرومانية الشرقية لا ينقطعون عن طلب النجدة العاجلة من البابوية ضد السلاجقة المسلمين . من ذلك أن الامبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١ — ١٠٧٩) ألح على البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) فى إرسال نجدة سريعة لإنقاذ الامبراطورية البيزنطية وأراضيها فى آسيا الصغرى ، ووعد ميخائيل بأن يرد الجميل للبابوية بالعمل على إزالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية [٢] .

---

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 15. & L'Armenie Cilicienne, p. p. 16–17.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 270.

و يقال إن البابا جريجورى السابع — بما عرف عنه من حماسة دينية فائقة استجاب لتلك الدعوة ، وأرسل إلى ملوك أوربا وأمرائها يوضح لهم سوء موقف المسيحيين فى الشرق ، وما تعانيه الامبراطورية البيزنطية من آلام وأخطار نتيجة لتوسع الأتراك المسلمين ؛ ولكن دعوة البابا ذهبت مع الريح . هذا إلى أن البابوية شغلت فى ذلك الدور بالصراع مع هنرى الرابع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة حول مشكلة التقليد العلمانى ، مما جعل الامبراطورية البيزنطية تقف وحيدة أمام خطر السلاجقة[١] . وهكذا استمرت الأوضاع حتى عزل ميخائيل السابع سنة ١٠٧٩ ، وحل محله الامبراطور نقفور الثالث (١٠٧٩ — ١٠٨١) ، الذى أطاحت به هو الآخر ثورة قام بها الجيش وانتهت باعلان ألكسيوس كومنين امبراطورا (١٠٨١ - ١١١٨)[٢] .

وكان الامبراطور ألكسيوس رجلا قديرا ، حاول أن يعالج مختلف المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهت الامبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت . وعندما واجه ألكسيوس مشكلة السلاجقة وجد أنه لا قبل له بهم ، فاتجه من جديد نحو البابوية ، واتبع سياسة تجاه البابا أوربان الثانى (١٠٨٨ — ١٠٩٩) تتصف بالمرونة المطلقة واللباقة الفائقة [٣] . وهنا يبدو أن فكرة إرسال حملة صليبية إلى الشرق — بالصورة التى تم عليها الأمر فعلا — هذه الفكرة لم تكن من ابتكار الامبراطور ألكسيوس كومنين أو بطرس الناسك ، وإنما الذى يرجع إليه الفضل فى ابتكار هذه الفكرة وتنفيذها هو البابا أوربان الثانى نفسه . فى ضوء ماسمعه هذا البابا عن اضطهاد الأتراك السلاجقة للمسيحيين والحجاج ، بدأ أوربان الثانى يفكر فى مشروع لطرد المسلمين من آسيا ، بنفس

---

(1) Vasiliev, op. cit; I, p. 358.
(2) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. p. 47–50.
(3) Ostrogorsky : op. cit; p. p. 316–320.

الجهد والعزيمة التى يجرى بها طردهم من أسبانيا . هذا بالإضافة إلى ماسبق أن أشرنا إليه من وصول البابوية عندئذ إلى درجة كبيرة من سعة النفوذ والسلطان، مما جعلها تفكر فى انتهاز فرصة تلك الحرب ضد السلاجقة لبسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية [١] .

والواقع إن البابا أوربان الثانى كان أصلح شخصية معاصرة لتنفيذ المشروع الصليبى الجديد ؛ إذ كانت لديه الجرأة على الدعوة للحرب الصليبية ورعايتها ، فضلا عما عرف به من بعد النظر ومقدرة فى اختيار الرجال وتوجيههم والتأثير عليهم . ثم إن البابا أوربان الثانى لم يقل مرونة عن الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين ، فلم يكد ذلك البابا يلى منصب البابوية حتى فتح باب للمفاوضات مع الامبراطور البيزنطى لتسوية المشاكل المعلقة بين الطرفين ، كما رفع قرار الحرمان الذى كان موقعا على ذلك الإمبراطور [٢] ، الأمر الذى أدى إلى نوع من التقارب بين الكنيستين الشرقية والغربية و إلى منح الكنائس الكاثوليكية فى البلاد الأرثوذكسية قسطا من الحرية فى تصريف شئونها . وفى سنة ١٠٩٠ أرسل الإمبراطور ألكسيوس كومنين سفارة إلى البابا أوربان الثانى تحمل له اخلاص الإمبراطور ومحبته [٣] .

على أن تبادل السفارات والمجاملات لم يكف لتخليص آسيا الصغرى من خطر السلاجقة ، لذلك أراد الإمبراطور البيزنطى استغلال تلك العلاقات الطيبة مع البابوية للحصول على مساعدة عملية من الغرب ضد المسلمين ، فانتهز فرصة عقد مجمع دينى برآسة البابا فى بياكنزا — بشمال إيطاليا — فى مارس سنة ١٠٩٥ ، وأرسل بعثة من القسطنطينية لحضور المجمع وطلب مساعدة البابا [٤] . وقد نجح

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 226—227.
(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance, p. 307.
(3) Runciman : op. cit. I, p. p. 101 - 102
(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. 156.

مبعوثو الإمبراطور فى إقناع البابا بأن السلاجقة لايهددون الدولة البيزنطية وحدها و إنما يهددون المسيحية جمعاء ، وأن قوتهم أخذت فى الضعف والانحلال بحيث تكفى ضربة واحدة قوية للاجهاز عليهم ، وأنه لولا حاجة الإمبراطورية البيزنطية إلى الرجال ومسئولياتها الجسيمة فى حماية حدودها على امتداد الدانوب ، لقامت وحدها بتوجيه ضربة قاضية ضد السلاجقة . وكان أن آمن البابا أوربان الثانى بضرورة معاونة الإمبراطورية البيزنطية ضد المسلمين فضلا عما وجده فى هذه الفكرة من توجيه جهود الأمراء والفرسان وجهة صالحة تخفف من الحروب والمنازعات المحلية الدائرة بينهم فى غرب أوربا . وازداد إيمان بقية رجال الكنيسة الغربية بتلك الفكرة عندما سمح للمندوبين البيزنطيين بالكلام فى المجمع للتدليل على وجهة نظرهم [١] .

على أن البابا أوربان الثانى اختار أن يحيط مشروعه الجديد بالسرية التامة ، وأخذ يقلب الفكرة فى ذهنه ، وهو فى طريقه إلى كليرمونت لعقد مجمع دينى للنظر فى بعض المسائل الكنسية المتباينة ، ومن جملتها توقيع عقوبة الحرمان على ملك فرنسا فيلب الأول . وعندما انعقد هذا المجمع الدينى فى كليرمونت فى نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، انقضت الأيام التسعة الأولى منه فى مناقشة المسائل الكنسية المختلفة، حتى إذا ماتم ذلك وجه البابا دعوته فى اليوم العاشر إلى المسيحيين جميعاً للاتحاد لاستخلاص الأراضى المقدسة من المسلمين [٢] . وقد عرض البابا على المجتمعين — فى أسلوب بلاغى جذاب — مدى ماتعانيه الأراضى المقدسة وحجاجها من متاعب بسبب سيطرة المسلمين عليها ، الأمر الذى صار يتطلب من المسيحيين الغربيين الإسراع لنجدة إخوانهم فى الشرق . و نلاحظ أن أوربان الثانى وجه دعوته هذه للقادرين والفقراء سواء ، ليترك الجميع مشاحناتهم فى غرب أوربا و يوجهون

(1) Cam.Med. Hist. vol. 4, p. 272.
(2) Michaud : Hist. des Croisades, I, p.p.92—94.

جهودهم ضد المسلمين فى الشرق ، حيث يرعاهم الله و يبارك جهودهم و يغفر ذنوبهم؛ ثم نادى البابا بالإسراع فى تقديم النجدة بحث يكون جميع المتطوعين على أهبة الرحيل إلى الشرق مع بداية فصل الصيف[1] .

وخلاصة القول أننا نخرج من أقوال المؤرخين المعاصرين الموثوق فيهم أن فكرة الحرب الصليبية نبعت من خطبة البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت ، ولم تنشأ — كما ظن البعض — من دعوة بطرس الناسك ومواعظه . ذلك أن نداء البابا لم يلبث أن صادف استجابة من جمهور الحاضرين فى كليرمونت ، فصاحوا جميعاً صيحة رجل واحد : « هذه مشيئة الله Deus lo volt » ، وجاءت هذه الصيحة إيذاناً ببداية صفحة جديدة فى تاريخ الحركة الصليبية قدر لها أن تستمر عدة قرون[2] .

ولم يكد البابا أوربان الثانى يفرغ من خطبته التى دعا فيها لحرب المسلمين ، حتى جثا أدهمار — أسقف بوى Puy — أمام قدمى البابا راجياً أن يكون له شرف المساهمة فى الحرب المقدسة ضد المسلمين ، و بذلك صار ذلك الأسقف أول من افتتح قائمة المتطوعين ، واختاره البابا أوربان مندوبا بابوياً فى الحملة الأولى[3] . وكان معنى حرص البابوية على تعيين مندوب عنها يرافق الصليبيين فى رحلاتهم إلى الشرق ، أنها أرادت تحقيق إشرافها وسيطرة الكنيسة على الحركة الصليبية وعلى الأراضى التى سيفتحها وفعلا حدث بعد ذلك — عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس — أن نادى المطران دايمبرت Daimbert بأن هذه المدينة إنما من نصيب البابوية ، ودخل فى نزاع بسبب ذلك الموضوع مع بلدوين الأول مؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية[4] .

(1) Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p. p. 37—41.
(2) Vasiliev : op. cit; II, p. 402.
(3) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 273.
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 4.

وجدير بالملاحظة أن أحداً من كبار الأمراء العلمانيين لم يكن حاضراً مجمع كليرمونت ليبدى استعداده للمشاركة فى تلك الحرب المنتظرة ضد المسلمين فى الشرق . وقد أحس البابا أوربان الثانى من أول الأمر بأن مشروعه الصليبى فى حاجة إلى تأييد من القوى العلمانية ، فجمع الأساقفة وأصدر المجمع قراراً بأن كل من يشترك فى الحرب المقدسة تغفر له ذنوبه ، فضلا عن أن ممتلكات الصليبيين ستوضع تحت حماية الكنيسة ورعايتها طوال مدة غيابهم[1] . كذلك استقر الرأى على أن يحيك كل محارب صليباً من القماش الأحمر على ردائه الخارجى من ناحية الكتف رمزاً للحركة التى اشترك فيها والفكرة التى خرج ليحارب من أجلها . ثم إن كل من يضع هذا الصليب بغية المشاركة فى الحرب المقدسة ، عليه أن يتجه فوراً إلى الشرق ، فإذا تردد وعاد دون أن يؤدى واجبه أو أظهر تقاعساً عن تأدية ذلك الواجب ، فإنه يتعرض لعقوبة الحرمان[2] .

ولكن هيمنة الكنيسة على تلك الحركة الصليبية لم تلبث أن تعرضت لهزة عنيفة عند ما أعلن آحد كبار أمراء فرنسا — وهو ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس (١٠٨٨ — ١١٠٥) عزمه على المشاركة فى المشروع الصليبى الذى دعا له البابا . ولم تكن هذه المرة الأولى التى أعلن فيها ذلك الأمير الحرب على المسلمين ، إذ سبق له أن شارك فى حربهم فى أسبانيا ، كما يروى ميخائيل السريانى أن ريموند سبق أن حج إلى بيت المقدس[3] . وهكذا تجمعت عوامل كثيرة لتجعل الزعامة العسكرية للحملة الصليبية المقبلة لريموند على أن تبقى الزعامة الروحية للمندوب البابوى أدهمار .

أما عن البابا أوربان الثانى فلم يكتف بما قاله فى كليرمونت و إنما أخذ يتنقل

(1) Chalandon : Hist. de la Premiere Croisade, p p. 44—45.
(2) Runciman : op. cit, I, p. p. 108—109.
(3) Michel Le Syrien : (Rec. Hist. Cr. Doc. Arm.) I, p. 327.

بين المدن والبلدان داعياً للحرب الصليبية ، فعقد مجمعاً فى ليموج Limoges (ديسمبر ١٠٩٥) ، وكرر الدعوة نفسها فى أنجرز ومان وتورز وبواتييه و بوردو وتولوز وغيرها (يناير — يونيه ١٠٩٦) . وأخيراً اصطحب البابا معه الأمير ريموند الرابع فى مجمع نيم (يوليه ١٠٩٦) مما يثبت أن هذا الأمير قام مع البابا بدور جذرى فى الإعداد للحملة الصليبية الأولى ، وإن لم يعين رسمياً قائداً لتلك الحملة[١] ثم إن ريموند هو الذى نبه البابا إلى ضرورة الاعتماد على مسانده قوة بحرية لتنفيذ مشروع الحرب الصليبية ، فأرسل أوربان الثانى مبعوثين إلى جنوا طالباً مشاركتها فى المشروع الصليبى الكبير . ولم يلبث الجنوية أن استجابوا لدعوة البابا ، فأعدوا اثنتى عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة ، فضلا عن ناقلة كبيرة[٢] . وبذلك حققت جنوا لنفسها سبقاً كبيراً مكنها من اكتساب حقوق فى بلاد الشام ، وهى حقوق لم يستطع البيازنة أو البنادقة الظفر بها إلا بعد جهد طويل[٣]

وأخيراً عاد البابا أوربان الثانى إلى إيطاليا فى أواخر سنة ١٠٩٦ بعد أن تأكد من نجاح مشروعه الصليبى، إذ أقبل بعض الأمراء وكثير من الناس على المشاركة فى الحركة الجديدة ، ليس فقط من البلدان القريبة — مثل فرنسا وإيطاليا واسبانيا — بل أيضاً من البلدان البعيدة مثل سكتلندا ودانمرك وغيرها[٤] .

حملات العامة والدعاة :

أثارت دعوة البابا أوربان الثانى حركة شعبية ضخمة ترتبط فى التاريخ عادة باسم بطرس الناسك . ذلك أنه إذا كان البابا قد طلب من الأساقفة الدعوة

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p 273.
(2) Heyd : Hist du Comnerce, Tome I, p. 133.
(3) Setton : op. cit; I, p. 252.
(4) Runciman, op. cit,; I, p. 112.

للحرب الصليبية ، فإن الأمر لم يقتصر عليهم ، وإنما ظهرت طائفة جديدة من الدعاة قاموا بجهد كبير واسع النطاق فى الدعاية لمشروع الحرب المقدسة . ويذكر التاريخ دائما على رأس هؤلاء الدعاة اسم بطرس الناسك ، وهو رجل متقدم فى السن حاول أن يقوم بالحج إلى بيت المقدس ولكنه تعرض فى الطريق لضغط الأتراك فعاد إلى بلده دون أن يحقق أمنيته ، مما ترك أثراً فى نفسه[١] . ويبدو أن حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيئته الغريبة - بثيابه المهلهلة وقدميه العاريتين وحماره الأعرج — جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العامة والدهماء فى غرب أوربا، بحيث أنهم كانوا لا يكادون يستمعون لحديثه حتى تغلب عليهم الحماسة فيجتمعون فى سرعة غريبة ويشرعون فى الزحف صوب الشرق ، دون إعطاء البابا والأمراء أدنى فرصة لتنظيم الحركة الصليبية تنظيما جدياً من الناحيتين السياسية والحربية[٢] .

وقد مضى بطرس الناسك فى دعوته بقوة ، فطاف بمختلف أقاليم فرنسا مثل أورليان وشامبنى واللورين ، وخرج من هذه الأقاليم بعدد ضخم من الأتباع — — حوالى خمسة عشر ألفاً — اصطحب بعضهم نساءهم وأطفالهم ! وهنا نكرر أن فصاحة بطرس الناسك وقوة تأثيره لم تكن وحدها العوامل التى أدت إلى استجابة تلك الجموع الغفيرة من الفقراء والمعدمين للدعوة الصليبية . فهناك الظروف القاسية التى عاش فيها الفلاحون فى غرب أوربا فى تلك الفترة ، والتى كان لها أكبر الأثر فى ترحيبهم بالدعوة الصليبية بوصفها طريقاً للخلاص مما كانوا يقاسونه من أهوال . فكثير من الأراضى الزراعية تعرضت للخراب نتيجة لغزوات الفيكنج وغيرهم من البرابرة ، فقلت الأقوات فى الوقت الذى ازدادت أعداد السكان . ثم إن الحروب والمنازعات بين الأمراء والإقطاعيين أسهمت فى الإخلال

(1) Setton : op. cit; I, p. 78.
(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 5.

بالأمن وتعريض أرواح الناس للهلاك وممتلكاتهم للنهب ، مما جعل الغالبية العظمى من أهالى غرب أوربا يعيشون فى حال يرثى له من الفقر والحرمان والخوف دون أن يجدوا أى ضمان لحماية أرواحهم وممتلكاتهم وأرزاقهم (١) . فإذا أضفنا إلى ذلك كله النكبات الطبيعية والاقتصاديه التى عانى منها الغرب الأوربى وقت الدعوة للحرب الصليبية ، أدركنا السر الحقيقى لإقبال كثير من الفلاحين والمعدمين على المشاركة فى تلك الحرب ؛ إذ لا داعى للخوف من الموت وحرب المسلمين وهم فى حال أقرب إلى الموت فعلا . وكل ما هنالك هو أنه بدلا من أن يموت الرجل من الجوع فى بلده محملا بما عساه ارتكبه من ذنوب فى حياته ، فإن من الأفضل أن يموت فى حرب مقدسة مما يضمن له غفران ذنوبه ودخول الجنة (٢) .

وفى الوقت الذى كان بطرس الناسك ماضياً فى دعوته فى الغرب الأوربى، ظهر زعيم آخر من زعماء العامة اسمه والتر الملقب بالمفلس. وسرعان ما قاد والتر أتباعه عبر هنغاريا ثم اراضى الدولة البيزنطية ، وفى الطريق نست تلك الجموع أنهم يخترقون بلاداً مسيحية ، فأخذوا ينهبون و يسلبون و يعتدون على الأهالى الآمنين (٣) .

ومع ذلك فقد رحب الحكام البيزنطيون فى البلقان بتلك الجموع الصليبية رغم مظهرها الرث الذى يدل على سوء تنظيمها وجهل أفرادها بأبسط مبادىء القتال. وهكذا شق الصليبيون طريقهم إلى صوفيا وأدرنة حتى بلغوا القسطنطينية فى يوليه سنة ١٠٩٦ ، وهناك سمح لهم الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين بالانتظار خارج اسوار العاصمة حتى وصول بطرس الناسك . ولا بد أن يكون

(1) Michaud : op. cit, Tome, I, p. p 105—106.
(2) Runciman : op. cit, I, p. p. 114—115.
(3) Vasiliev : op. cit; vol. II, p. 404.

الامبراطور قد تأكد فى تلك الأثناء من سوء استعداد أولئك الصليبيين وحاجتهم إلى التنظيم (١) .

أما بطرس الناسك فقد غادر كولونيا فى إبريل سنة ١٠٩٦ على رأس جموعه مخترقا ألمانيا وهنغاريا ، حتى وصلوا إلى الحدود الهنغارية البيزنطية . وقبل أن يغادر الصليبيون بلدة سملين Semlin الهنغارية وقع خلاف بينهم و بين الهنغاريين بسبب الحصول على الميرة اللازمة لهم ، فلم يكن من الصليبيين إلا أن أحدثوا مذبحة رهيبة فى تلك البلدة الهنغارية أسفرت عن قتل أربعة آلاف من أهلها الأبرياء (٢) . ولا شك فى أن هذه الجريمة البشعة التى أتاها الصليبيون كان لها أثرها فى إثارة ريبة البيزنطيين وتشككهم فى تلك الجموع التى أتت إلى الشرق لتحارب باسم المسيح والمسيحية ، وفى الوقت نفسه لم تتورع عن ذبح آلاف المسيحيين الأبرياء . لذلك رأى الإمبراطور البيزنطى ألا يترك لأولئك الصليبيين فرصة للعبث بأراضى الأمبراطورية ومدنها ، ووضع خطة استهدفت تخليص الامبراطورية البيزنطية من شرهم فى أقصر مدة ممكنة . وفعلا تولى بعض الموظفين البيزنطيين قيادة الصليبيين سريعاً صوب القسطنطينية ، وإن كان أتباع بطرس الناسك قد استمروا فى طريقهم إلى البسفور ينهبون و يسلبون كل ما وصل إلى أيديهم ، فهبوا بلجراد ونيش وغيرها من المدن والقرى الآهلة ، حتى وصلوا فى نهاية المطاف إلى أسوار القسطنطينية فى أول أغسطس سنة ١٠٩٦ حيث وجدوا والتر المفلس وجموعه فى انتظارهم (٣) .

وعلى الرغم من البوادر السيئة التى بدرت من من الصليبيين أثناء عبورهم أراضى الإمبراطورية الشرقية ، إلا أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين أحسن

(1) Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 61—62.
(2) Albert d'Aix : Hist. Occid , IV, p. 276.
(3) Cam. Med. Hist. vol 5, p. p. 275—276.

استقبال بطرس الناسك وقدم له ولأتباعه النصح بألا يتعجلوا فى العبور إلى آسيا الصغرى قبل أن تصل إليهم امدادات وقوات نظامية من الغرب تساعدهم على الصمود فى وجه الأتراك السلاجقة[1] . على أن انتظار تلك الجموع أمام أسوار القسطنطينية لم يلبث أن سبب متاعب جمة للدولة ، إذ أخذ الصليبيون يواصلون نهب القرى والضياع المجاورة ، و يعتدون على الأهالى و يسلبونهم أقواتهم وأمتعتهم ، بل إن الكنائس لم تسلم من اعتداءات أولئك الرعاع[2] .

وهكذا أحس الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين وشعبه بخيبة أمل واضحة ، بعد أن طلبوا من البابوية إمدادهم بجيوش حربية منظمة تساعدهم فى خطر المسلمين ، فإذا بهم يفاجئون بوصول آلاف من الدهماء دخلوا أراضى الإمبراطورية ليحصلوا على الغذاء والكساء إن لم يكن بالطريق السلمى فليكن عن طريق السلب والنهب والاعتداء على رعايا الإمبراطور الآمنين[3] . وأمام ذلك الخطر الجديد بدأ ألكسيوس كومنين يعيد النظر فى سياسته ، فدفعه الخوف على عاصمته إلى الإسراع بنقل الصليبيين إلى الشاطىء الآسيوى للبسفور ، و بدأت هذه العملية فعلا فى أوائل أغسطس سنة ١٠٩٦ . ومع ذلك فإن الإمبراطور ألكسيوس استمر يحسن النصح للصليبيين ، فأشار عليهم بالتجمع والانتظار عند أحد المراكز الحصينة قرب البسفور ، حتى تأتيهم الإمدادات والجيوش النظامية من الغرب[4] . ولكن جموع العامة لم يستطيعوا ضبط أنفسهم والكف عن النهب والسلب ، فاستمروا يعتدون على المزارع والضياع والقرى والكنائس القريبة ، وأخذوا يوسعون دائرة نشاطهم دون أن يدروا أن نيقية — قاعدة

---

(1) Chalandon : Premiere Croisade, p. p 76—77.
(2) Brehier : Vie et Mort de Byzance p. 310.
(3) Runciman : op. cit; I, p. p. 115—116.
(4) Cam. Med. Hist; vol. 5, p. 276.

السلطان قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش — على بعد عدة كيلومترات فقط منهم[1] .

ولم تلبث أن بدأت المناوشات بين الصليبيين من جهة والأتراك السلاجقة من جهة أخرى . وقد أحرز الصليبيون بعض انتصارات محلية فى تلك المناوشات الأولى ، مما جعلهم يغترون بقوتهم و يتمادون فى الإغارة على أراضى السلاجقة . فى أكتوبر سنة ١٠٩٦ انتهز الصليبيون فرصة ذهاب بطرس الناسك إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور البيزنطى وقرروا الزحف على نيقية[2] . وكانت عدة الصليبيين خمسة وعشرون ألفاً منهم خمسمائة فارس فقط على أكثر تقدير ، والباقون من المشاة المعدمين الذين لا يربطهم نظام ولا توحد بين صفوفهم قيادة . وعندما باغت السلاجقة الصليبيين أثناء زحفهم ، لم تستطع غالبية العامة المقاومة ، فأعمل فيهم السلاجقة ذبحاً وتقتيلا بحيث لم ينج من ذلك الجمع الحاشد من الصليبيين إلا نحو ثلاثة آلاف . وقد أسرع الإمبراطور ألكسيوس كومنين — عند ما سمع بنبأ الكارثة — إلى إرسال بعض سفنه الحربية تحمل إمدادات إلى الصليبيين ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ؛ فحملت فلول الصليبيين إلى القسطنطينية حيث ظلوا فى رعاية الإمبراطور حتى وصول حملة الأمراء[3] .

وهكذا أخفقت حملة العامة التى قادها بطرس الناسك ووالتر المفلس . ولم تكن بقية الحملات المماثلة التى قادها فولكمار Volkmar وجوتشوك Gottschalk و إميخ Emich أحسن حالا ، بل على العكس صارت كلها وصمة سوداء فى تاريخ الحركة الصليبية[4] .

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 8.
(2) Vasiliev : op. cit; II, p. 405.
(3) Ostrogorsky : op. cit, p. 321.
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 9.

الصليبيون واليهود :

انتشر اليهود على هيئة جاليات عديدة على طول الطرق التجارية فى غرب أوربا . وقد ظل هؤلاء اليهود طوال العصور الوسطى على صلة وثيقة باخوانهم يهود الشرق — فى البلدان الإسلامية أو فى الدولة البيزنطية — مما قوى مركزهم التجارى والاقتصادى ومكنهم من القيام بنشاط مالى كبير وتأسيس عدة بيوت لاقراض الأموال للأمراء والفرسان وغيرهم [1]. ومن المعروف عن اليهود فى كل زمان ومكان أنهم لايرحمون من يتعامل معهم ، فوقع فى شباكهم عدد كبير من المدينين فى أوربا العصور الوسطى ، وهؤلاء ساءت أحوالهم المادية نتيجة للفوائد الباهظة التى فرضها اليهود عليهم . ثم جاءت الحروب الصليبية لتضيف إلى قائمة المدينين عددا كبيرا من الفرسان ، الذين اضطروا إلى اقتراض المال لإعداد العدة وتجهيز أنفسهم بالسلاح اللازم للحرب المقدسة ؛ مما أثار نوعا من الاستياء العام ضد أولئك المرابين المستغلين فى غرب أوربا على عصر الحركة الصليبية [2] .

ثم إن موقف اليهود أنفسهم من مشروع الحرب الصليبية كان موقفا معاديا . ففى ديسمبر سنة ١٠٩٥ كتب اليهود فى شمال فرنسا إلى إخوانهم فى ألمانيا يحذرونهم من أن الحركة الصليبية ستعود بالضرر على اليهود ؛ و بالتالى فقد أخذ اليهود ـ عن طريق خلاياهم وجالياتهم المنبثة فى مختلف أجزاء الغرب الأوربى ـ يعرقلون جهود الصليبيين . وكان أن انتشرت إشاعات مؤداها أن جودفرى بوابون — الذى كان يعد عدته للمشاركة فى الحرب الصليبية — قد أقسم على أن ينتقم للمسيح بقتل جميع اليهود . وعندما انتشرت هذه الشائعة ، لجأ يهود

(1) Pirenne : Economic and Social Hist. of Med. Europe, p. 133.

(2) Thompson : Economic and Social Hist. of the M ddle Ages p. 394.

مينز وكولونيا فى حوض الراين إلى أسلوبهم الرخيص الذى لايعرفون غيره حتى اليوم ، فجمعوا الأموال وقدموها لجودفرى بوايون على سبيل الرشوة ليعدل عن نواياه [1] .

على أن مثل هذه الحلول كانت لا يمكن أن تنجح فى جعل أتباع الكنيسة ــ وهم فى موجة حماستهم الدينية ــ يغفرون لليهود مسلكهم تجاه المسيحيين الأوائل . و إذا كانت الحركة الصليبية قد أيقظت فى المسيحيين روح الانتقام من أعدائهم ، فلماذا يختص المسيحيون المسلمين بذلك العداء و يتركون اليهود؟ أليس اليهود هم الذين صلبوا المسيح عليه السلام ؟ ألم يكن اليهود هم الذين حاولوا سحق المسيحية وهى فى المهد ؟ أليسوا هم الذين اضطهدوا المسيحيين الأوائل وشردوهم وحرضوا عليهم الحكام الرومان ليعملوا فيهم قتلا وتذبيحا ؟ [2] وهكذا لم يكن منتظرا أن تمر موجة الحماسة الصليبية بسلام دون أن يصيب اليهود فى أوربا شيئا من رشاشها .

وكان أن تجمع فى حوض الراين فى إبريل سنة ١٠٩٦ جمع كبير من الصليبيين الألمان ، زاد عددهم على عشرة آلاف ، تحت قيادة فولكمار ، ومن هناك شرعوا فى الزحف شرقا للحاق ببطرس الناسك . وفى الوقت الذى شقت تلك المجموعة طريقها نحو براغ ، إذا بمجموعة أخرى تتكون بعد قليل فى حوض الراين بزعامة الأمير إميخ Emich [3] . وقد استهل إميخ هذا نشاطه الصليبى فى أوائل مايو سنة ١٠٩٦ بمهاجمة اليهود فى مدينة سبير Spier ونهب أموالهم وقتل اثنى عشر يهوديا ، فى حين لم ينقذ الباقى سوى أسقف المدينة الذى استظلهم بحمايته . ولم يكد إميخ وجموعه يصلون بعد ذلك إلى ورمز حتى انتشرت إشاعة بأن اليهود قتلوا

(1) Runciman : op. cit; I, p. p. 135—136.

(2) Cary : A Hist. of Rome, p p. 589—590.

(3) Setton : op. cit, I, p. p. 263—265.

مسيحياً وحفظوا جثته فى إناء به ماء ليستخدموا ذلك الماء فى تسميم آبار المدينة[1] . وسرعان ما أدى انتشار هذه الإشاعة إلى اشتراك الفلاحين من الجهات والضواحى القريبة مع رجال إميخ فى إحداث مذبحة كبرى باليهود (٢٠ مايو) ، هلك فيها أكثر من خمسمائة يهودى[2] . ثم اتجه إميخ بعد ذلك إلى مينز حيث أغلق رئيس الأساقفة أبواب المدينة فى وجه الصليبيين . على أن اقتراب رجال إميخ من مينز أدى إلى قيام حركة ضد اليهود قتل أثناءها أحد اليهود ، وعندئذ فتح الناس أبواب المدينة للصليبيين الذين اقتحموا المبانى التى اختبأ فيها اليهود وقتلوهم ، فى حين أعلن بعضهم اعتناقه المسيحية لينجو من ذلك المصير الرهيب . وقد قدر عدد قتلى اليهود فى حوادث مينز وحدها بألف قتيل[3] . ولم تكن حوادث مينز هى الأخيرة بالنسبة لليهود فى حوض الراين ؛ وإنما اتجه إميخ ورجاله بعد ذلك صوب كولونيا حيث قتلوا بعضهم ، ثم قصدوا القسطنطينية بعد ذلك عن طريق هنغاريا .

وسرعان ما وصلت أخبار ما فعله إميخ باليهود إلى مسامع بعض الجماعات الصليبية التى سبقت إلى الشرق ؛ ففعل فولكمار وأتباعه باليهود فى براغ مثلما فعله إميخ بهم فى مدن الراين (٣٠ يونيه) . وقد حاول فولكمار أن يكرر التمثيلية ضد اليهود فى مدن هنغاريا ، ولكن الهنغاريين لم يسمحوا له بذلك وهاجموه وأعوانه من الصليبيين ففرقوهم وقتلوا كثيرا منهم . وعندما أتى بعد ذلك إميخ ورجاله إلى هنغاريا ، قابلهم الهنغاريون بنفس الأسلوب ، مما أدى إلى تدمير حملتى إميخ وفولكمار فى هنغاريا[4] .

---

(1) Grousset : Hist; des Croisades, I, p. 10.
(2) Cam. Med. Hist., vol. 5, p 277.
(3) Albert d'Aix, IV. p. p. 292--293.
(4) Runciman : op. cit; I' p. p. 134-- 141.

هذا ، وقد استمر شعور العداء تجاه اليهود فى غرب أوربا طوال عصر الحروب الصليبية . ولم تكن البابوية نفسها أقل عداء لليهود ، فأصدر البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ مرسوماً بابوياً يحد من استغلال اليهود للصليبيين سواء فى عمليات الإقراض أو رهن الممتلكات أو غير ذلك[1] .

---

(1) Thompson : Economic and Social Hist. p.409.

الفصل السادس

الأمراء الصليبيون والدولة البيزنطية

جودفرى بوايون وألكسيوس كومنين :

فى الوقت الذى أخذت حملات العامة من المعدمين والغوغاء يذبحون فى اليهود ويعتدون على الشعوب الأوربية المسيحية التى سلكوا أراضيها ، جرى تنظيم الشطر الثانى من الحملة الصليبية الأولى — وهو الشطر المعروف بحملة الأمراء — وإعداده إعداداً رتيباً . والواقع إن الشطر الخاص بالأمراء فى الحملة الصليبية الأولى تألف من عدة حملات أو جموع ، لكل منها طابعها المميز الذى لازمها منذ أول الأمر ، وميز نشاطها فى الشرق [1] . و بعبارة أخرى فإن الروح الإقطاعية بدت واضحة فى الشطر النظامى من الحملة الصليبية الأولى ، إذ تولى زعامتها عدة أمراء لكل منهم اتجاهاته وجنده وسياسته الخاصة ، مما جعل تلك الحملة فى حقيقة أمرها عبارة عن عدة حملات ربما عملت أحيانا فى اتجاهات متعارضة [2] .

أما المجموعة الأولى من حملة الأمراء فكان على رأسها جودفرى بوايون أمير لوثرنجيا و برفقته أخوه بلدوين البولونى ، فضلا عن عدد آخر من كبار الأمراء [3] .

و يبدو أن المكانة الممتازة التى تمتع بها جودفرى بوايون فى الامبراطورية المقدسة ، وأهمية الامارات التى شارك أصحابها فى تلك الحملة ، جعلت لها مكانة خاصة دفعت كثيراً من الفرسان إلى الانضمام إليها ، فاكتسبت طابعا مميزاً من أول

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. p 279—280.
(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٦٥ .
(3) Michaud : Hist. des Croisades, I, p. p. 146—147.

الأمر [1] . هذا مع ملاحظة أن معظم المشتركين فى هذه الحملة كانوا من القطاع اللاتينى فى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ولم يكن من القطاع الألمانى سوى القليل ، مما جعل الطابع العام لحملة جودفرى بوايون فرنسيا . وقد ظهر أثر ذلك عندما استقر أولئك الصليبيون ببلاد الشام ، إذسرعان ماذبلت العلاقات الاقطاعية التى ربطتهم بامبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وأقاموا مملكية جديدة فى بيت المقدس وفق النظم والتقاليد الفرنسية [2] .

وكانت حملة جودفرى بوايون أول حملة صليبية نظامية شقت سبيلها إلى الشرق . وقد سلكت طريق هنغاريا — مثل حملات العامة التى سبقتها — فى وقت كان الهنغاريون مازالوا يحملون كثيراً من الحقد والضغينة للصليبيين ، بعد الضرر الذى لحق بهم على أيدى جموع بطرس الناسك وفولكار و إميخ [3] . لذلك رأى جودفرى أن يبدد تلك المخاوف عند الهنغاريين قبل أن يعبر بلادهم ، فعقد اجتماعا مع كولومان ملك هنغاريا على الحدود الهنغارية الألمانية . وفى ذلك الاجتماع قدم جودفرى أخاه بلدوين البولونى ليظل رهينة لدى الملك الهنغارى حتى يتم انتقال قواته عبر الأراضى الهنغارية . وفى الوقت نفسه أصدر جودفرى أوامر مشددة لرجاله ليحول بينهم و بين أعمال النهب والعدوان على الأهالى أو ممتلكاتهم [4] .

و بوصول جودفرى بوايون إلى الحدود البيزنطية فى أواخر نوفمبر سنة ١٠٩٦ بدأت « المسألة الصليبية » فى تاريخ الدولة البيزنطية . ففى ذلك الدور بالذات وضع الإمبراطور ألكسيوس كومنين سياسة ثابتة تجاه الصليبيين ، وهى السياسة

(1) Runciman : op. cit; I, p. 147.
(2) Grousset : op. cit; I, p. 12.
(3) Setton : op. cit; I, p. 268.
(4) Albert d'Aix. IV, p. p. 299—305.

التى لم يتخل عنها خلفاؤه أباطرة القسطنطينية طوال قرن من الزمان . ذلك أن ألكسيوس كومنين أراد أن يستغل الحركة الصليبية و يسخرها لتحقيق أهدافه ومصالح دولته الخاصة ، فلما فشل فى ذلك انقلبت سياسته تجاه الصليبيين إلى عداء صريح[1] . وقد بدأ الإمبراطور البيزنطى بإرسال رسل إلى جودفرى بوايون لاستقباله فيما بين بلغراد ونيش ، وهناك عقدوا معه اتفاقية تمهيدية باسم الإمبراطور ، تعهد فيها جودفرى بمنع رجاله من القيـــام بأى عمل من أعمال السلب والنهب داخل أراضى الإمبراطورية ، مثلما فعل أتباع بطرس الناسك وغيرهم من جموع العامة . وفى مقابل ذلك تعهدت الإمبراطورية بامداد الصليبيين بكل ما يلزمهم من تموين ، حتى وصولهم إلى جبهة الحرب ضد السلاجقة[2] .

وعلى أساس الاتفاقية السابقة استأنف الصليبيون طريقهم حتى وصلوا إلى شاطىء بحر مرمرة حيث توقفوا قليلا للراحة على شاطئه عند بلدة سليمبريا Selymbria ، وكان ذلك حوالى منتصف ديسمبر سنة ١٠٩٦ . على أنه حدث فى ذلك المكان أن أفلت زمام الصليبيين فترة من يد جودفرى ، وفقدوا روح النظام التى تحلوا بها حتى ذلك الوقت ، فقام رجال جودفرى بنهب سليمبريا[3] .

ومهما يكن من أمر ، فإن أهم ما كان يعنى الإمبراطور البيزنطى فى ذلك الدور هو تحديد الجانب القانونى للعلاقة بينه و بين الصليبيين . فالحرب الصليبية جاءت شيئاً جديداً على الغرب الأوربى ، فى حين كان الصراع ضد المسلمين أمراً مألوفاً للبيزنطيين منذ القرن السابع . وهكذا أراد الإمبراطور البيزنطى أن يتصور حملة جودفرى بوايون فى صورة نجدة سريعة وصلته وسط معركة طويلة ضد المسلمين ، لنصرة المسيحية وطرد السلاجقة من الأراضى التى احتلوها فى آسيا[4] .

(1) Chalandon : Regne d'Alexis Comnene, p. p. 164—165.
(2) Albert d'Aix, IV, p. p. 299—305.
(3) Idem, p. p. 304—305.
(4) Brehier : op. cit; p. 310.

والواقع أنه منذ وصول حركة الفتوح الإسلامية إلى شواطى البحر المتوسط فى القرن السابع ، والدولة البيزنطية فى صراع ضد المسلمين لا يكاد يهدأ قليلا حتى يشتد طويلا . ومنذ توسع السلاجقة فى الشرق الأدنى والدولة البيزنطية تتحمل وحدها الضربة تلو الأخرى من جراء ذلك التوسع . و بعبارة أخرى فإن الدولة البيزنطية — وليس الغرب الأوربى — هى التى تولت عبء الدفاع عن الأماكن المقدسة فى الشرق ضد المسلمين طوال عدة قرون ؛ فلا أقل من أن يتولى الإمبراطور البيزنطى قيادة الجيوش الصليبية التى أخذت تفد من الغرب الأوربى منذ أواخر القرن الحادى عشر لمحاربة المسلمين[1] .

وربما أراد الإمبراطور ألكسيوس كومنين أن يجعل من جودفرى بوايون صورة للقائد النورمانى رسل باليل الذى سبق أن حضر على رأس جموعه لمحاربة السلاجقة تحت راية الإمبراطور البيزنطى . وكل ما هنالك هو أن جودفرى جاء أكثر قوة وعتادا من سلفه رسل باليل ، مما جعله يبدو أعظم نفعا للإمبراطورية البيزنطية وأكثر قدرة على خدمة أغراضها ؛ وفى الوقت نفسه أدرك ألكسيوس أن قوة جودفرى من الممكن أن تجعله أكثر خطراً على الإمبراطورية ومصالحها[2] . ولعل الدرس الذى أخذته الامبراطورية من ثورة رسل باليل عليها واغتصابه أراضيها وانضمامه إلى السلاجقة ضدها ، هذا الدرس لم تكن الامبراطورية البيزنطية قد نسته بعد عندما وصل جودفرى بوايون على رأس جيوشه إلى أراضى الإمبراطورية فى أواخر القرن الحادى عشر . لذلك حرص الإمبراطور ألكسيوس على ألا تتكرر مأساة رسل باليل ، وبدأ يتصرف تجاه جودفرى فى شىء من الحزم ، فطلب منه أن يقسم يمين الولاء للامبراطور ، بمعنى أن يقسم القائد الصليبى أن يكون تابعا للامبراطور البيزنطى

(1) Grousset, op. cit, I, p 16.
(2) Chalandon : Premiere Croisade, p p. 119—121.

فى الأراضى الآسيوية التى عساه ينجح فى استردادها من المسلمين[١] .

هذه هى وجهة نظر الامبراطور ألكسيوس كومنين . ويبدو أنه لم يستهدف أى هدف آخر عدا إقناع جودفرى بالولاء للامبراطورية ورد الأراضى التى يستردها من السلاجقة فى آسيا . وهـذا الأمر وحده كان كافياً لتحديد العلاقة بين الامبراطورية البيزنطية من ناحية والصليبيين الغربيين من ناحية أخرى . وكان الإمبراطور ألكسيوس — عندما سمع بما فعله الصليبيون فى سليمبريا — قد أرسل إلى جودفرى طالباً منه ردع قواته عن النهب ، والحضور ومعه رجاله أمام أسوار القسطنطينية ، فحضر جودفرى على رأس قواته وعسكروا أمام سور العاصمة فى ديسمبر سنة ١٠٩٦ ، وعندئذ أرسل ألكسيوس إلى جود فرى مرحباً داعياً إياه لمقابلته ، ليقسم له يمين الولاء[٢] . على أن جود فرى بوايون رفض تلك الدعوة ، لأنه بحكم مركزه فى الإمبراطورية المقدسة ، وبحكم تبعيته للامبراطور الغربى كان يتعذر عليه أن يقسم يمين التبعية والولاء للامبراطور البيزنطى[٣] . وكيف كان يستطيع أمير أن يوزع ولاءه بين الإمبراطور هنرى الرابع فى الغرب والامبراطور ألكسيوس كومنين فى الشرق ، مع ما بين الإمبراطوريتين من تنافر ؟ وأخطر من هذا ، كيف يستطيع جودفرى — وهو الأمير الكاثوليكى الذى وفد على رأس حملته تنفيذاً لدعوة البابا أوربان الثانى — أن يقدم ولاءه

(1) Runciman : op. cit; I. p. 149.
(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 176.
(٣) أشار ابن الأثير إشارة سريعة إلى ما نشأ من خلاف بين زعماء الحملة الصليبية الأولى والإمبراطور البيزنطى ، واشتراط الإمبراطور على أولئك الزعماء تسليمه ما يفتحونه من بلاد وعلى أن يقسموا له يمين الولاء . فقال فى حوادث سنة ٤٩١ هـ : « فلما عزم الفرنج على قصد الشام ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد المسلمين ويسيروا فى البر فيكون أسهل عليهم . فلما وصلوا إليها ، منعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده ، وقال : لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا أنكم تسلموا لى أنطاكية ! »
(الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

للامبراطور البيزنطى حامى الكنيسة الأرثوذكسية ، مع ما بين الكنيستين الشرقية والغربية من شقاق ونفور ؟ فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة جودفرى فى عدم توريط زملائه الأمراء الصليبيين اللاحقين به ، أدركنا حرج موقفه وأسباب تمنعه عن تلبية دعوة الإمبراطور البيزنطى[١] . لذلك أخذ جودفرى يماطل فى تحديد موعد المقابلة مع الإمبراطور حتى تصل بقية الجيوش الصليبية من الغرب ، فيتخذ الأمراء الغربيون موقفاً موحداً تجاه الإمبراطور البيزنطى ويضطرونه إلى التنازل عن مطالبه . هذا وإن كانت بعض المراجع تعلل تمنع جودفرى عن مقابلة الإمبراطور بأنه كان يخشى على نفسه من غدر الإمبراطور ، وأنه طلب رهائن تبقى لدى رجاله لحين عودته إليهم سالماً ، وهو الطلب الذى اعتبره الإمبراطور إهانة له ، وماساً بشرفه[٢] .

وعندما ضاق ألكسيوس بتسويف جودفرى ، وأدرك أنه يماطل لكسب الوقت اتخذ قراراً خطيراً هو منع تموين الصليبيين ؛ فرد الصليبيون على ذلك بنهب الضياع والضواحى المحيطة بالقسطنطينية مما جعل الإمبراطور يعدل بسرعة عن قراره[٣] . وفى الوقت نفسه عمل الإمبراطور على استرضاء الصليبيين بالسماح لهم بالإقامة فى ضاحية بيرا Pera ـ من ضواحى القسطنطينية ـ حتى يحتموا بها من قسوة الشتاء من ناحية ، وحيث يسهل على الإمبراطور مراقبتهم والإشراف عليهم من ناحية أخرى[٤] .

على أن هذه الإجراءات من جانب ألكسيوس لم تحل المشكلة ، إذ ظل جود فرى بوايون طوال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٠٩٧ قابعاً مع جنوده

(1) Runciman : op. cit; I. p. p. 149—150.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p 281.
(3) Brehier : op. cit; p. 311.
(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. p. 178—179.

فى بيرا ، ورفض أن يؤدى يمين الولاء للامبراطور البيزنطى أو حتى يقبل دعوته لمقابلته . وعندما أحس الإمبراطور بأن الصليبيين النورمان تحت قيادة بوهيموند فى طريقهم من إيطاليا إلى القسطنطينية عن طريق مقدونيا ، فكر فى إجراء سريع للحيلولة دون التقاء هاتين المجموعتين من الصليبيين ، فمنع التموين عن قوات جودفرى مرة أخرى (أوائل إبريل سنة ١٠٩٧) مما أدى إلى صدام جديد بين البيزنطيين والصليبيين . وكان أن هاجم الصليبيون البيزنطيين فى بيرا ، و بعد ذلك انسحبت قوات جودفرى منها بعد أن نهبتها وأحرقتها وأخذت تعيث فساداً فى المناطق القريبة من القرن الذهبى ، بل لقد هاجمت أسوار القسطنطينية نفسها[١] . و بإزاء ذلك اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى أن يأمر جيشه بمهاجمة الصليبيين لدفع خطرهم ، ففر رجال جود فرى ولم يستطيعوا الصمود أمام الجيش البيزنطى ، وهكذا أدرك جود فرى بوايون حقيقة قوته ولم يجد بداً من مسالمة الإمبراطور[٢] .

وأخيراً اضطر جودفرى بوايون إلى قبول شروط ألكسيوس كومنين . فقصد القصر الإمبراطورى لتقديم ولاءه للامبراطور البيزنطى و إعلان وضع حملته الصليبية فى خدمة الامبراطورية لاسترداد الأراضى التى اغتصبها السلاجقة من الإمبراطورية[٣] . و بعبارة أخرى فقد تعهد جود فرى بوايون بتسليم الامبراطور جميع الأراضى التى كانت ملكا للامبراطورية البيزنطية قبل موقعة مانزكرت ، والتى سيستردها الصليبيون من السلاجقة . ومعنى ذلك أن الاتفاق لا يشمل فقط البلاد والمدن الواقعة فى الأناضول مثل نيقية ، بل يشمل أيضاً البلاد والمدن الواقعة فى أطراف الشام والعراق مثل أنطاكية والرها . وهكذا جاءت تلك الاتفاقية

(1) Albert d'Aix, p. p. 307—308.
(2) Runciman : op. cit; I, p. 151.
(3) Guillaume de Tyr, I, p. p. 87—88.

التى تمت فى أبريل سنة ١٠٩٧ واضحة حاسمة ، مما جعل الإمبراطورية البيزنطية تعتمد عليها وتتمسك بها فى المطالبة بحقوقها من الصليبيين طوال القرن الثانى عشر . وزاد من تعقيد المشكلة أن الإمبراطورية البيزنطية اختارت ألا تفسر الاتفاقية السابقة فى ضوء ما كان للامبراطورية من ممتلكات فى القرن الحادى عشر – على عهد باسل الثانى – وإنما فى ضوء ما كان للامبراطورية قديماً من أملاك واسعة فى الشرق على عهد الإمبراطور جستنيان . وفى تلك الحالة لم تكتف الإمبراطورية بالمطالبة بحقها فى أنطاكية والرها ، وإنما طالبت أيضاً ببيت المقدس وطرابلس . على أننا سنرى أن الصليبيين لم يكادوا يثبتون أقدامهم فى تلك المدن و يستولون عليها ، حتى تناسوا كل ما للامبراطورية من حقوق وكل ما قدموه لها من وعود مما أثار مشاكل طويلة بين الجانبين طوال القرن الثانى عشر[١] .

ومهما يكن من أمر ، فإن يمين الولاء الذى أقسمه جود فرى بوايون جعل منه – ولو من الناحية الأدبية – تابعاً للامبراطورية البيزنطية . وكان أن غمر الإمبراطور ألكسيوس الأمير جودفرى بالهدايا الثمينة والخيول المطهمة ، كما غالى فى إمداد الجيش الصليبى بالإمدادات السخية[٢] . وفى عاشر أبريل سنة ١٠٩٧ أمر ألكسيوس كومنين بنقل جود فرى وجيشه إلى الشاطىء الآسيوى حيث انتظر جودفرى وصول الحملة النورمانية . ولم يكد يتم نقل جيش جودفرى إلى البر الآسيوى حتى وصل جيش النورمان بقيادة بوهيموند إلى أسوار القسطنطينية ، و بذلك يكون ألكسيوس كومنين قد نجح فى تنفيذ خطته الخاصة بعدم اجتماع الحملتين – حملة جودفرى وحملة بوهيموند – أمام أسوار عاصمته ، ليتمكن من مفاوضة كل فريق على حدة[٣] .

(1) Grousset : op. cit, I, p 19.
(2) Michaud : Hist. des Croisades, I, p. 176.
(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 183.

بوهيموند النورمانى وألكسيوس كومنين .

كان ذلك فى مستهل سنة ١٠٩٦ عندما أخذ بوهيموند النورمانى — أكبر أبناء روبرت جويسكارد — يحاصر مدينة أمالفى التى ثارت ضد النورمان فى إيطاليا . وفى تلك الأثناء ترامت إلى مسامع بوهيموند أن جيوشاً غفيرة خرجت من فرنسا ولوثرنجيا وألمانيا فى طريقها إلى بيت المقدس[1] . ولم يكد بوهيموند يتأكد من طبيعة تلك الحركة وأهدافها حتى ترك حصار أمالفى وأزمع هو الآخر الخروج إلى الشرق على رأس حملة نورمانية كبيرة وبصحبته ابن أخته تنكرد وغيره من أمراء النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية . وفى نوفمبر سنة ١٠٩٦ نزلت الحملة النورمانية ، فى أفلونا Avlona على شاطىء ألبانيا ، ومنها اخترقت البلقان شرقاً عن طريق تراقيا إلى القسطنطينية[2] .

على أن حملة النورمان الصليبية سرعان ما سببت فزعا للبلاط البيزنطى أكثر من حملة جودفرى . فهل حقيقة أن تلك الحملة النورمانية الكبيرة ليست إلا مجرد حملة صليبية استهدفت حرب المسلمين ، أم أن لها أغراض وأهداف وأطماع أخرى فى قلب الدولة البيزنطية نفسها ؟ إن النورمان بالذات لهم سوابق خطيرة فى الهجوم على الإمبراطورية البيزنطية ، فضلا عن أن هذه الحملة جاء على رأسها ابن روبرت جويسكارد الذى مازالت محاولته لغزو الدولة البيزنطية وتهديد القسطنطينية نفسها سنة ١٠٨١ ماثلة فى أذهان البيزنطيين[3] . هذه هى المخاوف التى أثارتها حملة بوهيموند فى نفوس المعاصرين فى الإمبراطورية البيزنطية ، وهى مخاوف أثبتت الأحداث بعد قليل عدم صحتها ، لأن بوهيموند

(1) Setton : op. cit, p. 155.
(2) Runciman : op. cit, I, p. 155.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 282.

نفسه كان يدرك تماما عدم مناسبة الوقت للقيام بمحاولة توسعية جديدة على حساب الدولة البيزنطيـة فى البلقان ، وأن أية محاولة من هـذا النوع تحت ستار الحرب الصليبية ستقابل بالاستهجان فى جميع أنحاء العالم المسيحى وستسىء إلى النورمان إساءة بالغة . وربما كان أقرب إلى الصواب القول بأن بوهيموند رأى فى الحروب الصليبية فى الشرق فرصة تمكنه من تحقيق ما فشل رسل بالليل فيه، وهو إقامة إمارة للنورمان فى آسيا على حساب السلاجقة والبيزنطيين جميعاً ؛ ولتكن هذه الإمارة الجديدة فى أنطاكية[1] !

وهكذا سار بوهيموند على رأس جموعه قاصداً القسطنطينية ، وفى أثناء سيرهم فى البلقان نجح بوهيموند فى كبح جماحهم ، فمنعهم من الاعتداء على الأهالى وأموالهم، بل على العكس كثيراً ما أظهر البيزنطيون وأهل البلقان عداءهم للنورمان ، فى الوقت الذى قابل بوهيموند تلك الإساءات بشىء من ضبط النفس والتسامح حتى لا يثير شكوك الإمبراطورية[2] . وبهذه السياسة الحكيمة نجح بوهيموند فى كسب ثقة الامبراطور ألكسيوس كومنين ، الذى أمر بإمداد القوات النورمانية بكل ما احتاجت إليه من ميرة طوال طريقها إلى القسطنطينية[3] .

وعندما اقترب النورمان من القسطنطينية فى إبريل سنة ١٠٩٧ طلب بوهيموند مقابلة الامبراطور ألكسيوس ليصالحه ويعبر له عن اخلاصه ونواياه الطيبة ، فوافق الامبراطور على ذلك بشرط أن يدخل بوهيموند القسطنطينية بمفرده ويترك جيشه خارجها . والواقع إن بوهيموند بالذات كان أخطر الزعماء الصليبيين فى نظر الامبراطور البيزنطى ، ليس بسبب التجارب المريرة السابقة التى ذاقتها الامبراطورية البيزنطية من النورمان ومطامعهم فحسب ؛ وإنما أيضاً

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 21.
(2) Chalandon : Premiere Croisade, p.p. 133—136.
(3) Gesta Francorum, p. p. 20—21.

بسبب كفاية قوات بوهيموند وحسن إعدادها وتنظيمها وقوة تسليحها ، مما جعل الحملة النورمانية تبدو قوة رهيبة داخل أراضى الدولة البيزنطية [1] .

على أن تطور الأمور سرعان ما أظهر أن شيئا من هذه المخاوف لم يتحقق ، إذ أطاع بوهيموند رغبة الامبراطور وتقدم إلى القسطنطينية بمفرده تاركا قيادة الجيش النورمانى لابن أخته تنكرد . والواقع إن بوهيموند أظهر حكمة بالغة فى ذلك الدور ، إذ كان يدرك حقيقة قوة الامبراطورية البيزنطية ، وأن الصليبيين دون مساعدتها لن يستطيعوا تحقيق هدف واحد من أهدافهم فى الشرق ، فضلا عن أن النزاع بين الصليبيين والبيزنطيين لن يعود إلا بالخسارة على الطرفين ، فى حين من الممكن أن يحقق التحالف بين الطرفين نتائج مفيدة للمسيحيين أجمعين . هذا كله بالإضافة إلى ما كان يرمى إليه بوهيموند من كسب مساعدة الامبراطور البيزنطى ليتمكن عن طريق هذه المساعدة من تحقيق أطماعه فى الشرق ، وهى المطامع التى تتلخص فى فرض نوع من الزعامة على بقية زعماء الصليبيين من ناحية ، وفى إنشاء مملكة لبوهيموند فى الشرق تغنيه عن المنازعات التى دبت فى إيطاليا وصقلية بين أفراد البيت النورمانى عقب وفاة أبيه روبرت جويسكارد ، من ناحية أخرى [2] .

وكان أن تمت المقابلة بين بوهيموند والامبراطور ألكسيوس كومنين فى جو مشبع بالود والتفاهم . وسرعان ما أقسم بوهيموند يمين الولاء للامبراطور وأعلن تبعيته له ، فغمره — هو الآخر — بالأموال والهدايا الثمينة . ولما كانت هذه التبعية تحمل بين طياتها مبدأ الحد من أطماع بوهيموند ونشاطه فى الشرق ، لأنه سيفتح مايفتحه من بلاد باسم الإمبراطور البيزنطى ، فإن بوهيموند رأى أن يحتاط لنفسه ومستقبله ، فطلب من ألكسيوس منحه إقطاعاً كبيراً فى

(1) Runciman : op. cit, I, p. 157.
(2) Chalandon : Premiere Croisade, p. 132.

إقليم أنطاكية . وهنا لبى الإمبراطور طلب بوهيموند ، فوعده بمنطقة واسعة حول أنطاكية طولها مسيرة خمسة عشر يوما وعرضها مسيرة ثمانية أيام [1] . وبذلك تكون هذه الاتفاقية قد حددت مولد إمارة أنطاكية النورمانية ، وهى الإمارة التى صار لها شأن كبير فيما بعد فى تاريخ الصليبيين بالشام .

أما ماطلبه بوهيموند من الإمبراطور بخصوص تعيينه قائدا عاما للقوات الإمبراطورية فى آسيا ، فإن ألكسيوس كومنين لم يمكنه أن يحقق ذلك الطلب بحكم تشككه فى الصليبيين عامة والنورمان خاصة ، ولذلك أجاب على بوهيموند بأن الوقت لم يحن بعد للبت فى ذلك الموضوع وأنه من الممكن أن يصل بوهيموند إلى تحقيق رغبته هذه عن طريق إثبات ولائه وحسن نيته [2] .

وبفضل سياسة بوهيموند وحسن تصرفه و بعد نظره ، سارت الأمور بين السلطات البيزنطية من ناحية والنورمان من ناحية أخرى على خيرمايرام ، فانتقلت حملة النورمان إلى الشاطىء الآسيوى فى ٢٦ ابريل لتحتل مكانها إلى جانب حملة جودفرى بوايون . هذا مع ملاحظة أن بقية زعماء الحملة النورمانية — وبخاصة ريتشارد دى سالرنو وتنكرد — تجنبوا قسم يمين الولاء للامبراطور البيزنطى ، وعبروا البسفور على رأس الجيش النورمانى إلى آسيا الصغرى دون أن يرتبطوا بأى رباط مع الإمبراطور [3] .

ريموند دى تولوز وألكسيوس كومنين :

أما الجموع الصليبية الوافدة من إقليم بروڤانس ، فقد وصلت إلى الأراضى

(1) Gesta Francorum, p. 31.
(2) Brehier : op. cit; p. 312.
(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 282.

البيزنطية فى الوقت نفسه تقريبا الذى شهد وصول حملة النورمان . وكانت هذه الحملة البروفنسالية تحت زعامة ريموند الرابع أمير تولوز و بروفانس . ولما كانت البابوية تطمع دائما فى الاحتفاظ بسيطرتها على الحركة الصليبية ، فقد أوفد البابا مع ريموند الرابع الاسقف أدهمار — أسقف بوى — ليكون مندوبا يمثل البابوية فى زعامة الصليبيين بالشرق (٢) . وقد بارحت تلك الحملة الغرب فى اكتوبر سنة ١٠٩٦ فاجتازت شمال إيطاليا إلى كرواتيا فدلماشيا وألبانيا ومقدونيا ثم القسطنطينية ، دون أن تصادف عقبات كثيرة فى الطريق فيما يختص بناحية التموين . وكل ما هنالك هو أن الأهالى فى الإمبراطورية البيزنطية أظهروا أحيانا شعور العداء تجاه الصليبيين ، لاسيما وأن قوات ريموند نفسها كانت غير منظمة وجنحت للنهب والعدوان مما جعل البيزنطيين لايترددون فى ردعهم (٢) .

وعندما اقتربت الحملة من القسطنطينية دعا الإمبراطور ألكسيوس كومنين زعيمها ريموند لمقابلته بمفرده فى العاصمة ، فتمت المقابلة فى أواخر ابريل سنة ١٠٩٧ ، وعندئذ طلب الإمبراطور من ريموند أن يقسم له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل من سبقه من زعماء الجموع الصليبية . وهنا وجد ريموند نفسه فى مركز لايحسد عليه . ذلك أنه كان يطمع فى الحصول على زعامة الصليبيين جميعا فى الشرق بحكم صلته بالبابوية ومرافقه المندوب البابوى لحملته ، وهوشرف لم تحظ به بقية الحملات الصليبية السابقه . ولكن هذه الزعامة التى اعتمدت على تأييد البابوية لايمكن أن تتفق ويمين الولاء للامبراطور البيزنطى ، راعى الكنيسة الأرثوذكسية . هذا إلى أن ريموند كان يرى فى بوهيموند النورمانى غريمه ومنافسه الأول . فإذا كان هذا المنافس قد نجح فعلا فى اكتساب صداقة

(1) Iorga : Breve Hist. des Croisades, p. 51.
(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 24—25.

الإمبراطور البيزنطى وتأييده ، فإن معنى قبول ريموند أن يقسم يمين الولاء للامبراطور هو أنه سيضطر فى المستقبل إلى قبول العمل تحت زعامة غريمه بوهيموند ، وهو مالا يمكن أن يقبله (١) . لذلك كله رفض ريموند بشدة تلبية رغبة الامبراطور ، وقالها فى صراحة أنه لم يحمل الصليب ليخضع لسيد غير السيد المسيح ، ولم يغادر بلاده ليحارب من أجل سيد غير السيد المسيح (٢) . ثم إن ريموند استنكر أن يدخل فى تبعية الامبراطور ، فى حين يظل الأخير قابعا فى القسطنطينية لا يريد أن يرافق الصليبيين فى حرب المسلمين . لذلك أعلن ريموند أنه مستعد لإعلان تبعيته للامبراطور البيزنطى إذا خرج الامبراطور على رأس الصليبيين بنفسه وتولى قيادتهم فى الحرب الصليبية (٣) .

وسرعان ماتأزم الموقف بين ريموند من جهة والامبراطور ألكسيوس من جهة أخرى ، مما أنذر بحدوث صدام مسلح بين الطرفين . وهنا تدخل جودفرى بوايون وقال لريموند أنه من الحماقة أن يفكر فى شن الحرب على المسيحيين فى القسطنطينية ، فى الوقت الذى يرابط السلاجقة المسلمون على بعد عدة كيلو مترات قليلة من نيقية (٤) . أما بوهيموند النورمانى الذى كان قد سوى أموره مع الامبراطور ، فقد أعلن فى صراحة وقوفه إلى جانب ألكسيوس كومنين فى حالة وقوع صدام مسلح بين الطرفين . وأخيرا اضطر ريموند تحت تأثير الضغط الواقع عليه إلى الوصول إلى اتفاق مع الامبراطور البيزنطى . حقيقة إن ريموند أبى بتاتا أن يقسم يمين الولاء والتبعية للامبراطور ، ولكنه وافق على أن يقسم على احترام حياة الامبراطور وشرفه ، وألا يقوم هو ورجاله بعمل يسىء إلى الامبراطور (٥) .

(1) Runciman : op. cit; I, p. 163.
(2) Raymond : d'Aigles (Hist. Occid. III), p. 238.
(3) Cam. Med. Hist, vol. 5, p. 283.
(4) Raymond d'Aigles p. 238.
(5) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 283.

ولم تلبث أن تحسنت العلاقات بين الامبراطور البيزنطى وريموند بفضل جهود أدهمار المندوب البابوى[1]. هذا إلى أن ريموند أتيحت له فرصة عقد اجتماع منفرد مع ألكسيوس كومنين، وفى ذلك الاجتماع صرح الامبراطور بتخوفه من بوهيموند والنورمان ، وأنه لا يمكن أن يقلد بوهيموند زعامة القوات الامبراطورية فى آسيا. وعندما سمع ريموند تلك التصريحات من فم الامبراطور طاب قلبا وهدأ نفسا ، وبدأ يدرك أنه من الممكن أن يجد فى الامبراطور البيزنطى حليفا قويا ضد بوهيموند وأطماعه . ومنذ تلك اللحظة تبدلت سياسة ريموند تجاه الامبراطورية البيزنطية تبدلا تاما[2] .

الحملة الفرنسية وألكسيوس كومنين :

وأخيرا وصلت مجموعة رابعة من الصليبيين لتلتقى مع بقية الجموع الصليبية على شاطىء البسفور . وقد تألفت هذه الحملة من الفرنسيين تحت زعامة روبرت أمير نورمنديا — وهو ابن وليم الفاتح — ، وصهره إتين (ستفن) أمير بلوا وشارتر[3]. وبعد أن مرت الحملة بإيطاليا حيث باركها البابا أوربان الثانى ، استقلت السفن من برنديزى إلى البلقان فى أوائل ابريل سنة ١٠٩٧ ، فأرست فى دورازو ومنها اخترقت البلقان إلى القسطنطينية . ويبدو أن ألكسيوس كومنين لم يواجه من تلك الحملة متاعب وصعوبات مثلما لاقى من الحملات السابقة[4]. ولم يمانع زعيما هذه الحملة -- كونت نورمنديا وكونت بلوا — مطلقا فى أن يقسما يمين الولاء والتبعية

---

(1) Setton : op. cit., I, p p. 287—288.

(2) Runciman, op. cit; I, p. 164.

(3) Michaud : Hist, des Croisades, I, p. 178.

(4) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), p.p. 331—332.

للامبراطور البيزنطى ، ولذا حرص الامبراطور على أن يغدق عليهما وعلى رجالهما الإمدادات والمؤن والإنعامات فضلا عن الأموال والخيول المطهمة[1]. وبعد أن قضى هؤلاء الصليبيون أسبوعين فى القسطنطينية ، عبروا البسفور إلى آسيا الصغرى وأسرعوا فى اللحاق ببقية الصليبيين الذين كانوا قد شرعوا فعلا فى حصار نيقية .[2]

---

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. p. 188—189.

(2) Brehier : op. cit; p. 312.

الفصل السابع

الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة الروم

الاستيلاء على نيقية وتسليمها للبيزنطيين :

أقسم جميع زعماء الحملة الصليبية الأولى — باستثناء ريموند وتنكرد — يمين الولاء والتبعية للامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين ، وتعهدوا له برد كافة الممتلكات البيزنطية القديمة التى يستطيعون استردادها من السلاجقة ، من نيقية حتى أنطاكية . وفى مقابل ذلك تعهد الامبراطور البيزنطى بمساعدة الصليبيين فى مهمتهم بكل قواه ، وأن يسهم هو الآخر بدوره فى الحرب الصليبية ، وأن يمدهم بفرق من الجيش البيزنطى فى حالة عدم تمكنه من مرافقتهم شخصيا [1] . ويميل بعض المؤرخين إلى الظن بأن اتفاقية شاملة بهذا المعنى تم إبرامها فى منتصف مايو سنة ١٠٩٧ بين الامبراطور ألكسيوس كومنين والأمير بوهيموند الذى كان يحاول الظهور دائما فى صورة الحليف الأول للامبراطور البيزنطى [2] .

وأخيرا تجمعت القوات الصليبية كلها على الشاطىء الآسيوى قرب أزمير حيث حضر بطرس الناسك لمقابلة الأمراء ومعه حطام حملة العامة . وهناك تم الاتفاق على أن يبدأ الصليبيون بالهجوم على مدينة نيقية ، المركز الرئيسى لقلج أرسلان الأول ومقر حكمه . ومن الواضح أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون المضى فى جوف آسيا الصغرى تاركين خلفهم نيقية بأيدى السلاجقة ، مما يهددهم ويهدد خطوط مواصلاتهم مع الامبراطورية البيزنطية لخطر جسيم . لذلك صدرت

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 27.
(2) Chalaudon : Alexis Comnene p. 188.

الأوامر إلى الصليبيين فى أواخر ابريل سنة ١٠٩٧ بالزحف على نيقية لاستخلاصها من السلاجقة . وقد أمد الامبراطور البيزنطى الصليبيين بآلات الحصار والطعام والمؤن ، ولكن لم تشترك سوى فرقة صغيرة من القوات البيزنطية فى حصار نيقية ، وهى المدينة القوية التحصين [1] .

وفى ذلك الوقت كان قلج أرسلان متغيبا عن نيقية ، حيث دخل فى نزاع فى كابادوكيا مع بنى دانشمند حول مدينة ملطية . ويبدو أن قلج أرسلان لم يهتم كثيرا بأنباء الغزو الصليبى ، إذ ظن أن الأمر لا يعدو وصول بعض جموع أخرى من العامة غير المدربين ، من عينة أتباع بطرس الناسك الذين قضى عليهم السلاجقة فى سهولة تامة [2] . هذا إلى أن عيون الإمبراطور البيزنطى وجواسيسه أعطوا قلج أرسلان صورة غير حقيقية عن الخلافات المستحكمة بين الامبراطور من جهة والأمراء الصليبيين من جهة أخرى ، مما جعل السلطان السلجوقى يطمئن إلى أن الصليبيين لن يصلوا بأى حال إلى نيقية ، بدليل أنه ترك زوجته وأولاده وأمواله داخل أسوار المدينة ولم يحاول نقلهم منها [3] .

ولكن قلج أرسلان لم يلبث أن أدرك جدية الأمر ، وأن جيوش الصليبيين تلك المرة غير جيوش بطرس الناسك فى المرة السابقة ، فأرسل قوة على عجل للدفاع عن نيقية وإنقاذها ؛ على أن تلك القوة لم تصل نيقية إلا بعد فوات الأوان لأن الصليبيين كانوا قد أدركوا نيقية فى ٦ مايو سنة ١٠٩٧ وحاصروها وأخذوا يهاجمونها بعد أسبوع [4] . ثم كان أن حضر السلطان قلج أرسلان نفسه فى حوالى ٢١ مايو وبدأ بمهاجمة الصليبيين فور وصوله ، ولكنه أدرك بعد معركة قصيرة أنه من الخير له أن ينسحب لأن قوة الصليبيين أعظم مما كان يتوقع . وإذا

(1) Cam. Med Hist, vol. 5. p. 285.
(2) Setton : op. cit; I. p. p. 288—289.
(3) Runciman : op. cit, I, p. 176—177.
(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 29.

كانت خسارة السلاجقة قد جاءت كبيرة فى تلك المعركة ، فإن خسارة الصليبيين كانت فادحة أيضا ، ومع ذلك فإن انتصارهم أحيى روحهم المعنوية وبث فيهم قوة جديدة [١] .

وفى تلك الأثناء لم يتقاعس الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بالمؤن والزاد ، كما أرسل أسطولا صغيرا من السفن إلى البحيرة التى تقع عليها مدينة نيقية لتسهيل تزويد الصليبيين بالمؤن والإمدادات[٢] . وعندما يئست حامية نيقية من وصول إمدادات إليها من قلج أرسلان بدأت تفكر فى الاستسلام . ولكن أهل نيقية من الأتراك خشوا عنف الصليبيين وانتقامهم ، فأخذوا يتصلون سرا برجال الامبراطور البيزنطى لعله يكون أكثر رحمة بهم من الصليبيين . هذا فى الوقت الذى كان ألكسيوس كومنين متخوفا من نوايا ريموند وتنكرد — بعد أن رفضا أن يقسما له يمين الولاء والتبعية — وخشى أن يعارض هذان الأميران فى تسليم نيقية عقب سقوطها للامبراطورية أو يتعرض الصليبيون للمدينة بالسلب والتدمير [٣] . لذلك تدخل الإمبراطور البيزنطى بسرعة ، وفاوض حامية نيقية على أساس تأمين أرواح أهل المدينة من الأتراك . ولم يلبث أن فوجىء الصليبيون بارتفاع الأعلام البيزنطية فوق نيقية

دون أن يعلموا شيئا عن المحادثات السرية التى دارت بين حامية المدينة من ناحية والامبراطور البيزنطى من ناحية أخرى . وبذلك عادت نيقية إلى أحضان الدولة البيزنطية فى ٢٦ يونيه سنة ١٠٩٧ ، أى بعد ستة عشر سنة من احتلال السلاجقة لها [٤] .

(1) Albet d'Aix, p. p. 320—321.
(2) Gesta : Francorum, p. 37.
(3) Chalandon : Alexis Comnene. p. 190.
(4) Brehier : op. cit, p. 312.

ولم يستطع الصليبيون إخفاء استيائهم من مسلك الامبراطور البيزنطى تجاه أسرى نيقية ، إذ ضايقهم تسامح الامبراطور مع الأسرى واستعداده لإطلاق سراح زوجة قلج أرسلان وأولاده دون فدية . وكان الامبراطور ألكسيوس — من معاملاته العديدة مع المسلمين — يدرك أهمية العفو عند المقدرة ، ويقدر قيمة التسامح مع خصمه المغلوب ، ولكن الصليبيين الغربيين لم يفهموا ذلك المنطق واعتبروا مسلك الامبراطور خيانة لهم وللقضية الصليبية [١] .

وقد أسرع الامبراطور ألكسيوس كومنين إلى دعوة زعماء الحملة الصليبية — غداة الاستيلاء على نيقية — للاجتماع به قبل أن يأذن لهم بالتوغل فى آسيا الصغرى . وفى ذلك الاجتماع جدد الزعماء الصليبيون يمين الولاء للامبراطور ، وكان بوهيموند أسبق الأمراء الصليبيين إلى تلبية دعوة الامبراطور والاستجابة له ، فى حين امتنع تنكرد وريموند عن الارتباط بيمين الولاء للامبراطور [٢] . ويبدو أن جميع زعماء الصليبيين — باستثناء تنكرد وريموند أدركوا أهمية الامبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم فى مشروعهم الخطير [٣] . حقيقة إن الامبراطور ألكسيوس لم يرافق الصليبيين بنفسه أثناء زحفهم على قونية ، ولكنه أمدهم بفرق من الجيش البيزنطى لمؤازرتهم وإرشادهم ، فضلا عن تقديم الإمدادات والمؤن لهم . وفيما عدا ذلك يبدو أن الصليبيين والبيزنطيين تقاسموا مهمة محاربة الأتراك فى الأناضول ، فبينما انصرف الصليبيون إلى محاربة السلاجقة فى فريجيا واختاروا الزحف على ضور ليوم وقونية ، إذا بالامبراطور ألكسيوس كومنين يوجه جهوده نحو طرد الأتراك من الشواطىء الغربية لآسيا الصغرى أى من أقاليم مسيا Mysie وأيونيا وليديا [٤] .

(1) Runciman, op. cit, I, p. p. 180—182.
(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. 193.
(3) Chalandon : Premiere Crasiade. p. 167.
(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 31.

وخلاصة القول أنه مهما يقال فى استياء الصليبيين من مسلك الامبراطور البيزنطى — سواء عند الاستيلاء على نيقية أو عند توزيع الأسلاب والغنائم أو فيما يختص بمعاملة أسرى المسلمين — فإن سقوط نيقية نفخ فى الصليبيين روحا وعزيمة شجعتهم على المضى قدما فى طريقهم ، بعد أن أدركوا خرافة الفكرة القائلة بأن السلاجقة لا يهزمون[1] . ثم إن الغرب الأوربى قابل أنباء سقوط نيقية بالفرح الكبير ، فتشجع من كان محجماً عن المشاركة فى الحركة الصليبية ، وأخذت الإمدادات تترى تباعا على الصليبيين وهم فى طريقهم إلى الشام . أما المدن الايطالية التى ظلت حتى ذلك الوقت تقف موقفا حذرا من الحركة الصليبية ، فلم تلبث أن تشجعت ونظرت إلى الأمر نظرة جدية جعلتها تسهم إسهاما فعليا فى تلك الحرب[1] .

موقعة ضورليوم والاستيلاء على قونية :

ثم كان أن غادر الصليبيون نيقية واستأنفوا سيرهم عبر فريجيا فى أواخر يونيه سنة ١٠٩٧ ، وهم يفيضون حماسة وقوة . ولم يلبث الصليبيون أن انقسموا إلى شعبتين ، وذلك لتسهيل عملية التموين أثناء الزحف من ناحية ، وللقضاء على نفوذ سلاجقة الروم فى أكبر مساحة ممكنة من ناحية أخرى ؛ فسارت إحدى الشعبتين فى الاتجاه الشمالى الشرقى والأخرى فى الاتجاه الجنوبى الشرقى ، على أن يلتقيا فى ضورليوم . وقد ضمت الشعبة الأولى النورمان جميعاً أى نورمان إيطاليا بزعامة بوهيموند وتنكرد ، ونورمان فرنسا بزعامة روبرت ؛ فى حين كان على

(١) ويقال إن الإمبراطور ألكسيوس كومنين حرص على ألا تتعرض نيقية لعدوان الصليبيين ونهبهم إياها ، فلم يسمح لهم بدخول المدينة إلا على هيئة جماعات صغيرة ولمدد محدودة
(Cam. Med. Hist. vol 5, p. p. 285)

(2) Runciman : op. cit; I, p. p. 182—183. & Setton : op. cit; I, p. 291.

رأس الشعبة الثانية المندوب البابوى أدهمار ومعه من الأمراء جودفرى بوايون وريموند .

ولم يكد الفريق النورمانى من الصليبيين يصل إلى مرتفعات ضورليوم حتى وجد نفسه فى مأزق خطير[1] . ذلك أن سقوط نيقية جعل البيتين الكبيرين من الأتراك فى آسيا الصغرى — وهما البيت السلجوقى وبنو دانشمند — يعقدان هدنة فيما بينهما لمواجهة ذلك الخطر المشترك الجديد ، فاتحد السلطان قلج أرسلان مع الأمير غازى بن دانشمند لسد الطريق فى وجه الصليبيين . وهكذا اجتمعت جميع قوى الأتراك فى آسيا الصغرى لمهاجمة الصليبيين فى سهول ضورليوم (٣٠ يونية) ، فوجد بوهيموند نفسه فى خطر محدق جعله يطلب النجدة على عجل من بقية الجيوش الصليبية التى تعمل فى الأناضول[2] . على أن وصول جودفرى بوايون ثم بقية القوات الصليبية تباعاً ، غير مصير المعركة المقبلة وقلبها رأساً على عقب ، إذ دارت الدائرة فى أول يوليو سنة ١٠٩٧ على الأتراك وانتصر الصليبيون وغنموا كميات ضخمة من المؤن والغنائم . ولا تخفى علينا أهمية موقعة ضورليوم ، إذ جاءت بمثابة إعلان آخر للعالم بظهور قوة جديدة على مسرح الشرق الأدنى هى قوة الصليبيين الغربيين الذين أثبتوا تفوقهم الحربى على القوة التى طالما عجزت أمامها الجيوش البيزنطية ، وهى قوة السلاجقة[3] .

و بعد أن استراح الصليبيون يومين عند ضورليوم ، واصلوا زحفهم فى ٤ يوليو فى الاتجاه الجنوبى الشرقى عبر فريجيا . ويبدو أن الصليبيين صادفوا كثيراً من المتاعب فى تلك المرحلة بسبب صعوبة الأرض وقلة الزاد وندرة الماء وارتفاع درجة حرارة الصيف ، حتى هلكت معظم خيولهم ودوابهم ولم يجدوا ما يحمل متاعهم

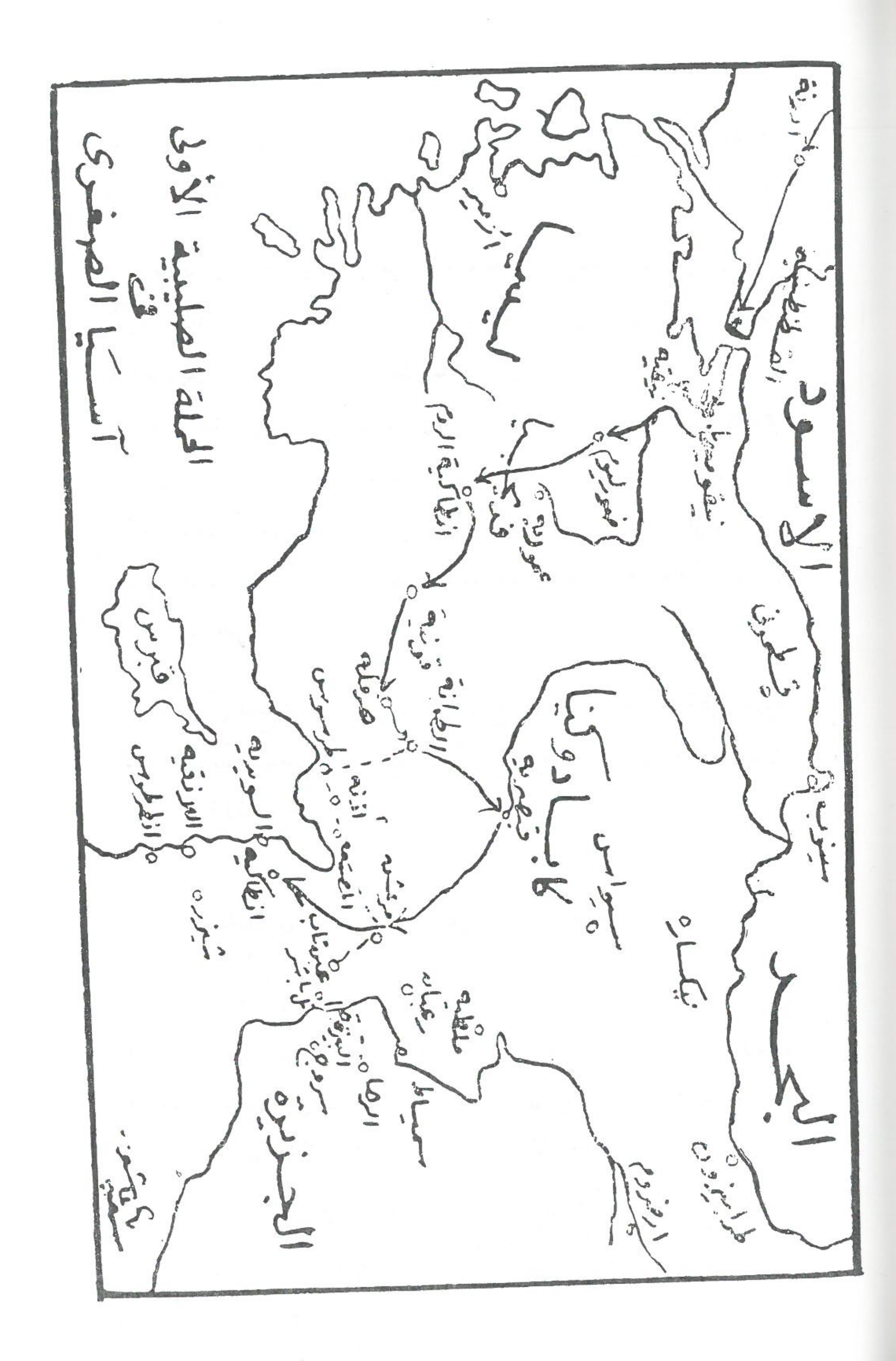
(1) Albert d'Aix, p. p. 328—329.
(2) Guillaume de Tyr, I, p. p. 129—130.
(3) Grousset : op. cit; I, p. 35.

وأثقالهم[١] . ومع ذلك استمر الصليبيون يقاسون الأمرين فى زحفهم حتى وصلوا أخيراً — حوالى منتصف أغسطس سنة ١٠٩٧ — إلى سهول قونية الغنية بكلائها وشجرها .

ولم ير الصليبيون مايدل على أن السلاجقة اعتزموا الدفاع عن قونية ، وإنما ظهر أن الخطة التى وضعها قلج أرسلان عقب الكارثة التى حلت بجيوشه فى ضوروليوم ، استهدفت الانسحاب إلى الداخل وإخلاء المدن أمام الصليبيين . وكان أن دخل الصليبيون قونية ليجدوها خالية الوفاض من الناس والزاد ؛ اللهم إلا من بعض الأرمن الذين قدموا النصح للصليبيين بأخذ كميات كافية من الماء قبل أن يقبلوا على اجتياز الصحراء المقفرة الواقعة بين قونية وهرقلة[٢] .

وقد حاول السلاجقة القيام بمحاولة أخيرة لصد الصليبيين عند هرقلة ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل[٣] . وبعد أن استراح الصليبيون بضعة أيام قليلة فى هرقلة انقسموا مرة أخرى إلى شعبتين ، فانشق تنكرد ومعه بلدوين — شقيق جودفرى بوايون — واتجهوا فى حوالى منتصف سبتمبر سنة ١٠٩٧ صوب قيليقية فى الركن الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى ، فى حين اتخذ بقية الصليبيين وعلى رأسهم المندوب البابوى وجودفرى نفسه وبوهيموند وريموند طريقاً شمالياً شرقياً صوب قيصرية التى استولوا عليها فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٠٩٧[٤] . ومن قيصرية اتجه الصليبيون صوب الجنوب الشرقى ، فاستولوا فى أوائل أكتوبر على بلاكتيا — وهى قلعة أرمينية فى جبال طوروس ذات موقع هام — كان بنو دانشمند يحاصرونها عندما أنقذها الصليبيون . وقد طالب القائد البيزنطى المرافق للصليبيين

(1) Gesta Francorum, p. 55.
(2) Gesta Francorum; p. p. 55—57
(3) Setton : op. cit; vol. 1; p. 295.
(4) Gesta : Francorum, p. 61.



تسليمه تلك القلعة باسم الامبراطور ، فوافق الصليبيون على ذلك ، مما يثبت وفاءهم بتعهداتهم للامبراطور حتى تلك المرحلة [١] .

و بعد أن مر الصليبيون ببعض القرى والضياع الأرمينية حيث رحب بهم الأرمن وأظهروا لهم الود والصداقة ، اخترقوا مجموعة من سلاسل طوروس المائية للوصول إلى مرعش . وكانت مرعش مدينة أرمينية معظم سكانها من الأرمن ، فرحبوا بالصليبيين عند وصولهم إليها فى ١٣ أكتوبر سنة ١٠٩٧ ، واعتبروهم منقذين لهم وحماة للمسيحية فى تلك الجهات . وهناك أيضاً حافظ الصليبيون على كلمتهم وسلموا مرعش للسلطات البيزنطية [٢] ومن مرعش اتجه الصليبيون نحو الشام ، فوصلوا جسر الحديد على نهر العاصى شرقى انطاكية فى ٢٠ أكتوبر ، و بذلك بدأ الغزو الصليبى للشام [٣] .

وقبل أن نتتبع الغزو الصليبى للشام ، يصح أن نلقى نظرة سريعة على جهود الامبراطور ألكسيوس كومنين فى استرداد أيونيا وفريجيا ، وجهود تنكرد و بلدوين البولونى فى قيليقية و إقليم الرها .

حملة ألكسيوس كومنين الصليبية فى أيونيا وفريجيا :

لا شك فى أن سقوط نيقيه عاصمة قلج أرسلان ، ثم هزيمة قلج أرسلان نفسه فى موقعة ضورليوم بعد ذلك ، كان بمثابة طعنة قاتلة لهيبة تلك الأسرة السلجوقية ومكانتها فى الأناضول . وكما أن سقوط نيقية فى أيدى السلاجقة سنة ١٠٨١ أدى إلى استيلائهم فى سهولة على جميع الأجزاء الغربية من الأناضول ،

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I; p. 38.
(2 Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 287.
(3) Michaud : op cit; p. p. 237—239.

فكذلك جاء استيلاء البيزنطيين على هذه المدينة سنة ١٠٩٧ بداية لاسترداد الامبراطورية البيزنطية لذلك الجزء الغربى من الأناضول برمته [١] .

وعندما أوغل الصليبيون فى قلب دولة قلج أرسلان دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ؛ وجد صغار الأمراء الأتراك على شاطىء بحر إيجة – مثل أمير أزمير وأمير إفسوس – أنفسهم مقطوعين عن الدولة السلجوقية ، فلم يستطيعوا المقاومة طويلا [٢] . ولا شك فى أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين هو الذى أفاد من تلك الأوضاع ، فلم يلبث غداة الاستيلاء على نيقية أن أرسل إلى أيونيا جيشا يقوده صهره حنا دوقاس وأسطولا تحت قيادة كازباكس Kaspax [٣] . كذلك اختار الامبراطور البيزنطى – لكى يفت فى عضد الأتراك – أن يرسل صحبه جيشه السابق مجموعة من أسرى السلاجقة فى نيقية ، و بصفة خاصة زوجة السلطان قلج أرسلان نفسه . ولم تلبث هذه الخطة أن أفلحت وأحرزت نجاحا كبيراً ، إذ استسلم فوراً أمير أزمير ثم تبعه أمير إفسوس [٤] .

وفى ربيع سنة ١٠٩٨ بدأ حنا دوقاس يعمل لاسترداد إقليم ليديا وغرب فريجيا من الأتراك . و بعد أن نجح القائد البيزنطى فى استرداد تلك الجهات حتى أضاليا ، اتجه صوب الشمال الشرقى حيث أنزل هزيمة بالأتراك عند بلوادين Bulwadin . وفى تلك الأثناء كان الامبراطور البيزنطى قد احتل بثنيا التى أخلاها الأتراك عقب موقعة ضورليوم . وهكذا تم للبيزنطيين استرداد الجزء الغربى من الأناضول (يونيه ١٠٩٨) ، ولم يبق أمام الامبراطور ألكسيوس كومنين سوى الاتجاه نحو قيليقية والشام للحاق بالصليبيين الغربيين أمام أنطاكية [٥] .

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I. p.41.
(2) Chalandon ; Alexis Comnene, p. 195.
(3) Runciman : op. cit; I, p. 194.
(4) Chalandon : Alexis Comnene, p.p. 196—198.
(5) Brehier : op. cit, p. p. 312—313.

وهنا نلاحظ أن نجاح الدولة البيزنطية فى استرداد الأناضول إنما يعتبر نتيجة مباشرة من نتائج الحملة الصليبية الأولى ، وهى نتيجة لها من الأهمية التاريخية مالا يقل عن غزو فلسطين نفسها على أيدى الصليبيين . وتبدو هذه الأهمية بوضوح عند المقارنة بين ما كانت عليه خريطة الشرق الأدنى سنة ١٠٩٥ ، وبين ما صارت إليه سنة ١٠٩٨ . ففى سنة ١٠٩٥ كانت الحدود التركية البيزنطية تمر بمدينة نيقية ونيقوميديا ، أى على مسافة قصيرة من بحر مرمرة والبسفور ، فى حين آل حكم أزمير وإفسوس إلى أمراء من الأتراك . أما فى سنة ١٠٩٨ فكان قد تم طرد الأتراك من بثينا وأيونيا وليديا وفريجيا ، ومن ثم عادت إلى هذه الأقاليم الحياة البيزنطية والحضارة البيزنطية لتعيش من جديد ثلاثة قرون ونصف . ويكفى للدلالة على الأهمية التاريخية لهذا التطور أن نشير إلى أنه عندما سقطت القسطنطينية سنة ١٢٠٤ فى أيدى رجال الحملة الصليبية الرابعة، لم تجد الحضارة البيزنطية والتراث البيزنطى مأوى تأوى إليه وتعيش فيه سوى تلك الأقاليم الآسيوية التى تم استردادها نتيجة لجهود الحملة الصليبية الأولى .

وهكذا كانت الحملة الصليبية الأولى خير أداة استطاعت أن تثأر بها الدولة البيزنطية لنفسها مما حل بها على يد السلاجقة منذ موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١[1] .

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 42—43.

الفصل الثامن

تأسيس إمارة الرها الصليبية

نجاح تنكرد وبلدوين البولونى فى استرداد قيليقية :

رأينا كيف اختار بلدوين البولونى — أخو جودفرى بوايون — ، ومعه تنكرد ابن أخت بوهيموند النورمانى — أن ينفصلا فى ١٤ سبتمبر سنة ١٠٩٧ عن بقية الجموع الصليبية لغزو قيليقية وانتزاعها من الأتراك السلاجقة[1] .

والواقع إن هذين الأميرين اشتهرا بأنهما أكثر أمراء الحملة الصليبية الأولى حباً للمخاطرة والمجازفة ، حتى أن الحرب الصليبية كانت فى نظرهما لا تعدو مجرد مغامرة سياسية وحربية لغزو الشرق . وقد رأى هذان الزعيمان أنه من الخطأ اتخاذ الطريق الطويل حول كابادوكيا مارين بقيصرية ومرعش ؛ لأن هذه الدورة الطويلة ليس لها إلا مبرر واحد هو الرغبة فى تنفيذ الاتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين وتحطيم قوة الأتراك تماما فى الأناضول ، وتمكين الإمبراطورية البيزنطية من بسط سيطرتها على الأقاليم التى عرفت فيما بعد باسم «أرمينيا الصغرى» التى كانت تسكنها عناصر مسيحية .

على أن تنكرد كان لا يزال حتى ذلك الوقت ممتنعاً عن الاعتراف بالاتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين ، ومن ثم كان حراً فى تصرفاته[2] . ويبدو أن بلدوين البولونى شارك تنكرد فى كثير من آرائه ووجهة نظره ، ومن ثم تجنب الاثنان طريق كابادوكيا واتجها مباشرة نحو سهول قيليقية الخصبة التى كانت دائماً موضع

(1) Chalandon : Premiere Croisades, p.172.
(2) Setton : op. cit; I, p. 296.

نزاع بين زعماء الأرمن فى طوروس من ناحية وأمراء السلاجقة من ناحية أخرى، بصرف النظر عن حقوق الدولة البيزنطية نفسها فى تلك المنطقة[1] .

وكان إقليم قيليقية الذى طالما دمرته الحروب بين البيزنطيين والمسلمين، قد عمرته هجرة أرمينية ضخمة فى القرن الحادى عشر، عندما اضطرت جموع غفيرة من الأرمن — أمام غزو السلاجقة — إلى هجرة بلادهم حول بحيرة فان فى أواخر القرن الحادى عشر والاتجاه جنوباً صوب قيليقية . ولم يلبث أن صار ذلك الإقليم فيما بين سنتى ١٠٧٧ ، ١٠٨٣ جزء من ممتلكات فيلاريتوس — المغامر الأرمنى الذى سبق الكلام عنه — والذى استطاع أن يؤسس أول دولة أرمنية فى تلك المنطقة[2] . و بسقوط دولة فيلاريتوس استطاع الأتراك السلاجقة أن يخضعوا الجزء الأعظم من سهول قيليقية وبخاصة مدينتى المصيصة وطرسوس . ومع ذلك فقد تمكن بعض زعماء الأرمن من الاحتفاظ باستقلالهم محتمين بجبال طوروس، ومن هؤلاء روبان Roupên الذين كان من رجال كاكيج الثانى آخر ملوك الأرمن، وانتهى به الأمر إلى أن استقر حوالى سنة ١٠٨٠ داخل جبال طوروس إلى الشمال الشرقى من سيس . و بعد روبان خلفه ابنه قسطنطين الأول (١٠٩٢ — ١١٠٠) الذى استطاع أثناء قيامه بمطاردة الأتراك أن يوسع منطقة نفوذه فى جميع أنحاء قيليقية . وثمة زعيم آخر من زعماء الأرمن الذين لاذوا بجبال طوروس فى تلك الفترة هو أوشين (ت ١١١٠) مؤسس بيت هيثوم الشهير فى تاريخ أرمينيا الصغرى؛ وكان هذا الزعيم الأخير يسيطر على مدينة أذنه[3] .

وعلى هذه الصورة وجد تنكرد و بلدوين البولونى قيليقية عند وصولهما إليها فى أواخر سنة ١٠٩٧، و بصحبتهما بعض الأعوان والمرشدين الأرمن الذين سهلوا

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 43.
(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 43.
(3) Iorga : L'Armenie Cilicienne, p. p. 88—91.

لهما مهمة الزحف[1] . وربما كانت كثرة الأرمن المسيحيين فى قيليقيه من العوامل الرئيسية التى سهلت مهمة تنكرد و بلدوين البولونى، لأن معظم سكان المدن والقلاع فى ذلك الإقليم — كما لاحظ المؤرخ الصليبى وليم الصورى - كانوا من الأرمن، حتى ولو كانت تلك المدن والقلاع خاضعة للأتراك وبها حاميات تركية[2] .

لذلك كان أول ما فعله تنكرد عندما شرع فى حصار مدينة طرسوس هو الاتصال بأهلها الأرمن (٢١-سبتمبر سنة ١٠٩٧). ويبدو أن وصول جموع أخرى من الصليبيين بزعامة بلدوين البولونى قد أفزع حامية المدينة التركية، فانتهزت فرصة الليل وفرت منها، وعندئذ أسرع سكان المدينة — من الأرمن والبيزنطيين — إلى دعوة الصليبيين إلى دخول مدينتهم . وللمرة الأولى تردد تنكرد فى تسليم طرسوس لمندوبى الامبراطور البيزنطى — أسوة بما فعل الصليبيون حتى ذلك الوقت فى كافة المدن التى استولوا عليها — لأن تنكرد كان يطمع فى فتح قيليقية لحسابه الخاص، ولا سيما وأنه لم يقيد نفسه بالاتفاقية التى عقدها الصليبيون مع الدولة البيزنطية[3] .

والواقع أنه بوصول الصليبيين إلى قيليقية، بدأت تظهر فى وضوح أطماع الأمراء فى تأسيس إمارات خاصة لهم فى الشرق . من ذلك أن بلدوين البولونى عز عليه أن ينفرد تنكرد بمدينة طرسوس وأراد أن ينازعه ملكية هذه المدينة، عندما نصحه أحد الأرمن المرافقين له بأن يترك طرسوس لتنكرد و يتجه هو نحو إقامة إمارة لنفسه فى مدينة الرها . على أن تنكرد كان أسبق إلى التنازل والتسامح

(1) Raoul de Gaen : (Hist, Occid, Tome III) p. 634 & Albert d'Aix : Hist, Occid, IV, p. 683.
(2) Guillaume de Tyr, I, p. 140.
(3) Crousset Hist. des Croisades, I, p. 46.

فترك طرسوس واتجه صوب أذنه[١] . وكان هناك نحو ثلثمائة رجل من اتباع تنكرد قد تخلفوا عند طرسوس ، فرفض بلدوين أن يسمح لهم بدخول المدينة أو أن يمدهم بالزاد ، وأجبرهم على المبيت فى ضيعة قريبة مكشوفة حيث دهمهم الأتراك أثناء الليل وقتلوهم عن آخرهم[٢] . وقد أثارت هذه الكارثة حنق الصليبيين جميعا على بلدوين البولونى وجماعته بوصفهم المسئولين عما حل بتلك المجموعة من الصليبيين من قتل على يد الأتراك .

وعلى أنه مما دعم نفوذ بلدوين فى تلك الفترة وصول أسطول قوى إلى شاطىء قيليقية ، يحمل مجموعة كبيرة من الصليبيين ، معظمهم من الأراضى المنخفضة بزعامة ونمار البولونى Winemar of Bologne ـ وهو قرصان محترف ـ قدم لبلدوين البولونى ثلثمائة جنديا لمساعدته ، ثم أبحر بعد ذلك ليساعد تنكرد فى الاستيلاء على الاسكندرونة[٣] أما تنكرد فكان فى تلك الأثناء قد انصرف من طرسوس إلى أذنه ، ومنها إلى المصيصة التى كانت فى قبضة الأتراك رغم أن غالبية سكانها من الأرمن (أوائل اكتوبر ١٠٦٧)[٤] . وعند المصيصة ظهر التنافس مرة أخرى بين تنكرد من جهة و بلدوين البولونى من جهة أخرى ، إذ لم يلبث أن ظهر الأخير أمام المصيصة لينافس تنكرد فى الاستيلاء عليها[٥] . ولكن تنكرد كان قد استولى على المصيصة فعلا بمساعدة أهلها من الأرمن ، فأغلق أبوابها فى وجه بلدوين الذى اضطر إلى المرابطة بقواته خارجها . وكان أن حدث صدام بين القوتين ، ولكنه انتهى بالصلح السريع[٦] .

وهنا نؤكد مرة أخرى أن النزاع بين تنكرد و بلدوين البولونى إنما كان

(1) Cam. Med Hist. vol 5. p. 288.
(2) Albert d'Aix, Hist. Occid, IV, p. p. 346—347.
(3) Riant : Les Scandinaves en Terre Sainte, p. 134.
(4) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 288.
(5) Chalandon: Hist. de la Premiere Croisades, p. p. 172-173
(6) Stevenson : The Crusades in the East, p. 22.

يحمل بين طياته معنى خفيا ، وهو بداية محاولات أمراء الصليبيين لإنشاء إمارات لهم فى الشرق[١] . ذلك أن المفروض ـ حسب الاتفاقية المعقودة بين الامبراطور ألكسيوس وزعماء الصليبيين ـ أن تسلم قيليقية للامبراطورية ، وبناء على ذلك لم يحتفظ الصليبيون فى المدن الأرمينية الرئيسية الثلاث فى قيليقية ـ وهى طرسوس وأذنه والمصيصة ـ سوى بحاميات قليلة العدد والأهمية . وحوالى سنة ١١٠٠ أرسل الامبراطور ألكسيوس كومنين حملة تسلمت المدن الثلاث السابقة . وإذا كان تنكرد قد استولى على هذه المدن مرة أخرى سنة ١١٠١ ، فإن البيزنطيين عادوا فاحتلوها سنة ١١٠٤[٢] وهكذا استمر الحال ، حتى أدى النزاع بين زعماء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحية ، وبينهم وبين البيزنطيين من ناحية أخرى ، إلى تمكين الأرمن من إقامة دولة قومية خاصة بهم فى الطرف الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى ، وهى مملكة أرمينيا الصغرى .

بلدوين البولونى وأمراء الأرمن فى طوروس والجزيرة :

لم يحاول بلدوين البولونى أن ينفذ فى قيليقية مشروعه الخاص بإنشاء إمارة صليبية أرمينية يتولى حكمها ، وإنما ظل محتفظاً لنفسه بسرية المشروع حتى منتصف أكتوبر سنة ١٠٩٧ عندما التقى بأخيه جودفرى بوايون وبقية الجيش الصليبى الكبير عند مرعش . ولم يلبث بلدوين أن انشق بعد يومين عن بقية الصليبيين تحت ستار حماية ميسرة الصليبيين الزاحفين على أنطاكية ليبحث لنفسه عن إمارة جديدة صالحة فى البلاد الأرمينية[٣] .

والملحوظ أنه إذا كانت هجرة الأرمن فى القرن الحادى عشر قد غيرت

(1) Setton: op. cit; vol. I, p 296.
(2) Chalandon : Alexis Comnene, p. p. 221—223.
(3) Albert d'Aix : Hist, Occid, III, p. XXVII.

وجه قيليقية ، إلا أن أثر تلك الهجرة كان أقل وضوحاً فى الأجزاء الشرقية الممتدة حتى الجزيرة وشمال الفرات ، أى فى الجهات المحيطة بملطية وسميساط ومرعش وعين تاب وتل باشر والرها . على أنه لا ينبغى أن يفوتنا أن هذه المنطقة كانت قبل قليل جزءاً من الإمارة الأرمينية التى أقامها فيلاريتوس والتى سبق أن أشرنا إليها ، حتى إذا ماسقط فيلاريتوس ، حل محله فى تلك البلاد بعض زعماء محليين من أتباعه [١] وفى ذلك الميدان صمم بلدوين على أن يعمل ، لاسيما وأن أمراء الأرمن المحليين فرحوا بمجىء الصليبيين واعتبروا أن العناية الإلهية قد أرسلتهم لإنقاذهم ممايلاقونه من ضغط المسلمين المحيطين بهم . وإذا كان هناك ثمة احتمال بأن اتجاه بلدوين إلى تلك المنطقة الأرمينية لم يكن اعتباطاً ، وإنما جاء بناء على رغبة حكام الإمارات الأرمينية فيها واتصال بعضهم ببلدوين أثناء وجوده فى قيليقية ، فإن هذا الاحتمال يقويه أن الأرمن كانوا دائماً تواقين إلى الحصول على مساعدة الغرب والبابوية ، بدليل ماهو معروف من إرسالهم أحد الأساقفة الأرمن إلى البابا جريجورى السابع — قبل ذلك بعشرين سنة — لطلب مساعدته عندما بلغهم أن ذلك البابا يفكر فى إرسال حملة لمساعدة المسيحيين فى الشرق [٢] . ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الأرمن ، فى تلك المنطقة الممتدة من شمالى الشام إلى شمال الجزيرة ، لندرك الأساس الذى قامت عليه أولى الإمارات الصليبية فى منطقة الشرق الأدنى .

أما ملطية فقد انتقلت السلطة فيها إلى أحد أولئك المغامرين الأرمن من رجال فيلاريتوس ، واسمه جبريل . وقد حاول جبريل هذا أن يحتفظ بحسن العلاقات مع الامبراطورية البيزنطية ، فاعتنق المذهب الأرثوذكسى ليجمع بين

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 182—183.
(2) Runciman : op. cit, I, p. p. 202—203.

جنسه الأرمنى ومذهبه اليونانى [١] . على أن السلاجقة لم يلبثوا أن أحاطوا بأراضيه من جميع النواحى ، مما دفع جبريل إلى الإسراع بالدخول فى تبعية السلطان السلجوقى والخليفة العباسى . ولهذا الغرض أرسل جبريل زوجته إلى بغداد لإعلان تلك التبعية ، وعادت الزوجة وهى تحمل لزوجها تأكيدا بضمان بقائه فى إمارته [٢] . ثم إن جبريل لم يتردد فى مقاومة الأتراك عندما هددوا إمارته . ومن ذلك أنه حدث سنة ١٠٩٦ أن تعرضت ملطية لحصار قلج ارسلان سلطان سلاجقة الروم ، وعندئذ أبى جبريل فى إصرار تسليم مدينته . وإذا كان السريان فى ملطية قد أظهروا دائما عداء للحكم البيزنطى الأرمنى ، حتى أن حنا سعيد زعيم السريان فى ملطية اتصل فعلا بالسلاجقة ، إلا أن جبريل أحبط تلك المحاولة وأعدم حنا فى أوائل يوليه سنة ١٠٩٦ [٣] . وهكذا حتى تعرض السلاجقة لضغط الصليبيين ، ونزلت الكوارث تترى على قلج أرسلان فى نيقية وضوروليوم وغيرها ، نخف ضغط السلاجقة مؤقتا على ملطية ليهددها الخطر التركى من ناحية أخرى ، هى ناحية التركمان من بنى دانشمند فى سيواس . ذلك أن صاحب سيواس — الملك غازى كمشتكين — لم يلبث أن انتهز فرصة ماحل بالسلاجقة من مصائب ليحاول أن ينفرد هو بملطية . وقد استمر الملك غازى يهدد ملطية ثلاث سنوات متتالية ، مما جعل حاكم ملطية يتجه نحو الصليبيين طالبا المساعدة [٤] .

أما مرعش فقد رأينا كيف سلمها الصليبيون لمندوبى الإمبراطور البيزنطى بعد أن خلصوها من الأتراك فى أكتوبر سنة ١٠٩٧ . على أن الإمبراطور ألكسيوس كومنين أدرك أن هذه المدينة أرمينية قلباً وقالباً ، ومن ثم رأى أن

(1) Guillaume de Tyr (Hist. Occid) Tomel, p. 437.
(2) Michel Le Syrien, III, II, p. 179.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 50.
(4) Michel Le Syrien; p. 187.

يعهد بحكمها إلى أحد الزعماء الأرمن واسمه ثاتول Thatoul ــ الذى ظل يحكم مرعش حتى انتزعها منه الصليبيون سنة ١١٠٤[1] .

وفى شرق مرعش ظهر مغامر أرمنى آخر ــ هو كوغ باسيل ــ الذى بسط سيادته على قلعتى كيسون (كيسوم) ورعبان ، قرب بهسنى . وكوغ باسيل هذا أخو باكراد الذى رافق بلدوين البولونى بعد نيقية[2] ، والذى وجه نظرة نحو تلك المنطقة الأرمينية . ويبدو أن هذين الأخوين كانا يتمتعان بنفوذ واسع ومكانة خاصة فى تلك المنطقة[3] .

أما الرها فكان يحكمها زعيم أرمنى آخر هو ثوروس Thoros ابن هيثوم ؛ الذى كان أيضاً من رجال فيلاريتوس . وكانت الرها بعد وفاة فيلاريتوس قد خضعت للسلاجقة فترة عصيبة من تاريخها عند ما منحها السلطان ملكشاه للأمير بوزان سنة ١٠٨٧ . على أن النزاع الذى استحكم فى تلك الفترة بين أمراء السلاجقة مكن ثوروس من الوصول إلى حكم الرها سنة ١٠٩٥ ، وإن كان قد تجنب الدخول فى صراع مباشر مع السلاجقة أنفسهم ، ولو بشراء مساعدة بعض قبائلهم بالمال[4] . وفى الوقت نفسه اعتمد ثوروس على سند شرعى فى حكم الرها هو الاعتراف بالتبعية للامبراطور البيزنطى[5] . ومع كل ذلك فإن الرها ظلت مهددة باستمرار من جانب السلاجقة نظراً لإحاطتهم بها ، مما جعل ثوروس ينظر بعين الرضا إلى وصول الصليبيين إلى الشرق الأدنى .

هذا من ناحية الأرمن ، أما من ناحية الصليبيين فيلاحظ أنهم أيضا كانوا

(1) Chalandon : Les Comnenes, II, p. 105.

(٢) يذكر ابن العبرى أن كوغ باسيل معناها « اللص باسيل لانه سرق عدة قلاع من الثغور فتملكها للأرمن إلى الآن » .

(ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٩) .

(3) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 23.

(4) Guibert de Nogent, III, p. 165.

(5) Matthieu d'Edesse (Doc. Arm), I, p.35.

فى حاجة ماسة إلى مساعدة الأرمن فى تلك المنطقة . وهكذا وقف المسيحيون الأرمن على مشارف الشام ليفتحوا أبواب الوطن العربى فى الشرق الأدنى أمام الصليبيين ، لا سيما وأن معظم سكان الأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى وشمال الجزيرة كانوا فعلا من الأرمن المسيحيين ، رغم تفوق الأتراك الحربى والسياسى فى تلك الجهات[1] . وكانت هذه الظاهرة أشد ما تكون وضوحا فى منطقة تل باشر ــ على الطريق بين الرها وأنطاكية ــ وفى منطقة الراوندان على الطريق بين مرعش وأنطاكية . وإلى هذه المنطقة بالذات اختار باكراد ــ الرفيق الأرمنى لبلدوين البولونى ــ أن يوجهه عند ما ترك الأخير مرعش[2] .

بلدوين البولونى والرها :

استطاع الأمير بلدوين أن يحرز تقدما كبيرا ، وأن يستولى على كثير من المواقع والمدن والقلاع فى شمال الجزيرة ، وذلك بفضل مساعدة العنصر الأرمنى الذى كانت له السيادة فى تلك الجهات والذى نظر إلى تقدم الصليبيين بعين الرضا للخلاص من حكم الاتراك المسلمين[3] . وهكذا لم يصادف بلدوين البولونى صعوبة فى الاستيلاء على تل باشر والراوندان ، بفضل مساعدة الأرمن وثورتهم ضد الحاميات التركية من ناحية وضعف تلك الحاميات من ناحية أخرى . وقد أراد بلدوين أن يكافىء رفيقه الأرمنى باكراد ، فمنحه حكم الراوندان ، ولكنه عاد وتشكك فى ولاء باكراد له فاعتقله[4] .

وفى تلك الأثناء كان ثوروس حاكم الرها قد سمع بنجاح الصليبيين فى

(1) Guillaume de Tyr : I, p. 153.

(2) Stevenson : op. cit. p. 23.

(3) Ibid

(4) Michaud : op. cit, I, p. 228.

الاستيلاء على تل باشر من السلاجقة ، فأرسل إلى بلدوين يدعوه للحضور إلى الرها لمساعدته (فبراير ١٠٩٨) . وكان ثوروس رجلا مسنا . ليس له ولد يرثه فى إمارته ، فخشى أن تضيع الرها من يد المسيحيين ويستولى عليها الأتراك المسلمون [١] . وزاد من مخاوف ثوروس أن كربغا (كربوقا) صاحب الموصل كان يعد عندئذ جيشا كبيرا لإنقاذ أنطاكية من الخطر الصليبي ، مما جعل ثوروس يتخوف من أن يكتسح ذلك الجيش — وهو فى طريقه إلى الشام — الرها وغيرها من الإمارات الأرمنية [٢] .

ومهما يكن من أمر ، فإن تلك الاستغاثة صادفت هوى فى نفس بلدوين البولونى ، لما فيها من تحقيق لأطماعه السياسية ، فأسرع إلى الرها فى فبراير سنة ١٠٩٨ على رأس قوة صغيرة من ثمانين فارسا ؛ واستطاعت تلك القوة أن تفلت من الوقوع فى قبضة حامية سميساط التركية . وكانت فرحة أهل الرها وحاكمها بتلك النجدة عظيمة فاستقبلوها استقبالا حافلا [٣] كما استقبلها رجال الدين الأرمن بغبطة بالغة ، مما يشير إلى أنه لم تكن هناك فجوة واسعة بين الكنيستين الأرمنية واللاتينية ، مثلما كان بين الكنيسة الأرمينية من ناحية والأرثوذكسية اليونانية من ناحية أخرى [٤] .

والواقع أن سميساط — بمن فيها من أتراك — كانت العدو اللدود لإمارة الرها الأرمينية . ولذلك طلب ثوروس حاكم الرها من بلدوين أن يبدأ بمهاجمة تلك المدينة . فاستجاب بلدوين لذلك الطلب وأخذ يهاجم سميساط فى النصف الثانى

(1) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar.), I, p. 35.
(2) Runciman : op. cit, I, p. p. 203—204.
(3) Matthieu d'Edesse, I, p. 36.
(4) Guilloume de Tyr, I. p. 156.
وجدير بالذكر أن ابن الأثير عند ما أشار إلى امتلاك الصليبيين الرها قال « إنهم ملكوا مدينة الرها بمكاتبة من أهلها لأن أكثرهم أرمن ، وليس بها من المسلمين إلا القليل » . (الكامل: ٩ حوادث سنة ٤٩٤ هـ).

من فبراير سنة ١٠٩٨ . وقد ساعد بلدوين فى تلك العملية جيش من الأرمن ، وتمكن بفضل هذه المساعدة من الاستيلاء على الضياع المكشوفة التابعة لسميساط . وبينما المحاربون المسيحيون مشغولين بنهب تلك الضياع ، إذ بقوة من الأتراك تباغتهم وتقتل نحو ألف من الأرمن [١] .

ويبدو أنه من الصعب تحديد موقف بلدوين البولونى من ثوروس أمير الرها فى تلك المرحلة ، وإن كان من الراجح أن فرار جنود الرها من معركة سميساط جعل بلدوين يفكر فى ضرورة تحويل إمارة الرها الأرمينية إلى إمارة لاتينية — أرمينية . أما ثوروس فكانت فكرته الأولى عندما استنجد ببلدوين هى أن يجعل منه قائد الجيش وأن يجعل من الصليبيين جنداً مرتزقة يعملون تحت إمرته ويدافعون عنه وعن بلده مقابل ثمن يتفق عليه . ولكن بلدوين كان لا يمكن أن يرضى بذلك الوضع الذى يتعارض مع أطماعه وآماله . ويقال إن البحث فى هذا الموضوع بالذات كان قد تم أثناء وجود بلدوين فى تل باشر قبل حضوره إلى الرها ، وأن بلدوين اشترط عندئذ أن يتبناه ثوروس ويتخذه إبناً ووريثاً وشريكا له فى حكم الرها . ولم تكن هذه الشروط قاسية بالنسبة لثوروس لعدم وجود أبناء له يرثونه فى حكم الرها من ناحية ؛ ولتقدم سنه من ناحية أخرى [٢] . ولما كان ثوروس أشد ما يكون حاجة إلى مساعدة بلدوين فقد انتهى الموقف بأن تبنى ثوروس بلدوين ونادى به وريثاً له فى حكم الرها ، وتمت مراسيم التبنى وفقاً للتقاليد المعمول بها فى الكنيسة الأرمينية فى القرن الحادى عشر [٣] .

وهكذا صار هناك نوع من الوصاية الصليبية اللاتينية على إمارة الرها الأرمينية ؛ وبحكم هذه الوصاية أصبح العنصر اللاتينى هو الوريث الطبيعى

(1) Grousset : op. cit, I, p. 55.
(2) Runcimen : op. cit, I, p. 204.
(3) Guibert de Nogent : Hist. Occid, IV. p. 165.

للعنصر الأرمنى فى حكم الرها . على أنه يبدو أن الأرمن كانوا منقسمين على أنفسهم داخل الرها ، بل لقد نقم بعضهم على ثوروس بسبب اعتناقه المذهب الأرثوذكسى واعترافه بنوع من التبعية للامبراطور البيزنطى هذا فضلا عن عجز ثوروس عن حماية محاصيل الأهالى ومتاجرهم من عدوان السلاجقة ، وتعسفه فى جمع الضرائب والأموال من الأهالى الخاضعين له[1]. ولم تلبث أن أتيحت الفرصة لأهل الرها للتعبير عن استيائهم بوصول بلدوين إليهم ، فقامت ثورة عارمة فى الرها فى مارس سنة ١٠٩٨ ، وهى الثورة التى انتهت بقتل ثوروس وانتقال مقاليد الأمور فى الرها إلى يد بلدوين البولونى .

ومع أن أقوال المؤرخين المعاصرين تشهد كلها على أن تلك الثورة كانت داخلية ، حركها وأشعلها فريق من أهل المدينة الأرمن[2]، إلا أننا لا يمكن أن نبرأ بلدوين تماما من تهمة المشاركة — ولو بنصيب محدود — فى تحريض الثوار ومن تهمة التفريط فى حياة ثوروس ودمه، وعدم القيام بواجبه كاملا فى حمايته . ولا أدل على صحة هذا الاتهام من سياسة بلدوين فى الرها ، إذ حرص دائما على أن يكتسب مكانه شعبية فى نفوس الأهالى ، فضلا عن أنه لم يحاول أن يسرع لإنقاذ ثوروس من يد الثوار ، بل على العكس نصحه بالتسليم [3] وبالإضافة إلى كل ذلك فقد أشارت بعض المراجع إلى اتصال المتآمرين على حياة ثوروس ببلدوين سراً فى ليلة من ذات الليالى ، وأنهم عرضوا عليه تفاصيل مؤامرتهم ، ووعدوه بتسليمه زمام الحكم فى المدينة عقب التخلص من ثوروس [4] .

ومهما يكن من أمر ، فقد أدت ثورة مارس سنة ١٠٩٨ إلى أن أصبح

(1) Michaud : op. cit, I, 233.
(2) Albert d'Aix, p. p. 354–355. & Guillaume de Tyr I. p. 206.
(3) Runciman : op. cit, I, p. 206.
(4) Matthieu d'Edesse, I, p.p. 37—38.

بلدوين البولونى سيد الرها وحاكمها وصاحب السلطان فيها . وهكذا استطاع بلدوين أن يحقق آماله وأن يصل إلى أهدافه ، بل إنه كان أول أمير بين زعماء الحملة الصليبية الأولى استطاع أن يمكن لنفسه فى الشرق ويحقق أطماعه السياسية بتأسيس إمارة لنفسه ينفرد بحكمها . حقيقة إن الرها لم تكن فى الأراضى المقدسة ذاتها ، ولكن أهميتها فى تاريخ المسيحية الأولى معروفة[1] . هذا فضلا عن أن موقعها فى شمال الجزيرة جعل تلك امارة الصليبية الجديدة على جانب كبير من الأهمية فى حماية ممتلكات الصليبيين بالشام ضد أى هجوم يأتى من الشرق .

ومن الواضح أن بلدوين لم يكن حريصا على الوفاء بتعهداته للامبراطور البيزنطى ، فتناسى أنه وريث ثوروس الذى ربطته بالإمبراطورية البيزنطية علاقة تبعية واضحة[2] . ثم إن الظروف التى أصبح فيها بلدوين البولونى سيد الرها ساعدته على اتخاذ هذا الموقف من الامبراطورية البيزنطية ، لأنه تولى مقاليد الأمور فى الرها نتيجه لثورة شعبية و بتفويض من أهل المدينة ، مما جعله يتحلل من أى قيد يربطه بالعرش البيزنطى ، فى الوقت الذى كان بلدوين متحررا فعلا من التزامات الاتفاقية التى عقدها زعماء الصليبيين فى القسطنطينية ، مع الامبراطور ألكسيوس كومنين . وهكذا يبدو أنه إذا كانت حكومة ثوروس اتصفت بمسحة بيزنطية أرمينية ، فإن حكومة بلدوين صارت ذات صبغة لاتينية أرمينية . وتبدو أهمية ذلك كله فى أن اتفاقية القسطنطينية بين زعماء الصليبيين والامبراطور البيزنطى تم خرقها فعلا فى الرها ، قبل أن يستولى الصليبيون على

(1) كانت مدينة الرها من أول البلدان التى قامت بها جالية مسيحية كبيرة فى الشرق الأول ، كما ترجمت فيها أجزاء من العهد الجديد إلى اللغة السريانية فى القرن الثانى للميلاد انظر:
(Burkitt : Early Eastern Christianity).
(2) Runciman : op. cit, I, p. 206.

أنطاكية ويدخلوا فى نزاع حول ملكيتها مع الامبراطورية البيزنطية(١) . أما الامبراطور ألكسيوس كومنين فلم يكن عندئذ فى مركز يسمح له بتأكيد حقوقه فى الرها ، لبعدها عن مركز قوة الامبراطور ، ولذلك فضل ألكسيوس أن يتغاضى مؤقتا عما جرى فى الرها من أحداث وعن استقلال بلدوين بها حتى تمكنه الظروف فى المستقبل من تأكيد حقوق الامبراطورية فى تلك المنطقة بصورة عملية(٢) .

وسرعان ما أحس بلدوين بضرورة القيام ببعض الأعمال التى تعلى من شأنه فى نظر رعاياه الجدد من الأرمن وتضفى على حكمه فى الرها قسطا من الشرعية والأهمية . لذلك أخذ بلدوين يجدد جهوده للاستيلاء على سميساط ، وهى المدينة التى كان وقوعها على الضفة المقابلة للفرات ، مهددا للرها . وكان أن وفر أمير سميساط التركى على بلدوين عناء الحرب؛ إذ أدرك ذلك الأميرصعوبة الدفاع عن إمارته بعد أن تبدلت الأوضاع فى الرها ، فعرض على بلدوين شراء سميساط مقابل عشرة آلاف دينار من الذهب . ولم يجد بلدوين صعوبة فى الحصول على هذا المبلغ إذ كان فى خزانة أمير الرها الراحل — ثوروس — مبالغ طائلة ، دفع منها بلدوين الثمن المطلوب واستولى على سميساط . وقد وجد بلدوين فى قلعة سميساط عددا كبيرا من الأسرى والرهائن الأرمن — معظمهم من أبناء الرها — فردهم إلى أهلهم وذويهم ، مما أكسبه شعبية كبيرة بين أهل الرها(٣) .

على أن أهل الرها لم يقنعوا بالاستيلاء على سميساط وإنما طمعوا فى إخضاع مركز آخر قريب فى الجنوب الشرقى هو حصن سروج على بداية الطريق الموصل إلى حلب . وكان صاحب تلك القلعة عندئذ هو نور الدولة بلك بن بهرام بن

(1) Grousset : op. eit. I, p. p. 60—61.
(2) Setton : op. cit. vol. I, p. 304.
(3) Guillaume de Tyr, I, p. 159.

أرتق ، أى أنه انتمى إلى الأراتقة وهم بيت من التركمان ظلوا يسيطرون على بيت المقدس ، حتى إذا ما تعرضوا لضغط الفاطميين نزحوا إلى الشمال الشرقى ، حيث أسسوا عدة إمارات فى ديار بكر وشمال الجزيرة (١) . ويبدو أن بلك لم يدرك طبيعة الامارة الصليبية الجديدة التى قامت فى الرها ، وظن أن بلدوين لا يعدو أن يكون مغامرا من نوع رسل باليل ، فأرسل إليه يطلب منه المعونةضد رعاياه من العرب الذين رفضوا دفع ما عليهم من أموال. وكان أن زحف بلدوين على سروج ومعه آلات الحصار ، فخاف أهلها وأرسلوا رسلهم إليه يعلنون رغبتهم فى تسليم المدينة واستعدادهم لدفع الجزية . وهكذا استولى بلدوين على سروج ، فعزل بلك وضمها إلى أملاكه (٢) . ولا شك فى أن الاستيلاء على سروج جاء متمما لفتح الرها ومؤمنا لهذه الإمارة الجديدة (٣) .

وقد أكمل بلدوين سيطرته على تلك المنطقة بالاستيلاء على البيرة سنة ١٠٩٩ ، وهى قلعة على نهر الفرات ذات موقع حربى هام ، على الطريق بين الرها وعينتاب (عين تاب)(٤) . على أنه لم يلبث أن تخلى عن البيرة لأحد زعماء الأرمن المحليين ، كما سنرى فيما بعد .

أما عن سياسة بلدوين فى حكم الرها فقد قامت على أساس الربط بين العناصر المختلفة التى صارت تتألف منها الإمارة ، وبخاصة الصليبيين الغربيين من

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ ، ٢٠٢ .
(2) Albert d'Aix (Hist. Occid. IV) p. p. 356-357 & 445-446.
(٣) أما رواية ابن الأثير عن استيلاء بلدوين على سروج ، فيقول فيها إن النزاع لم يكن بين بلدوين وبلك بن بهرام ، وإنما بين بلدوين وسقمان (سكمان) بن أرتق نفسه ، وهو الذى كان فى وقت ما صاحب بيت المقدس . ويذكر ابن الأثير أن سقمان هذا حاول غزو الرها بجيش كبير من التركمان ، ولكنه هزم واستولى الفرنج على سروج « وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم » .
(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ) .
(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. 402.

ناحية والأرمن من ناحية أخرى . وقد ضرب بلدوين نفسه مثلا لهذا الترابط بزواجه من الأميرة أردا Arda ، وهى ابنة أحد زعماء الأرمن[١] . على أنه إذا كانت سياسة بلدوين قد استهدفت الربط بين العنصرين ، إلا أنه من الواضح أن بلدوين نفسه كان حريصاً فى الوقت ذاته على أن يظل العنصر الأرمنى خاضعاً للعنصر اللاتينى الغربى . لذلك جذب بلدوين إلى الرها عدداً كبيراً من الصليبيين الغربيين وأغدق عليهم المنح والأموال . ولكن هؤلاء عاشوا بعيدبن عن الاختلاط بالأرمن ، مما أساء كثيراً إلى شعورهم[٢] . ذلك أن الصليبيين الغربيين لم يلبثوا أن أصبحوا بمثابة أرستقراطية عسكرية فى الرها ، تحكم شعباً من الأرمن يشتغل أفراده بالتجارة والزراعة . حقيقة إن هذه الأرستقراطية لم تضطهد الأرمن مذهبياً — مثلما كان يفمل البيزنطيون — فظل التسامح الدينى يسود العلاقات بين اللاتين والأرمن ، ولكن سرعان ما استولى الوافدون الجدد من الصليبيين على الضياع الزراعية التابعة للرها خارج أسوارها ، واضطر من عليها من الفلاحين الأرمن إلى العمل فى ظل قيود النظم الاقطاعية المعروفة فى الغرب الأوربى ، فضلا عن أن الضرائب التى ظل يدفعها أهل الرها لم تخف مما كانت عليه أيام ثوروس[٣].

لذلك لا عجب إذا استاء الأرمن من حكم الصليبيين ، وأخذوا يدبرون مؤامرة للتخلص من ذلك الحكم ، فاتصلوا بالأراتقة سراً للحصول على المساعدة . ولكن هذه المؤامرة أحبطت وعوقب زعماؤها عقابا قاسياً فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٠٩٨[٤] .

(1) Guillanme de Tyr, p. 402.
(2) Michaud : op. cit. I. p 235.
(3) Runciman : op. cit, I. p. 211.
(4) Albert d'Aix, p. 443 & Guillaume de Tyr p. 285.

الفصل التاسع

الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة فارس

الصليبيون أمام أنطاكية :

وفى الوقت الذى كان بلدوين البولونى يعمل فى محيط الأرمن بالجزيره ، زحف بقية الجيش الصليبي الكبير على شمال الشام قاصدا أنطاكية ، وهى العاصمة البيزنطية القديمة لذلك الإقليم . وقد أحدث وصول الصليبيين إلى مشارف الشام هلعا كبيرا فى قلوب الأهالى ، لأن كثرة أعدادهم وطبيعة زحفهم جعلت الناس يشعرون أنهم أمام خطر جديد من نوع غير عادى . وعبر عن ذلك ابن القلانسى بقوله إن الصليبيين وصلوا « فى عالم لا يحصى عدده كثرة وتتابعت الأنباء بذلك، فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها . »[١] وكان الصليبيون قد غادروا مرعش فى أكتوبر سنة ١٠٩٧ بعد أن تزودوا بالطعام والماء ثم استولوا على حصن بغراس وقلعه أرتاح فى الطريق ؛ ولم تلبث أن وصلت طلائع الجيش الصليبى بقيادة بوهيموند مدينة أنطاكية فى ٢١ أكتوبر[٢] .

أما عن مدينة أنطاكية هذه فقد ذكرنا أن آخر حكامها من قبل الامبراطورية البيزنطية كان فيلاريتوس الأرمنى ، حتى انتزعها منه زعيم سلاجقة الروم سليمان بن قتلمش فى فبراير سنة ١٠٨٥ . وعندما تغلب تتش أخو السلطان ملكشاه على سليمان هذا وقتله سنه ١٠٨٦ صارت أنطاكية من أملاك تتش ، حتى اختار أخوه السلطان ملكشاه أن يأخذها منه و يعطيها لأحد رجاله

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣١ (مطبوع) .

من التركمان ، وهو ياغى سيان سنة ١٠٨٧ [١] . وكان ياغى سيان هذا على درجة من الكفاية مكنته من اكتساب رضاء تتش بعد وفاة ملكشاه ، حتى إذا ماتوفى تتش ظل ياغى سيان محتفظاً بأنطاكية ، دون أن يستطيع ملك حلب — رضوان بن تتش — انتزاعها منه . وهكذا قدر لذلك الأمير التركمانى — ياغى سيان — أن يظل محتفظاً بأنطاكية ليتولى الدفاع عنها ضد جحافل الصليبيين [٢] .

ولم يكن الشقاق بين ياغى سيان أمير أنطاكية وسيده رضوان بن تتش ملك حلب هو العامل الوحيد الذى سهل مهمة الصليبيين فى شمال الشام ؛ وإنما حدث فى السنة نفسها التى أخذت الجيوش الصليبية تتدفق من غرب أوربا إلى الشرق (١٠٩٦ — ١٠٩٧) أن قامت حرب أهلية بين ابنى تتش — رضوان ملك حلب ودقاق ملك دمشق — بسبب رغبة الأول فى انتزاع دمشق من أخيه [٣] . وكان أن زحف رضوان — يصحبه ياغى سيان — على دمشق لطرد دقاق منها ، ولكنه فشل فى ذلك وارتد « عائداً إلى حلب خائباً فى الأمر الذى طلب » [٣] ولم يلبث أن ترك ياغى سيان جانب رضوان وانضم إلى أخيه وغريمه دقاق ، وأغراه على أن يقوم بمهاجمة رضوان فى حلب . ولكن دقاق فشل هو الآخر فى هجومه على حلب ، على الرغم من مساعدة ياغى سيان له [٤] .

(١) ذكرته بعض المراجع باسم ياغى بسّان ؛ وقال الدكتور زكى محمد حسن : إن هذا النطق للاسم هو الأصح (زامباور : معجم الأنساب ص ٢٢١) .
ومع اعترافنا بصحة هذ الرأى ؛ إلا أننا آثرنا استخدام الصيغة الشائعة للاسم فى غالبية المراجع المعاصرة .

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ١١١ — ١١٢ .

(٣) « وقد كان الملك فخر الملوك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب مائلا إلى دمشق ومحباً لها ومؤثراً للعود إليها ، ولا يختار عليها سواها ، لمعرفته بمحاسنها وترعرعه فيها » .
(ابن القلانسى : ١٣١ — ١٣٢) .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٢ .

هذه هى بعض الأحداث التى كانت تجرى على مسرح الشام ساعة وصول الصليبيين فى أكتوبر سنة ١٠٩٧ ، [١] ومنها يتبين أن ياغى سيان بخيانته لسيده ملك حلب حرم من الحصول على مساعدة أقرب القوى الإسلامية إليه عندما دهمه الخطر الصليبى فى أنطاكية . ويقول ابن العديم أن استبداد ياغى سيان وتعسفه آثار استياء المسيحيين فى شمال الشام وبخاصة فى أرتاح ، مما جعلهم يفرحون لظهور الصليبيين ويطلبون العون منهم [٢] .

أما مدينة أنطاكية نفسها فكانت من أقوى مدن ذلك العصر تحصيناً ، بحيث لا يمكن مقارنتها فى مناعتها وقوة تحصينها إلا بالقسطنطينية [٣] . ذلك أن الجبال العالية أحاطت بها من جهتى الجنوب والشرق ، فى حين كان يحدها من من جهة الغرب مجرى نهر العاصى ، ومن الشمال مستنقعات وأحراش ، فضلا عن قلعة حصينة يصعب الاستيلاء عليها [٤] . وعندما وصل بوهيموند ومعه رجاله من النورمان إلى أنطاكية اتخذوا مواقعهم فى الجهة الشمالية للمدينة ، أى عند باب بولس . ثم جاء بعد ذلك روبرت أمير فلاندرز ، وروبرت أمير نورمنديا ، وهيو أمير فرمندوا ، وستفن (إتين) أمير بلوا ، فاتخذوا جميعهم مواقعهم بين باب بولس وباب الكلاب . أما ريموند والمندوب البابوى أدهمار ومعهم فرسان بروفانس ، فاستقروا أيضاً على مقربة من باب الكلاب ، إلى الجهة الغربية منه . وأخيراً عسكر جودفرى بوايون فى الجهة الشمالية الغربية ، أى فى مواجهة باب الجنينة [٥] .

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(2) Stevenson : The Crusaders. p. 25.

(٣) « وفعل أهل أرتاح مثل ذلك ، واستدعوا المدد من الفرنج . وهذا كله لقبح سيرة ياغى سيان وظلمه فى بلاده » .
(ابن العديم : زبدة الحلب ٢ ص ١٣١ — مطبوع) .

(4) Grousset : Hist, des Croisades I. p. 72.

(٥) ذكر ياقوت الحموى عن أنطاكية « ولم تزل أنطاكية قصبة العواصم من الثغور =

وكانت غالبية أهل أنطاكية فى ذلك الوقت من السريان والأرمن . وعندما علم ياغى سيان صاحب أنطاكية باقتراب الصليبيين « خاف من النصارى الذين بها » ولذلك أخرجهم بحجة حفر خندق يحمى المدينة ؛ ولما أرادوا دخول أنطاكية ، عند العصر منعهم وتركهم يشتركون مع الصليبيين فى حصارهم ، فى حين تحفظ هو على أهلهم « وكف أيدى المتطرقة إليهم » [(١)] .

هذه هى الرواية العربية عن موقف أهل أنطاكية المسيحيين ؛ أما الرواية اللاتينية فتختلف تماما لأنها تقول إن « الأرمن والسريان الذين كانوا بداخل المدينة أسرعوا بالخروج والهروب منها تاركين خلفهم نساءهم وأولادهم بالمدينة ، فاستفسروا منا عن هدفنا وأمدونا بمعلومات عن كافة اسرار المدينة » [(٢)] . ومن هاتين الروايتين المتناقضتين يبدو لنا أن أهل أنطاكية ، من السريان والأرمن تنازعهم تياران متعارضان ، فقرروا الانتظار حتى يروا من المنتصر وعندئذ ينضمون إلى جانبه . هذا إلى أنه من المرجح أن يكون ياغى سيان قد اتخذ إجراءات تعسفية ضد المسيحيين فى أنطاكية عندما علم باقتراب الصليبيين ، فزج بالبطرق فى السجن ، وطرد كثيرا من أعيان المسيحيين ، واستولى رجاله على كتدرائية القديس بطرس واتخذها اسطبلا لخيوله [(٣)] .

ومهما يكن من أمر فإن حصار الصليبيين لأنطاكية ، استمر سبعة أشهر — من ٢١ اكتوبر سنة ١٠٩٧ حتى ٣ يونيه ١٠٩٨ [(٤)] — وكان من الممكن ألا

= الشامية. وهى من أعيان البلاد وأمهاتها ... وأنطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل ، ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس ... وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مع الجبل إلى قلته فتتم الدائرة ... »
(معجم البلدان س ٢٦٧ — طبعة بيروت) .

(2) Guillaume de Tyr I, p. p. 174—175.

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(3) Gesta Francorum, p. 69.

(4) Runciman : op. cit, I, p. 214.

تطول مدة الحصار على هذا النحو لو أن الصليبيين باغتوا المدينة بالهجوم فور وصولهم ولم يضيعوا وقتا طويلا فى الانتظار والتفكير ، لا سيما وأن جميع الشواهد تشير إلى حالة الفزع والارتباك التى استولت على الأتراك فى أنطاكية عندما علموا بوصول الصليبيين . وزاد من موقف الصليبيين قوة أنهم أمنوا طريق الاتصال فيما بينهم وشاطىء البحر ، وذلك عندما وصل إلى ميناء السويدية — عند مصب نهر العاصى — فى حوالى ١٧ نوفمبر سنة ١٠٩٨ أسطول جنوى يحمل إمدادات هامة للصليبيين [(١)] .

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه بينما كانت الجيوش الصليبية تخترق الأناضول فى طريقها إلى الشام ، دأبت الأساطيل الإيطالية والفلمنكية والسكندناوية على مساعدة الصليبيين [(٢)] . من ذلك أن المغامر ونمار البولونى استطاع أن يستولى فى أغسطس سنة ١٠٩٧ على ميناء اللاذقية من الاتراك . وبعد ذلك بعدة شهور — أى فى ربيع سنه ١٠٩٨ — زار اللاذقية أسطول انجليزى بقيادة إدجار اثانج وروبرت جودفنسن [(٣)] .

أما ياغى سيان ، فقد حاول فى تلك الأثناء الحصول على مساعدة جيرانه المسلمين . وكان من الطبيعى الايطمع فى مساعدة رضوان ملك حلب بعد أن تخلى عنه فى العام السابق ، فأرسل ابنه شمس الدولة إلى دقاق ملك دمشق ، كما أرسل إلى جناح الدولة أمير حمص وكربغا أتابك الموصل ، فضلا عن سلطان سلاجقة فارس والخليفة العباسى ، « وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجاد والبعث على الخوف إلى الجهاد وقصد تحصين أنطاكية وإخراج

(١) حدد ابن الأثير مدة الحصار بتسعة أشهر (الكامل — حوادث ٤٩١ هـ) .

(2) Raymond d'Agiles. (Hist. Occid. III), p. 242 & Caffo (Hist Occid, V). p 50.

(3) Heyd : Hist. du Commerce, I, p. 133.

النصارى منها »[١] . وفى الوقت نفسه أعد ياغى سيان عدته لحصار طويل ، فشحن القلاع بالجند والمقاتلين واختزن داخل أسوار المدينة المؤن الكافية[٢] .

وعندما طال حصار أنطاكية ، أخذ الصليبيون يوجهون جزءاً كبيرا من نشاطهم نحو القرى والضياع القريبة — وبخاصة فى حوض نهر العاصى — لنهبها والحصول على الميرة والغذاء . ويبدو أن ياغى سيان أحس بابتعاد تلك القوة من الصليبيين ، نخرج فجأة من المدينة وقام بهجوم مباغت على بقية الصليبيين ، وكاد ينجح فى تفرقة شملهم لولا مهارة ريموند التى أنقذت الموقف ، وعندئذ عاد ياغى سيان ورجاله إلى داخل المدينة[٣] . وفى ذلك الوقت تجمعت قرب شيزر نجدة إسلامية لإنقاذ أنطاكية ، على رأسها دقاق السلجوقى ملك دمشق وبصحبته طغتكين أتابك ، وأمير حمص العربى جناح بن ملاعب . وعندما علم هؤلاء الأمراء المسلمون أن جزءا من الجيش الصليبى بقيادة بوهيموند النورمانى وروبرت أمير فلاندرز — يزحف على امتداد نهر العاصى ، قرروا الخروج لملاقاتهم ، فدارت معركة بين الطرفين عند البارة فى نهاية ديسمبر سنة ١٠٩٧[٤] . ويفهم مما ذكره ابن العديم أن المسلمين تفوقوا على الصليبيين فى ذلك الاشتباك ، وأنهم « قتلوا منهم جماعة »[٥] .

ويبدو أن تلك المعركة نبهت الصليبيين إلى عدم المغامرة بالابتعاد عن مراكزهم جنوبا ، فا كتفوا بالإغارة شرقا حتى معرة مصرين حيث « قتلوا من وجدوا وكسروا منبرها »[٦] على أن هذه الانتصارات المحلية لم تحقق للصليبيين ما كانوا

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .
(2) Runciman : op. cit, I, p. 215.
(3) Idem, p. 220.
(4) Stevenson : op. cit, p 26.
(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٢ (مطبوع) .
(٦) المرجع السابق ج ٢ ص ١٣٢ .

يرجونه من زاد وطعام ، فعادوا إلى أنطاكية « منتصرين ولكن الأيدى خاوية » ، على قول أحد المؤرخين الغربيين المعاصرين[١] . وهكذا أخذ شبح المجاعة يهدد الصليبيين أمام أنطاكية ، ولم تكفهم المعونة المتقطعة التى كانت تأتيهم من قبرس والغرب حينا وتنقطع أحياناً . وتحت تأثير الجوع والإنهاك نشبت الفوضى وسوء النظام بين الجند[٢] . وفى تلك الظروف الحرجة والأوضاع الصعبة، أخذ بعض الصليبيين يفرون من المعركة ويتسللون خفية . ولم تقتصر هذه الظاهرة على الجند المغمورين ، بل إن بطرس الناسك نفسه ووليم النجار أمير ميلون Melun اختفيا فجأة ، فجد تنكرد فى أثرهما حتى قبض عليهما وأعادهما إلى بوهيموند الذى وبخهما علناً لهروبهما ، وأخذ عليهما تعهداً بعدم ترك الجيش الصليبى حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس[٣] .

بوهيموند ومشكلة أنطاكية :

وفى وسط تلك المخاطر والأوضاع الصعبة التى أحاطت بالصليبيين أمام أنطاكية . أخذ بوهيموند يبدو فى صورة الرجل القوى الذى تركزت فيه آمال الصليبيين . ولكن بوهيموند لم يعمل فى ذلك الدور لوجه الله والصليبيين فحسب ، ولم يبذل ما بذله من جهود حرصاً على ولائه للامبراطور البيزنطى ، وليسلمه إلى

(1) Raymond d'Aigles, (Hist. Occid, III), p. 245.
(2) Cuillaume de Tyr, I, p. 188.
والمعروف أن بطرق بيت المقدس السابق — وهو سيمون — كان مقيما عندئذ بقبرس فدأب على إرسال المؤن والمأكولات والنبيذ من الجزيرة إلى الصليبيين أمام أنطاكية ؛ لأنه رأى فى انتصار الصليبيين الغربيين — رغم اختلاف المذاهب — انتصاراً للمسيحية ، ونيلا من المسلمين . انظر :
(Runciman : op. cit, I, p. p. 222—223)
(3) Gesta Francorum, p. p. 77—79.

ما شاء الله ثمار جهده وجهود الصليبيين . وإذا كان بوهيموند قد حافظ حتى ذلك الوقت على تعهده الذى قطعه على نفسه فى القسطنطينية للامبراطور ألكسيوس كومنين ، وسلم للامبراطور كل ما استولى عليه من بلاد فى آسيا الصغرى ؛ فإن هذه السياسة كانت لا يمكن أن تستمر . وهكذا أخذت سياسة بوهيموند تجاه ألكسيوس والإمبراطورية البيزنطية تتغير أثناء حصار أنطاكية ، وهو التغيير الذى ترتب عليه حدوث تحول خطير فى تاريخ الحروب الصليبية . ذلك أن بوهيموند أدرك أن الإمبراطور البيزنطى لن يوافق مختاراً على منحه أنطاكية ، فلا مانع إذاً من أن يحصل عليها رغم إرادة الإمبراطور [١] .

وقد نفذ بوهيموند خطته فى براعة فائقة ، فاختار أصعب أوقات الحصار وأشدها حرجاً — فى أوائل يناير سنة ١٠٩٨ — ليعلن أنه أزمع الانسحاب والعودة إلى إيطاليا ، وأنه لا يستطيع الاستمرار فى تلك العملية الحربية الطويلة التى لم يكن مستعداً لها ، ولا يمكنه أن يصبر على رؤية رجاله وفرسانه وخيوله ، وهم يتساقطون كل يوم صرعى من الجوع أمام أسوار أنطاكية[٢]. ومن الواضح أن هذا التهديد الخطير كان يعنى تعريض الصليبيين جميعاً لكارثة محققة ، لأن بوهيموند ورجاله صاروا بمثابة العمود الفقرى للقوات الصليبية المحاصرة لأنطاكية . لذلك أسرع جميع الزعماء الصليبيين — فيما عدا ريموند — وتوسلوا إلى بوهيموند حتى لا يتركهم أمام أنطاكية ، ووعدوه بتسليمه أنطاكية فور الاستيلاء عليها . وكان ذلك هو كل ما استهدفه بوهيموند من وراء مناورته ، فلم يبق له بعد ذلك سوى إظهار مقدرته وكفايته فى الاستيلاء على أنطاكية[٣] .

(١) أشار ابن القلانسى إلى نقض الصليبيين للعهد الذى قطعوه على أنفسهم للامبراطور البيزنطى ، ولكنه أخطأ فقال : إنهم امتنعوا عن تسليمه نيقية .
(ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥) .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 79.

(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. 201 & Premiere Croisade. p. 193.

ثم إن بوهيموند أدرك جيداً أن وجود قوات بيزنطية بقيادة تاتكيوس Tatikios أمام أنطاكية بحجة مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على المدينة ، سيفسد عليه خطته ، لأن القائد البيزنطى سيطالب عند سقوط أنطاكية بتنفيذ العهد الذى قطعه الزعماء الصليبيون على انفسهم للامبراطور البيزنطى [١]. لذلك أخذ بوهيموند يستفز القائد البيزنطى ، وعندما ذهب تاتكيوس يشكو ويطلب المساندة من بقية الزعماء الصليبيين ؛ كان بوهيموند قد أحكم خطته ، فاتهمه أولئك الزعماء بأنه يتآمر مع الأتراك سراً ضد الصليبيين وأنه يخون القضية الصليبية فى الخفاء . وعندئذ لم يسع تاتكيوس سوى أن يفكر فى النجاة بنفسه ، فانسحب فوراً عن طريق ميناء السويدية إلى جزيرة قبرص [٢] . والواقع إن اتهام تاتكيوس كان يعنى اتهام الامبراطورية البيزنطية كلها ، فتحول شعور الصليبيين نحوها إلى عداء ، وأخذوا فى أزمتهم أمام أنطاكية يلقون باللوم على الإمبراطور البيزنطى ودولته ، ويقولون أنه لو كان الإمبراطور ساعدهم باخلاص لما وصلوا إلى الحالة السيئة التى أمسوا فيها ، ولوجدوا على الأقل ما يسد رمقهم من زاد وميرة . وهكذا دفع هذا الشعور كافة الأمراء الصليبيين إلى التنكر لوعودهم للامبراطور البيزنطى ، على أساس أن البيزنطيين أنفسهم هم الذين بدءوا بنقض اتفاقية القسطنطينية ، فتخلوا عن مساعدة الصليبيين وإمدادهم بما يحتاجون إليه من معونة . فضلا عن أن مندوب الامبراطور لم يثابر مع الصليبيين أمام انطاكية ، وإنما تركهم ولاذ بالفرار [٣] . وبذلك نجح بوهيموند فى إحكام خطته ولم يبق فى طريقه ما يحول دون تسلمه أنطاكية فور سقوطها فى أيدى الصليبيين .

(1) Brehier : op. cit, p. 312

(2) Setton : op. cit, I, p. p. 313—314.

(3) Runciman : op. cit. I, p. p. 224.

مشروع التحالف بين الصليبيين والفاطميين

على أن الشيء الذى يسترعى العجب حقا ، هو أن المسلمين ظلوا حتى ذلك الوقت لا يدركون طبيعة الحركة الصليبية وهدفها ، بدليل أن الفاطميين فى مصر فكروا فى مشروع للتحالف مع تلك القوة الجديدة التى ظهرت فى بلاد الشام ، ضد خصومهم من أهل السنة ، أعنى الخلافة العباسية فى بغداد والأتراك السلاجقة فى الشام [١] .

وكان صاحب السلطة الفعلية فى مصر عندئذ هو الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى الذى ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمى المستعلى (١٠٩٤ــ ١١٠١) والعشرين سنة الأولى من حكم الخليفة الآمر ، أى حتى سنة ١١٢١ . ويبدو عدم إدراك الأفضل لحقيقة الحركة الصليبية من أنه عندما رأى الصليبيين يهاجمون الأتراك السلاجقة — أعداء الدولة الفاطمية الألداء — فكر فى أن يقيم تحالفا بينه و بين الصليبيين ، بحيث تكون أنطاكية للصليبيين وتكون بيت المقدس للفاطميين [٢] . وربما استند الأفضل فى تفكيره هذا إلى بعض السوابق التاريخية لأن الدولة البيزنطية أيام صحوتها فى القرن العاشر لم تتعد أملاكها فى بلاد الشام مدينة أنطاكية ، فظن الأفضل أن أولئك الصليبيين إنما أتوا فى نهاية القرن الحادى عشر ليفعلوا فى بلاد الشام مثلما فعل نقفور فوقاس وحنا الشمشقيق فى نهاية القرن العاشر [٣] .

ولم يشأ الأفضل أن يضيع الوقت ، وإنما انتهز فرصة الفوضى التى أصابت العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر نتيجة لوسول

(1) Chalandon : Premiere Croisade, p. 196.
(2) Stevnson : op. cit; p. 26.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 83.

الصليبيين ، وأرسل جيشا تمكن من فتح بيت المقدس « وملكه وتسلم محراب داود من سكان » [١] . وفى تلك الأثناء كانت سفارة فاطمية من قبل الأفضل قد وصلت إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية (يناير ــ فبراير ١٠٩٨) . وهناك فى المراجع ما يشير إلى أن الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين كان قد نصح الصليبيين منذ وجودهم فى القسطنطينية، بأن يحاولوا محالفة الفاطميين فى مصر . ومع أنه لا يوجد لدينا دليل يثبت استجابة الصليبيين لتلك النصيحة فى ذلك الوقت ، إلا أن بعض المراجع الصليبية أشارت إلى أنهم أرسلوا من نيقية سفارة إلى مصر [٢] . وإذا كان هذا الرأى ليس له ما يؤيده فى بقية المراجع الصليبية ، إلا أن الصليبيين لم ينسوا نصيحة الامبراطور البيزنطى مما جعلهم يرحبون بالسفارة التى أرسلها إليهم الأفضل فى أوائل سنة ١٠٩٨ أمام أنطاكية [٣] . ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة واضحة عن مدى انقسام العالم الإسلامى على نفسه فى ذلك الحين بين سنة وشيعة ، وترك وعرب ، وما سببه هذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعا ، الأمر الذى مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الجميع . وتصور لنا المراجع اللاتينية المعاصرة هذا الانقسام بوضوح ، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوارث على أيدى الصليبيين [٤] .

ومهما يكن من أمر فقد صح حساب الأفضل فى أول الأمر ، لأن الأتراك كانوا مشغولين بالغزو الصيلبى وإقامة جبهة فى الشمال ضد الفرنجة الغزاة ، فلم يتمكنوا من إرسال نجدة لأقربائهم فى بيت المقدس ترد عادية الفاطميين . وفى الوقت نفسه استفاد الصليبيون فائدة كبرى من تلك الخطوة التى اتخذها الفاطميون ، لأن تهديد الأفضل لفلسطين و بيت المقدس سبب ارتباكا للأتراك السلاحقة فى

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .
(2) Runciman : op. cit; I, p. p. 230.
(3) Riant : Inventaire des lettres des Croisades, I, p.162.
(4) Guillaume de Tyr, I, p. p. 191—192.

أشد الأوقات حرجا[1] . هذا فضلا عن أن السفارة التى أرسلها الفاطميون إلى الصليبيين عند أنطاكية ، أكسبت أولئك الأخيرين وضعا سياسيا معترفا به فى ركن هام من أركان العالم الإسلامى . ويذكر ابن الأثير كيف أخذ الصليبيون ينهضون بدورهم فى مهارة بالغة عندئذ ، فلم يكتفوا ببث شعور الطمأنينة فى نفوس الفاطميين ، وإعطائهم صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم فى بلاد الشام ، وإنما حاولوا أيضا أن يسدلوا غشاوة على أبصار سلاجقة دمشق ؛ فأرسلوا إلى دقاق يطمئنوه على مصيره ويؤكدون له أنهم لايطمعون إلا فى استرداد الأماكن والبلدان التى كانت تابعة للبيزنطيين فيما مضى ؛ أى الرها وأنطاكية واللاذقية[٢] . وبعد هذه الخطوة حاول الصليبيون أيضا استمالة رضوان ملك حلب ، حتى إذا مافرغوا من أمره هو الآخر استطاعوا مواجهة القوى الإسلامية منفردة والتهام إمارة بعد أخرى ومدينة تلو مدينة من الإمارات والمدن الإسلامية بالشام .

تدخل رضوان ملك حلب ، موقفه العام:

ويبدو أن تلك الخطة الصليبية قد نجحت إلى حد كبير ، إذ هدأ دقاق فى دمشق ، وظل حينا بعد هزيمته فى البارة لايحاول التدخل لدفع خطر الصليبيين عن أنطاكية . أما أخوه رضوان ملك حلب ، فعلى الرغم من علاقته السيئه مع ياغى سيان ، إلا أنه كان لايستطيع أن يستمر طويلا فى موقفه السلبى تجاه انطاكية . ذلك أن ياغى سيان كان قبل كل شىء تابعاً وفصلا لرضوان ، فى الوقت الذى

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 84—85.

« وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب دمشق بأننا لا نأخذ ولا نقصد غير البلاد التى كانت بيد الروم ولا نطلب سواها ، مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا أصحاب أنطاكية » . (ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

كانت أنطاكية جزءاً من نصيب رضوان فى الدولة السلجوقية[1] .

وكان ياغى سيان قد أرسل ابنه ليستحث القوى الإسلامية القريبة ويطلب منها العمل لإنقاذ أنطاكية ، فاتجه الابن إلى حلب لاسترضاء رضوان مرة أخرى والإعتذار له عما فات . وأخيراً وجد رضوان أنه لا بد من أن يتناسى الماضى ، وصمم على أن يسرع إلى إنقاذ أنطاكية ، وصاحبه فى حملته سكمان (سقمان) ابن أرتق من ديار بكر ، وأمير حماه ، فضلا عن قوات أخرى من حمص ومن الأراتقة فى إقليم الجزيرة[٢] . وقد اجتمعت هذه القوات الإسلامية كلها فى حارم ، وهى قلعة تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً تقريباً من أنطاكية ، إلى الشرق منها . أما الخطة التى وضعها المسلمون لخلاصها أن تهاجم تلك الجيوش أنطاكية فجأة ، فى الوقت الذى تخرج جيوش ياغى سيان من المدينة لمهاجمة الصليبيين من الاتجاه المقابل ، وبذلك يقع الصليبيون بين نارين[٣] .

على أن المسيحيين فى حلب وحارم — وبخاصة السريان والأرمن — علموا بتلك الخطة ، فأرسلوا سراً إلى الصليبيين أمام أنطاكية فى أوائل فبراير سنة ١٠٩٨ يخبرونهم بكل تلك التفاصيل حتى لايؤخذن على غرة[٤] . وكان أن وضع بوهيموند خطة سريعة لمواجهة الموقف فترك المشاه يحرسون معسكر الصليبيين ويتابعون حصار أنطاكية فى حين خرج هو على رأس حوالى سبعمائة فارس لصد المسلمين (٨ فبراير ١٠٩٨) واختار الصليبيون موقعاً حصيناً بين بحيرة العمق من ناحية ومجرى نهر العاصى من ناحية أخرى[٥] . وفى اليوم التالى دارت الموقعة

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 315.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩١ هـ .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 86.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 194.

(5) Chalandon : Premiere Croisade, p. p 195.

وانتهت فى سرعة باندحار المسلمين الذين ارتدوا نحو حصن حارم ، وفى أعقابهم الصليبيون . وعندما رأت حامية حارم حرج الموقف لاذت هى الأخرى بالفرار بعد أن أشعلت النار فى الحصن ، و بذلك استولى الصليبيون على حارم بمساعدة أهلها من السريان والأرمن (١) . وكان استيلاء الصليبيين على حارم نصراً كبيراً نظراً لأهميتها فى حماية أنطاكية من ناحية حلب (٢) .

وفى تلك الأثناء وجدت حامية أنطاكية بقيادة ياغى سيان أن الوقت مناسب للقيام بهجوم مفاجىء فى غيبة الفرسان الصليبيين ، فخرج ياغى سيان فعلا وقام بهجومه ، ولـكن مشاة الصليبيين تصدوا له وقاوموه ، واستمر الصراع حاداً بين الطرفين لحين عودة الفرسان ظافرين يحملون رءوس ضحاياهم فى معركة العمق ؛ فقذفوا بها داخل أسوار المدينة ليعلم ياغى سيان بما حل بحلفائه (٣) .

سقوط أنطاكية :

وعندما رأى ياغى سيان أن الهزيمة حلت بالحلبيين مثلما حلت بالدماشقة من قبل أرسل نداء جديداً إلى بركياروق سلطان سلاجقة فارس وتابعه كربوغا (كربوقا) أتابك الموصل . وسرعان ما انتشرت إشاعة بين الصليبيين تفيد بأن جيشاً كبيراً من الترك بقيادة كربوغا فى طريقه إليهم؛ مما جعل الصليبيين يفكرون فى طريقة عاجلة للاستيلاء على أنطاكية بعد أن ثبت أن طول مدة الحصار ليس فى صالحهم (٤) .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٤٩١ هـ ؟
Guillaume de Tyr, I, p. 196.
(2) Stevenson : op. cit, p. 27.
(3) Gesta Francorum, p. p. 80—86.
(4) Michaud : op. cit, I, p.p. 264—267.

والواقع إن كربوغا كان قد أعد عدته فعلا لنجدة أنطاكية ، ولـكنه توقف فى الطريق لمحاولة الاستيلاء على الرها من بلدوين ، وبذلك أضاع الأسابيع الثلاثة الأخيرة من شهر مايو فى حصار الرها دون جدوى . مما أعطى الصليبيين أمام أنطاكية فرصة طيبة من الوقت (١) . وكان أن شيد الصليبيون قلعة على تل قريب من أنطاكية كانت به مقابر للمسلمين ، فاستغلوا ما عليه من أحجار فى بناء تلك القلعة التى مكنتهم من إحكام الحصار على المدينة (٢) . وعندما تم بناء القلعة فى ١٩ مارس ، اكتمل حصار أنطاكية وأصبح من الصعب تسرب المؤن والإمدادات إليها أو خروج أهلها منها لرعى ماشيتهم فى المراعى القريبة (٣)
وصادف عندئذ وصول أسطول انجليزى من عدة سفن إلى ميناء السويدية فى ٤ مارس سنة ١٠٩٨ يحمل كثيرا مما افتقر إليه الصليبيون من زاد وسلاح وآلات للحصار ، كما وصل إلى نفس الميناء قبل ذلك — أى فى أواخر نوفمبر من العام السابق — أسطول جنوى من ثلاث عشر سفينة — مما يشير إلى ازدياد أهمية العامل البحرى تدريجيا فى خدمة الصليبيين ومساعدتهم (٤) .

وفى تلك الأثناء لم تتوقف الاشتباكات بين الأتراك وحامية أنطاكية من جهة والصليبيين من جهة أخرى . ويبدو أن كفة الصليبيين كانت هى الراجحة فى تلك الاشتباكات، حتى اطمأنوا أخيراً إلى أن حصارهم لأنطاكية أصبح تاما بعد أن أمنوا اتصالهم بالبحر عن طريق ميناء السويدية من جهة وبامارة الرها التى غدا يحكمها واحد منهم ، هو بلدوين البولونى من جهة أخرى .

ويشهد المؤرخون المسلمون أن ياغى سيان لم يهمل الدفاع عن المدينة ،

(1) Runciman. op. cit,; I, p. 231.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 291.
(3) Runciman : op. cit; I, p. p. 228. &Cam. Med. Hist; vol 5, p. 292.
(4) Guillaume de Tyr, I. p. 198.

وأنهأظهر من الشجاعة «وجودة رأيه وحزمهواحتياطهمالم يشاهد من غيره »[١] . على أن الخيانة لم تلبث أن لعبت دورها فى سقوط أنطاكية . ذلك أنه وجد فى المدينة رجل اسمه نيروز — ويعرف بالزراد — كان ياغى سيان قد صادره « وأخذ ماله وغلته ، فحمله الحنق على أن كاتب بيمند (بوهيموند)[٢] » . ويبدو أن نيروز هذا كان قد اعتنق الإسلام ونال ثقة ياغى سيان ، حتى عهد إليه بحراسة أحد أبراج المدينة فى الجهة الجنوبية . ولم يلبث ذلك الأرمنى المسيحى الأصل أن غلبت عليه روح الخيانة فاتصل بأبناء جلدته من الأرمن ، وأمكنه عن طريق وساطة بعضهم مراسلة بوهيموند سراً[٣] ، فقال له « أنا فى البرج الفلانى ، وأنا أسلم إليك أنطاكية إن امنتنى وأعطيتنى كذا وكذا » . وكان أن وافقه بوهيموند و بذل له «مالا و إقطاعا»[٤] .على أن بوهيموند احتفظ لنفسه بسر المؤامرة ، ورفض أن يذيعه على الأمراء « وكتم أمره عن باقى الفرنج » ؛ كما أخذ يجسم لأمراء الصليبيين خطورة موقف الصليبيين و يطلب منه الموافقة على تحقيق حلمه الكبير ، وهو إعطاؤه أنطاكية والسماح له بإنشاء إمارة لنفسه فيها ثمنا لجهوده فى إنقاذهم من ذلك الموقف الخطير[٥] . ولم يلبث أن وافق الأمراء على طلبات بوهيموند تحت تأثير الظروف السيئة التى بات فيها الصليبيون ، فضلا عن الخوف من الإشاعات التى انتشرت بين صفوف الصليبيين والتى أكدت أن كربوغا أتابك الموصل ترك حصار الرها وأخذ يزحف فى طريقه إلى أنطاكية لتخلصيها من الصليبيين (نهاية مايو) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٣ — ١٣٤ (مطبوع) .
ويؤكد المؤرخ الصليبي وليم الصورى أن نيروز الزراد هذا أرمنى الأصل .
Guillaume de Tyr, I, p, 212.
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٤ (مطبوع) .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .
(5) Gesta Francorum, p. 100.

ويبدو أن وصول تلك الأخبار إلى الصليبيين فت فى عضدهم ، حتى بدأ كثيرون منهم يتسربون طالبين العودة إلى بلادهم [١] . ومن هؤلاء إتين دى بلوا الذى اتجه إلى اسكندرونة فى ٢ يونيه على رأس عدد كبير من رجاله الفرنسيين بعد أن ملوا طول الحصار فى تلك الظروف الصعبة ، وعملوا حساباً للخطر الجديد الذىأوشك أن يحل بهم على يد كربوغا . ولو كان إتين دى بلوا انتظر عدةساعات لغير رأيه فى الانسحاب ، إذ حدث مساء اليوم نفسه الذى انسحب فيهأن زحف الصليبيون على البرج الذى كان به الخائن نيروز الزراد . ولم يلبث الصليبيون أن دخلوا أنطاكية فى صباح اليوم التالى بعد أن فتحت أمامهم أبوابها ، فهرع إليهم أهل المدينة من السريان والأرمن يرحبون بهم ويساعدونهم فى التعرف على خفاياها وفى قتل من فيها من المسلمين [٢] . وقد حاول ياغى سيان نفسه الفرار مع جملة من فر من الأتراك ؛ ولكنه سقط عن فرسه « فقتله الأرمن وحملوا رأسه إلى الفرنج » [٣] . وكان أن تطرف الصليبيون فى قتل من وجدوه بأنطاكية من المسلمين « فقتل وأسر وسبى من الرجال والنسوان والأطفال مالا يدركه حصر » [٤] .

هذا إلى أن خبر سقوط أنطاكية أثار موجة من الذعر فى البلدان الإسلامية القريبة « فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن »[٥] . ولا شك فى أن سقوط أنطاكية كان له دوى هائل فى العالم المسيحى لا يفوقه إلا أثر سقوط بيت المقدس نفسها فى أيدى الصليبيين . فأنطاكية مدينة قديمة لها تاريخها الحافل

(1) Runciman : op. cit, I, p. p. 232—233.
(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩١هـ &
Guillaume de Tyr I, p. 231.
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٥ (مطبوع) .
(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .
(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٥ (مطبوع) .

وأهميتها الكبرى فى نظر المسيحيين . ويكفى أنها كانت ثالث مدن العالم فى عصر الامبراطورية الرومانية ، فضلا عن أنها المدينة التى أطلق فيها على أتباع المسيح لأول مرة اسم المسيحيين [١] ، والتى أسس فيها القديس بطرس أول أسقفية له . وقد ظلت أنطاكية تتمتع بشهرة واسعة حتى استولى عليها المسلمون فى القرن السابع ، وعندئذ غدت ملتقى الحضارتين اليونانية والعربية ، والمركز الرئيسى للتبادل التجارى بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية [٢] .

تدخل سلاجقة فارس ، حملة كربوغا :

رأينا كيف أضاع كربوغا عدة أسابيع فى حصار الرها ، مما أعطى الصليبيين فرصة ثمينة مكنتهم من الاستيلاء على أنطاكية. وقد دفع ذلك المؤرخ وليم الصورى إلى القول بأن دفاع بلدوين أمير الرها ومقاومته هى التى أنقذت الصليبيين أمام أنطاكية [٣] . ولم يلبث أن وجد الصليبيون أنفسم ـ غداة استيلائهم على أنطاكية ـ أمام مهام عاجلة خطيرة ، فأسرعوا إلى إعداد عدتهم للدفاع عن المدينة ضد هجوم كربوغا المنتظر ؛ وفى الوقت نفسه كان عليهم أن ينظفوا المدينة على عجل من أثر المذبحة الرهيبة التى أحدثوها فى أهلها من المسلمين ، فعجلوا بدفن جثث القتلى وموارأتها فى التراب حتى لا تكون سبباً فى انتشار الوباء [٤] . وبينما الجند يقومون بتلك الأعمال ؛ عكف أدهمار — ومعه رجال الدين — على إعداد تتدرائية

(١) « ودعى التلاميذ مسيحيين فى أنطاكية أولا » .
(سفر أعمال الرسل ١١ ، ٢٦) .

(2) Runciman : op. cit; I‘ p. p. 213.

(3) Guillaume de Tyr, I, p. p. 216—217.

(٤) قدرت المراجع الصليبية عدد المسلمين الذين ذبحهم الصليبيون فى أنطاكية بعشرة آلاف .

(Michaud : op. cit, I, p. 292.)

القديس بطرس وغيرها من الكنائس التى سبق أن استولى عليها السلاجقة ، لتعود إلى وظيفتها الأولى بوصفها دور عبادة للمسيحيين . كذلك أخرج البطرق الأرثوذكسى حنا الرابع من سجنه الذى وضعه فيه ياغى سيان ، وأعيد إلى كرسى البطرقية فى أنطاكية — رغم أنه يمثل الكنيسة الشرقية — وذلك حتى ترد تعليمات من البابوية فى ذلك الشأن [١] .

ولم يكد الصليبيون ينهضون بتلك الأعباء العاجلة عقب استيلائهم على أنطاكية، حتى دهمهم الخطر المنتظر من جانب كربوغا . وكان كربوغا بعد مغادرته إقليم الفرات قد توقف قليلا عند مرج دابق حيث اجتمع مع دقاق بن تتش ملك دمشق وطغتكين أتابك وأرسلان تاش صاحب سنجار وسكمان بن أرتق « وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم » [٢] . أما رضوان ملك حلب فظل معاديا لأخيه دقاق فى تلك الأوقات الحرجة التى شهدت تقرير مصير الشام الإسلامية . ولكى يرد كربوغا على موقف رضوان هذا ورفضه الانضمام إلى الحلف الإسلامى لإنقاذ أنطاكية، ضم إليه الأمير العربى جناح الدولة حسين صاحب حمص ، وهو من قبيلة بنى ملاعب وكان قد تزوج أم رضوان أى أرملة تتش [٣] .

وهكذا اجتمع الجيش السلجوقى الكبير فى مرج دابق ، ومنها أخذ يزحف على أنطاكية عن طريق نهر العاصى . وكان الصليبيون قد تركوا حامية صغيرة عند جسر الحديد — إلى الشمال الشرقى من أنطاكية — فقتل المسلمون رجالها عن آخرهم فى ٤ يونيه سنة ١٠٩٨ [٤] ؛ ثم لم تلبث أن ظهرت طلائع الجيش

(1) Runciman, op. cit, I. p. 237.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنه ٤٩١ هـ .

(٣) ذكر ابن العديم أن رسل الملك رضوان كثر ترددها فى تلك الأثناء على كربوغا، الأمر الذى أخاف دقاق وأثار الظنون فى نفسه .
(زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ — مطبوع) .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ (مطبوع) .

السلجوقى أمام سور أنطاكية . وقد حاول السلاجقة اقتحام أنطاكية عن طريق قلعتها التى كانت لا تزال « باقية فى أيدى المسلمين » ، وساعدهم فى ذلك شمس الدولة بن ياغى سيان ، ولكن كربوغا فشل فى تحقيق تلك الخطة[١] ، وعندئذ لجأ إلى تجويع الصليبيين داخل المدينة بإحكام الحصار عليها . ولتحقيق ذلك اختار كربوغا أن يعسكر فى السهل الممتد جنوبى أنطاكية عند باب البحر[٢] ؛ كما ولى على قلعة أنطاكية أحمد بن مروان . وهكذا ظل الصليبيون محصورين داخل أسوار أنطاكية قرابة ثلاثة أسابيع (٨ — ٢٨ يونية) ، فساءت حالتهم وبدأ بعض أعيانهم فى الفرار ، فى حين أخذت السفن الراسية بالسويدية تقلع عائدة وعليها من استطاعت حمله من الفارين[٣] .

ولعله من الواضح كيف انقلب الوضع وصار الصليبيون محاصرين داخل أنطاكية والمسلمون خارجها يطوقونها ويعملون على تجويع من بداخلها ؛ وذلك بعد أن كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية ويعملون على قطع الزاد عن ياغى سيان وحاميته من السلاجقة[٤] . وتشير المراجع إلى أن الصليبيين داخل أنطاكية تعرضوا لأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء والمؤن « فعدم القوت عندهم حتى أكلوا الميتة » ، وبلغ ثمن رغيف الخبز الصغير دينارا والبيضة الواحدة دينارين . ولم تكن هذه الأسعار فى متناول غالبية الصليبيين ، فاضطر بعضهم إلى العيش على أوراق الأشجار ، فضلا عن « الميتات والدواب »[٥] . وفى وسط تلك الأزمة أخذ كثير

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٦ — ١٣٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩١ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ (مطبوع) .

(٣) Cam. Med. Hist; vol. 5, p. 292.

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٦ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ . أما ابن الأثير فيقول عن الصليبيين داخل أنطاكية عندئذ : « ليس لهم ما يأكلونه ، وتقوت الأقوياء بدوابهم ، والضعفاء بالميتة وورق الشجر » .
(ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

من الفرسان يعبرون عن ندمهم على ترك بلادهم ، والحضور إلى الشرق ، بل لقد جاهر بعضهم بأن إتين دى بلوا كان على حق عندما انسحب أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية وقفل راجعاً إلى بلاده[١] .

ولم يبق أمل للصليبيين فى أنطاكية للخلاص من تلك المحنة التى ألمت بهم سوى حضور الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين ليطعن كربوغا وجيوشه من الخلف . لذلك استنجد الصليبيون بالإمبراطور الذى استجاب لندائهم وخرج على رأس جيشه قاصدا أنطاكية مخترقا آسيا الصغرى[٢] . ولكن لم يلبث أن التقى بالامبراطور فى آسيا الصغرى إتين دى بلوا وبعض زملائه ، فأخبروه أن السلاجقة استردوا أنطاكية وأبادوا الصليبيين فعلا ، وأنهم عندئذ فى طريقهم إلى آسيا الصغرى لضرب الإمبراطور وجيوشه قبل أن يصل إلى أنطاكية[٣] . وكان أن اهتز الامبراطور لتلك الأخبار ورأى أن يعدل خطته سريعاً ، لأن سلامة جيوشه وبلاده أهم بكثير من سلامة أنطاكية والصليبيين ، ولذلك قفل راجعاً ولم تفلح الجهود التى بذلت لحمله على المضى فى طريقه إلى أنطاكية[٤] . ولا شك فى أن عودة ألكسيوس كومنين جاءت ضربة خطيرة للصليبيين المحصورين داخل أنطاكية ، كما كان لتلك العودة أثرها فى تشجيع كربوغا . وسرعان ما بدأ اليأس ينتاب كثيرا من الصليبيين ، فخارت قواهم وتسللوا من المواقع الأمامية ليحتموا بمنازل المدينة ودورها ، مما دفع الأمير بوهيموند إلى إشعال النار فى المدينة فى ١٢ يونية ليحرق منازلها ويجبر الصليبيين القابعين داخلها على الخروج إلى المتاريس الأمامية للدفاع عن أسوار المدينة[٥] .

---

(1) Ruuciman op. cit, I, p. 238.

(2) Guillaume de Tyr p. p. 250—354 & Gesta Francorum, p. p. 141—147.

(3) Michaud : op. cit, I, p p. 300—302.

(4) Gesta Francorum, p.p. 147—148.

(5) Guillaume de Tyr I, p. 255.

ويروى ابن القلانسى وابن العبرى أن الصليبيين داخل أنطاكية بلغوا درجة من اليأس جعلتهم يفكرون فى الاستسلام ، ولكن كربوغا رفض أن يعطيهم الأمان ليخرجوا من أنطاكية ، وقال لهم « لا تخرجون إلا بالسيف »[١].
وعندما مرض ريموند — القائد الأعلى للقوات الصليبية — حل محله بوهيموند فى حوالى ٢٠ يونيه ، وعندئذ أخذ بوهيموند بحماسته المعروفة يرفع من الروح المعنوية للصليبيين ويعدهم لخوض معركة فاصلة مع المسلمين[٢].

وليس معنى سوء حال الصليبيين داخل أنطاكية أن المسلمين تمتعوا بجبهة متماسكة ؛ بل على العكس ظل المسلمون فى ذلك الدور الحاسم يعانون خللا واضحاً فى صفوفهم مما عاد عليهم بالخسارة . ذلك أن رضوان ملك حلب رفض — كما سبق أن ذكرنا — المشاركة فى الحلف الإسلامى للعمل على استرداد أنطاكية من الصليبيين ؛ هذا على الرغم من أن تأمين مستقبله ومستقبل إمارته كان يحتم عليه أن يتخذ موقفاً أكثر اتزاناً وحكمة ؛ بعد أن صارت حلب واقعة بين الرها فى الشرق وأنطاكية فى الغرب ، وكلاهما سقط فى قبضة الصليبيين[٣] . ولعل عدم وجود رضوان مع المسلمين أمام أنطاكية ، وعدائه لأخيه دقاق ملك دمشق الذى رافق كربوغا ، كان من العوامل التى خلقت جواً من القلق والاستياء فى صفوف المسلمين . ولما أحس كربوغا بحاجته إلى مساعدة رضوان ، بدأ يسعى للاتصال به ، وعندئذ « توهم دقاق من ذلك ! »[٤] . وفى الوقت نفسه أحس دقاق برغبته فى العودة إلى دمشق لمراقبة توسع الفاطميين فى فلسطين ، وهو التوسع الذى سبب له قلقاً بالغاً[٥] . ومن جهة أخرى فإن جناح الدولة حسين — أمير

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٦ .
(2) Michaud : op. cit; I, p. 304.
(3) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 98.
(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ (مطبوع) .
(5) Runciman : op. cit; I, p. 246.

حمص العربى الذى أسهم مع كربوغا فى حصار أنطاكية — ظل يشعر بقلق دائم بسبب الخوف من انتقام يوسف بن أبق أمير الرحبة ومنبج الذى كان على اتفاق مع رضوان . بل لقد بلغ الأمر بالمسلمين أمام أنطاكية أن انقسموا على أنفسهم ، فظهر الشقاق بين أتراك كربوغا من ناحية والعرب بزعامة وثاب بن محمود من ناحية أخرى « وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادوا لأجلها ، وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته »[١] . أما المؤرخ أبو الفداء فيعلل لروح التباغض والفرقة التى سادت زعماء المسلمين أمام أنطاكية بأن « كربوغا أساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والأمراء المذكورين ، وتكبر عليهم ، فخبثت نياتهم على كربوغا »[٢] .

وفى الوقت الذى كان معسكر المسلمين يعانى ذلك التصدع والشقاق ، أخذ بوهيموند ينفخ فى الصليبيين روحا جديدة . وكان أن أرسل بوهيموند سفارة من رجلين — أحدهما بطرس الناسك — إلى كربوغا يوم ٢٧ يونية لإقناعه بترك الحصار ، ولكن كربوغا ـ رغم ما كان يعانيه من تفكك فى معسكره ـ أصر على استسلام الصليبيين دون قيد أو شرط[٣] . وبذلك لم يعد أمام بوهيموند سوى الحرب ، فأمر رجاله بالخروج من أنطاكية فى ٢٨ يونية سنة ١٠٩٨ للدخول فى معركة فاصلة ضد المسلمين . وكان من الممكن للمسلمين القضاء على الصليبيين عند خروجهم من أنطاكية جماعات صغيرة ، إذ « خرجوا فى اليوم الخامس من الباب متفرقين خمسة وستة ونحو ذلك . فقال المسلمون لكربوغا ينبغى أن نقف على الباب فنقتل كل من خرج فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال لا تفعلوا امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم » . وبذلك أضاع

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٦ (مطبوع) .
(٢) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .
(3) Chalandon : Premiere Croisade, p. 220.

كربوغا الفرصة ، إذ تكامل الصليبيون وأنزلوا الهزيمة بالمسلمين « لما عاملهم كربوقا أولا من الاستهانة لهم والإعراض عنهم »[١] .

وهكذا حلت الهزيمة بجيش كربوغا ، فانفض عنه كثير من الأمراء ، وكان التركمان أول من « عاث فى العسكر فانهزم »[٢] ؛ فى حين ظل سكمان بن أرتق وجناح الدولة « آخر من انهزم » من الأمراء ، وعند فرارهما من الميدان لجأ كربوغا هو الآخر إلى الفرار ، وبذلك عمت الكارثة[٣] . ثم إن التعليمات التى صدرت إلى الصليبيين جعلتهم لا يلتفتون إلى الأسلاب والغنائم ، وإنما واصلوا مطاردة فلول المسلمين واشترك معهم فى تلك المطاردة أهل المنطقة من السريان والأرمن ، فظلوا يتعقبون الجند المنهزمين ويعملون فيهم قتلا ، حتى جسر الحديد وحارم شرقا[٤] ، « ونهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والفلات مالا يحصى ، ومن انقطع من العسكر نهبه الأرمن[٥] » .

وبذلك لم يحقق الصليبيون انتصارا على سلاجقة الروم وحدهم ، وإنما أيضا على سلاجقة الشام وفارس ، فعاد كربوغا إلى الموصل تحوطه خيبة الأمل ، وعاد دقاق إلى دمشق يجر أذيال الفشل . أما أحمد بن مروان قائد قلعة أنطاكية فقد أدرك عبث المقاومة ولكنه رفض تسليم القلعة لريموند وأصر على تسليمها لبوهيموند نفسه[٦] .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .
وقد ذكر ابن العديم أن بعض الأمراء أشاروا على كربوغا بأن لا يمكن الصليبيين من الخروج « ويقاتلوا أولا فأولا فلم يعرج المسلمون على شىء من ذلك لانهم أيقنوا بالظفر بالفرنج وخرجوا بأجمعهم فى خلق عظيم » . (ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧) .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ (مطبوع) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(4) Gesta Francorum, p. 159.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٣٧ (مطبوع) .

(٦) يروى ابن العديم أن الصليبيين أمنوا أحمد بن مروان وأنزلوه فى دار بأنطاكية =

التنافس بين بوهيموند النورمانى وريموند الصنجيلى حول أنطاكية :

تأكد استيلاء الصليبيين على أنطاكية وقلعتها بعد أن حلت الهزيمة بالجيش السلجوقى واتضح عجز بركيارق سلطان سلاجقة فارس ودقاق ملك دمشق عن وقف الغزو الصليبى . وإذا كان بركياروق (بركيارق) قد هزم أدبيا فى شخص تابعه كربوغا ، فإن دقاق هزم شخصيا أمام أنطاكية . وبانتصار الصليبيين على سلاجقة فارس والشام أصبح الطريق إلى بيت المقدس مفتوحا أمام الصليبيين ، لأن أنطاكية بالذات تعتبر « مفتاح بلاد الشام » على قول بعض المؤرخين[١] .

وكان يجب على الصليبيين — برا بقسمهم الصليبى — ألا يضيعوا وقتا طويلا وأن يبدءوا بالزحف مباشرة على بيت المقدس ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك وأضاعوا ستة أشهر ، وهم واقفون حيث هم فى إقليم أنطاكية يبحثون فى مشاكلهم الداخلية[٢] .

والواقع إن الصليبيين وجدوا أنفسهم أمام مشاكل ضخمة عقب انقضاء موجة الفرح الأولى التى عمتهم بعد الانتصار على خطر كربوغا وضمان الاستيلاء على أنطاكية . حقيقة إنهم استولوا على قلعة المدينة واستحكاماتها وأسوارها سليمة ، ولكن حماية تلك الأسوار الطويلة والحصون العديدة تتطلب عدداً كبيراً من الرجال المحاربين ، فى الوقت الذى تناقص عدد الصليبيين ، فضلا عن أنه كان مطلوباً منهم أن يحشدوا كل مالديهم من قوى للاستيلاء على بيت المقدس . ثم إن الصليبيين لم يجدوا فى أنطاكية شيئاً من مخازن الميرة والمؤن التى ظلوا يحلمون

= « وأطلقوا أصحابه وسيروا معهم من يوصلهم إلى أعمال حلب ، فخرج الأرمن فأخذوا بعضهم وقتلوا بعضهم ولم يسلم منهم إلا القليل » .
(ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٧ — ١٣٨) .

(1) Chalandon : Premiere Croisade, p. 181.

(2) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 108.

بها طويلا . و بالإضافة إلى ذلك فقد وجد الصليبيون بداخل أنطاكية عدداً كبيراً من المسيحيين الشرقيين ، وهؤلاء — و بخاصة السريان — لم يطمئن الصليبيون إلى شعورهم وإخلاصهم [1] . وأخيراً فإن المشكلة الكبرى التى استنفدت كثيراً من الوقت والجهد كانت تحديد مصير أنطاكية نفسها . فلمن تنتقل ملكية هذه المدينة الهامة ؟ وهل تكون من نصيب الصليبيين أو البيزنطيين ؟ وإذا احتفظ بها الصليبيون فمن من إمرائهم أولى بها ؟ [2] .

والواقع إن حقوق الامبراطورية البيزنطية فى إقليم أنطاكية ، كان واضحة لاشبهة فيها ، ليس فقط لأن الدولة البيزنطية ظلت تمتلك إقليم أنطاكية حتى الغزو السلجوقى سنة ١٠٨٥ ، بل أيضاً وفقا للاتفاقية المعقودة بين زعماء الصليبيين والامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين فى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ ، وهى الاتفاقية التى كان بوهيموند نفسه أول من أقرها [3] . ولكن يبدو أن بوهيموند عندما تعهد سنة ١٠٩٧ برد أملاك الامبراطورية البيزنطية ومدنها كان يأمل فى أن يعينه ألكسيوس كومنين نائبا عنه فى حكم بلاد الشام التى كانت قديما جزءا من الإمبراطورية ، فلما خاب أمل بوهيموند وأحس أنه تحمل العبء الأكبر فى الاستيلاء على أنطاكية ، قرر فى نفسه أن يتحلل من تعهده السابق للامبراطورية وأن يتخذ سياسة معادية للدولة البيزنطية ومصالحها [4] .

وكان أن طلب بوهيموند فى أواخر شهر يونيو سنة ١٠٩٨ من بقية زعماء الصليبيين تسليمه ما بأيديهم من أبواب المدينة وأبراجها وتحصيناتها ، فقبلوا جميعاً

(1) Runciman : op. cit, I, p. 236.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5 p. p. 294—295.
(3) Chalandon : Alexis Comnene, p. p 203—205.
(4) Vasiliev : op. cit; I, p. p. 408—409. & Ostrogorsky : op. cit, p. 323. & Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 294.

باستثناء ريموند الصنجيلى الذى أخذ ينازع بوهيموند أنطاكية [1] . وقد أكد بعض المؤرخين الصليبيين المعاصرين أنه عقب أن حلت الهزيمة بكربوغا، أطلق الصليبيون على بوهيموند لقب « أمير انطاكية » اعترافا منهم بأن الفضل الأول فى الاستيلاء على المدينة من المسلمين إنما يرجع إليه [2] .

ولكن ريموند الصنجيلى لم يكن أقل من بوهيموند النورمانى طمعا فى الاستئثار بأنطاكية ، ولذلك رفض أن يتخلى عن المواقع التى احتلها رجاله فى المدينة. وهكذا صارت أنطاكية ، قسمة بين بوهيموند وريموند ، فاحتل الأول الأجزاء الشمالية والشرقية والوسطى من المدينة بما فيها القلعة، فى حين احتل ريموند القطاع الجنوبى الغربى من المدينة [3] .

على أن الانقسام الداخلى بين بوهيموند وريموند كان لا يخفى الوجه القانونى لمشكلة أنطاكية ، أى أحقية الدولة البيزنطية فى تملك المدينة وفقا لاتفاقية القسطنطينية سنة ١٠٩٧ . وإذا كان بعض زعماء الصليبيين قد نكثوا بعهدهم وطمعوا فى الاستيلاء على أنطاكية ، فإن الامبراطور البيزنطى نفسه لم يكن أقل تنكراً لعهده ، لأنه لم ينفذ من جانبه شروط الاتفاقية السابقة ولم يحضر على رأس جيوشه لمساعدة الصليبيين الغربيين ، وبخاصة فى المحنة التى تعرضوا لها عندما دهمتهم جيوش كربوغا امام أنطاكية [4] . لذلك عقد الصليبيون مجلسا فى مستهل شهر يوليو سنة ١٠٩٨ ، حضره جميع زعمائهم ، وقرر المجلس إيفاد رسولين إلى الامبراطور ألكسيوس كومنين لدعوته باسم الصليبيين للحضور لتسلم أنطاكية

(1) Raymond d'Agiles, p. 262.
وريموند هذا هو ريموند الرابع كونت تولوز وقد نسب إلى مقاطعة Saint—Gilles بفرنسا ، فحرف العرب هذه النسبة إلى الصنجيلى .
(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 109.
(3) Guillaume de Tyr p. 274.
(4) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 294.

وفقا للاتفاقية المعقودة بين الطرفين. وقد هلك احد هذين الرسولين فى الطريق فى حين وصل الآخر إلى القسطنطينية فى أواخر يوليه[١] . على أنه يلاحظ أن رسالة الصليبيين إلى الامبراطور ألكسيوس كومنين كانت تحوى ركنين أساسيين متكاملين : فهى تعرض على الامبراطور استلام أنطاكية ، ولكنها تشترط عليه الحضور شخصيا على رأس حملة بيزنطية لمساندة الصليبيين فى الزحف على بيت المقدس[٢] .

ولو اغتنم الإمبراطور ألكسيوس كومنين تلك الفرصة الذهبية وقصد أنطاكية فورا على رأس جيشه لاستطاع أن يقضى على أطماع بوهيموند جميعا . ولايخفى علينا أن الصليبيين عندئذ كانوا قد بلغوا درجة شديدة من الوهن والضعف بعد مالاقوه من مشاق أثناء زحفهم فى آسيا الصغرى ، ومابذلوه من جهد وتضحيات أمام أنطاكيه ، مما جعلهم فى حاجة ماسة إلى إمدادات من الإمبراطور البيزنطى تعينهم على مواصلة الزحف على بيت المقدس[٣] . كذلك لايخفى علينا أن موافقه بقية زعماء الصليبيين على تسليم أنطاكية للامبراطور البيزنطى بالشرط السابق لم يكن الدافع إليها حرصهم على الوفاء بالالتزامات التى قطعوها على أنفسهم فى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ ، بقدر ما كان الأمل فى الحصول من الامبراطور البيزنطى على المساعدة المحتاجين إليها مقابل إعطائه المدينة[٤] .

والواقع إنه من الصعب تفسير موقف ألكسيوس كومنين السلبى من ذلك

---

(1) Gesta Francorum, p. 161.

ويلاحظ أن رواية ألبرت اختلفت عن الرواية السابقة ، إذ قال : إن الرسولين اللذين أوفدهما الصليبيون الى الإمبراطور كلفا بإخطاره أنه حنث بوعوده للصليبيين ، وبناء على ذلك فإنهم صاروا فى حل من تعهداتهم له .

(Albert d'Aix, p. 434).

(2) Guillaume de Tyr, p. 277.

(3) Brehier: op. cit; p. 314.

(4) Chalandon : Alexis Comnene, p. p. 204—205.

العرض السخى الذى يمكنه من استرداد شمال بلاد الشام ، فضلا عن تمكينه من الاشراف على فتح بيت المقدس ؛ لاسيما وأن تجربته حتى ذلك الوقت مع الصليبيين كانت ناجحة وأتاحت له فرصة طيبة لاسترداد جزء كبير من أراضى الإمبراطورية المفقودة فى الأناضول . ويبدو أنه اطمأن إلى تعهدات الصليبيين وقسمهم ، وظن أنهم سيستمرون فى سياستهم التى اتبعوها فى آسيا الصغرى ؛ فيفتحون البلاد ليسلموها للامبراطورية لقمة سائغة! وأعتقد أنه بعد أن يفرغ الصليبيون من فتح بلاد الشام وفلسطين ، ستكون هذه البلاد — بحكم موقعها الجغرافى وروابطها التاريخية بالامبراطورية البيزنطية — تابعة للقسطنطينية ، أو على الأقل سيكون حكامها من الصليبيين التابعين للامبراطور المعترفين له بالولاء . ولذلك اختار الامبراطور أن يصمت مؤقتا ولا يرد على رسالة الصليبيين[١] .

وأخيراً أفاق الإمبراطور ألكسيوس كومنين بعد فوات الفرصة . ذلك أن الصليبيين قرروا فى ابريل سنة ١٠٩٩ الزحف على بيت المقدس بعد أن ظلوا فى أنطاكية أكثر من تسعة أشهر . وفى الوقت الذى اتخذ الصليبيون قرارهم بالزحف على بيت المقدس ، تلقوا رد الإمبراطور البيزنطى على رسالتهم[٢] . وفى تلك الرسالة أعلن الإمبراطور الموافقة على مشاركة الصليبيين فى الزحف على بيت المقدس إذا سلموه أنطاكية ، ولكنه طلب منهم انتظاره حتى شهر يوليو[٣] . ومن الواضح أن رد الإمبراطور البيزنطى جاء متأخراً ، أى بعد أن مرت أشهر طويلة استطاع خلالها بوهيموند أن يثبت مركزه فى أنطاكية ، بحيث أصبح من الصعب على الإمبراطور البيزنطى زحزحته من ذلك المركز . هذا إلى أنه فى الوقت

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 112.

(2) Setton : op. cit; I, p. 329.

(3) Raymond d'Agiles, p' 286. & Guillaume de Tyr, p. 307.

الذى أخذ الإمبراطور ألكسيوس كومنين يعد الفرنجة بالحضور لمساعدتهم على انتزاع فلسطين من الفاطميين ، إذا به يعقد اتفاقاً سرياً مع الفاطميين فى مصر ضد الصليبيين . وشاء سوء حظه أن تقع رسالة بهذا المعنى موجهة من الإمبراطور إلى الوزير الأفضل فى أيدى الصليبين عقب موقعة عسقلان مباشرة[١] .

ومن الواضح أن الصليبيين الغربيين كانوا يتصرفون فى حكمة بالغة تجاه الامبراطورية البيزنطية . ولا أدل على محاولة الفرنجة إثبات حسن نواياهم تجاه القسطنطينية من معاملتهم لبطرق أنطاكية حنا الرابع الأرثوذكسى ، الذى عذبه الأتراك كثيرا وسجنوه طوال حصار الصليبيين للمدينة ، حتى إذا ما سقطت أنطاكية فى أيديهم احتفى به الصليبيون حفاوة بالغة ، وأقاموا حفلا كبيرا ثبتوه فيه رئيسا لكنيسة أنطاكية[٢] . كذلك لم يتعرض الصليبيون لأتباع المذهب الأرثوذكسى فى البلاد التى استولوا عليها ، وإنما تركوا حرية العقيدة لجميع المسيحيين، بما فى ذلك السريان والأرمن ، وسمحوا لهم باصلاح كنائسهم وزخرفتها بالفسيفساء والايقونات والصور وغيرها . أما رجال الدين الأرثوذكس أنفسهم، فقد تركهم الصليبيون فى مناصبهم ولم يتعرضوا لهم ، وكل ما هنالك هو أنهم عينوا بعض رجال الدين من الكاثوليك فى الاسقفيات الشاغرة[٣] .

على أن هذه السياسة الوديعة تجاه الامبراطورية البيزنطية وكنيستها لم تلبث أن تبدلت عندما تكاسل الامبراطور ألكسيوس كومنين فى الحضور إلى الشام لمساندة الصليبيين ؛ ثم عندما اكتشف الصليبيون اتصالاته مع الفاطميين فى مصر. من ذلك أن بوهيموند عندما ثبت مركزه فى أنطاكية لجأ إلى خلع حنا الرابع بطرك أنطاكية الأرثوذكسى وأحل محله بطرقا كاثوليكياً[٤] .

(1) Chalandon : Alexis Croisade. p. 207.
(2) Albert d'Aix : p. 433.
(3) Guillaume de Tyr. p. 274
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 114.

ومهما يكن من أمر ، فإن الصليبيين بوجه عام رأوا أن ينتظروا الإمبراطور ألكسيوس كومنين ؛ حتى إذا ما حل يوم ٣ يوليه سنة ١٠٩٨ ولم يحضر ، عقد زعماؤهم مجلساً لتحديد موعد الزحف على بيت المقدس واختير أول شهر نوفمبر لذلك حتى تكون حرارة الصيف قد خفت حدتها وأصبح الجو ملائماً لحركة الجيوش الصليبية[١] .

احتلال البارة ومعرة النعمان :

تعرض الصليبيون للخمول خلال المدة الطويلة التى قضوها فى شمال الشام ، ففترت الحماسة الصليبية فى نفوسهم ، وظهر شعور عام بالاستكانة بينهم ؛ وبدأ كل واحد من أمرائهم يعتقد أن دوره فى الحرب الصليبية ينتهى بتأسيس إمارة مناسبة لنفسه فى الشرق ، مما هدد الحملة الصليبية الأولى بالتفتت فى شمال الشام . وقد حرص بوهيموند فى تلك المرحلة على أن يبدو دائما فى صورة أمير أنطاكية وحاكمها الأوحد ، فمنح الجنوية فى ١٤ يوليه براءة خولتهم الحق فى سوق خاص بهم وكنيسة ، فضلا عن ثلاثين بيتا من بيوت أنطاكية . وبذلك ضمن مناصرة الجنوية له واعتماده عليهم وعلى مساعدتهم للاحتفاظ بمواصلاته مع صقلية وايطاليا[٢] .

وربما كان الرجل الوحيد الذى ظل يوحد بين صفوف الصليبيين فى ذلك الوقت دون أن تكون له مطامع الأمراء الشخصية هو المندوب البابوى أدهمار ، الذى حرص على أن يؤلف بين قلوب أمراء الصليبيين ويوجههم نحو عمل يتفق وطبيعة المهمة الصليبية التى أتوا من أجلها إلى الشرق . على أن تعدد المعارك فى

(1) Runciman : op. cit, I, p 250.
(2) Heyd : op. cit; Tome 1, p. 134.

ساحة أنطاكية وكثرة القيلى والجيف ، نتج عنه انتشار وباء فى معسكر الصليبيين. ذهب ضحيته بضعة آلاف من الصليبيين من بينهم أدهمار نفسه (أول أغسطس سنة ١٠٩٨) . وقد دفع ذلك الوضع الصليبيين إلى القيام بغزوات وجولات قريبة — خارج أنطاكية — ليبتعدوا عن منطقة الوباء[١] .

ومن تلك الغزوات الصغيرة التى قام بها الصليبيون عندئذ ، خروج فارس من أتباع ريموند الصنجيلى — اسمه ريموند بليه Raymond Pilet — على رأس قوة صغيرة فى منتصف يوليه سنة ١٠٩٨ مخترقا طريق معرة مصرين بقصد احتلال معرة النعمان وتل منس (تلمنس) ، وهى الجهات الواقعة إلى الجنوب الشرقى من أنطاكية ، أى داخل نطاق ممتلكات رضوان ملك حلب السلجوقى . ويفهم من رواية ابن العديم أن الفارس ريموند كان على صلة بالسريان والأرمن فى تلك النواحى قبل أن يقوم بحملته وأنهم شاركوه فى الزحف مما سهل له مهمته[٢] . ولكن رضوان أسرع بارسال « قطعه من عسكر حلب إليهم » ، فالتقى الحلبيون بالصليبيين بين تل منس ومعرة النعمان ، وعندئذ لم يقو الصليبيون على مقاومة الجيش الحلبى من جهة وحرارة الجو مع قلة الماء من جهة أخرى « فانهزم الفرنج وبقى الرجالة منهم ، فقتل منهم زائدا عن ألف رجل ، وحملت رؤوسهم إلى معرة النعمان » ، فى حين ارتد ريموند إلى تل منس .

أما جودفرى بوايون فقد خشى على نفسه من الوباء الذى انتشر فى أنطاكية ، فقصد أخاه بلدوين فى الرها ، الذى أعطاه تل باشر والراوندان

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 295. & Michaud : op. cit; I, p. 333.

(٢) « وزحفوا مع أهل تلمنس وجميع نصارى بلد المعرة على المعرة وقاتلوها » . ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٨ (مطبوع) ؟

Gesta Francorum, p. s. 162—165.

(أوائل أغطس ١٠٩٨)[١] . هذا فى حين اتجه بوهيموند إلى قيليقية حيث دعم الحاميات الصليبية التى تركها تنكرد فى طرسوس وأذنه والمصيصة ومرسين فى الخريف السابق ، وتأكد من ولائها له ، مما يشير إلى أنه كان ينوى إدخال إقليم قيليقية فى حيز الإمارة التى ينوى إقامتها لنفسه فى أنطاكية[٢] .

وفى سبتمبر سنة ١٠٩٨ عاد جودفرى بوايون إلى أنطاكية حيث نظم مع ريموند الصنجيلى حملة اكتسبت طابعاً غريباً ، لأن الصليبيين قاموا فيها بالدفاع عن عمر والى عزاز ضد رضوان ملك حلب[٣] . وكان حصن عزاز هذا يقع على بعد أربعين كيلومتراً تقريباً شمالى حلب ، على الطريق الرئيسى بين أنطاكية من ناحية والرها وتل باشر من ناحية أخرى . وعندما عصى عمر والى عزاز سيده رضوان ، أرسل الأخير جيشا لمحاصرته ، وعندئذ لم يسع عمر سوى طلب النجدة من جودفرى[٤] ! وأكثر من هذا أن عمر أرسل ابنه محمود ليظل رهينة عند جودفرى ضماناً لإخلاصه وإثبات عدم نيته فى التغرير بالصليبيين[٥] . ولم يكن فى وسع جودفرى أن يشن حربا على حلب دون الاستعداد الكافى لحصل على مساعدات قوية من بوهيموند ومن أخيه بلدوين فى الرها ، وعندئذ رفع رضوان الحصار عن عزاز وسحب قواته إلى حلب . على أن جودفرى بوايون لم يقتنع بذلك وإنما رأى أمامه فرصة لتحقيق بعض الأطماع الصليبية فى شمال الشام ولذلك استمر فى طريقه إلى عزاز ، حيث خرج عمر والى الحصن لاستقباله ، وترجل أمامه من فوق فرسه ، وأعلن تبعيته له (منتصف سبتمبر ١٠٩٨)[٦] .

(1) Setton : op. cit; I, p. 325.

(2) Runciman : op. cit; I, p. 254 & Stevenson : The Crusaders, p. 29.

(3) Setton : op. cit, I, p. 325.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ (مطبوع) .

(5) Michaud : op. cit; I, p. 339.

(6) Albert d'Aix, p. 439 & Guillaume de Tyr p. 283.

ولم يغفر رضوان صاحب حلب لعمر فعلته هذه ، فما زال به حتى أخذ عزاز منه وقتله فى حلب[١] .

وفى نهاية سبتمبر قام ريموند الصنجيلى بحملة على البارة ، وهى مدينة تابعة لمملكة حلب، تقع شرقى نهر العاصى بين جسر الشغر (الشغور) ومعرة النعمان[٢] . ويبدو أن رضوان لم يقم بأية محاولة للدفاع عن البارة فاستولى عليها ريموند فى حوالى ٢٥ سبتمبر « وعاقب الرجال والنساء واستصفى أموالهم وسبى بعضاً وقتل بعضاً » ؛ فضلا عن أنه حول جامعها الكبير إلى كنيسة[٣] .

على أن تلك الغزوات المحلية التى قام بها الصليبيون فى ذلك الدور لم تكن فى حقيقة أمرها إلا وسيلة لقضاء الوقت حتى يحين موعد الزحف على بيت المقدس. ولم تلبث أن تهيأت الظروف لذلك الزحف بانقضاء فصل الصيف واعتدال درجة الحرارة ؛ فعقد الصليبيون مجلساً فى ٥ نوفمبر سنة ١٠٩٨ بكنيسة القديس بطرس بأنطاكية ، وأجمع الزعماء جميعاً على استئناف الزحف نحو بيت المقدس ، ماعدا بلدوين الذى كان مشغولا بتنظيم إمارته فى الرها[٤] .

ومن الواضح أن هذا القرار لم يلبث أن أثار أمام الصليبيين من جديد مشكلة أنطاكية ووضعها القانونى ، لا سيما وأن بوهيموند — يسانده معظم الأمراء — ظل متمسكا بحقه فى السيطرة على المدينة ،فى حين نازعه ريموند ذلك الحق . حقيقة إن الصليبيين حاولوا التهرب مرة أخرى من تلك المشكلة وتأجيلها مرة أخرى بأن أرسلوا إلى البابا فى ١١ سبتمبر يخبروه بوفاة مندوبه أدهمار ويطلبون منه الحضور شخصياً لزيارة كنيسة القديس بطرس فى أنطاكية ، بوصف البابا

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ .
(2) Chalandon : Premiere Croisade p. p. 248—249.
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ ؛
Gesta Francorum p. p. 167—169.
(4) Michaud : op. cit; I, p p. 346—347.

وريث القديس بطرس فى كرسيه . ولكن الصليبيين أنفسهم كانوا واثقين من أن البابا لن يستطيع تلبية دعوتهم ، ومن ثم لن تحل مشكلة أنطاكية على يد البابا مما يتطلب التفكير فى وضع حل لها على يد زعماء الصليبيين أنفسهم[١] .

وعندما أدرك بوهيموند أنه لن ينال أنطاكية برضاء الإمبراطور البيزنطى، صمم على أن يمتلكها رغم إرادة الإمبراطور ، فتحولت سياسته من مهادنة الإمبراطورية واحترام حقوقها إلى معاداتها وسلب حقوقها ؛ وعندئذ انقلبت سياسة ريموند هو الآخر فأصبح من المنادين بالتمسك بحقوق الإمبراطورية البيزنطية واحترام الاتفاقية التى عقدها الصليبيون مع الإمبراطور البيزنطى سنة ١٠٩٧[٢] . وهكذا انقلب الموقف رأسا على عقب ، فصار بوهيموند — وهو أول من عقد اتفاقا مع الإمبراطور البيزنطى تعهد له فيه بالولاء — ينادى بالخروج عن ذلك الاتفاق ، فى حين أمسى ريموند — وهو الأمير الوحيد من أمراء الحملة الذى لم يتقيد بالإتفاقية السابقة ولم يقسم يمين الولاء للامبراطور — هو المدافع عن حقوق الإمبراطورية والمنادى باحترام الاتفاقية التى عقدها الصليبيون مع ألكسيوس كومنين . وبذلك أدت مشكلة أنطاكية إلى تعقيد الموقف بين الصليبيين والبيزنطيين ، فضلا عن تعقيد الموقف بين زعماء الحملة الأولى بعضهم وبعض[٣] .

وكان أن طال الجدل والنقاش بين زعماء الحملة الصليبية الأولى حول مصير أنطاكية ، وعندئذ استاء الجند وبقية الفرسان ، وأعلنوا أن الوقت قد حان ليبروا بقسمهم الصليبى ويستردوا بيت المقدس ، فأنذروا الزعماء بأنهم إذا استمروا فى منازعاتهم الخاصة حول المسألة الأنطاكية ، فإن الصليبيين جميعا سيتركونهم

(1) Runciman : op. cit; I. p. 256.
(2) Brehier : op. cit; p. 314.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 120.

فى أنطاكية ويتجهون رأسا إلى بيت المقدس ؛ ولكنهم لن يفعلوا ذلك إلا بعد أن يدمروا أسوار أنطاكية ويتركونها للزعيمين المتنازعين — ريموند وبوهيموند — مكشوفة عارية أمام المسلمين والبيزنطيين جميعا [١].

ولاشك فى أن هذا التهديد أثار مخاوف بوهيموند وريموند جميعا، فضلا عن بقية الأمراء الذين خشوا على مصيرهم ومستقبل الحملة؛ ومن ثم بدأت المساعى الجدية للوصول إلى حل لتلك الأزمة. ويبدو أن بوهيموند وريموند خشيا عندئذ أن ينفذ الصليبيون تهديدهم ، فتوصلا إلى اتفاق سريع فى نهاية نوفمبر لشغل الصليبيين وتوجيههم وجهة تتفق ورغبتهم فى مهاجمة المسلمين . أما هذه الوجهة فكانت معرة النعمان ، التى سبق أن هاجمها الصليبيون فى شهر يوليو وباء هجومهم بالفشل [٢] .

وعندما هاجم الصليبيون معرة النعمان استغاث أهلها بالملك رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حمص « فلم ينجدهم أحد » [٣] . ولم يكن للأهالى من القوة والإمكانيات ما يمكنهم من المقاومة طويلا ، فاضطروا إلى التسليم للصليبيين فى ١١ ديسمبر [٤] ، وعندئذ لم يحترم الصليبيون الأمان الذى أعطوه لأهل معرة النعمان ، وإنما « غدروا بهم ورفعوا الصلبان فوق البلد ، وقطعوا على أهل البلد القطائع ، ولم يفوا بشىء مما قرروه ، ونهبوا ماوجدوه ، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به » [٥] . وتضيف المراجع الصليبية إلى ذلك أن الصليبيين

---

(1) Gesta Francorum, p. 171.

(2) Stevenson : op. cit, p. 30.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩١ هـ . ؟

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ .

(4) Albert d'Aix, p. 268 & Gesta Francorum, p. 175.

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ . وقد قدر ابن العديم عدد قتلى المسلمين فى معرة النعمان بأكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبى ، فى حين قدرهم ابن الأثير بما يزيد عن مائة ألف .

أحرقوا المعرة أولا عن آخر [١] .

على أنه على الرغم من اشتراك بوهيموند وريموند سويا فى الاستيلاء على معرة النعمان ، إلا أن الحزازات استمرت قائمة بين الرجلين بسبب مشكلة أنطاكية . ويبدو أن ريموند نفسه أدرك أن هذه المشكلة طالت أكثر مما ينبغى وأنه لا بد من وضع حد سريع لها ، ولذلك دعا الأمراء إلى الاجتماع به فى أوائل يناير سنة ١٠٩٩ ، وعرض عليهم مبالغ ضخمة من المال ليكتسبهم إلى جانبه ويعلنونه زعيما أوحدا للصليبيين جميعا ؛ ولكن عرضه قوبل بفتور من جانب الأمراء [٢] . وأخيرا رأى ريموند أن الموقف لم يعد يحتمل التأجيل بعد أن عم الاستياء جميع صفوف الصليبيين ، فخرج ريموند من معرة النعمان فى ١٣ يناير سنة ١٠٩٩ على رأس جيوشه معلنا الزحف على بيت المقدس ، وتبعه بقية الصليبيين ، ماعدا بوهيموند الذى اختار البقاء بأنطاكية [٣] . وهكذا حلت المشكلة بين ريموند وبوهيموند بأن أصبح ريموند الزعيم الذى لا ينافسه أمير آخر فى قيادة الحملة الصليبية ، فى حين قنع بوهيموند بتحقيق حلمه فى امتلاك أنطاكية [٤] .

. وأخيرا تحركت الحملة الصليبية الأولى نحو بيت المقدس ، بعد أن ظلت قرابة خمسة عشر شهرا فى شمال الشام (أكتوبر ١٠٩٧ — ديسمبر ١٠٩٨) [٥] .

---

(1) Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 249.

(2) Gesta Francorum, p 279.

(3) Michaud : op. cit, I, p. p. 345—347.

(4) Cam. Med. Hist. vol. 5, p 295.

(5) Setton : op. cit, I, p. 327.

الفصل العاشر

الطريق إلى بيت المقدس

الصليبيون والإمارات العربية فى أواسط بلاد الشام:

اتجه ريموند على رأس الصليبيين من معرة النعمان إلى كفر طاب، وهى قلعة على بعد عشرين كيلو متر إلى الجنوب ، حيث مكثوا هناك حتى ١٦ يناير ١٠٩٩، وفى تلك الفترة لحق بهم روبرت النورمانى وتنكرد . و بوصول الصليبيين إلى تلك المنطقة بدأت الاتصالات بينهم و بين البيوت العربية الصغيرة التى انتهزت فرصة انحلال قوى السلاجقة لتؤكد استقلالها ببعض المدن مثل حمص وطرابلس وشيزر[١] . وجدير بالذكر أن أولئك الأمراء العرب كان مسلكهم تجاه الصليبيين مختلفا تماما عن مسلك الأتراك الذين لم يعرفوا سوى السيف ، فى حين أدرك الأمراء العرب فى الشام خطورة الموقف وعدم وجود قوة إسلامية كبرى قربهم تحميهم من ذلك الخطر ، فآثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدموا به من عروض[٢] .

من ذلك أن الأمير عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ ـ صاحب شيزر (١٠٩٨ — ١١٥٤) ـ أجرى اتصالات مع ريموند عندما كان الأخير فى كفر طاب ، وتعهد له بألا يعترض طريق الصليبيين عند اختراقهم إقليم شيزر وأن يقدم لهم ما يحتاجون إليه من غذاء وميرة ، فضلا عن أنه أرسل إليهم فى ١٧ يناير سنة ١٠٩٩ دليلين ليرشدا الصليبيين فى عبورهم إقليم العاصى . وقد تم

(1) Setton : op. cit., I, p. p. 164—165.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٦٥ ، ٨١ وما بعدها .

فعلا تنفيذ تلك الاتفاقية ، مما يدل على اتجاه الأمراء العرب فى ذلك الدور نحو مسألة الصليبيين ، رغم ما تعرض له المسلمون من اعتداءات على أيديهم[١] .

ثم كان أن اختار بعض الصليبيين ـ وعلى رأسهم ريموند الصنجيلى ـ أن يتجهوا إلى الشمال الغربى ليستولوا على جبلة ، وهى مدينة ساحلية تقع جنوبى اللاذقية ، وكانت تابعة لصاحب طرابلس ابن عمار[٢] . وقد رأى هذا الفريق من الصليبيين أنه من الممكن الحصول على ما يحتاجون إليه من تموين وإمدادات ـ من قبرص والدولة البيزنطية فضلا عن الغرب الأوربى ـ إذا هم سلكوا طريق الساحل ، وذلك بفضل مساعدة الأساطيل الغربية التى اتخذت السويدية واللاذقية قواعد لها[٣] . ومعنى هذه الخطة أن يسلك الصليبيون إلى بيت المقدس طريق الساحل ـ وهو طريق طويل متعرج ـ فيستولون فى طريقهم على جبلة وانطرطوس وطرابلس و بيروت وصيدا وصور وعكا .

ولكن تنكرد خالف ذلك الرأى بعد أن أدرك النقص الكبير فى عدد الصليبيين بحيث لم يعد الجيش الصليبى يضم سوى ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة المسلحين[٤] . ومن الواضح أن اتخاذ الطريق الساحلى إلى بيت المقدس كان يستلزم حصار جميع الموانى السابقة مما يستنفد تضحيات كثيرة ووقتا طويلا ، بحيث يصل الصليبيون فى نهاية المطاف إلى بيت المقدس وقد تضاءل عددهم

(1) Guillaume de Tyr, p. 295 & Gesta Francorum, p. 181 & Raymond d'Agiles , p. p. 272—273.

ولم يذكر ابن الأثير هذه التفصيلات التى وردت فى المراجع الغربية ، وإنما اكتفى بعبارة « وراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها » .

(الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ) .

(٢) كان يحكم طرابلس وقت الغزو الصليبى لبلاد الشام جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار الذى توفى سنة ١٠٩٩ ، فخلفه أخوه أبو على فخر الملك ابن عمار .

(انظر زامباور : معجم الأنساب ص ١٦٠) .

(3) Heyd : op. cit, I, p. 134.

(4) Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 253.

وأنهكهم التعب ، وأعطوا خصمهم وقتا كافيا للاستعداد لملاقاتهم ، مما يجعل مهمتهم فى الاستيلاء على بيت المقدس – وهى هدفهم الأساسى من الصعوبة بمكان . أما إذا سلك الصليبيون الطريق الداخلى المباشر إلى بيت المقدس فإنهم سيتجنبون كثيرا من المشاكل السابقة ، حتى إذا ما استولوا على المدينة المقدسة ، سهل عليهم بعد ذلك انتزاع بقية المدن الساحلية – مثل طرابلس وصور وعكا – واحدة بعد أخرى (١) .

وقد أدرك بقية الصليبيين اتزان رأى تنكرد ، فقرروا اتخاذ أقصر الطرق الداخليه إلى بيت المقدس ، مع الاقتراب بين حين وآخر من شاطىء البحر كلما استدعت ظروف التموين ذلك . وفعلا استأنف الصليبيون زحفهم وفقاً لتلك الخطة ، فمروا بمصياف فى ٢٢ يناير سنة ١٠٩٩ ، وعندئذ خرج إليهم أميرها العربى ، وعقد معهم اتفاقية ، ثم اتجهوا نحو بعرين ومنها إلى سهل البقاع حيث فرح الصليبيون بما صادفوه من خيرات وفيرة (٢) . وقد احتمى أهالى تلك المنطقة من العرب المسلمين بحصن الأكراد وسط ذلك السهل ومعهم ما استطاعوا حمله من ثروة ومال ، فاتجه إليهم الصليبيون وحاصروهم حصاراً حتى سقط الحصن فى أيديهم فى ٢٩ يناير سنة ١٠٩٩ . وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة أمير حمص ، الذين وفدوا محملين بالهدايا ليخطبوا ود الفرنجة حتى لا يتعرضون لبلادهم بسوء (٣) .

(1) Raymond d'Aigles p. 273.
(2) Stevenson : op. cit; I, p. 31.
(3) Gesta Francorum, p. p. 183—185.
ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين « ساروا إلى حمص وحصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة » . (الكامل ، سنة ٤٩١ هـ) .

الحملة الصليبية الأولى وبنو عمار :

وبعد أن غادر الصليبيون حصن الأكراد اتجهوا نحو عرقة وهى مدينة صغيرة تقع شمالى طرابلس وتتبعها (١) . وكانت إمارة طرابلس عندئذ خاضعة لبنى عمار – كما سبق أن أشرنا – فأسرع صاحبها أبو على فخر الملك بارسال الرسل إلى ريموند لعقد اتفاقية تعهد فيها الأمير العربى بدفع الأموال للصليبيين ، كما أسرع برفع أعلامهم على سور مدينته وغيرها من المواضع التابعة له إشارة إلى ولائه للصليبيين (٢) . أما ريموند الصنجيلى فقد أرسل من جانبه رسلا إلى طرابلس للاتفاق مع أميرها فخر الملك ؛ وعندئذ استرعى نظر رسل الصليبيين ثروة طرابلس وغناها ، وطمعوا فى زيادة الجزية وأشاروا على ريموند أن يهاجم عرقه التابعة لإمارة طرابلس ، كنوع من الضغط على أميرها فخر الملك حتى يزيد من قيمة الجزية التى تعهد بدفعها للصليبيين . وسرعان ما صادفت هذه الفكرة قبولا حسناً ، لاسيما وأن عرقه نفسها تتمتع بأهمية كبيرة لوقوعها وسط إقليم غنى بمياهه وثروتها الطبيعية (٣) .

وفى الوقت الذى اتجه جزؤ من الجيش الصليبى لحصار عرقه ، اتجه فريق آخر نحو انطرطوس واستولوا عليها فى حوالى ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩ . وكانت انطرطوس هذه ميناء صغير على شاطىء البحر ، تابع لبنى عمار ، وأدى استيلاء الصليبيين على ذلك الميناء إلى سهولة تموينهم بواسطة الأساطيل الإيطالية والبيزنطية (٤) . هذا فضلا عن أن الاستيلاء على انطرطوس ساعد الصليبيين بعد قليل فى الاستيلاء على مرقية ، إلى الشمال منها .

(1) Michaud : op. cit, I, p. 349.
(2) Raymond d'Agiles, p. 275.
(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 132—133.
(4) Raymond d'Agiles, p. 276.

على أن الصليبيين لم يقنعوا بذلك ، وإنما حدث فى الوقت الذى أخذ ريموند ورجاله يحاصرون عرقه ، أن اتجه جودفرى بوايون وروبرت دى فلاندرز لحصار جبلة ، وهى التى كان مفروضا هى الأخرى أن تكون تابعة لأمير طرابلس ولكن القاضى أبو محمود عبيد الله بن منصور استطاع أن يستقل بها عن نفوذ بنى عمار . وقد استمر حصار جبله من ٢ إلى ١١ مارس ، وانتهى بعقد اتفاق بين أبى محمود قاضى جبلة والصليبيين تعهد فيه الأول بدفع جزية من المال والخيل . وبعد ذلك اتجه جودفرى وروبرت إلى عرقه تلبية لنداء ريموند الذى طلب مساعدتهما [1] .

وعلى الرغم من أن الصليبيين جمعوا قواتهم أمام عرقه فى ١٤ مارس ، وعلى الرغم من سهولة تموين الصليبيين عن طريق البحر ، ووفرة ما حصلوا عليه من خيرات فى إقليم طرابلس ، إلا أن حصار عرقه طال دون نتيجة [2] . وفى تلك الأثناء دأبت بعض جموع من الصليبيين على الإغارة على الضياع والقرى القريبة من طرابلس ، ثم تعود إلى عرقه محملة بالأسلاب . ولم يلبث أن اعترض جودفرى بوايون على الاستمرار فى حصار عرقه ، بعد أن «حصروها أربعة أشهر ونقبوا سورها عدة نقوب ، فلم يقدروا عليها» [3] . وقد نادى جودفرى بأن الوقت الذى أضاعه الصليبيون فى تلك العملية الحربية لا يعادل بأى حال من الأحوال الفائدة المرجوة من وراء الاستيلاء على تلك المدينة الصغيرة . لذلك أصر جودفرى على أن يترك الصليبيون حصار عرقه فى الحال ليواصلوا زحفهم على بيت المقدس [4]

ومن الثابت أن ريموند أخذ فى تلك المرحلة يندم على استعانته بجودفرى

(1) Gesta : Francorum, p. 187. & Albert d'Aix : p. 453.
(2) Stevenson : op. cit; I, p. 31.
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ .
(4) Raymond d'Agiles, p. 278 & Albert d'Aix, p.p. 454-455.

وروبرت واستحضارهما من جبلة لمعاونته . فحتى ذلك الوقت – ومنذ أن زحف الصليبيون من أنطاكية – كان ريموند هو زعيم الصليبيين الزاحفين على بيت المقدس ، حتى أن تنكرد نفسه اعترف له بتلك الزعامة مقابل مبلغ كبير من المال . أما وقد حضر جودفرى ، فإن نفوذه أخذ يطغى على نفوذ ريموند ، وانضم تنكرد وروبرت إلى جانب جودفرى ، مما أضر ضرراً بليغا بمركز ريموند الصنجيلى ومكانته [1] .

وزاد الموقف توترا بين ريموند وجودفرى وصول بعثة من قبل الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين — فى حوالى ١٠ أبريل سنة ١٠٩٩ — تحمل رسالة منه إلى زعماء الصليبيين وهم رابضون أمام عرقه . وقد استهل الامبراطور رسالته بتذكير الصليبيين بالاتفاقية بينهم وبينه سنة ١٠٩٧، ثم عبر عن استيائه لأن بوهيموند نكث بعهده للإمبراطور بعد أن كان أول من أقر الاتفاق معه، فاستأثر بأنطاكية وأصر على أن يجعل من نفسه سيداً عليها . وأخيرا عرض الامبراطور على الصليبيين أن ينتظروه حتى أواخر يونيه ليحضر إليهم بنفسه ، ويشترك معهم فى الزحف على بيت المقدس ، ويتحمل عنهم كل أعباء الحرب ونفقاتها [2] .

ومن الواضح أن هذا العرض من جانب الامبراطور البيزنطى بدا طيبا لأول وهلة ، لأنه سيؤدى إلى إنشاء جبهة مسيحية قوية فى الشرق الأدنى ، لا يستطيع المسلمون التغلب عليها أو مقاومتها. هذا فضلا عن أن حضور الامبراطور بنفسه سيهيىء للصليبيين قيادة عليا قوية ، وهو الأمر الذى باتوا يفتقرون إليه منذ وفاة أدهمار — المندوب البابوى — فى أنطاكية . لذلك رحب ريموند الصنجيلى بفكرة انتظار الامبراطور ، وربما رأى فى ذلك الحل فرصة طيبة

(1) Runciman : op. cit, I, p. 271—272.
(2) Guillaume de Tyr, p. 307.

للاستعانة بالامبراطور فى توطيد زعامته على الصليبيين من ناحيه[١] ، فضلا عن استخدام قوى الصليبيين أثناء فترة الانتظار فى الاستيلاء على عرقه ليتخذها — بالاضافة إلى أنطرطوس — نواة للامارة التى أخذ يحلم بتأسيسها لنفسه فى طرابلس[٢] .

على أن غالبية الأمراء الصليبيين — وعلى رأسهم جودفرى بوايون — عارضوا فكرة انتظار الامبراطور البيزنطى ، ونادوا بالزحف فورا على بيت المقدس . وكانت حجتهم فى ذلك قوية وهى أن العرض البيزنطى جاء متأخرا بعد فوات الأوان ، فضلا عن أن الامبراطور ألكسيوس كثيرا ما وعد وأخلف ، وطالما خدع الصليبيين بمساعدته ومناهم بالأمانى المعسولة دون أن يحقق وعوده . وكان آخر مايذكره الصليبيون للامبراطور البيزنطى أنه وعدهم بالحضور لمساعدتهم فى أنطاكية فانتظروه وأضاعوا الأشهر الطويلة ، ولكنه لم يحضر[٣] . هذا كله بالإضافة إلى أن الصليبيين أخذوا يحسون فى ذلك الوقت بما كان هناك من اتصالات بين الامبراطور البيزنطى والفاطميين . ذلك أن الفاطميين دهشوا عندما وجدوا الصليبيين يتقدمون جنوبا صوب فلسطين ، فأرسلوا إلى الامبراطور ألكسيوس يسألونه عما إذا كانت تلك الحركة تعمل لحسابه، ولكنه أنكر علاقته بها[٤] .

ومهما يكن من أمر ، فإن جودفرى بوايون ـ يسانده روبرت دى فلاندرز ـ استطاعا إجبار ريموند الصنجيلى على احترام رأى جموع الصليبيين فى الزحف دون إبطاء على بيت المقدس ، مما أكسب جودفرى محبة الصليبيين وتقديرهم[٥] .

(1) Chalandon : Alexis Comnene. p. 214—215.
(2) Grousset : Hist. des Croisades. I; p. 138.
(3) Michaud : op cit; p. p. 361.
(4) Runciman : op. cit; I, p. 272.
(5) Albert d'Aix. p. p. 455 & Raymond d'Agiles p.289.

وكان أن اضطر ريموند إلى رفع الحصار عن عرقه فى ١٣ مايو سنة ١٠٩٩ ، وبذلك فشلت تجربته فى استخدام الصليبيين فى تأسيس دولة لنفسه على شاطىء الشام مثلما فعل بوهيموند فى أنطاكية[١] .

ولا شك فى أن إخفاق الصليبيين فى الاستيلاء على عرقه بعد ذلك الحصار الطويل ، وما ظهر فى صفوفهم من خلافات وتيارات متعارضة أثناء الحصار ، كل ذلك أدى إلى تقوية مركز أمير طرابلس ابن عمار ، الذى لم يلبث أن سحب عروضه السابقة على الصليبيين قبل أن يرفع هؤلاء حصارهم عن عرقه . ولكن قيام الصليبيين بالهجوم على طرابلس ، وإنزالهم الهزيمة بالمسلمين فى أواخر شهر مارس وأوائل أبريل ، كل ذلك جعل ابن عمار يعود إلى رشده ويركن إلى مسالمة الصليبيين ، فتعهد بالاستمرار فى دفع الجزية ، كما دفع غرامة حربية باهظة لهم[٢] . وقد اكتفى الصليبيون بذلك ، فغادروا إقليم طرابلس فى ١٦ مايو سنة ١٠٩٩ ، وتولى إرشادهم بعض الادلاء من طرابلس نفسها حتى وصلوا مساء ١٩ مايو أمام بيروت[٣] .

الفاطميون وبيت المقدس :

يعجب المؤرخ أبو المحاسن من موقف الفاطميين وعدم مشاركتهم القوى الإسلامية التى نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين ، فيقول « ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر ، وما أدرى ما كان السبب فى عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال !! »[٤] . ثم يسترسل أبو المحاسن فى وصف سوء حال

(1) Stevenson : op. cit, p. 32.
(2) Raymond d'Agiles p. 285 & Guillaume de Tyr p. p. 308—309.
(3) Albert d'Aix. p. p. 458 & Gesta Francorum p. 193.
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٧ .

الصليبيين عندما زحفوا على الشام ، وكيف أن المسلمين فى العراق والشام حاولوا صدهم ، « كل ذلك وعساكر مصر لم تهيأ للخروج ![١] » .

والحقيقة هى أن الفاطميين لم يفهموا الحركة الصليبية على حقيقتها — كما سبق أن أشرنا — وانتهزوا فرصة ما حل بالسلاجقة فى شمال الشام ليستردوا فلسطين و بيت المقدس ؛ ظناً منهم أنه بات من الميسور تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة والبيزنطيين والصليبيين جميعاً . ولا أقل لإثبات صحة هذا الرأى من إلقاء نظرة عامة سريعة على التطورات التى مرت بها فلسطين قبيل وصول الصليبيين مباشرة إلى بيت المقدس .

ذلك أننا رأينا كيف استطاع الأتابك أتسز بن أبق أن يستولى على بيت المقدس باسم السلطان ألب أرسلان من الفاطميين سنة ١٠٧١ ، ومن ثم ظل أتسز هـذا يحكم فلسطين منذ تلك السنة حتى سنة ١٠٧٩ ، عندما آلت فلسطين إلى تتش الذى عين أحد رجاله التركمان — وهو أرتق بن أكسب مؤسس بيت الأراتقة — حاكما على بيت المقدس . وعندما وفاة أرتق هذا سنة ١٠٩١ حل محله ابنه سكمان تحت سيادة تتش ثم تحت سيادة ابنه دقاق بن تتش ملك دمشق [٢] .

على أن الفاطميين لم يستطيعوا أن يسكتوا مطلقاً عن ضياع بيت المقدس من أيديهم ؛ وكذلك رحبوا بتقدم الصليبيين فى منطقة الشرق الأدنى على حساب الأتراك ؛ ووجدوا فى ذلك فرصة طيبة لإسترداد حقوقهم الضائعة فى فلسطين . بل إن المؤرخ بن الأثير لم يتردد فى اتهام ، الفاطميين بأنهم هم الذين دعوا الفرنجة

---

(١) المرجع السابق ج ٥ ص ١٤٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

إلى بلاد الشام ليساعدوهم ضد الأتراك السلاجقة[١] . وبعبارة أخرى فإن الفاطميين لم يروا فى الانتصارات التى أحرزها الصليبيون فى ضور ليوم وأنطاكية كارثة عامة حلت بالمسلمين ، وإنما وجدوا فيها أمنية عزيزة هى تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين الذين سادوه قرابة نصف قرن من الزمان استثاروا فيها كراهية العرب المسلمين جميعاً ، الشيعة والسنة سواء .

وهكذا أحس الفاطميون بالسعادة والغبطة فى تلك اللحظة التى وجدوا نفوذ الأتراك قد انهار ، دون أن يستطيع رضوان ملك حلب أو دقاق ملك دمشق أو حتى السلطان بركيارق نفسه أن يمنع تقدمهم أو يقف فى طريقهم . وربما اعتقد الفاطميون أن ساعة الانتقام من الأتراك قد أزفت ، الانتقام للعنصر العربى بوجه عام ، والشيعة بوجه خاص[٢] . ولم يكد يحل الصليبيون بإقليم أنطاكية ، حتى أسرع الوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه .. حاكم مصر الفعلى عندئذ (١٠٩٥ - ١١٢١) - إلى بذل كل جهد ممكن لعقد تحالف بين الفاطميين والصليبيين ضد العدو المشترك للطرفين ، وهم الأتراك السلاجقة ؛ ووصلت رسل الأفضل فعلا إلى الصليبيين أمام أنطاكية أثناء حصارهم لها فى أوائل سنة ١٠٩٨ . أما العرض الذى تقدم به الأفضل للصليبيين فكان واضحاً بسيطاً ، خلاصته أن يتعاون الطرفان فى القضاء على السلاجقة ، ثم تقسم الغنيمة بعد ذلك بينهما بحيث يكون القسم الشمالى (سوريا) للصليبيين ، والقسم الجنوبى (فلسطين) للفاطميين[٣] . وليس أدل من هذا العرض على جهل الفاطميين بحقيقة الحركة الصليبية وعدم إدراكهم أن الصليبيين لم يتركوا بلادهم فى غرب أوربا و يتحملوا ما تحملوه فى الشرق إلا لاستخلاص

---

(١) « وقيل : إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الاقسيس (أتسز) إلى مصر وحصرها ، خافوا فأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوها ويكونوا بينهم وبين المسلمين ! »

(ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٠ هـ) .

(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 144—145.

(3) Setton : op. cit; I, p. 316.

الأراضى المقدسة فى فلسطين . ففلسطين بوجه عام و بيت المقدس بوجه خاص هى الهدف الأول الرئيسى للصليبيين . هذا و إن كان الصليبيون قد أظهروا مهارة سياسية ملحوظة حتى ذلك الوقت تجاه الفاطميين ، فاختاروا أن يتركوهم على عماهم ولم يفصحوا لهم عن نواياهم تجاه فلسطين ، بل أرسل الصليبيون سفارة إلى القاهرة — ردا على سفارة الأفضل — تؤكد التعاون بين الطرفين للقضاء على العدو المشترك(١) .

على أن الوزير الأفضل لم يشأ أن ينتظر وصول الصليبيين إلى فلسطين ، و إنما اختار أن يعمل فوراً . وكان الأفضل قد استولى على مدينة صور « بالسيف » فى ربيع سنة ١٠٩٧ من الاراتقة ، ولكنه لم يحاول أن يهاجم بيت المقدس عندئذ وترك ذلك للوقت المناسب(٢) . ولم يلبث أن حان ذلك الوقت المناسب فى صيف سنة ١٠٩٨ والصليبيون مازالوا متعثرين فى منطقة أنطاكية ؛ فخرج الأفضل على رأس جيوشه ، واستطاع أن يسترد بيت المقدس من سكمان (سقمان) الارتقى وأخيه إيلغازى فى ٢٦ أغسطس سنة ١٠٩٨(٣) . وقد «أحسن الأفضل إلى سقمان و إيلغازى ومن معهما وأجزل لهما العطاء » ، كما سمح لهما الأفضل بالخروج من بيت المقدس ، فاتجه الأخوان نحو دمشق ومنها إلى الجزيرة حيث استطاعا أن يؤسسا إمارة لبنى أرتق هناك(٤) . أما فلسطين فقد غدت جزءاً من الدولة الفاطمية ولم تكد تحل سنة ١٠٩٨ إلا وكانت حدود تلك الدولة قد امتدت إلى نهر الكلب شمالا ومجرى الأردن شرقاً(٥) .

---

(1) Michaud : op. cit, I, p. 362.

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) « فساروا الى دمشق ثم عبر الفرات ، فأقام سقمان ببلد الرها وسار إيلغازى إلى العراق » . (ابن الأثير : الكامل ؛ سنة ٤٩٢ هـ) .
انظر كذلك ابن ميسر ، حوادث سنة ٤٩١ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ — ١٣٨ .

(5) Setton : op. cit; vol. 1; p. 316.

ولكن إذا كان الفاطميون قد ظنوا أنهم استفادوا من حالة الفوضى التى أمسى فيها العالم الإسلامى نتيجة لوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق ، فإن الحقيقة المرة لم تلبث أن صدمتهم . فالصليبيون والفاطميون تحالفوا ضد العدو المشترك وهم الأتراك ، ولكن باستيلاء الصليبيين على أنطاكية والفاطميين على بيت المقدس غدا الحليفان وجهاً لوجه ، ولا مناص من حدوث صدام بينهما . وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس هو الهدف الأساسى للصليبيين أرسل إليهم سفارة وصلتهم قرب طرابلس ، تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين ؛ كما تحمل لهم عرضاً من الخليفة الفاطمى خلاصته أن يسهل لهم مهمة الحج على شكل مجموعات من مائتى أو ثلثمائة حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين(١) . ولكن الصليبيين ردوا عليه بأنهم سيتمكنون من الحج فعلا ، ولكن بمعونة الله . وكان معنى ذلك بداية الحرب بين الصليبيين والفاطميين من أجل بيت المقدس(٢) .

سقوط بيت المقدس :

بسط الفاطميون سيادتهم على فلسطين وساحل الشام جنوبى نهر الكلب؛ ولكنهم — فيما يبدو لم يتركوا قوات كافية لتدعيم نفوذهم فى تلك الجهات والدفاع عنها ؛ وذلك باستثناء حامية بيت المقدس من ناحية و بعض المراكز الساحلية التى ظل الأسطول الفاطمى قادراً على إمدادها بالرجال والزاد من ناحية أخرى(٣) . وكانت هذه المراكز الأخيرة أول ماتعرض لهجوم الصليبيين بحكم مرورهم بها بعد أن غادروا طرابلس فى طريقهم إلى بيت المقدس . وهنا نجد معظم تلك الموانى

---

(1) Michaud : op. cit, I, p. p. 362—363.
(2) Guillaume de Tyr, I, p. p. 305—306.
(3) Runciman, op. cit, I, p. 275.

الساحلية تحاول أن تحذو حذو طرابلس نفسها فتحصل على مسالمة الصليبيين بأحسن الشروط الممكنة . من ذلك أن أهل بيروت عندما أحسوا باقتراب الصليبيين منهم ، عرضوا عليهم إمدادهم بالتموين فضلا عن تقديم مبلغ كبير من المال ، كل ذلك مقابل تعهد الصليبيين بعدم الاعتداء على البساتين ومزارع الكروم والغلال المملوكة للعرب[١] . وأكثر من هذا فقد تعهد أهل بيروت بالدخول فى طاعة الصليبيين والاعتراف بالتبعية لهم، إذا هم نجحوا فى احتلال بيت المقدس[٢] . وهكذا بعكس ماحدث عندما مر الصليبيون بصيدا (٢٠ مايو سنه ١٠٩٩) إذ اعتدت حامية صيدا على بعض الجند الصليبيين ، مما جعل هؤلاء يتلفون المزارع المجاورة و يعتدون على الضياع القريبة[٣] .

و بعد ذلك مر الصليبيون بصرفند وصور حيث انضم إليهم (٢٣ مايو سنة ١٠٩٩) بعض الفرسان القادمين من الرها وأنطاكية لمساعدتهم . وقد التزم الصليبيون طريق الساحل بعد صور، فمروا بعكا التى قام حاكمها بتموين الصليبيين ، كما تعهد بالدخول فى طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس[٤] . وهكذا مضى الصليبيون فى تقدمهم فمروا بقيسارية فى ٢٦ مايو، ثم بأرسوف بعد ذلك بقليل[٥] . ولم يحاول الصليبيون بعد ذلك الاتجاه إلى يافا، و إنما اختاروا أن يتركوا الطريق الساحلى و يشقوا سبيلهم داخل البلاد إلى بيت المقدس مباشرة . ومع ذلك فإن الصليبيين كانوا حريصين دائما على ألا ينقطع الطريق بينهم و بين البحر ، فاحتلوا

(1) Setton : op. cit, p. 331.
(2) Albert d'Aix, p. 458.
(3) Guillaume de Tyr, p. 311.
(٤) تختلف رواية ابن الأثير عن ذلك ، إذ قال إن الصليبيين « حصروا عكا فلم يقدروا عليها » . (الكامل ، سنة ٤٩٢ هـ) . والرواية الأولى هى التى أجمعت عليها المراجع الصليبية .
(5) Albert d'Aix, p. 460.

الرملة التى هجرها أهلها وتركوا فيها حامية صغيرة[١] . وعلى مقربة من الرملة كانت اللد وبها كنيسة القديس جرجس (جورج) التى أقامها البيزنطيون ، فلما علم أهل تلك الناحية باقتراب الصليبيين أحرقوا الكنيسة، ولكن الصليبيين رمموها ، وأقاموا أسقفا كاثوليكيا على إقليم اللد والرملة ، اتخذ كرسيه فى كنيسة القديس جرجس[٢].

وأهم ماحدث فى تلك الفترة التى قضاها الصليبيون فى الرملة (أوائل يونيه سنه ١٠٩٩) ، أنهم عقدوا مجلسا للحرب ، ناقشوا فيه عدة مسائل أهمها الرأى القائل بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين فى مصر ، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلا فى القاهرة ، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقره فى بيت المقدس، فعليهم أن يؤمنوا أنفسهم بالاستيلاء على الدلتا[٣] . وسنرى فيما بعد أن هذه الفكرة ظلت مسيطرة على عقول زعماء الحركة الصليبية طوال عصر الحروب الصليبية ، حتى وضعت موضع التنفيذ أكثر من مرة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ولكن من الواضح أن الظروف التى أحاطت بالصليبيين فعلا فى نهاية القرن الحادى عشر لم تسمح مطلقا بتلك المغامرة ، لأن مملكة بيت المقدس لم تكن قد قامت بعد ، ولأن أقدام الصليبيين لم تكن قد ثبتت فى فلسطين مثلما صار عليه الوضع فى القرن الثالث عشر[٤] .

وكان أن تقرر الزحف على بيت المقدس مباشرة ، فترك الصليبيون الرملة فى ٦ يونيه سنة ١٠٩٩ . وفى الطريق التقوا ببعض المسيحيين الوافدين من

(1) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 33.
ويقول أبو المحاسن : إن الصليبيين أخذوا الرملة « وقت إدراك الغلة » أى وقت الحصاد. (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠) .
(2) Gesta Francorum; p. 193 & Guillaume de Tyr, p. 313.
(3) Raymond d'Agiles, p. 299.
(4) Albert d'Aix, p. 292.

بيت لحم ، وهؤلاء استحثوا جودفرى بوايون على الإسراع إلى بيت المقدس ، لأن الفاطميين يتوعدون المسيحيين و يتأهبون للثأر منهم ، فضلا عن أنهم استحضروا عمالا من مصر لتقوية الاستحكامات فى بيت المقدس[١] . لذلك أرسل جودفرى فرقة من الفرسان بقيادة تنكرد إلى بيت لحم ، حيث استقبلهم المسيحيون على اختلاف مذاهبهم استقبالا حافلا ، مهللين بأن ساعة الخلاص قد حانت ، وأنهم جميعا أتباع المسيح ورعاياه لافرق بين كاثوليك وأرثوذكس وسريان[٢] . و بعد ذلك غادر تنكرد بيت لحم لملاقاة بقية الجيش الصليبى ، بحيث لم يحل يوم ٧ يونية ، إلا وكان الصليبيون جميعا أمام بيت المقدس . وهنا أفاض المؤرخون الصليبيون فى وصف مشاعر الصليبيين وأحاسيسهم عندما وجدوا أنفسهم أمام تلك المدينة المقدسة ، وما أثارته رؤياها فى نفوسهم من ذكريات حبيبة إلى قلوبهم[٣] .

وفى تلك الأثناء كان افتخار الدولة — حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل[٤] — قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين ، فسمم الآبار، وقطع موارد الماء وأخفى المواشى[٥] ، وطرد جميع من بالمدينة من المسيحيين ؛ فضلا عن هتمامه بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار ، معتمدا فى الدفاع عن ت المقدس على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودان[٦] .

ولم يكد الصليبيون يشرعون فى حصار بيت المقدس فى ٧ يونيه سنة ١٠٩٩،

(1) Ibid.
(2) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), p.p. 354—355
(3) Guillaume de Tyr, p. 318.
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ؟ أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ، ص ١٤٨
(5) Gesta Francorum, p. 199. & Raymond d'Agiles p. p. 293—294.
(6) Foucher de Chartres (Hist. Occid) III, p 359.

حتى أخذوا يهاجمون المدينة معتمدين على عدد كبير من آلات الحصار والهدم[١] . وفى حوالى منتصف يونية وصلت ميناء يافا بعض السفن الجنوية التى استطاعت الاستيلاء على المدينة فى سهولة بعد أن هجرها أهلها من المسلمين عندما علموا باقتراب الصليبيين من أرسوف[٢] . ومن الثابت أن تلك السفن الجنوية أحضرت للصليبيين كثيراً مما كانوا يحتاجون إليه من عدد الحصار ومواد التموين[٣]، الأمر الذى جعلهم أمام بيت المقدس يحرصون على تأمين الطريق بينهم و بين يافا ليتمكنوا من الحصول على المساعدات التى تجلبها لهم الأساطيل الغربية[٤] . ولاشك فى أن تلك المعونة البحرية كان لها أثرها الفعال فى تدعيم مركز الصليبيين وفى إمدادهم بما احتاجوا إليه مما مكنهم من مواصلة الحصار والهجوم ، فى الوقت الذى كانت الحامية الفاطمية محصورة داخل أسوار بيت المقدس ومقطوعة من العالم الخارجى تماما[٥] .

وكان أن طال حصار الصليبيين لبيت المقدس واشتدت حرارة الصيف ، مما أثار أعصابهم وجدد المنازعات فيما بينهم حول مصير بيت المقدس وملكية بعض المراكز الهامة الأخرى مثل بيت لحم . ولم تلبث أن انتشرت اشاعة قوية بين الصليبيين مؤداها أن جيشا فاطميا كبيرا قد خرج من مصر فى طريقه إلى بيت المقدس لتخليصها ، مما جعل الصليبيين يفكرون فى القيام بمحاولة قوية للاستيلاء على المدينة[٦] . وقد عمل الصليبيون برجين يطلان على سور المدينة ، أحدهما بباب صهيون والآخر بباب العمود ، فأحرق المسلمون البرج الأول وقتلوا من فيه . أما البرج الثانى فقد زحف به الصليبيون حتى ألصقوه بالسور « وحكموا به البلد وكشفوا من

(1) Gesta Francorum p. 195.
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .
(3) Heyd : Hist. du Commerce, I, p.p. 134—135, & Cam. Med Hist, vol. 5. p. 268.
(4) Gesta Francorum, p. 199.
(5) Chalandon : Premiere Croisade, p. p. 269—271.
(6) Runciman : op. cit; I, p. p. 283—284.

كان عليه من المسلمين ، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد ، فانهزم المسلمون ... » [١]

وقد حدث ذلك الهجوم الشامل الذى قام به الصليبيون على بيت المقدس ليلة ١٤ يوليو سنة ١٠٩٩ ، ثم اشتد الهجوم واتخذ طابعاً عنيفاً صباح اليوم التالى ، أى الجمعة ١٥ يوليو وهو اليوم الذى استطاعوا فيه اقتحام المدينة بعد حصار دام « نيفا وأربعين يوما » [٢] . ولم يسع الجند المدافعون عن بيت المقدس من المسلمين سوى الفرار عندئذ للاحتماء بالمسجد الأقصى والدفاع عنه ، فتبعهم الصليبيون واقتحموا المسجد وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة « حتى أن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم فى دماء المسلمين ! ! » [٣] .

وفى الحال أخذ جودفرى بوايون يقسم العمل على الأمراء ، فأرسل بعضهم لفتح باب العمود حتى يدخل منه بقية الصليبيين إلى داخل المدينة ، فى حين قام البعض الآخر - مثل تنكرد - باحتلال قبة الصخرة . والمعروف أن قبة الصخرة كانت غنية بما فيها من تحف ثمينة سال لها لعاب الصليبيين فنهبوها عن آخرها [٤] .

على أن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس لم يتم فى سهولة ودون مقاومة ، إذ صادف الصليبيون مقاومة شديدة فى القطاع الجنوبى . أما افتخار الدولة - حاكم المدينة الفاطمى - فقد احتمى مع طائفة من الجند بمحراب داود حيث « اعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام » ، ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح بعد

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٨ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .
(3) Gesta Francorum, p. p 203—205.
(٤) « أخذوا (الصليبيون) من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلا من الفضة ، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا ، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء ... » ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ؟ ابن الجوزى : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .

أن « بذل لهم الفرنج الأمان » [١] . وفعلا أطلق الصليبيون سراحهم وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان ، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمى بيت المقدس التى نجت من وحشية الصليبيين [٢] .

ومع ذلك فإن إطلاق سراح حاكم بيت المقدس لم يكف لمحو أثر الجريمة البشعة التى اقترفها الصليبيون فى بيت المقدس ، وقتلهم آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب . ذلك أن الصليبيين لم يتركوا مسلما فى الطرقات أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه واستباحوا دمه ، دون أن يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل . ولم يرع الصليبيون حرمة المسجد الأقصى فأجهزوا على كل من احتمى به من المسلمين وعددهم أكثر من سبعين ألفا « منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم [٣] وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان وجاوروا بذلك الموضع الشريف » . ومهما يكن فى هذا الرقم الذى ذكره المؤرخون من مبالغة ، فإن جميع الدلائل تشير إلى وحشية الصليبيين وعظم الجرم الذى اقترفوه فى بيت المقدس [٤] .

ولم يحاول المؤرخون الصليبيون أنفسهم إنكار الحقيقة ، فذكر وليم الصورى أن بيت المقدس شهدت عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة حتى أصبح البلد « مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم » [٥] . كذلك

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .
(٢) المرجع السابق & Gesta Francorum, p. 205.
(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .
(٤) لم يذكر هذا الرقم من ضحايا المسلمين المؤرخون المسلمون — مثل ابن الأثير — فحسب ، بل ذكره أيضاً المؤرخون المسيحيون الشرقيون مثل ابن العبرى الملطى الذى ذكر بالنص الواحد « ولبث الفرنج فى البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين ، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً ! » (ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧) .
كذلك ذكر متى الرهاوى أن عدد من قتلهم الصليبيون من المسلمين زاد على خمسة وستين ألفاً . (Doc. Arm, I, p. 45).
(5) Guillaume de Tyr, I, p. 354.

ذكر مؤرخ صليبى حضر تلك الأحداث أنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التى أحدثها الصليبيون ؛ لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا فى صعوبة بالغة وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه[١] . ولم يكن اليهود أحسن حالا من المسلمين ، إذ « جمع اليهود فى الكنيسة وأحرقوها عليهم »[٢] .

ولعل هذا مما دفع بعض المؤرخين الأوروبيين المحدثين إلى الاعتراف بأن مذبحة يوليو سنة ١٠٩٩ كانت لطخة عار فى تاريخ الحملة الصليبية الأولى[٣] . وإذا كان المسلمون قد تطرفوا أحياناً — فيما بعد — فى معاملة الصليبيين ، فإن هذا التطرف لم يكن إلا رد فعل لمذبحة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ، وهى المذبحة التى ظلت تثير الأسى فى قلوب المسلمين حتى طرد الصليبيين نهائياً من الشام[٤] .

أما الدولة الفاطمية ، فقد تلقت تلك الأخبار فى برود وظلت تغط فى سباتها العميق . وكذلك بغداد حيث اتجه قاضى دمشق زين الدين أبو سعد الهروى ليخبر الخليفة العباسى بالكارثة التى حلت بالمسلمين فى الشام وهناك فى بغداد اجتمع « المستنفرون » من دمشق ؛ « وحضروا فى الديوان (الخليفى) وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا ، وقام القاضى فى الديوان ، وأورد كلاما أبكى الحاضرين[٥] » . كل ذلك والخلافة العباسية لم تحرك ساكنا ، وكذلك السلطان

---

(1) Raymond d'Agiles, p. 300.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ . .
أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٥٠ .
Michaud : op. cit, I, p. p. 424—425.

(3) Grousset : Hist· des Croisades, I, p. 161 &
Runciman : op. cit; I, p. 287.

(4) Runciman : op. cit, I. p. 287.

(٥) ابن الجوزى : مرآة الزمان سنة ٤٩٢ هـ .

بركياروق « ووقع التقاعد »[١] .

والواقع أنه إذا كان ثمة خطر سيهدد الصليبيين فيما بعد ، فإن السحب التى انذرت بذلك الخطر لم تتجمع إلا بعد أن نجح الصليبيون فى تثبيت أقدامهم فى بلاد الشام .

---

(١) وقد قال أبو المظفر الأبيوردى شعراً فى عدم اكتراث الخلافة العباسية ، واعتماد المسلمين عندئذ على البكاء والنحيب :

وشر سلاح المرء دمع يفيضه إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فأيها بنى الإسلام إن وراءكم وقائع تلحق الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام أضحى مقيلهم ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدى رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ويغضى على ذل كماة الأعاجم

الفصل الحادي عشر

تنظيم الفتح

بيت المقدس غداة استيلاء الصليبيين عليها :

أثار نجاح الحملة الصليبية الأولى فى تحقيق أهدافها الروحية والحربية مشكلة أساسية ، هى تحديد وضع البلاد التى فتحها الصليبيون وطريقة تنظيمها وكيفية بناء دولة غربية على أرض شرقية ، تتألف من تلك العناصر المشتتة المتباينة التى جرفها تيار الدعوة الصليبية من غرب أوربا ليلتقى بها جميعا فى صعيد واحد[1] . حقيقة إن الحملة الصليبية جاءت وليدة المصادفات التاريخية ، كما أن نجاحها أيضا تم نتيجة المصادفات التاريخية ، إذ نبتت الدعوة الصليبية فى الوقت الذى ضعفت الدولة البيزنطية وانحلت قوى الأتراك السلاجقه ؛ ولكن كان لزاما على الصليبيين الأوائل بعد ما حققوه من نجاح فى الشام أن يتبعوا سياسة متكاملة بعيدة الهدف لخلق دولة ثابتة فى بيت المقدس من تلك العناصر المتباينة التى تألفت منها الحملة الصليبية الأولى . وإذا كان من الصعب أن يتم هذا العمل بسهولة أو دفعة واحدة أو على يد فرد واحد ؛ فإن التاريخ يشهد على أن الفضل الأول فى وضع أساس ذلك البناء يرجع بدون شك إلى بلدوين الأول (١١٠٠ — ١١١٨) . أما الفترة الواقعة بين سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٩ وقيام بلدوين الأول فى حكمها سنة ١١٠٠ ، فكانت فترة انتقال ، أو على الأصح فترة توفيق بين الميول الانفصالية للأمراء ورجال الدين من جهة والأوضاع

(1) Richard : Le Rayaume Latin de Jerusalem p. p. 28—29.

التى تتطلبها قيام ملكية مدعمة النفوذ والسلطان من جهة أخرى . وفى فترة الانتقال هذه ، قام جودفرى بوايون بالوصاية على بيت المقدس[1] .

وكانت المشكلة الداخلية الكبرى التى واجهت الصليبيين بعد أن انتهوا من ذبح جميع من فى بيت المقدس من المسلمين ، هى عدم وجود زعيم أو رئيس أو قائد لهم يعترفون جميعاً بزعامته ، ويعهدون إليه بتنظيم جهودهم فضلا عن تنظيم البلاد التى فتحوها[2] . وهنا أحس الصليبيون بعظم الخسارة التى أصابتهم بوفاة أدهمار المندوب البابوى ، وهو الذى كان حتى وفاته يقوم بدور الزعيم الروحى للصليبيين ، فضلا عن أنه كان يؤلف بين أمراء الصليبيين تحت زعامته . ولكن وفاة أدهمار فى أنطاكية فى أول أغسطس سنة ١٠٩٨ — كما مر بنا — أدت إلى افتقار الحملة الصليبية الأولى إلى زعامة روحية ، كما أصبحت تلك الحملة من الناحية السياسية ـ لا تعدو مجرد حلف بين الأمراء يتصف بالفوضى وسوء النظام لعدم وجود رأس تتزعم الحلف وتنسق بين جهود أعضائه وآرائهم[3] . ولم تلبث أن ظهرت الاتجاهات الشخصية قوية عند الأمراء ، فأخذ بعضهم يتخلى عن موكب الحملة ويتوقف فى الطريق لتحقيق كسب خاص ، مثلما فعل بلدوين البولونى فى الرها وبوهيموند فى أنطاكية ، وما أراد أن يفعله جودفرى بوايون فى جبلة وريموند فى عرقه[4] .

وأخيراً لم يبق مع الحملة عند سقوط بيت المقدس سوى جودفرى بوايون لأن ريموند منعه من التوقف فى جبلة ، وريموند لأن جودفرى بدوره منعه من التوقف فى عرقه وطرابلس ؛ فضلا عن تنكرد وروبرت دى فلاندرز وروبرت

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. p. 164—165.
(2) Runciman : op. cit, I, p. 289.
(3) Runciman : op. cit, I, p. p. 289.
(4) Chalandon : Premiere Croisade, p. 278—279.

النورمانى . وهؤلاء الأمراء هم الذين دخلوا كنيسة القيامة فى بيت المقدس مساء يوم ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ وأيديهم ملطخة بدماء ضحاياهم من أهل المدينة الأبرياء ليبتهلوا إلى الله ويطلبون حسن ثواب الدنيا والآخرة[1] .

جودفرى والوصاية على بيت المقدس :

ثم كان أن اجتمع زعماء الحملة الصليبية فى ١٧ يوليه لتنظيم فتحهم الجديد . وهنا بدأت المشكلة الأولى وهى هل يكون زعيم الدولة الجديدة من العلمانيين أو الكنسيين؟ ومن الواضح أن الكنيسة الغربية كان لها سند واضح فى الإشراف على بيت المقدس ، لأن البابا أوربان الثانى هو صاحب الفضل فى الدعوة للحرب الصليبية[2] . ولو كان الزعيم الروحى للحملة الصليبية الأولى ـ وهو المندوب أدهمار ـ حيا ، لأمكن أن يتولى الزعامة العليا فى تلك الدولة الجديدة ، بحكم مكانته وشخصيته واتزانه من جهة ؛ وما قام به من دور بارع فى توجيه الأمراء المشتركين فى الحملة وحفظ التوازن بينهم من جهة أخرى[3] . وشاءت الظروف أن يكون كرسى بيت المقدس خاليا عند سقوطها فى أيدى الصليبيين ، لأن بطرق المدينة الأرثوذكسى ـ سيمون (سمعان أو شمعون) ـ مات فى قبرص قبل استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، وبذلك أصبحت يد الصليبيين مطلقة فى تعيين أحد رجال الدين الكاثوليك بطرقا على بيت المقدس[4] .

---

(1) Guillaume de Tyr, I. p. 357.
(2) Michaud : op. cit, I, 428—429.
وقد توفى البابا أوربان الثانى فى ٢٩ يوليه سنة ١٠٩٩ ، أى بعد سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين بأسبوعين ، وذلك قبل أن يسمع الخبر الذى طالما تمناه منذ دعا للحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ .
(3) Setton : op. cit, I, p. 338.
(4) Albert d'Aix (Hist. Occid. IV); p. p. 489.

على أنه من الواضح أن فكرة قيام حكومة دينية فى بيت المقدس تخضع لإشراف الكنيسة وهيمنة رجال الدين وتوجيههم ، كانت فكرة خاطئة ، ولا يمكن تنفيذها ، وإذا نفذت كان لا يمكن لها البقاء . ذلك أن قيام دولة لاتينية من المسيحيين الغربيين فى بقعة بمثابة القلب من العالم الإسلامى ، أمر يحتاج إلى قيادة حربية علمانية للدفاع عن هذه الدولة ضد أعدائها المحيطين بها . ولذلك سرعان ما استبعد الصليبيون من حسابهم هذه الفكرة لاسيما وأنه لم يكن صحبتهم الزعيم الدينى الرشيد الذى يصلح لتلك الزعامة[1] .

وكان أن اتجهت الآراء نحو اختيار أحد الأمراء العلمانيين لينظم أمور الفتح الجديد . وهنا بدأت مشكلة أخرى ، هى أى الأمراء يفضل الآخرين ليكون زعيما لدولة بيت المقدس الصليبية ؟ إن تعجل روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز العودة إلى غرب أوربا ، جعل الأمر محصورا بين اثنين ، هما ريموند وجودفرى[2] . وليس هناك من شك فى أن ريموند كان أوفر ثروة وأكثر قوة من منافسه ، هذا فضلا عن قوة شخصيته ومرونته السياسية وبعد نظره الذى جعله يؤيد التحالف مع الدولة البيزنطية[3] . على أن قوة هذا الأمير من ناحية وعدم حب الأمراء والفرسان له من ناحية أخرى ، جعلت الأمراء يتخوفون من اختياره . هذا إلى أن سياسته تجاه الامبراطور ألكسيوس كومنين ، وإفراطه فى التودد إليه والتحالف معه أثارت استياء كثير من الصليبيين ؛ حتى فرسانه ورجال جيشه . ومع ذلك فإن بعض المؤرخين الصليبيين يؤكدون أن تاج بيت المقدس عرض عليه ، ولكنه رفضه[4] . وهكذا لم يبق هناك سوى جودفرى

---

(1) Grousset : Hist. des Croisades I. p. p. 166—167.
(2) Archer : The Crusades, p. 93.
(3) Runciman : op. cit, I, p. 291.
(4) Raymond d'Agiles, p. 301 & Albert d'Aix, p. 485.

دى بوايون الذى رفض هو الآخر هذا الشرف فى أول الأمر ؛ ولكن بقية الزعماء أجبروه على قبول حكم بيت المقدس فى ٢٢ يوليو سنة ١٠٩٩[1] .

ولم تكن مهمة جودفرى بوايون بالمهمة السهلة الهينة ، إذا كان عليه أن يعانى الكثير بسبب عدم إخلاص ريموند بوجه خاص . هذا إلى أن جودفرى لم تكن له من المؤهلات الموروثة أو المكتسبة ما يجعله يمتاز عن غيره من الأمراء الصليبيين ، بل على العكس لقـــد اختاره الأمراء ورجال الدين لما لمسوه فى أخلاقه من استعدادات تمكنهم من تحقيق مآربهم دون أن يخشوا خطرا من جانبه .

ومهما يكن من أمر، فالملاحظ أن جودفرى لم يحمل لقب ملك بيت المقدس وقد جرت الأساطير بأن التاج عرض عليه ولكنه « رفض أن يرتدى تاجا من الذهب فى المكان الذى ارتدى المسيح تاجا من الشوك »[2] لذلك اكتفى جودفرى باتخاذ لقب متواضع هو « حامى بيت المقدس Advocatus Sancti Sepulchri[3] » ومن الواضح أن اختيار جودفرى هذا اللقب جاء اعترافا منه بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحتة ، وأن لها صفتها الدينية التى تجعل للكنيسة نوعا من الإشراف عليها. وهكذا أدى تواضع جودفرى إلى تأخير قيام ملكية قويه منظمة تستطيع بيت المقدس فى ظلها أن تعيش وسط الاخطار الجسيمة المحيطة بها[4] .

---

(1) Iorga : Hist. des Croisades, p. 67.
(2) Michaud : op. cit, I, p. 436.
(3) Runciman op. cit, I, p. p. 292-293.
(4) Grousset : op. cit, I, p. p. 171.

اختيار أرنولف مالكورن بطرقا على بيت المقدس :

وكان أن أخذ رجال الدين فى بيت المقدس يزدادون قوة أمام ذلك الحاكم الطيب بعد ما لمسوه فيه من لين العريكة . وعندما اجتمع رجال الكنيسة فى أول أغسطس سنة ١٠٩٩ لاختيار بطرق لبيت المقدس ، وقع اختيارهم على أرنولف مالكورن[1] . وقد احتج أبناء بروفانس من الصليبيين على ذلك الاختيار ، وحاولوا تجريح أرنولف والقول بأن انتخابه غير قانونى لعدم صلاحيته ولسوء سلوكه أثناء زحف الصليبيين على بيت المقدس ؛ ولكن كل هذه الطعون لم تجد ، لاسيما وأن عدم اختيار ريموند حاكما أضعف من مكانة رجاله أبناء إقليم بروفانس[2] .

على أن البطرق الجديد كان من جانبه معتدلا ، فاختار ألا يقحم نفسه فى مشاكل مع جودفرى ، وإنما قصر نشاطه على المسائل الكنسية . وقد وجه كل اهتمامه إلى إضفاء صبغة لاتينية على كرسى بيت المقدس ، فزود كنيسة القيامة بأجراس لإعلان مواعيد الصلاة ـــ وهو أمر كان المسلمون قد حرموه على المسيحيين فى بيت المقدس ـــ ؛ واستبعد القساوسة الأرثوذكس من تلك الكنيسة ، مما أثار استياء أهل بيت المقدس من المسيحيين المحليين[3] . وكان بعض القساوسة الأرثوذكس عند خروجهم من بيت المقدس أيام افتخار الدولة الفاطمى قد أخفوا صليب الصلبوت ـــ أو الصليب الأعظم ـــ الذى يقال إن المسيح عليه السلام قد صلب عليه ، ولكن أرنولف أجبرهم عند عودتهم على

---

(1) Richard.: Le Royaume Latin, p. 93.
(2) Raymond d'Agiles, p. 302.
(3) Runciman, op. cit,; I, p. 294.

إظهاره[1] . ولم يعد أمام الأرثوذكس فى بيت المقدس سوى قبول ذلك الوضع الجديد بعد أن تفرق زعماؤهم الدنيويون وأصبح من المستحيل عليهم تعيين بطرق لهم يستطيع الصمود أمام البطرق الكاثوليكى الجديد[2] .

(1) Raymond d'Agiles, p. 302.
(2) Michaud : op. cit. I. p. 438.

الفصل الثاني عشر

إتمام غزو فلسطين

احتلال نابلس :

بعد أن استقرت الأمور للصليبيين فى بيت المقدس على النحو الذى وضحناه، صارت الخطوة التالية أمامهم هى الاستيلاء على بقية مدن فلسطين، حيث لم يمتلكوا منها حتى ذلك الوقت سوى بيت المقدس و بيت لحم واللد والرملة و يافا[1] . و يبدو أن الصليبيين لم يصادفوا صعوبات كبيرة فى تلك المهمة ، لأن سقوط بيت المقدس أحدث موجة من الرعب فى نفوس أهالى المدن والقرى المجاورة ، فضلا عن خلو تلك المدن من وسائل الدفاع . وكان أن أسرع أهالى نابلس إلى الاستسلام وأرسلوا وفداً إلى الصليبيين يدعونهم لتسلم المدينة ، فتسلم تنكرد نابلس فى غير صعوبة فى أواخر يوليو سنة ١٠٩٩[2] .

ولم يكد تنكرد يفرغ من تلك المهمة ،حتى تلقى رسالة عاجلة من جودفرى بوايون فى ٤ أغسطس ـــ الذى كان فى بيت المقدس ـــ يطلب منه التوجه مباشرة صوب شاطىء البحر للتأكد من صحة الأخبار القائلة بأن حملة فاطمية وصلت من مصر إلى أرض فلسطين . لذلك أسرع تنكرد ومعه فرسانه إلى قيسارية، ومنها اتجهوا جنوبا على امتداد الشاطىء حتى الرملة للبحث عن الحملة الفاطمية ، حتى عثروا على عدد كبير من الكشافين الفاطميين فيما بين يافا والرملة ، فقبضوا عليهم وعرفوا منهم أن جيشاً فاطمياً كبيراً على رأسه الوزير الأفضل فى طريقه

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. 197.
(2) Gesta Francorum p. 209 & Guibert de Nogent; p. 304.

فعلا إلى عسقلان لاسترداد بيت المقدس . وفى الحال أرسل تنكرد رسالة عاجلة إلى جودفرى بوايون يطلب منه الحضور بسرعة ومعه كافة مقاتلى الصليبيين [١] .

موقعة عسقلان ١٢ اغسطس ١٠٩٩ :

والواقع أن الوزير الأفضل لم يكف عن الاستعداد لمقاتلة الصليبيين منذ أن سمع بزحفهم على بيت المقدس، فجمع رجاله وخرج من مصر ليحول دون استيلائهم عليها ، ولكنه وصل عسقلان فى ٤ أغسطس « وقد فات الأمر » ، أى بعد أن استولى عليها الصليبيون بعشرين يوما [٢] . وهكذا أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن اعتقد فى وقت ما أن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال الشام ، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفاءهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة . ولم يسع الأفضل عند وصوله إلى عسقلان سوى أن يرسل « رسولا إلى الفرنج يوبخهم على مافعلوه » [٣] .

ولكن يبدو أن الوزير الأفضل لم يكن قديراً فى ميدان الحرب بقدر ماهو معروف عنه من مهارة سياسية وإدارية ؛ إذ يروى صاحب مرآة الزمان أنه بعد وصوله إلى عسقلان أضاع وقتا ثمينا « ينتظر الأسطول فى البحر والعرب » [٤] .
وفى الوقت الذى كان الأفضل منتظراً فى عسقلان اكتشف الصليبيون أمره فبادروا

---

(1) Gesta Francorum p. 209.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٣ . (Rec. Hist. Orient III)

(٤) ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ٥٢٠ (Rec. Hist. Orient III) &
وابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .
وجدير بالذكر أن أبا المحاسن يقول : إن الأفضل جد فى السير حتى وصل إلى القدس ثانى يوم فتحه « فقصده الفرنج وقاتلوه فلم يثبت لهم ودخل عسقلان بعد أن قتل من أصحابه عدد كبير » على أنه لا يوجد فى بقية المراجع ما يؤيد رواية أبى المحاسن من أن الأفضل قصد بيت المقدس أولا ثم ارتد عنها إلى عسقلان (أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٩) .

بالهجوم لأنه خير وسائل الدفاع [١] . ولم يلبث أن أسرع جودفرى بوايون فى الانضمام إلى تنكرد ، فخرج من بيت المقدس يوم ٩ أغسطس ومعه البطرق أرنولف وروبرت دى فلاندرز ، وقصدوا الرملة حيث تأكدوا من وصول الفاطميين إلى عسقلان . وبعد قليل لحق ببقية القوى الصليبية روبرت النورمندى وريموند الصنجيلى ومعهما رجالها [٢] .

ولم يكد يجتمع شمل القوى الصليبية قرب الرملة فى ١٠ أغسطس حتى أخذوا يزحفون جنوبا فى اتجاه عسقلان حيث باغتوا القوات الفاطمية ، على قول ابن الأثير . [٣] وفى المعركة التى دارت بين الطرفين فى ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ حلت الهزيمة بالفاطميين وتشتت شملهم بعد قليل ، حتى أن بعضهم لم يجد مفرا سوى البحر ، فألقوا بأنفسهم فى اليم حيث غرقوا ؛ فى حين احتمى البعض الآخر « بشجر الجميز ، وكان هناك كثيرا ، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من كان فيه » . أما الوزير الأفضل فقد هرب إلى عسقلان ومعه بعض رجاله ومنها ركبوا سفينة فى البحر فارين إلى مصر . وهكذا « تمكنت سيوف الإفرنج من المسلمين ، فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد ، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ، ونهب العسكر » [٤] .

ومن الواضح أن النصر المعنوى والأدبى الذى حققه الصليبيون فى عسقلان فاق بكثير الغنائم المادية التى غنموها [٥] فكما أن الهزيمة التى حلت بكربوغا على أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٨ أخرجت السلاجقة من معركة الشام ، فكذلك أدى

---

(1) Stevenson : op. cit; p. 35.
(2) Gesta Francorum, p. 211 & Guillaume de Tyr p. p. 380.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ . ؟
ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٤ . ؟
Gesta Francorum, p. p. 217—219 & Albert d'Aix, p. 497.

(5) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 297.

انتصار الصليبيين فى موقعة عسقلان إلى القضاء على هيبة الفاطميين بفلسطين ، فلم يجرؤا بعد ذلك على مهاجمة الصليبيين وقبعوا فى مصر يشاهدون مدن فلسطين وهى تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدى الغزاة . وبعبارة أخرى فقد أصبحت يد الصليبيين طليقة فى فلسطين منذ انتصارهم فى عسقلان ، مثلما صارت يدهم طليقة فى شمال الشام عقب انتصارهم على كربوغا[١] .

وكان أن بدأ جودفرى بوايون بحصار عسقلان نفسها ، فوجد أهل عسقلان أنفسهم أمام الأمر الواقع ، وأرادوا التسليم فوراً دون مقاومة لولا أنهم خشوا أن يحل بهم ماحل بأهل بيت المقدس فى الحرم الشريف من قتل وذبح . وكان أهل عسقلان قد لمسوا مافعله ريموند الصنجيلى (Saint—Gilles) مع افتخار الدولة القائد الفاطمى الذى احتمى مع فريق من رجاله فى محراب داود ساعة سقوط بيت المقدس — ، إذ أمنهم ريموند حتى خرجوا سالمين إلى عسقلان[٢] . لذلك وثق أهل عسقلان فى ريموند دون غيره من زعماء الصليبيين ، وأرسلوا إليه يطلبون منه تسلم بلدهم بشرط أن يؤمنهم على أرواحهم وحرياتهم[٣] . وعندما قبل ريموند الصنجيلى الدعوة ، خشى جودفرى أن يلجأ ريموند إلى إنشاء إمارة لنفسه على شاطىء فلسطين فى مواجهة بيت المقدس ، مما يحرم دولة بيت المقدس الناشئة من شواطئها الطبيعية على البحر ، وبالتالى يقطع الصلة بينها و بين الغرب . لذلك طلب جودفرى من ريموند أن يتخلى عن عسقلان لأنها ستكون تابعة لبيت المقدس ، فاستاء ريموند الصنجيلى وفضل أن تبقى عسقلان فى أيدى المسلمين عن أن يستولى عليها جودفرى . وهكذا انسحب ريموند ، وحرص بقيه الأمراء على الانسحاب معه بعد أن أوعز إلى أهل عسقلان

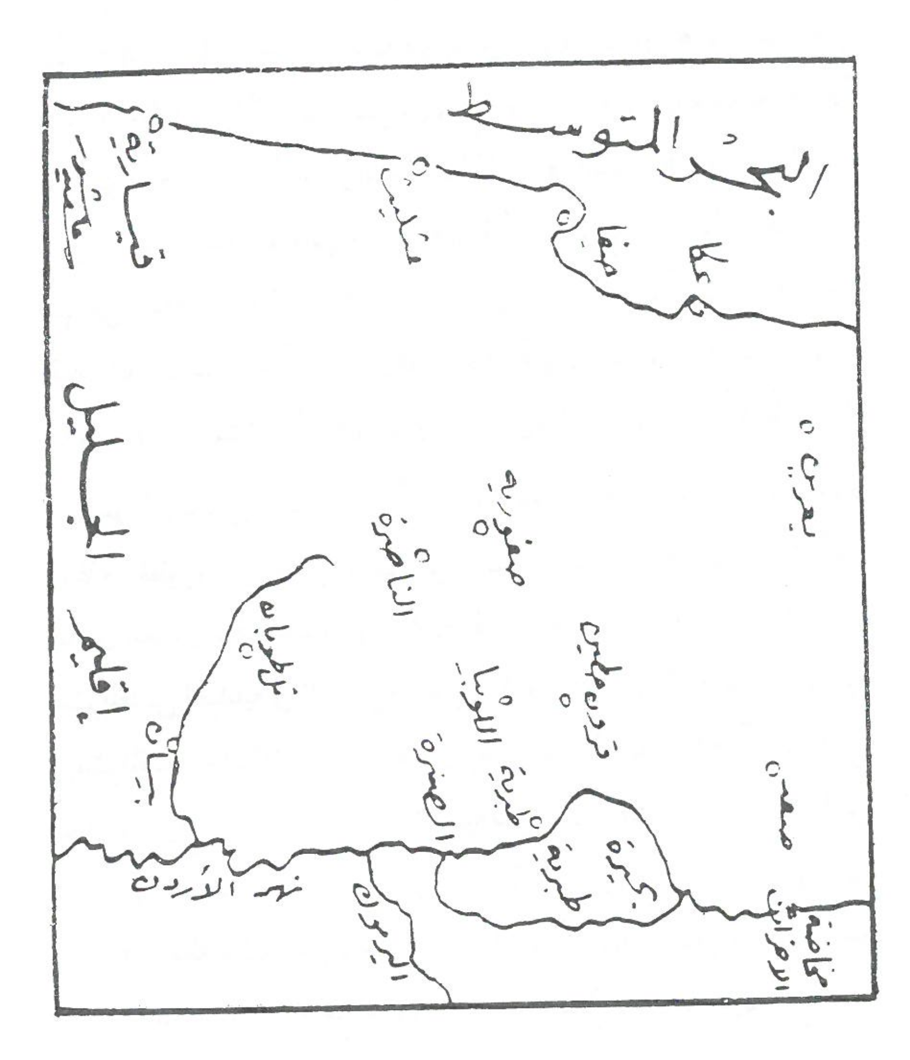
(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 175.
(2) Setton : op. cit; I, p. p. 337.
(3) Runciman : op. cit; I, p. 297.

بالثبات والمقاومة . أما جودفرى فقد وجد نفسه وحيداً أمام عسقلان التى اشتد أهلها فى المقاومة ، فاضطر إلى أن ينسحب بدوره من أمامها[١] .

وفى تلك الأثناء انصرف ريموند الصنجيلى نحو أرسوف محاولا الاستيلاء عليها عن طريق تأمين أهلها ، ولكن جودفرى ظل واقفا له بالمرصاد ، فلحق به وأصر على أن أرسوف هى الأخرى تتبع بيت المقدس . وللمرة الثانية انسحب ريموند الصنجيلى نحو الشمال بعد أن حرض أهل أرسوف على المقاومة وعدم الاستسلام لجودفرى[٢] . ومن هذا يتضح كيف أدى انقسام الصليبيين على أنفسهم والمنافسة بين زعمائهم إلى عدم تمكينهم عندئذ من الاستيلاء على موانى فلسطين ، بل إن بلدا مثل عسقلان كان من الممكن أن يستولى عليه الصليبيون فى سهولة سنة ١٠٩٩ لم يستطيعوا امتلاكه بعد ذلك إلا سنة ١١٥٣ !! . وطوال تلك السنوات ظلت عسقلان قاعدة للقوات المصرية ، تخرج منها الحملات للإغارة على بلاد الصليبيين القريبة . وربما كان المسئول عن كل ذلك هو تقاعس الصليبيين عن إقامة ملكية صليبية مهيبة الجانب فى بيت المقدس ، يطيعها الجميع ويأتمرون بأمرها[٣] .

ولم يلبث جودفرى أن ارتاح من منافسة بقية الأمراء المناوئين بعد أن أبحر كثير من الصليبيين عائدين إلى الغرب ، معتقدين أنهم أوفوا بقسمهم الصليبى وأن مهمتهم انتهت بالاستيلاء على بيت المقدس[٤] . وعلى رأس هؤلاء كان روبرت النورمانى وروبرت دى فلاندرز ، ومعهما جميع أتباعهما . أما الموانى الهامة فى أواسط بلاد الشام — وهى عكا وصور وصيدا و بيروت وطرابلس —

(1) Raoul de Caen (Hist. Occid, III), p. 703.
ويذكر ابن الأثير أن الصليبيين لم يتخلوا عندئذ عن عسقلان إلا بعد أن « بذل لهم أهلها قطيعة اثنى عشر ألف دينار وقيل عشرين ألف دينار ثم عادوا إلى القدس ، والله أعلم »
(2) Albert d'Aix, p. 498.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 180.
(4) Stevenson : op. cit, p. 36.



فقد بقيت فى أيدى المسلمين ، إذ سيطر الفاطميون أو أتباعهم على الموانى الأربعة الأولى ، فى حين كانت طرابلس فى قبضة بنى عمار . ومع ذلك فإنه يبدو أن موقعة عسقلان كان لها رد فعل قوى ، بحيث لم تتردد السلطات الإسلامية الحاكمة فى تلك الموانى فى تقديم كافة التسهيلات للصليبيين ليحصلوا على ما يلزمهم من مواد تموينية ، وذلك قبل أن يستولى الصليبيون على جبلة واللاذقية[1] .

أما عن ريموند الصنجيلى ، فبعد أن وصل إلى اللاذقية ، اختار أن يبقى فى شمال الشام ليعمل — بمساعدة حلفائه البيزنطيين — على الحد من قوة بوهيموند أمير أنطاكيه . ومهما يكن من أمر ، فإنه لا يخفى علينا أن عودة كثير من الصليبيين إلى الغرب الأوربى فى تلك المرحلة — أى عقب سقوط بيت المقدس مباشرة — ترك الدولة الجديدة التى ولدت فى الشرق فى حاجة ماسة إلى الرجال والمقاتلين ، فى الوقت الذى أحاط بها أعداؤها من كل جانب[2] .

تنكرد واحتلال إقليم الجليل :

وأخيراً لم يبق إلى جانب جودفرى بوايون سوى تنكرد ، ذلك الأمير النورمانى الذى لم يتعجل العودة إلى إيطاليا وظل يعمل فى فلسطين تحت رآسة جودفرى . وكان أن عهد جودفرى إلى تنكرد بفتح إقليم الجليل واحتلاله ، على أن يعطيه إياه ويصبح أميراً عليه تابعاً لجودفرى[3] .

وكان إقليم الجليل قبيل وصول الصليبيين إلى فلسطين موضع نزاع وتنافس بين دقاق صاحب دمشق والفاطميين ، ولكن دقاق لم يتمكن من احتلال ذلك

---

(1) Albert d'Aix, p. 499—500.
(2) Iorga ; Hist. des Coirades, p. 67.
(3) Raoul de Caen, p. 703 & Guillaume de Try, I, p. 384.

الإقليم عقب هزيمة الفاطميين فى عسقلان ، مما سهل مهمة تنكرد[1] . وهكذا استطاع الصليبيون فتح إقليم الجليل بسرعة ، على الرغم من قلة المقاتلين وحاجة تنكرد إلى الرجال ، فاحتلوا مدينة طبرية فى سهولة بعد أن هرب منها أهلها المسلمون وظلت فيها أقلية من السريان ، ثم حصن تنكرد مدينة طبرية تحصيناً قويا حتى يتخذها مركزاً لإمارته الجديدة[2] . وفى الجنوب الشرقى من الجليل احتل تنكرد بيسان ، وهى مدينة حصينة ذات موقع هام يمكن الإشراف منها على الضفة الشرقية لنهر الأردن . وطوال تلك الأثناء لم يكف تنكرد عن القيام بإغارات عدوانية على البلدان الإسلامية المجاورة ، فتارة يعتدى على الجهات التابعة لسلاجقة دمشق ، وأخرى يعتدى على المدن والقرى التابعة للدولة الفاطمية[3] .

على أن تناقص الصليبيين يوماً بعد يوم جعل موقف جودفرى وتنكرد فى غاية الخطورة ، إذ لم يبق لديهما سوى بضعة مئات من الجند ، فى حين أخذ الباقون يبحرون بالجملة عائدين إلى بلادهم فى غرب أوربا . وهكذا عاشت دولة بيت المقدس الصليبية فى تلك المرحلة على ذكرى انتصارات الصليبيين فى أنطاكية و بيت المقدس وعسقلان ، فلم تستطع أن تجعل احتلالها لفلسطين فعلياً ، واكتفى الصليبيون بوضع حاميات فى المدن الرئيسية مثل بيت المقدس و بيت لحم والخليل والرملة واللد و يافا ونابلس و بيسان وطبرية والناصرة . أما الأراضى والقرى والمزارع المحيطة بتلك المدن ، فقد ظلت فى أيدى أصحابها العرب . و يمكن تشبيه المراكز الصليبية فى الشام عندئذ بالجزر الصغيرة المتناثرة وسط محيط واسع من الأعداء الذين ظلوا يتحينون الفرصة المناسبة للانتقام واسترداد حقوقهم المسلوبة من الدخلاء الغاصبين[4] .

(1) Runciman : op. cit, I, p. 304.
(2) Albert d'Aix, p. p. 217—218.
(3) Guillaume de Tyr, I, p. 384.
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 181.

الاتفاقيات التجارية بين الصليبيين وموانى فلسطين العربية :

لم يكن للدولة التى أقامها الصليبيون فى بيت المقدس سوى منفذ واحد على البحر ، هو ميناء يافا . ولما كانت هذه الدولة محاطة بأعداء من الداخل ، فقد صار لزاما على جودفرى بوايون أن يقوى الصلة بين بيت المقدس والعالم الخارجى عن طريق البحر ، ولذلك أخذ يفكر فى الاستيلاء على أرسوف ـ شمالى يافا ـ وهى التى لم يستول عليها الصليبيون فى أغسطس سنة ١٠٩٩ نتيجة للنزاع بين جودفرى وريموند الصنجيلى[1] . على أن إمكانيات جودفرى كانت قد ضعفت كثيراً ، وتناقص رجاله بشكل ملحوظ ، فى الوقت الذى افتقر إلى أسطول يحكم الحصار على أرسوف من ناحية البحر ، ولذلك فشلت الحملة الصغيرة التى أرسلها جودفرى فى ديسمبر سنة ١٠٩٩ للاستيلاء على أرسوف وعادت تجر أذيال الفشل مما يشهد على مدى ضعف الصليبيين فى بيت المقدس عندئذ[2] .

أما جودفرى فاكتفى بأن ترك فى الرملة ـ على مقربة من أرسوف ـ بضعة مئات من رجاله لتهديد أرسوف بين حين وآخر ، وشن غارات عدوانية على ضواحيها . وكان أن استطاعت هذه القوة الصليبية أن تظفر فى فبراير سنة ١١٠٠ ببعض أهالى أرسوف الذين خرجوا لمباشرة نشاطهم السلمى فى مزارعهم القريبة ، فانتقم الصليبيون من أسرى المسلمين انتقاما وحشيا بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم[3] . ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية ، فإن أهلها أرسلوا سفارة عاجلة إلى الوزير الأفضل لطلب المعونة ، وعندئذ اكتفى الأفضل بأن بعث إليهم قوة صغيرة من ثلثمائة جندى . وقد تشجع أهل أرسوف

(1) Stevenson : op. cit, p 39.
(2) Albert d'Aix, p. p. 507—511.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 182.

عند وصول تلك النجدة إليهم عن طريق البحر وشرعوا فى القيام بهجوم مضاد ضد الصليبيين ، ولـكنهم وقعوا فى كمين نصبه الصليبيون فى مارس سنة ١١٠٠، مما جعل أهل أرسوف يؤمنون بعدم جدوى الحماية الفاطمية ، وأنه لا مفر من الدخول فى تبعية الصليبيين ، حتى يتمكنوا من فلاحة أراضيهم القريبة . وهكذا انتهى الأمر بأن ذهبت سفارة من أهل أرسوف إلى جودفرى بوايون فى أواخر مارس سنة ١١٠٠ تحمل إليه مفاتيح أبواب المدينة وقلاعها ، وتعرض عليه الدخول فى تبعيته ودفع جزية مالية رمزاً لهذه التبعية[١] .

وفى تلك الأثناء ،دأب الصليبيون منذ يناير سنة ١١٠٠ على العمل فى تحصين يافا وتقوية استحكاماتها ، وساعد جودفرى فى هذه المهمة الأسطول البيزى[٢] . ولم تلبث يافا بعد تحصينها أن صارت لها السيطرة على شاطىء فلسطين بأ كله ، كما فاقت فى قوتها مينائى عسقلان وعكا التابعين للدولة الفاطمية[٣] . وبعبارة أخرى فإن يافا أصبحت مركزا لنشاط تجارى وحربى كبير بعد أن صارت الميناء الرئيسى لدولة بيت المقدس الصليبية ، فقصدتها السفن التجارية من مختلف أنحاء العالم المسيحى، وبخاصة من جنوا والبندقية و بيزا ، لإحضار الحجاج من ناحية وإمداد بيت المقدس بما احتاجت إليه من امدادات من ناحية أخرى[٤] .

على أن تحصين يافا على ذلك الوجه سبب متاعب خطيرة للممتلكات التابعة للدولة الفاطمية بجنوب فلسطين ، إذ اتخذ الصليبيون يافا مركزا لشن إغارات مستمرة على تلك الممتلـكات. وهكذا بدأ اليأس يدب فى قلوب أهالى المدن الإسلامية

(1) Albert d'Aix, p. p. 513–514.
(2) Heyd : op. cit, I, p. 135.
(٣) أشار ابن الأثير إلى جهود جودفرى فى تحصين يافا فقال : إنه « عمر مدينة يافا وسلمها إلى قمص من الفرنج اسمه طنكرى (تنكرد) » . الكامل ؛ حوادث ٤٩٤ هـ .
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 183. & Heyd : op. cit, I, p. 136.

فى فلسطين بعد أن تأكدوا من عجز الدولة الفاطمية عن حمايتهم ، فلم تمض مدة طويلة حتى أعلن حكام عسقلان وقيسارية وعكا تبعيتهم لدولة الفرنجة ، ودفعوا جزية مشتركة شهرية قدرها خمسة آلاف دينار رمزا لتلك التبعية، فضلا عما تعهد المسلمون بتقديمه من مواشى وغلال وزيوت وغيرها من الفروض العينية[١] . كذلك سارع كثير من مشايخ العرب وزعمائهم فى الجهات الداخلية إلى عقد مثل تلك الاتفاقيات الودية مع حكومة بيت المقدس الصليبية، ليضمنوا سلامة قوافلهم ومتاجرهم. وهنا نلاحظ أن جميع تلك الاتفاقيات التى عقدها المسلمون فى فلسطين مع جودفرى حاكم بيت المقدس سنة ١١٠٠ — سواء تلك التى أبرمتها المدن الساحلية أو شيوخ القبائل الداخلية — كان لها جانبها التجارى ، فضلا عن الجانب السياسى ، مما جعل البضائع المختلفة — من توابل وغلال و بيض وطيور ومنسوجات ومواشى — تتدفق على بيت المقدس و يافا ؛ و بذلك توافر لدولة الصليبيين فى بيت المقدس قسط وافر من الاستقرار والثبات[٢] .

على أنه يلاحظ أن هذه الاتفاقيات السياسية والتجارية التى عقدت بين العرب والصليبيين فى فلسطين ، والتى حققت قسطا من السلام المؤقت بين الطرفين ، لم تمتد لتشمل شئون البحر والملاحة. من ذلك ما ذكره بعض المؤرخين من أن الصليبيين حرموا على عرب فلسطين أى تبادل تجارى عن طريق البحر مع بقية العالم الإسلامى . واستطاع الصليبيون أن ينفذوا خطتهم هذه عن طريق بعض الاتفاقيات التى عقدوها مع الجمهوريات الإيطالية صاحبة التفوق البحرى فى البحر المتوسط عندئذ[٣] . وقد ترتب على ذلك عدم إمكان حصول موانى فلسطين العربية على ما يلزمها من إمدادات ومؤن من الاسكندرية ، مما أدى

(1) Albert d'Aix, p. 515.
(2) Albert d'Aix, p. 516.
(3) Heyd : op. cit, I, p. p. 134—136.

إلى إضعافها ثم سقوطها فى نهاية الأمر دون عناء فى أيدى الصليبيين . وفى الوقت نفسه أفاد الصليبيون والتجار الإيطاليون من تلك السياسة لأنهم ضمنوا تركيز النشاط التجارى فى بلاد الشام فى أيديهم [1] . وكانت السفن الغربية التى تتولى حراسة شواطىء فلسطين تتصيد كافة المراكب الإسلامية الوافدة من الاسكندرية ودمياط وتونس ، لتصادرها وتقتل بحارتها . ومع ذلك فإن تلك الاعتداءات البحرية على السفن الإسلامية لم تعكر صفو السلام الذى تم بين المسلمين والصليبيين سنة ١١٠٠ ، فأخذ عرب عسقلان يذهبون فى أمان إلى مناطق الفرنجة للمتاجرة ، فى حين كان المسيحيون يقصدون عسقلان لقضاء مطالبهم دون خوف [2] .

سيطرة الفرنجة على إقليم السواد :

وهكذا غدا جودفرى بوايون على درجة من القوة وثبات المركز مكنته ـ بمساعدة تنكرد ـ من بسط سيطرته على إقليم السواد (سواد طبرية) ، شرق بحيرة طبرية ، وهو الإقليم الذى كان تابعا لدقاق ملك دمشق . ذلك أن تنكرد استطاع فى مايوسنة ١١٠٠ أن يخرج على رأس مائتين من فرسان الصليبيين وألف من مشاتهم ليقوم باغارات مدمرة فى إقليم السواد ، استمرت ثمانية أيام وأنزلت كثيراً من الأضرار — فى الأرواح والأموال — بأهل الإقليم من العرب [3] . وعندما طلب أمير السواد — وهو الذى أطلق عليه الصليبيون اسم المزارع السمين — النجدة من سيده دقاق ملك دمشق ، أمده الأخير بنحو خمسمائه فارس ، فاستطاعت هذه القوة الصغيرة من الدماشقة أن تهاجم مؤخرة

(1) Runciman : op. cit; I, p. 310.
(2) Albert d'Aix, p. 516.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 186.

قوات تنكرد وجودفرى وأن تطلق سراح من لديهم من أسرى المسلمين . غير أن الدماشقة لم يستطيعوا مواصلة هجومهم فانسحبوا عائدين من حيث أتوا ، فى حين عرج تنكرد على مدينة طبرية ليستريح فيها بضعة أيام قبل أن يقوم بهجومه التالى الذى لم يكتف فيه بتخريب إقليم السواد ، و إنما أوغل حتى اقترب من دمشق نفسها [1] .

وكان أن أرسل تنكرد سفارة من ستة فرسان إلى دمشق ، تحمل إنذارا إلى دقاق باعتناق المسيحية أو ترك دمشق فوراً ، فاستاء دقاق من تلك الجرأة ورد عليها بأن أنذر الرسل بالقتل إن لم يعتنقوا الإسلام ؛ فقبل أحدهم ذلك وأعدم الخمسة الباقون . وعندما علم جودفرى وتنكرد بذلك ، خرجا على رأس جميع قواتهما ، واستمر الصليبيون يعيثون فسادا فى الجهات والضياع والمزارع المحيطة بدمشق قرابة أسبوعين . وعندئذ أدرك أمير السواد أن دقاق عاجز عن حمايته ، فاعترف بالتبعية لتنكرد ووافق على دفع جزية له [2] .

وعند عودة جودفرى بوايون إلى بيت المقدس عن طريق الساحل مارا بعكا وقيسارية ، أسرع أمير قيسارية — بوصفه تابعا لجودفرى — إلى إقامة وليمة حافلة له . وهكذا أصبحت دولة بيت المقدس الصليبية بمثابة مملكة فرنجية إقطاعية ، يحوطها عدد من الإمارات الإسلامية التابعة لها [3] .

(1) Runciman : op. cit, I, p. p. 310—311.
(2) Albert d'Aix, p. p. 518—519.
(3) Grousset : op. cit, p. 187.

الفصل الثالث عشر

النزاع بين بلدوين وبطرق بيت المقدس

البطرق دايمبرت يفرض نفسه على دولة بيت المقدس :

كان حكم جودفرى بوايون فى بيت المقدس بمثابة حل وسط بين النظامين الملكى والثيوقراطى ، وفيه ترضية ــ ولو جزئية ــ لمطامع الأمراء ومطامع رجال الكنيسة ؛ ولذلك أثار موت ذلك الرجل مشكلة كبرى حول الوضع المقبل لدولة بيت المقدس الصليبية وكيف يكون نظام الحكم فيها[1] . ويقول المؤرخ وليم الصورى إن جودفرى بوايون أوصى قبل وفاته بأن يخلفه البطرق دايمبرت فى حكم بيت المقدس ، وذلك فى حالة عدم وجود ورثة مباشرين لجودفرى نفسه[2] . ومن الواضح أن تنفيذ هذه الوصية كان يعنى تحويل حكومة بيت المقدس إلى حكومة ثيوقراطية فعلا ، أى حكومة دينية ترتبط بالكنيسة ، وهو ماسعى إليه دايمبرت منذ أمد بعيد .

على أن قيام حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس واستبعاد كل فكرة تستهدف نظاما ملكياً وراثياً ، كان أمراً صعب التحقيق . ذلك أن المدة القصيرة التى تولى فيها جودفرى بوايون حكم بيت المقدس كانت كافية لتجعل فرسانه

---

(1) Stevenson : op. cit; p. 42.

(2) Guillaume de Tyr p. 403.

وهناك رأى آخر فى المراجع يؤكد أن جودفرى بوايون أوصى فعلا لاخيه بلدوين أمير الرها بأن يرثه فى حكم بيت المقدس . انظر :

Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 304. & Stevenson : op. cit; p. 42.

يؤمنون بضرورة قيام ملكية وراثية فى بيت المقدس . هذا فضلا عن أن أرنولف مالكورن ــ البطرق السابق لبيت المقدس الذى خلفه دايمبرت ــ كان له انصاره من رجال الدين ، وهؤلاء شايعوا فكرة قيام ملكية علمانية وراثية فى بيت المقدس ، لالشىء سوى التشفى فى دايمبرت والوقوف فى وجه أطماعه وآماله[1] .

ومهما يكن من أمر ، فإن وجه الأهمية فى ذلك الموقف هو أن المؤمنين بنظام الملكية الوراثية اتجهوا جميعا بأفكارهم وقلوبهم نحو بيت بوايون ، وأرادوا أن تكون الملكية المنشودة محصورة فى ذلك البيت بالذات . وكان أن أحاطوا نواياهم بالسرية التامة المطلقة ، فأوفدوا من قبلهم أسقف الرملة ومعه اثنان من الفرسان لمقابلة بلدوين أمير الرها لمطالبته بالحضور على وجه السرعة لاستخلاص حقوقه وتولى السلطة بوصفه الوريث الشرعى لدولة الفرنجة فى بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفرى[2] .

وهنا فكر دايمبرت فى وسيلة يضيع بها على بلدوين فرصة الاستئثار بحكم بيت المقدس ، فلم يجد بداً من الاستفادة بأحد كبار الأمراء الصليبيين ممن يعتبرون أنداداً لبلدوين نفسه . وفعلا اتصل دايمبرت بصديقه بوهيموند أمير أنطاكية ، بوصفه القوة الوحيدة التى تستطيع أن تقف فى وجه بلدوين وتحول دون وصوله إلى حكم بيت المقدس ، هذا فضلا عن أن دايمبرت كان له أنصار بين أمراء بيت المقدس أنفسهم ، من بينهم تنكرد ابن أخت بوهيموند[3] . وقد عرف عن تنكرد هذا الحماسة وسرعة البت ، زيادة على أنه صار من أقوى أمراء دولة بيت المقدس بعد تأسيسه إمارة الجليل . وكان أن اتفق تنكرد مع دايمبرت على عرض حكم

---

(1) Albert d'Aix : p. 526.

(2) Michaud : op. cit; II, p. 19.

(3) Stevenson: op. cit; p. 42.

بيت المقدس على بوهيموند بوصفه القوة الكبرى التى يمكنها الوقوف فى وجه بلدوين من ناحية ثم مساعدة دايمبرت من ناحية أخرى[١] . ويتضح من الرسالة التى بعث بها دايمبرت وتنكرد إلى بوهيموند أن الغرض منها كان استثارة الأخير، وأنه لو قدر لخطة دايمبرت النجاح لأدت إلى إثارة حرب أهلية بين الصليبيين فى بلاد الشام ، أعنى بين بلدوين أمير الرها من جانب و بوهيموند أمير أنطاكية من جانب آخر ، مما يؤدى بالصليبيين جميعاً فى الشرق إلى كارثة كبرى . وفى وسط تلك الأزمة ازداد وضوح الرأى الذى نادى به عقلاء الصليبيين ، وهو ضرورة قيام ملكية قوية فى بيت المقدس توحد بين صفوف الصليبيين من جهة وتحول دون فتك المسلمين أو البيزنطيين بهم من جهة أخرى [٢] .

ومهما يكن من أمر فإن حسن حظ الصليبيين شاء ألا تصل الرسالة التى بعث بها دايمبرت إلى بوهيموند ، إذ وقع حامل الرسالة قرب اللاذقية فى أيدى رجال ريموند الصنجيلى ، المنافس اللدود لبوهيموند[٣] . ولعلنا نذكر كيف أصر بوهيموند على حرمان ريموند من أى حق فى أنطاكية عقب سقوطها ، مما أثار شعور المرارة والكراهية فى قلب الأخير . حقيقة إن بوهيموند علم بالأحداث الجارية فى بيت المقدس عن طريق آخر ، ولكن ذلك كان فى الوقت الذى حلت به كارثة كبرى جعلته عاجزاً حتى عن مجرد الحركة . ذلك أنه حدث فى شهر يوليو سنة ١١٠٠ — أى فى الوقت الذى توفى جودفرى بوايون — أن كان بوهيموند فى طريقه إلى ملطية ليقدم النجدة لأميرها الأرمنى ضد الأتراك من أتباع الملك

(1) Guillaume de Tyr, p. 406.

(2) Richard : Le Royaume Latin, p. p. 62—63.

(3) Albert d'Aix, p. 524.

ويلاحظ أن ريموند نفسه لم يكن موجوداً عندئذ فى بلاد الشام ، وإنما كان متغيباً فى زيارة القسطنطينية . بناء على دعوة من الإمبراطور البيزنطى

(Runciman : op. cit, I, p. 318—319.)

غازى كمشتكين بن الدانشمند صاحب سيواس ، فوقع بوهيموند أسيراً فى قبضة كمشتكين ، ولم تفلح الجهود التى بذلها الصليبيون لإنقاذه[١] . وهكذا قدر لبوهيموند أن يظل أسيراً ثلاث سنوات فى قلعة نيكسار قرب شاطىء البحر الأسود [٢] ؛ مما ترك الطريق ممهداً أمام بلدوين ليصل إلى عرش بيت المقدس . والمعروف عن بلدوين أنه كان رجلا ذكياً طموحاً لا تفوته فرصة الدعوة التى وصلته من أنصاره فى بيت المقدس ، فصمم منذ اللحظة الأولى على أن يضع خدماته وجهوده و يسخر شخصيته الفذة فى خدمة دولة الصليبيين الناشئة فى فلسطين ، مما جعله من أعظم الشخصيات الصليبية التى شهـــدها بيت المقدس فى عصر الحروب الصليبية [٣] .

والواقع إن بلدوين امتلك من الشجاعة والقوة والإخلاص، ما كفل له النجاح والتغلب على خصومه[٤] . وتبدو لنا أخلاقه فى وضوح من تصرفه عندما سمع بما حل ببوهيمند على يد الملك غازى كمشتكين بن الدانشمند أمير سيواس التركمانى . ذلك أن بوهيمند عندما وقع فى الأسر أرسل رسالة سرية إلى بلدوين أمير الرها مستنجداً به، ومع الرسالة خصلة من شعره الذهبى لتكون دليلا على صدق الرسول . ولم يكد بلدوين يتأكد من صحة الخبر حتى أسرع على رأس عدد كبير من فرسانه فى اتجاه ملطية لإدراك كمشتكين وفك أسر بوهيموند.[٥] ولكنه لم يكد يصل إلى ملطية حتى كان التركمان قد أسرعوا بالانصراف عنها متجهين إلى سيواس ومنها إلى نيكسار قرب البحر الأسود . وكل ما استطاع بلدوين أن يفعله هو تخليص ملطية من التركمان ، وعندئذ أعلن أمير ملطية الأرمنى ولاءه وتبعيته لبلدوين الذى ترك

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Hist. Or. III, p. 589).

ويلاحظ أن ابن العديم ذكر أن بوهيموند وقع أسيراً فى معركة دارت بأرض مرعش .

(3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 304.

(4) Setton : op. cit; I, p. 381.

(5) Runciman : op. cit, I. p. 321.

بضعة مئات من فرسانه لحماية ملطية ، ثم عاد إلى إمارته فى الرها دون أن يستطيع أن يجازف بنفسه ويتبع التركمان فى عقر دارهم لإنقاذ بوهيموند(١).

على أن بلدوين لم يكد يستقر فى إمارته بالرها بعد عودته من الشمال حتى تلقى فى أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر سنة ١١٠٠ الرسالة التى بعث بها أنصاره فى بيت المقدس يخبرونه فيها بما كان من موت أخيه جودفرى ، ويطلبون منه الحضور على وجه السرعة لتسلم مقاليد الأمور فى المدينة المقدسة. وهنا أظهر بلدوين أسفه لموت أخيه اكثر من فرحه للاستيلاء على إرثه(٢). ولم يشأ بلدوين أن يضيع الفرصة التى أتاه القدر بها للفوز بحكم بيت المقدس ، فغادر الرها نحو المدينة المقدسة فى ٢ أكتوبر سنه ١١٠٠ بعد أن عهد بشئون الرها إلى قريبه بلدوين دى بورج ، وترك له قوة كبيرة من الفرسان والمشاة للدفاع عن الإمارة إذا هددها خطر(٣).

وهكذا ساعدت الظروف بلدوين على إتمام رحلته الموفقة إلى بيت المقدس ، إذ لو كان بوهيموند حراً طليقا ووصلته رسالة دايمبرت ، لسبب له كثيراً من المضايقات . ولكن الأمر لم يقف عند حد أسر بوهيموند ووقوع الرسالة فى يد رجال خصمه ريموند فحسب ، بل إن أهل أنطاكية من الصليبيين، حملوا لبلدوين جميلا كبيرا لمروءته ومحاولته فك أسر أميرهم(٤). لذلك لا عجب إذا استقبلت أنطاكية بلدوين — وهو فى طريقه إلى بيت المقدس — استقبالا حماسياً طيباً ؛ فقضى بها ثلاثة أيام ثم غادرها فى ١٢ أكتوبر متبعا طريق الساحل، فمر باللاذقية حيث التقى بالمندوب البابوى موريس دى بورتو Maurice de Porto الذى

(1) Albert d'Aix, p. p. 525—526.
(2) Foucher de Chartres (Hist. Occid. III), p. 373.
(3) Cam. Med. Hist, vol. 5, p. 301
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 208.

كان قد وصل إلى الشام منذ قريب. ويبدو أن بلدوين واجه بعد أن غادر اللاذقية بعض الأخطار من جانب سلاجقة دمشق الذين حاولوا قطع الطريق عليه ؛ ولكنه مر بسلام حتى وصل إلى مدينة طرابلس فى ٢١ أكتوبر بعد أن بلغ رجاله درجة خطيرة من الاعياء(١). وفى طرابلس أكرمه أميرها العربى أبو على ابن عمار ، وأمده ورجاله بما كانوا فى حاجة ماسة إليه من ميرة وغذاء وتعهد بأن يحيطه علما بتحركات عدوهما المشترك ، وهو دقاق ملك دمشق السلجوقى(٢). وليس هذا مجال الخوض فى العلاقات بين القوى الإسلامية ببلاد الشام فى ذلك الوقت، ولكن تكفى الإشارة إلى أن العداء الشديد استحكم عندئذ بين سلاجقة دمشق من ناحية وبنى عمار فى طرابلس من ناحية أخرى ، الأمر الذى دفع العرب فى طرابلس إلى السعى لمحالفة القوى الصليبية المجاورة للوقوف فى وجه سلاجقة دمشق(٣).

ومهما يكن من أمر ، فإن بلدوين استطاع أن ينجو من شباك دقاق ملك دمشق بفضل مساعدة ابن عمار . وكان دقاق قد خرج وبصحبته جناح الدولة أمير حمص العربى ، لاصطياد بلدوين عند مصب نهر الكلب فى مكان ضيق بين الجبال والبحر(٤). ولكن المعركة انتهت بهزيمة الدماشقة ونجاة بلدوين الذى غنم قدراً لا بأس به من الغنائم والأسلحة والخيول(٥). وهكذا استأنف بلدوين طريقه إلى بيت المقدس ، بعد أن أثرت هزيمة الدماشقة فى أمراء الموانى الفاطمية

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 407. & Albert d'Aix, p. 528.
(2) Estoire d'Eracles, I, p. 407. & Gesta Francorum, p. 520.
(3) Foucher de Chartres, p. p. 374—376.
(4) Guillaume de Tyr, p. 407.
(٥) يفهم من الإشارة الموجزة التى أوردها ابن الأثير عن تلك الموقعة أن دقاق هو الذى انتصر « على الفرنج » ؛ وهذا غير صحيح .
(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ) .

على الساحل — مثل بيروت وصيدا وصور وعكا — فقدموا لبلدوين ما احتاج إليه من زاد وميرة[1].

قيام مملكة بيت المقدس الصليبية

وأخيرا نجح بلدوين فى الوصول إلى حيفا ، وهى أول مدخل للصليبيين فى فلسطين . وقد سبق أن أوضحنا أن حيفا كانت تابعة لتنكرد ـ حليف دايمبرت ـ ولكن تنكرد كان لحسن الحظ متغيبا عندئذ فى بيت المقدس لمساعدة حليفه فى السيطرة على المدينة المقدسة . ولم يستطع أتباع تنكرد فى حيفا أن يمنعوا الزاد والتموين عن بلدوين أو معارضته — بوصفه على الأقل أميرا صليبيا فضلا عن أنه أخو سيدهم السابق جودفرى — فحصل بلدوين على مالزمه من زاد ، ثم اتجه إلى يافا ، أكبر ثغر للصليبيين عندئذ فى فلسطين [2]. ومن يافا اتجه بلدوين إلى بيت المقدس ، حتى إذا ما اقترب منها فى حوالى ١٠ نوفمبر سنة ١١٠٠ خرج المسيحيون من أهل المدينة — على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم — لاستقباله استقبالا رائعا ، بوصفه أخو جودفرى ووريثه ؛ بل لقد نادوا جميعاً به — داخل المدينة المقدسة ذاتها — ملكا وسيدا عليهم[3]

وهكذا لم يقدر للحكومة الثيوقراطية التى أراد البطرق دايمبرت إقامتها فى بيت المقدس أن تعيش أكثر من خمسة شهور ، إذ لم يستطع دايمبرت الوقوف أمام الرأى العام المسيحى ، واضطر إلى الانسحاب إلى كنيسة جبل صهيون[4]. وكانت ساعة الثأر قد حانت بالنسبة لأرنولف مالكورن — بطرق بيت المقدس

(1) Albert d'Aix, p. p. 528—530.
(2) Foucher de Chartres, p. 377.
(3) Guillaume de Tyr, p. 410.
(4) Idem p. 411.

السابق الذى عزله دايمبرت — فجمع حوله رجال الدين لتقديم كل مساعدة ممكنة لبلدوين . على أن بلدوين كان من الحرص بحيث لم يشأ أن يتعجل عزل دايمبرت من كرسى بيت المقدس ، وذلك خوفا من إحداث فتنة داخلية فى تلك الفترة الحساسة من تاريخ المملكة الوليدة ؛ وإنما اختار أن يقوم عندئذ بما أسماه المؤرخون نزهة حربية فى المناطق القريبة ، أى حول عسقلان والخليل وبيت لحم [1]. ذلك أنه خرج فى ١٥ نوفمبر على رأس مائة وخمسين فارساً وخمسمائة من المشاه ، فأدب العربان الذين دأبوا على تهديد طريق الحجاج إلى بيت المقدس ، كما أغار على بعض المراكز قرب البحر الميت . وأخيراً عاد إلى بيت المقدس فى ٢١ ديسمبر سنة ١١٠٠[2].

وعند عودة بلدوين إلى بيت المقدس تم الصلح والاتفاق بينه وبين دايمبرت وهنا نلاحظ أن دايمبرت كان رجلا له مكانته وأهميته بالنسبة للصليبيين فى الشام ؛ فقد رأينا أنه قبل مجيئه إلى الشرق كان رئيس أساقفه بيزا ، أى الزعيم الروحى لتلك المدينة الإيطالية صاحبة الدور الهام فى قصة الحروب الصليبية . ولم يكن فى استطاعة الصليبيين فى الشام أن يستغنوا مطلقا عن مساعدة الأسطول البيزى ، تلك القوة البحرية الضاربة التى كان فى وسعها الوقوف فى وجه السفن الفاطمية ومنعها من التردد على بيروت وصور وعكا وعسقلان وغيرها من الموانى التى ظلت بأيدى المسلمين فى الشام حتى ذلك الوقت[3]. هذه الاعتبارات وغيرها لم تغب مطلقا عن فكر بلدوين ، وهو الرجل الحصيف البعيد النظر ، فآثر منذ اللحظة الأولى أن يقف موقفا معتدلا بعيداً عن التطرف من دايمبرت ، مما جعل

(1) Albert d'Aix, p. p. 533—536.
(2) Stevenson : op. cit, p. p. 43—44.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 216.

الأخير يجنح تلقائيا نحو الاستسلام ويوافق على مبدأ تتويج بلدوين ملكا على بيت المقدس .

وكان أن تم ذلك التتويج فى يوم عيد الميلاد فى ديسمبر سنة ١١٠٠ فى كنيسة العذراء ببيت لحم ، فوضع دايمبرت التاج على رأس بلدوين ليكون أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية[١] . وبتتويج بلدوين تبددت جميع آمال دايمبرت ، وزالت نهائيا فكرة قيام حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس[٢] .

أما عن تنكرد ، فكانت وفاة جودفرى وما أعقب تلك الوفاة من أحداث بمثابة كارثة حلت به . ذلك أن تنكرد الذى جعله جودفرى أميرا على الجليل والذى استولى على حيفا بعد ذلك ، أصبح بدون شك الرجل الثانى فى دولة بيت المقدس . على أن ظهور بلدوين على مسرح الحوادث بعد وفاة أخيه جودفرى جاء فى حد ذاته طالعاسيئا بالنسبة لتنكرد ، بسبب الخلاف بين تنكرد وبلدوين ، وهو خلاف قديم يرجع إلى أيام التنافس بينهما حول الاستيلاء على قيليقية والمصيصة سنة ١٠٩٧ . ثم كان أن راهن تنكرد على الحصان الخاسر ، فحاول أن يشد أزر دايمبرت وأن يحول دون وصول بلدوين إلى بيت المقدس بمختلف الطرق ، ولكنه فشل فى كل ذلك ، وانتهى الأمر بقيام بلدوين ملكا على بيت المقدس[٣] . وهكذا صار من الصعب على تنكرد أن يصبح تابعا لبلدوين وأن يعلن ولاءه له بعد ما أظهره نحوه من ألوان العداء والخصومة الشديدة ؛ بل إنه رفض الحضور لمقابلة الملك الجديد عندما استدعاه أكثر من مرة لمقابلته فى يناير سنة ١١٠١[٤] .

(1) Stevensen : op cit, p. 44.
(2) Richard : Le Royaume Latin, p. 63.
(3) Setton : op. cit, I, p. 381.
(4) Runoiman : op. cit; I. p. 325.

وفى وسط تلك الأزمة المستحكمة بين بلدوين وتنكرد ، تلقى الأخير رسالة فى مارس سنة ١١٠١ من الصليبيين فى أنطاكيه يطلبون منه الحضور إليهم للقيام بالوصاية على إمارتهم أثناء أسر خاله بوهيموند . وكانت هذه الدعوة حلا ناجحا للموقف ، إذ رحب تنكرد بتلك الفرصة التى ستخلصه من موقفه الحرج مع بلدوين ، وفى الوقت نفسه ستمكنه من بسط سيادته على شمال الشام . ولم يلبث أن تم الصلح بين تنكرد وبلدوين ، فتنازل تنكرد للملك بيت المقدس عن الجليل وطبرية وحيفا ، بشرط واحد هو أن يسترد تلك المناطق مرة أخرى إذا عاد قبل انقضاء ثلاث سنوات وثلاثة أشهر . وهكذا غادر تنكرد فلسطين فى مارس سنة ١١٠١ ليباشر نشاطا من نوع آخر فى شمال الشام[١] .

(1) Albert d'Aix; p. p. 537—538.

الفصل الرابع عشر

بلدوين الأول والفاطميون

متاعب الصليبيين فى الشام :

أجمع المؤرخون على أن جودفرى بوايون كانت تنقصه صفات السياسى الناجح ، فدفعه العناد إلى الوقوع أحيانا فى خصومات عنيفة مع زملائه من أمراء الصليبيين ، وفى الوقت نفسه جعلته تقواه يرضخ للكنيسة أكثر مما ينبغى مما عرض دولة بيت المقدس الصليبية لخطر التصدع .

وعلى العكس منه كان أخوه بلدوين الأول الذى امتلك من الحصافة وبعد النظر والحكمة ، فضلا عن الشجاعة ما جعل منه حاكما ناجحا[1] . لذلك جاءت وفاة جودفرى وتتويج بلدوين ملكا على بيت المقدس بمثابة عملية إنقاذ للصليبيين ولدولتهم الوليدة . ومع ذلك فقد كان الطريق أمام بلدوين الأول طويلا وشاقا ، ولم تكن المهمة التى أمامه ـ وهى الخاصة بتدعيم أسس البناء الذى أقامه الصليبيون بالشام ـ بالأمر الهين ، بسبب الأزمات العديدة التى واجهت الصليبيين فى بداية القرن الثانى عشر[2] .

والواقع إن الأزمة الشديدة التى عاناها الصليبيون عندئذ فى بلاد الشام لم تكن بسبب قلة الطعام وندرة الزاد ، وإنما كانت فى حقيقة أمرها أزمة فى المقاتلين والرجال . ذلك أن الصليبيين لم يؤسسوا ما أسسوه من إمارات إلا بعد

(1) Cam. Med Hist. vol 5, p. 304.
(2) Runciman: op cit, II, p 3.

أن ضحوا بعدد كبير من رجالهم حتى أصيبوا بنقص خطير فى الفرسان ، فى الوقت الذى كان بقاؤهم يتوقف على القتال والحرب[1] . ولعل خير دليل على افتقار الصليبيين فى ذلك الدور الأول من تاريخهم بالشام إلى الرجال ، أنه حدث عندما أسر بوهيموند أمير أنطاكية ، أن أتباعه لم يجدوا بينهم فارسا يستطيع النهوض بعبء الدفاع عن الإمارة ، فاستنجدوا بابن أخته تنكرد الذى كان عليه أن يختار بين الجليل وأنطاكية . ولم يكد تنكرد ينتقل إلى أنطاكية حتى أصيب الصليبيون فى الجليل بخيبة أمل كبيرة وأحسوا أنهم حرموا من جهود رجل ، والرجال قليل[2] .

حقيقة إن الأساطيل الغربية الوافدة من إيطاليا وبروفانس وغيرها ، أخذت تجلب باستمرار حجاجا من الغرب ، ولكن هذه الأساطيل كثيرا ما تعرضت للإغارات البحرية الإسلامية بشمال إفريقيا ، فإذا وصل الحجاج سالمين إلى يافا ، فإنهم كانوا لا يسلمون فى كثير من الحالات من إغارات البدو فيما بين يافا وبيت المقدس ، بحيث لا يصل منهم فى النهاية إلى المستعمرات الصليبية إلا قلة قليلة[3] . فإذا أضفنا إلى ذلك اتساع مساحة الأراضى التى سيطر عليها الصليبيين بالشام ، أدركنا فى النهاية ، خطورة الوضع الذى أضحت فيه الإمارات الصليبية ، لأن عدد المدافعين كان لا يتناسب إطلاقا واتساع الممتلكات الصليبية[4] . هذا فى الوقت الذى كانت تلك الإمارات أشبه شىء بجزر منعزلة وسط محيط إسلامى مترامى الأطراف ، مما يجعلنا نقرر أن احتفاظ الصليبيين بكيانهم فى تلك الظروف لم يكن مرده إلى قوتهم بل إلى ضعف القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى وتفككها

(1) Stevenson : op cit; p. 39. n. 1.
(2) Setton : op. cit, I, p. 382.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 218—219.
(4) Grousset : L'Empire du Levant. p. p. 198—199.

وانقسامها على أنفسها(١) . ولو أقام المسلمون فى الشرق الأدنى — أو على الأقل فى العراق والشام ومصر — جبهة متحدة ، لاستطاعوا فى غير عناء كبير القضاء على تلك الجماعات الصليبية المتناثرة فى بلاد الشام وتطهير الوطن العربى منها قبل أن يستفحل خطرها .

وفى مثل تلك الظروف كان من المتعذر على بلدوين الأول ملك بيت المقدس أن يتبع طريقة الحرب المنظمة مع القوى الإسلامية المجاورة له ، كما كان من المستحيل أن يقيم حاميات قوية على أطراف دولته فى فلسطين؛ وإنما كان الطريق الوحيد أمامه هو أن يتبع أسلوب الحرب السريعة الخاطفة ، وأن يجعل من جيشه وحدة متحركة تنتقل بسرعة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب حسب الحاجة ، مكتفيا بإقامة نوع من المخافر الصغيرة على الحدود لمراقبة تحركات القوى الإسلامية المجاورة(٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الانتصارات السريعة الخاطفة التى حققها الصليبيون فى الشام على أيام جودفرى ، وانتصار بلدوين على دقاق ملك دمشق عند نهر الكلب ؛ حققت للصليبيين قسطا من المهابة فى نظر القوى الإسلامية المجاورة(٣) . ولم يكد يتم تتويج بلدوين الأول ملكا على بيت المقدس حتى قام بمهاجمة قبيلة عربية كبيرة كانت تعبر الأردن فى ربيع سنة ١١٠١ ، فقتل معظم رجالها وسيق النساء والأطفال أسرى مع الغنائم الوفيرة . وكان من جملة الأسرى زوجة أحد شيوخ القبيلة وهى على وشك الوضع ، فلما علم بلدوين بأمرها أطلق سراحها ومعها خادمتها وجملين وقدر من الزاد . ولم تلبث أن وضعت فى الطريق

---

(1) Runciman : op. cit; II, p 4—5.
(2) Guillaume de Tyr, I, p. p .414—415.
(3) Runciman : op. cit; II, p. 71.

وعادت إلى زوجها الذى سعى إلى بلدوين ليشكره ويرجو أن يرد له الجميل فى يوم من الأيام(١) . ويهمنا من هذه القصة الآن أن إغارة بلدوين على تلك القبيلة العربية وما فعله بأفرادها من قتل وأسر ، جاءت لتزيد من خطره فى نظر جيرانه المسلمين. ولم تلبث الموانى الساحلية فى فلسطين — وهى عسقلان وقيسارية وعكا وصور — أن أرسلت مندوبين عنها فى مارس سنة ١١٠١ إلى الملك بلدوين الأول ، تحمل إليه الهدايا والجزية ، وتطلب منه المهادنة لتتمكن من مباشرة نشاطها الاقتصادى والمتاجرة مع الفرنجة . وبذلك لم يبق سوى دقاق ملك دمشق السلجوقى الذى أوفد سفارة إلى بلدوين لشراء الأسرى الذين أسرهم بلدوين فى موقعة نهر الكلب ، وتم فعلا تسليم هؤلاء الأسرى لدقاق مقابل مبلغ كبير من المال(٢) .

استيلاء بلدوين الأول على أرسوف وقيسارية :

وضع بلدوين الأول عند تتويجه ملكا على بيت المقدس خطة استهدفت ضم جميع شاطىء فلسطين المواجه لمملكته ؛ وذلك لتأمين طريق الحجاج من ناحية ولتنشيط التجارة مع الغرب من ناحية أخرى ، مما يوفر للمملكة الصليبية كثيرا من أسباب القوة(٣) . وإذا كان تنفيذ تلك الخطة قد تطلب معاونة القوى البحرية الإيطالية ، فإن حسن حظ بلدوين أمده بأسطول جنوى وصل إلى حيفا عند منتصف مارس سنة ١١٠١ ، ومنها أبحر إلى يافا فى منتصف

---

(1) Guillaume de Tyr, p. 415.
(٢) ابن القلانسى : ص ١٣٦ — ١٣٧ .
Albert d'Aix, p. p. 541—542.
(3) Runciman : op. cit, II, p. 7.

الشهر التالى[1]. وكان أن افترص بلدوين تلك الفرصة المواتية فذهب إلى يافا لمقابلة الجنوية ، واصطحبهم معه إلى بيت المقدس ، حيث احتفلوا جميعا باحياء عيد الفصح، ثم بدأت المفاوضات حول الثمن الذى يرتضيه الجنوية لقاء مساعدتهم بلدوين على تحقيق غرضه . ولم يلبث أن تم الاتفاق بين الطرفين على أن يقدم الجنوية معونتهم البحرية مقابل حصولهم على ثلث الغنائم من المنقولات ، فضلا عن شارع من شوارع السوق فى كل مدينة يستولون عليها ليتخذونه مركزا يباشرون فيه نشاطهم التجارى[2] .

وقد اختار بلدوين أن يبدأ بمهاجمة أرسوف ، ذلك الميناء الذى ظل تابعا للدولة الفاطمية ، والذى لم يستطع الصليبيون الاستيلاء عليه من قبل بسبب افتقارهم إلى المساعدة البحرية. ولم تستطع أرسوف الصمود تلك المرة ، فاستسلمت فى أواخر أبريل سنة ١١٠١[3] . وبعد أن ترك بلدوين حامية فى أرسوف اتجه براً وبحذائه الأسطول الجنوى فى البحر قاصدا قيسارية . وكانت قيسارية أيضاً — من الناحية الاسمية على الأقل — تابعة للدولة الفاطمية ، ولكنها لم تستطع المقاومة طويلا فاستولى عليها الصليبيون « بالسيف » فى ١٧ مايو سنة ١١٠١[4] . وتشير المراجع الغربية إلى أن الصليبيين أحدثوا مذبحة وحشية فى قيسارية فقتلوا كثيرا من أهلها الأبرياء ، وأعقب ذلك توزيع الغنائم وفقا الاتفاقية المعقودة مع الجنوية[5] . وعندما احتمى بعض أهالى قيسارية بجامع المدينة لاحقهم الصليبيون وذبحوهم داخل الجامع عن آخرهم دون أن يفرقوا

(1) Cafaro: Liberatio Civit. Orientis (Hist Occid V), p. p. 60—61.

(2) Guillaume de Tyr. p. 419.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩ . & Cafaro, p. 62.

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٧ .

(5) Foucher de Chartres, 389—390

بين الرجال والنساء والأطفال ، حتى تحول الجامع إلى بركة كبيرة من دماء قتلى المسلمين[1] .

الحملة الفاطمية على الشام سنة ١١٠١ ؛ موقعة الرملة الأولى :

على أن استكانة الفاطميين ، والجمود الذى انتابهم عقب سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين لم يستمرا طويلا ، وإنما اختار الوزير الأفضل أن يرسل حملة كبيرة إلى فلسطين فى ربيع سنة ١١٠١ ، بقيادة المملوك سعد الدولة القواسى الذى كان حاكم بيروت من قبل[2] . وقد تجمعت هذه الحملة فى عسقلان ، التى صارت بمثابة مركز انطلاق جميع الحملات التى خرجت من مصر ضد الصليبيين فى تلك المرحلة . على أن الحملة المصرية أضاعت كثيراً من الوقت فى عسقلان ، فقضى الجيش الفاطمى عدة أشهر بلا عمل ، وربما فى انتظار إمدادات جديدة تأتيه من مصر؛ مما أتاح فرصة كافية لبلدوين استعد فيها وجمع قواته ووضع خطته[3]. وأخيرا تحركت الجيوش الفاطمية فى أوائل سبتمبر بعد أن وصلتها الإمدادات المطلوبة ، فاتجهت إلى منطقة الرملة حيث تستطيع تهديد كل من يافا وبيت المقدس.

وكانت الأخبار قد وصلت بلدوين بأن المسلمين لم يقصدوا مجرد إغارة محلية، وإنما استهدفوا الوصول إلى بيت المقدس ذاتها ، فأسرع إلى عقد مجلس حربى فى يافا فى أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ ، وتقرر فى ذلك المجلس أن يبدأ الصليبيون بمهاجمة المسلمين فوراً[4] . ومن المرجح أن يكون بلدوين قد أدرك خطر المهمة التى عليه أن يواجهها ، إذ كانت قوته محدودة لم تتجاوز مائتين وستين فارسا وتسعمائة من

(1) Albert d'Aix, p. p. 453—454.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(3) Stevenson : op. cit, p. p. 44—45.

(4) Runciman : op. cit; II, p. 74.

المشاة ، وهى قوة صغيرة بلا شك ، إذا قيست بأعداد الجيش الفاطمى الغفيرة من العرب والسودان [1] . ولكن بلدوين أخذ يشجع رجاله وذكرهم بأنهم إذا ماتوا فإنما سيلحقون بالشهداء والقديسين ، وإذا انتصروا فسيكونون قد أدوا خدمة للمسيح وكنيسته ليس بعدها خدمة [2] .

وهكذا تقدم الصليبيون يحملون صليب الصلبوت وعلى رأسهم بلدوين ورجال الدين ، حتى التقى الخصمان فى صباح ٧ سبتمبر فى السهل الواقع إلى الجنوب الغربى من مدينة الرملة . ولم يلبث أن تصدع الجيش الفاطمى الكبير فى تلك الموقعة . وانتصر الصليبيون بفضل تماسكهم ووحدة صفوفهم وإحكام خططهم . وقد قتل من المسلمين عدد كبير ، فى حين فر الباقون تجاه عسقلان بعد أن سقط قائد الحملة — سعد الدولة القواسى — صريعا فى المعركة [3] . واستمر الصليبيون يطاردون المسلمين حتى أسوار عسقلان ، فى حين عاد بلدوين لتوزيع الغنائم - وما أكثرها ؛ إذ ترك المسلمون خلفهم كل ما معهم من سلاح ومؤن وعدد وآلات (٧ سبتمبر سنة ١١٠١) « فملك الفرنج جميع ما للمسلمين » [4] .

ولم يكد بلدوين الأول يفرغ من تحقيق ذلك النصر الكبير ، حتى وصلته الأخبار بأن حملة صليبية خرجت من غرب أوربا فى طريقها إلى الأراضى المقدسة ، ولكن الأتراك السلاجقة قضوا عليها [5] . وقد وصلت فلول تلك الحملة وبعض

---

(1) Albert d'Aix, p. 549

(2) Foucher de Chartres, p. 392.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(4) Albert d'Aix, p. 553 & Guillaume de Tyr, p. 426.

وابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

ويلاحظ أن رواية أبى المحاسن عن هذه الموقعة غير صحيحة ، إذ يقول لان المسلمين ثبتوا « وحملوا على الفرنج فهزموهم إلى قيسارية ، ويقال لأنهم هزموا من الفرنج ثلاثمائة ألف ، ولم يقتل من المسلمين سوى مقدم عسكرهم سعد الدولة القواسى المذكور ونفر يسير » .

(النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٢) .

(5) Runciman, op. cit; I, p. 76.

أمرائها إلى أنطاكية ، ومنها إلى بيت المقدس للحج . وبعد أن احتفل أولئك الصليبيون بإحياء عيد الفصح (سنة ١١٠٢) شرع معظمهم فى العودة إلى غرب أوربا ، فى الوقت الذى كان الفاطميون يستعدون لإنفاذ حملتهم الثانية إلى فلسطين [1] .

الحملة الفاطمية الثانية سنة ١١٠٢ ؛ موقعة الرملة الثانية :

والواقع أن الوزير الأفضل لم يستطع صبرا على الهزيمة التى لحقت بجيوشه على أيدى الصليبيين ، فأسرع إلى إعداد حملة أخرى كبيرة من العرب والسودان ، واجتمعت هذه الحملة التى بلغت عشرين ألف رجل فى عسقلان فى منتصف مايو سنة ١١٠٢ ، تحت قيادة شرف المعالى ابن الوزير الأفضل [2] . وقد اتبعت هذه الحملة الطريق نفسه الذى اتبعته الحملة السابقة ، فاتجه الجيش الفاطمى من عسقلان إلى الرملة واللد ويازور ، ومن هناك اتجهوا من جديد لتهديد يافا وبيت المقدس .

وكان الملك بلدوين الأول قد اتخذ اهبته ، فحشد فى يافا بضعة آلاف من الصليبيين ، ولكن يبدو أنه اغتر بانتصاره السابق واستخف بأمر الفاطميين ، فخرج من بيت المقدس (١٧ مايو) فى قلة من الفرسان تبلغ مائتى فارس ، قاصدا الرملة [3] . وكان بلدوين يسير على رأس رجاله فى غير نظام فيما بين يازور والرملة ، عندما تعرضوا لهجوم المسلمين . وربما ظن المسلمون أن تلك الشرذمة من فرسان الصليبيين ليست إلا مقدمة لجيش صليبى كبير آت فى أعقاب الملك ، فاختاروا أن يباغتوا الملك ورجاله فورا قبل أن يلحق به بقية جيشه . ولم يكن فى استطاعة بلدوين وفرسانه الثبات أمام الجموع الإسلامية « فانهزم الفرنج وقتل

---

(1) Guillaume de Tyr, I, p. 428.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 230.

منهم مقتله عظيمة »[١]، وفر بعضهم إلى يافا، في حين لجـأت البقية الباقية ومن ضمنهم الملك بلدوين نفسه إلى الرملة (١٧ مايو سنة ١١٠٢)[٢].

والمعروف أن الرملة مدينة صغيرة ضعيفة التحصين ، كان في استطاعة المسلمين أن يستولوا عليها ويدخلوها في غير عناء ليقبضوا على غريمهم ملك بيت المقدس . ولـكن غروب الشمس وحلول الظلام جعلهم يؤجلون ذلك إلى الصباح التالى[٣] . وبينما بلدوين يقضى ليلته في الرملة لا يغمض له جفن في انتظار مصيره في الصباح التالى ، إذا بفـكرة الهروب في منتصف الليل تراود نفسه . ويقال إن الذى أوحى إليه بهذه الفـكرة وساعده في تنفيذها هو شيخ العرب الذى كان بلدوين في العام السابق قد أكرم زوجته الشابة وأطلق سراحها من الأسر ، فحفظ له الشيخ ذلك الجميل وأتى ليساعد بلدوين في محنته[٤] . ومهما يكن من أمر فالمهم هو أن بلدوين «تنكر وخرج منها إلى يافا» ، وكان فراره ليلا وبذلك استطاع أن يفلت من مطاردة الفاطميين الذين لاحقوه عندما سمعوا خبر فراره[٥] . أما الرملة فسقطت في يد الفاطميين في ١٩ مايو سنة ١١٠٢ ، فقتلوا معظم من فيها من فرسان الصليبيين الذين كانوا صحبة بلدوين[٦] . ويؤكد ابن الأثير أن المسلمين قتلوا داخل الرملة « أربع ماية صبرا وأرسل ثلثماية إلى مصر »[٧] .

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

(2) Albert d'Aix, p. 593.

ويذكر ابن الأثير في موضع آخر أن بلدوين كان في سبعمائة فارس ، ولم يكن في مائتى فارس كما ذكر المؤرخون الغربيون ، كما يذكر أنه عند ما حلت الهزيمة بالصليبيين اختفى بردويل في « أجمة قصب » فأحرقها المسلمون ولحقت النار بعض جسده ففر الى الرملة .
(الـكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ) .

(3) Setton : op. cit, vol. I, p. 365.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. 414—415.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩٥ هـ .

(6) Foucher de Chartres, p. 402.

(٧) ابن الأثير : الـكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

ولم تلبث الجيوش الفاطمية أن حاصرت يافا في الوقت الذى كانت مطاردة بلدوين تجرى على قدم وساق . وعندما سمع بلدوين — وهو في طريقه إلى يافا — خبر تعرض يافا لحصار المسلمين ، اتجه نحو أرسوف شمالى يافا (٢٩ مايو سنة ١١٠٢)[١] . وكانت فرحة الصليبيين في أرسوف بالغة عندما رأوا أمامهم بلدوين على قيد الحياة ، بعد أن انتشرت الشائعات بخبر مقتله . وسرعان ما بدأت عملية تجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الفاطميين ، في حين استطاع بلدوين أن يدخل يافا عن طريق البحر ، ولحقت به كثير من الإمدادات الصليبية[٢] . وشاءت الصدف أن تصل إلى ميناء يافا في أواخر شهر مايو مائتى سفينة ، تحمل عددا كبيراً من الجند والحجاج الانجليز ، وشقت هذه السفن طريقها إلى الميناء مخترقة حصار الأسطول الفاطمى ، وبذلك حصل بلدوين في يافا على ما كان يلزمه من معونة عاجلة[٣] . وفي ٢٧ مايو سنة ١١٠٢ خرج بلدوين من يافا على رأس قواته لمهاجمة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة ، وما هى إلا بضعة ساعات حتى نجح الصليبيون بفضل تنظيمهم في إنزال الهزيمة بالجـموع الفاطمية التى ولت الأدبار نحو عسقلان[٤] .

ويروى ابن الأثير أنه عندما سمع الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالى ، أسرع بإرسال حملتين ، إحداهما برية تحت قيادة المملوك تاج العجم وتألفت من

(1) Albert d'Aix, p. 595.

(2) Michaud · op. cit; II, p. 30.

(3) Runciman, op. cit, II. p. 79-80.

ويذكر ابن الأثير أن الخلاف دب بين أمراء الجيش الفاطمى عقب النصر الذى أحرزوه على الصليبيين في الرملة ، فرأى فريق منهم الاتجاه إلى يافا « فبينما هم في هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة البيت المقدس ، فبرز بهم بغدوين (بلدوين) للغزو ... » . (الـكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ) .

(4) Foucher de Chartres, p. p. 404—405 & Guillaume de Tyr, p. 435.

أربعة آلاف فارس ؛ والأخرى بحرية برآسة القاضى ابن قادوس[١] . ولكن الشىء الذى كان ينقص الفاطميين عندئذ لم يكن إعداد الرجال وإنما إحكام الخطط الحربية ؛ إذ رفض تاج العجم معاونة ابن قادوس وقال له « ما يمكننى أن أنزل إليك إلا بأمر الأفضل . ولم يحضر عنده ولا أعانه . فأرسل القادوسى إلى قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوما واستدعى تاج العجم فلم يأته ، ولا أرسل رجلا »[٢] .

وفى تلك الأثناء أرسل بلدوين الأول رسالة عاجلة إلى تنكرد الوصى على أنطاكية وإلى بلدوين دى بورج أمير الرها الجديد يطلب منهما إمداده بنجدة سريعة[٣] . ولم تلبث هذه النجدة التى بلغت خمسمائة من الفرسان وألف من المشاه أن وصلت يافا فى سبتمبر سنة ١١٠٢ ، وعلى رأسها أميرا أنطاكية والرها[٤] . وكان من الممكن أن يصبح لتلك التجمعات الصليبية شأن كبير لو أن الفاطميين ثبتوا فى القتال فى معركة فاصلة ضد الصليبيين ؛ ولكن الجيوش الفاطمية عقب هزيمتها أمام يافا آثرت الانسحاب — وفى أعقابها الصليبيون — حتى عسقلان. وفى وسط تلك الأزمة طلب الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المساعدة ضد الصليبيين ، ولكن دقاق « اعتذر عن ذلك ولم يحضر »[٥] .

على أن اجتماع تنكرد وبلدوين دى بورج مع الملك بلدوين الأول أثار عدة مشاكل حساسة محورها تحديد العلاقة بالضبط بين إمارتى أنطاكية والرها من ناحية ومملكة بيت المقدس الصليبية من ناحية أخرى . على أنه يبدو أن أهم

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(٢) المرجع السابق

(3) Stevenson : op. cit; I. p. 46.

(4) Albert d'Aix. p. p. 597 & Raoul de Caen, p. 707 & (Rec. Hist. Or,p. 464).

(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر سنة ٤٩٦ هـ
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

مسألة أثيرت فى تلك المناسبة ، كانت رغبة الملك بلدوين فى التخلص من دايمبرت بطرق بيت المقدس الذى توج بلدوين مكرها والذى أحاطت الشبهات تصرفاته وسلوكه . وقد أرسل البابا باسكال الثانى مندوبا إلى بيت المقدس للتحقيق فى ذلك الموضوع ، وعندئذ أوضح بلدوين للمندوب البابوى سوء تصرفات دايمبرت وتآمره ضد الملك وجشعه . وجاءت هذه الاتهامات مقرونة بالأدلة الدافعة ، مما جعل المندوب البابوى يصدر حكمه باعفاء دايمبرت من منصبه ، فغادر دايمبرت بيت المقدس إلى أنطاكية ، حيث عهد إليه تنكرد برعاية كنيسة القديس جورج (جرجس) فى المدينة سنة ١١٠٢[١] .

على أن تنكرد انتهز فرصة حضوره إلى مملكة بيت المقدس فى العام نفسه لنجدة الملك بلدوين من جديد ، وأحضر معه دايمبرت ليطالب باعادته إلى بطرقية بيت المقدس ، كشرط أساسى لاعترافه بالولاء لملك بيت المقدس . وقد عارض بلدوين ذلك الطلب ، حتى انتهى الأمر بعقد مجمع دينى فى بيت المقدس أقر عدم صلاحية دايمبرت لشغل تلك الوظيفة الدينية[٢] . ولم يلبث أن عاد دايمبرت إلى إيطاليا سنة ١١٠٤ حيث حاول أن يحصل على تأييد البابوية لإعادته إلى كرسى بيت المقدس ، ولكنه توفى فى يونيه سنة ١١٠٧[٣] .

أما تنكرد وبلدوين دى بورج فقد استاءا لعدم تلبية رغبتهما الخاصة باعادة دايمبرت إلى كرسيه البطرقى ، وانسحبا إلى إمارتيهما فى الشمال (حوالى ١٠ أكتوبر سنة ١١٠٢) ، دون أن يعترفا بالتبعية للملك بلدوين .

(1) Runciman, op. cit, II, p. 81—82.

(2) Richard : Le Royaume Latin, p. 94.

(3) Albert d'Aix, p. p. 598—600.

بلدوين الأول وفتح عكا :

من الملاحظ فى تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية أنها ظلت دائما تشعر بحاجة ملحة إلى ربط نفسها بالبحر ربطا قويا ، وإلى تأمين اتصالها بالشاطىء تأمينا ثابتا ؛ لأن البحر بالنسبة لها كان بمثابة الرئة التى تتنفس بها تلك المملكة والشريان الذى ربطها بقلب العالم الغربى وتمزود عن طريقه بما تحتاج إليه من إمدادات بشرية ومادية . لذلك لم تقنع مملكة بيت المقدس بالموانى المحدودة التى استولت عليها من المسلمين حتى ذلك الوقت ، وهى يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا ؛ وظلت تطمع فى الاستيلاء على بقية موانى فلسطين العربية مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت ، وكلها كانت تابعة للفاطميين [١] . حقيقة إن سيطرة الفاطميين على هذه الموانى صارت شكلية ، ولكن من يدرى ، فربما أصبحت سيطرتهم فعلية فى المستقبل القريب، وعندئذ يمكن أن يستغلها المسلمون فى طعن مملكة بيت المقدس الصليبية فى الصميم عن طريق قطع الشريان الذى يربطها بالغرب الأوربى . ومثال ذلك ماحدث فى شتاء سنة ١١٠٢ عندما جنحت بضعة سفن تحمل حجاجا عائدين إلى الغرب الأوربى على شاطىء الشام ، فأسرت السلطات الفاطمية فى صيدا وعكا وعسقلان من بها من حجاج ، وبيع معظمهم فى أسواق الرقيق بالقاهرة [٢] .

وكان أن شرع الملك بلدوين الأول فى ربيع سنة ١١٠٣ يحاصر عكا لأول مرة « وضيق عليها وكاد يأخذها » . ولكن عكا — كما هو معروف عنها فى جميع عصور التاريخ — من أحصن موانى الشام . ولم تلبث أن وصلتها

(1) Grousset : Hist des Croisades, I, p. 239.
(2) Albert d'Aix, p. p 600—601.

« النجدات من سائر السواحل » ، وجاءت إليها السفن الفاطمية من صور وصيدا ، وعندئذ أدرك الملك بلدوين أن الاستيلاء على عكا لن يتم فى سهولة ، فرفع الحصار عنها وعاد من حيث أتى [١] . ومن الواضح أن عجز بلدوين الأول أمام عكا فى تلك المرة إنما يرجع إلى عدم وجود قوة بحرية تسنده وتشد أزر قواته البرية . وقد ظهرت الحاجة إلى القوة البحرية مرة أخرى عندما أرسل الوزير الأفضل حملته البرية البحرية — التى سبقت الإشارة إليها — ضد يافا فى أغسطس سنة ١١٠٣ . ولكن الخلاف بين القائدين الفاطميين أدى إلى فشل الحملة كما أوضحنا ، ثم لم يلبث أن أدى وصول الملك بلدوين الأول إليها فى أكتوبر سنة ١١٠٣ إلى رفع الحصار البحرى عنها [٢] .

وأخيرا أتيحت الفرصة لبلدوين الأول فى أوائل مارس سنة ١١٠٤ ، عندما وصلت إلى اللاذقية عمارة جنوية تألفت من عدد كبير من السفن ، مما ضمن للصليبيين سيادة فعلية على شواطىء الشام [٣] . وكان ذلك الأسطول الجنوى قد وصل إلى اللاذقية يحمل كثيراً من « التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك » فاستعان به ريموند الصنجيلى فى القيام بهجوم فاشل على طرابلس « فلم يروا فيها مطمعاً » ؛ وعندئذ انتقل الصليبيون إلى جبيل وحاصروها وقاتلوها حتى طلب أهلها الأمان وسلموا . ولم يف الصليبيون بالأمان والعهد فاعتدوا على أهل جبيل « وأخذوا أموالهم واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب » [٤] . ولم يكد الأسطول الجنوى يفرغ من مهمته فى جبيل حتى استعان به الملك بلدوين الأول

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ . &
Foucher de Chartres, p. 406.
(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ . &
Albert d'Aix, p. p. 603—604.
(3) Heyd : op. cit, I, p. 139.
(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٧ هـ . &
Runciman, II, p. 60.

فى مهاجمة عكا فى أواخر مايو سنة ١١٠٤ . وقد دافع عن عكا حاكمها الفاطمى زهر الدولة الجيوشى [١] ، الذى « قاتل حتى عجز » ولكنه لم يقو على مقاومة الحصار المحكم الذى فرضه الصليبيون على عكا من ناحيتى البر والبحر ، فاضطر إلى التسليم « وملك الفرنج البلد بالسيف قهراً [٢] . » وتذكر المراجع الصليبية أن الجنوية نقضوا العهد الذى أعطاه بلدوين لأهل المدينة ، فاعتدوا على أرواح السكان وممتلكاتهم مما أثار غضب الملك بلدوين ونقمته [٣] .

ومهما يكن من أمر ، فإن سقوط عكا جعل للصليبيين السيادة على شواطىء فلسطين ، بعد أن حرم الأسطول الفاطمى من أهم قواعده بالشام . أما الجنوية فكان بلدوين قد وعدهم بإعطائهم ثلث عكا ليكون حيا تجاريا لهم ، وفعلا نفذ وعده كما منحهم ثلث قيسارية وأرسوف أيضاً [٤] . أما عن المسلمين فإن خسارتهم فى عكا كانت فادحة ، ويبدو ذلك فيما أظهره المؤرخون المسلمون من أسف عميق لعجز الفاطميين عن حماية موانى الشام التى أخذت تتساقط واحد بعد آخر فى أيدى الصليبيين . من ذلك ما يقوله أبو المحاسن عن الخليفة الآمر الفاطمى كان « يتناهى فى العظمة ويتقاعد عن الجهاد ... وكان فيه تهاون فى أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها فى أيامه ... ولم ينهض لقتال الفرنج البتة وإن كان أرسل مع الأسطول عسكر فهو كلا شىء ..!! » [٥] .

---

(١) اسمه بنا ، ويعرف بزهر الدولة الجيوشى نسبة إلى ملك الجيوش الأفضل .

(٢) هذه رواية ابن الأثير (الكامل ، سنة ٤٩٧ هـ) . وتذكر بقية الروايات ان الجيوشى طلب الأمان وأنه أجيب إلى طلبه . ولكن يلاحظ أن رواية المؤرخ أبى المحاسن تختلف عن الرواية السابقة التى أجمع عليها المؤرخون الغربيون ؛ إذ يذكر أبو المحاسن أن الجيوشى « طلب الأمان له والمسلمين فلم يعطوه لما علموا من أهل مصر أنهم لم ينجدوه » . (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٨) .

(3) Albert d'Aix, p. 606–607.

(4) Guillaume de Tyr, I, p. p. 445.

(٥) أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٨ .

الحملة الفاطمية سنة ١١٠٥ ، موقعة الرملة الثالثة :

وفى تلك الأثناء لم يتخل الوزير الأفضل عن فكرة إرسال حملة كبيرة لطرد الصليبيين من الشام . وكان أن قام بمحاولة أخيرة فى هذا الصدد فى صيف ١١٠٥ لجمع فى عسقلان جيشا كبيرا بلغ خمسة آلاف جندى من المصريين والسودان فضلا عن الفرسان العرب ، ووضع ذلك الجيش تحت إمرة أحد أبنائه وهو سناء الملك حسين [١] . وفى الوقت نفسه استعد الأسطول الفاطمى لمساندة الجيش من ناحية البحر . ولم يتردد الوزير الأفضل فى طلب المساعدة من سلاجقة دمشق السنيين على الرغم من الخصومة المذهبية بينهم وبين الفاطميين الشيعة ؛ فعرض على طغتكين — الذى آلت إليه السلطة فى دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدولة تتش فى صيف سنة ١١٠٤ — أن يساعده فى قتال العدو المشترك . وفعلا استجاب طغتكين لنداء الفاطميين ، فأرسل إليهم أحد رجاله — واسمه « اصبهبد صباوا » — ومعه ألف وثلثمائة فارس ؛ وربما كانت هذه أول محاولة عملية يشترك فيها المسلمون فى مصر والشام ضد الصليبيين [٢] .

وعندما علم بلدوين الأول بتلك الأحداث ترك يافا وخرج على رأس جيشه إلى الرملة حيث يستطيع من ذلك المكان حماية يافا من ناحية وبيت المقدس من ناحية أخرى . وسرعان ما اجتمع حول بلدوين أفصاله من أمراء الصليبيين ومعهم جيوشهم ، فضلا عن أرتاش (بكتاش) ابن تاج الدولة تتش الكبير المطالب بملك دمشق [٣] والذى رافق بلدوين لمساعدته ومعه مائة من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٣) توفى دقاق ملك دمشق فى يونيه سنة ١١٠٤ ، فآلت السلطة الفعلية إلى الأتابك طغتكين الذى اختار ألا يكشف عن مطامعه ، فأعلن قيام تتش الصغير ابن دقاق ، مع أن تتش =

رجاله. ولم يكد إرمار بطرق بيت المقدس يأتى ومعه صليب الصلبوت وعدد من الرجال فى ٢٧ أغسطس، حتى دارت المعركة المنتظرة مع المسلمين. وقد انتهت تلك المعركة بتمزيق القوات الفاطمية شر ممزق، وفرار الدماشقة الذين أرسلهم طغتكين، وقتل كثير من أمراء الجيش من ضمنهم جمال الملك أمير عسقلان. هذا مع ملاحظة أن خسائر الصليبيين أيضاً كانت عظيمة فى تلك الموقعة، فقتل منهم كثيرون على رأسهم قائد قوات أرسوف وقائد قوات عكا. وقد عبر ابن الأثير تعبيراً دقيقاً عن نتيجة تلك الموقعة بقوله أنه « لم تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى، فقتل من المسلمين ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم[1] ». أما الأسطول الفاطمى فقد قفل راجعاً إلى صور وصيدا وطرابلس، ولكنه تعرض بعد ذلك أثناء عودته إلى مصر لعاصفة هوجاء قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه على الموانى الصليبية، فأسرها الصليبيون[2].

والواقع إن حملة الفاطميين سنة ١١٠٥ كانت آخر محاولة كبرى قام بها الفاطميون ضد الصليبيين فى تلك الفترة، هذا وإن ظل الفاطميون يهددون الصليبيين بين حين وآخر ولكن فى نطاق محدود. وكان مركز الهجمات الفاطمية دائماً مدينة عسقلان. ومن هذا المركز أغارت القوات الفاطمية سنة ١١٠٦ على قافلة من الحجاج الصليبيين بين يافا وأرسوف، كما أغارت سنة ١١٠٧

= كان فى العام الأول من عمره. وبعد قليل خلع طغتكين الطفل تتش وأحل محله عمه أرتاش أو بكتاش، وهو أخو دقاق ولم يتجاوز عمره الثانية عشرة. على أن أرتاش خشى خطر طغتكين ففر من دمشق إلى حوران ومنها لجأ إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس طالباً حمايته. وبعد أن اشترك أرتاش فى مساعدة بلدوين فى موقعة الرملة الثالثة سنة ١١٠٥، تخلى بلدوين عن مساعدته فانسحب أرتاش إلى الرحبة على الفرات. انظر:

(ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨ — ١٤٩ هـ. &

(Runciman: op. cit, II, p. 89.

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٩ هـ. &

Gesta Francorum, p. 541.

(2) Foucher de Chartres, p. 414.

على الخليل؛ بل إن الفاطميين وصلوا سنة ١١١٠ إلى أسوار بيت المقدس ذاتها[1].

أمراء الجليل وحرب المسلمين:

وبينما الملك بلدوين الأول يواصل نشاطه وجهوده فى المنطقة الساحلية، ظل فصله هيو فالكنبرج – خليفة تنكرد فى حكم طبرية – يعمل على توسيع إمارته فى الجليل على حساب المسلمين، وذلك بالتوسع فى الشمال الغربى تجاه صور وفى الشمال الشرقى فى إقليم السواد. وكان هدفه الأول جهة البحر الاستيلاء على صور من الفاطميين، ولتحقيق هذا الغرض شيد حصن تبنين فى مواجهة ساحل صور، وهو الحصن الذى صار له شأن كبير فى تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية[2]. أما فى الجهة الشرقية من بحيرة طبرية، فقد دأب هيو على القيام باغارات فى إقليم السواد – سواد طبرية – التابع لدمشق، فشيد هناك حصن عال على بعض المرتفعات الواقعة إلى الجنوب الغربى من البحيرة.

وقد تم بناء هذين الحصنين – تبنين وعال – فى خريف سنة ١١٠٥، الأمر الذى أزعج طغتكين صاحب دمشق، لأنه رأى فى ذلك تهديداً خطيراً لبلاده[3]. وكان أن انقضت جيوش دمشق على هيو حاكم الجليل فى نهاية سنة ١١٠٥ أثناء عودته محملا بالغنائم من إحدى إغاراته على المسلمين، فأصيب هيو بجرح خطير مات بسببه، وتشتت رجاله[4]. ولم يصعب بعد ذلك على طغتكين الاستيلاء على حصن عال « بما فيه من آلات وغيرها »، فى حين عين بلدوين فارسا فرنسيا

---

(1) Runciman: op. cit; II, p. p. 90—91.

(٢) ابن القلانسى، ص ١٥١. &

Guillaume de Tyr, p. 459.

(٣) ابن القلانسى، ص ١٤٩؛ وقد أطلق ابن القلانسى على حصن عال اسم «علمال».

(٤) ابن الجوزى : مرآة الزمان سنة ٤٩٩ هـ. (p. 530).

اسمه جرفيه Gervais (جرفاش) ليكون أميراً على الجليل[١] .

وسرعان ما استغل المسلمون فى عسقلان وصور وصيدا و بيروت فرصة انشغال بلدوين الأول بأمور الجليل للقيام باغارة على طريق يافا ــ بيت المقدس. وكان أن خرج سبعة آلاف فارس من الحاميات الفاطمية فى تلك المدن فى ٩ اكتوبر سنة ١١٠٦ إلى سهل نهر العوجة ــ بين أرسوف ويافا ــ وقتلوا قرابة خمسمائة من حجاج الصليبيين كانوا مجتمعين هناك . وبعد ذلك أوغل المسلمون حتى الرملة وقتلوا قوة استطلاعية من بعض الفرسان أرسلهم حاكم يافا الصليبى[٢]. وقد استمرت تلك القوة الإسلامية تواصل نشاطها ضد الصليبيين فيما بين يافا وبيت المقدس ، حتى إذا ما أحس المسلمون بأن الملك بلدوين فى طريقه إليهم ، انسحبوا إلى مدنهم الساحلية وتحصنوا فيها . وقد أراد بلدوين أن ينتقم من المسلمين بمهاجمة عسقلان ، ولكنه عدل عن ذلك مؤقتا لعدم وجود سفن كافية تسانده من ناحية البحر[٣] .

وهكذا وجدت مملكة بيت القدس الصليبية نفسها بين نارين ، أمام هجمات الدماشقة من ناحية الشمال وهجمات الفاطميين من ناحية الجنوب . فى الوقت الذى أخذ طفتكين أتابك دمشق يهاجم إقليم طبرية ، أخذ صاحب صور يشن هجمات عنيفة ضد حصن تبنين[٤]. ولم يلبث طفتكين أن نصب كميناً للصليبيين فى أوائل مايو سنة ١١٠٨ فى الجبال القريبة من طبرية ؛ ففقد الصليبيون كثيراً من الضحايا فى ذلك الكمين ، ووقع جرفيه (جرفاش) أمير الجليل ــ « وهو من مقدمى الإفرنج المشهورين بالفروسية والشجاعة» ــ أسيرا فى أيدى

(1) Albert d'Aix, p. 635. & ابن القلانسى ص ١٤٩ هـ .
(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 247—248.
(3) Albert d'Aix, p. p 635–638.
(4) Setton : op. cit; vol. I, p. 386.

المسلمين ، فحملوه إلى دمشق مقيدا بالسلاسل[١]. وقد أبدى طفتكين استعداده لإطلاق سراح جرفيه مقابل ثمن باهظ هو جلاء الصليبيين عن طبرية وعكا وحيفا . ولكن الملك بلدوين الأول رد عليه بأنه غير مستعد للتنازل عن هذه المدن الثلاث حتى ولو كان الأسرى المطلوب إطلاق سراحهم هم جميع أهل بيته وجميع زعماء الفرنجة . وكان أن أمر طفتكين بقتل جرفيه[٢] .

على أن طفتكين لم يلبث أن وجد نفسه فى نزاع مع عدد من جيرانه المسلمين ، ففكر فى عقد هدنة مع بلدوين الأول ، فى الوقت الذى كان الأخير لا يرجو أكثر من مسالمة الدماشقة ليتفرغ للخطر المستمر الذى هدد يافا والرملة من جانب الفاطميين . لذلك أرسل طفتكين سفارة من خمسة رجال إلى بلدوين ليعقد هذه الهدنة ، فاستقبلهم بلدوين استقبالا حسنا . وقد تحدث كل من أبى المحاسن وابن الأثير عن هذه الهدنة فذكرا أنها كانت لبضع سنوات ، وأن الطرفين اتفقا فيها على اقتسام السواد وجبل عوف ، بحيث يكون ثلث دخلها للفرنجة والثلث الثانى لسلاجقة دمشق والثلث الأخير للفلاحين العرب[٣]. ويصف ابن الأثير مدى أهمية هذه الهدنة للمسلمين ، إذ لولاها « لكان الفرنج بلغوا من المسلمين بعد الهزيمة الآتى ذكرها أمرا عظيما ...»[٤]

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان .(p. 536) & ابن القلانسى ؛ ص ١٦١ &
Albert d'Aix, p. 657.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١ — ١٦٢ &
Guibert de Nogent, p 259.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ ؟
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٠ . &
Stevenson : op. cit, p, 50.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٢ هـ .

استيلاء الصليبيين على بيروت وصيدا :

وطوال تلك الأثناء لم يتخل بلدوين مطلقا عن فكرة الاستيلاء على بقية المدن الساحلية التى ما زالت بأيدى الفاطميين ، وهى عسقلان فى الجنوب وصور وصيدا وبيروت فى الشمال . وقد أدرك بلدوين أن عسقلان وصور على جانب كبير من المناعة والقوة ، وأنه ليس من السهل الاستيلاء عليها دون استعدادات كبيرة . لذلك اختار أن يبدأ بمهاجمة صيدا فى ربيع سنة ١١٠٦ مستغلا فرصة وجود عدد كبير من الحجاج الانجليز والفلمنكيين والدانيين عندئذ فى بيت المقدس ليساعدوه فى ذلك الأمر . وعندما علم حاكم صيدا بذلك أسرع بإرسال مبلغ كبير من المال إلى بلدوين لشراء مسالمته ، فقبل بلدوين الثمن وكف يده عن صيدا مدة عامين[1] .

ثم كان أن وصل إلى شواطىء فلسطين فى أغسطس سنة ١١٠٨ عدد كبير من السفن الوافدة من بيزا وجنوا والبندقية وأمالفى ، فأراد بلدوين الأول أن يستغل تلك القوة فى الاستيلاء على صيدا من الفاطميين ، وشرع فعلا فى حصارها برا وبحرا ، وقد بدأ الصليبيون عملياتهم الحربية الأولى ضد صيدا بنجاح ، ولكن لم يلبث أن تغير مجرى الأمور عندما وصلت إلى مياه صيدا عمارة بحرية فاطمية كبيرة استطاعت أن تنزل الهزيمة بالسفن الإيطالية[2] . وكان ذلك فى الوقت الذى طلب حاكم صيدا من طفتكين إمداده بقوة برية تساعده على دفع الصليبيين مقابل تعهده بدفع مبلغ كبير من المال ، فلبى طفتكين النداء وأرسل له نجدة كبيرة قدرها المؤرخون بخمسة عشر ألف مقاتل . وهنا أدرك بلدوين أن العملية فاشلة ، فآثر الانسحاب ومعه قواته إلى عكا . ولم يكد ينسحب بلدوين حتى امتنع أهل صيدا عن دفع المبلغ الذى تعهدوا بدفعه لحاكم دمشق ، بل لقد رفضوا أن يسمحوا للدماشقة بدخول المدينة خوفا من أن تكون هناك مؤامرة دبرها

(1) Albert d'Aix, p. p. 632—634.
(2) Grousset : Hist. des Croisades. I, p. 253.

طفتكين للاستيلاء على صيدا . وعندما هدد سلاجقة دمشق باستدعاء بلدوين لمهاجمة صيدا ، رضخ صاحبها ودفع مبلغا يقرب من ثلث الثمن المتفق عليه[1] .

وفى صيف سنة ١١٠٩ اتجه بلدوين لمساعدة برتراند — ابن ريموند الصنجيلى — فى جهوده للاستيلاء على طرابلس ، فسقطت هذه المدينة فى ١٢ يوليو فى أيدى برتراند مما أدى إلى مولد إمارة طرابلس الصليبية ، كما سيلى فيما بعد . ونكتفى الآن بالإشارة إلى أن برتراند بن ريموند أراد أن يعترف بالجميل لبلدوين الأول ، فساعده فى العام التالى فى الاستيلاء على بيروت[2] . وقد استمر حصار بيروت عدة أشهر — من فبراير حتى مايو سنة ١١١٠ — وعبثا حاول الفاطميون خلال تلك المدة إرسال نجدات إلى بيروت عن طريق البحر . وعندما يئس صاحب بيروت من وصول مساعدات إليه ، فر فى سفينته ليلا إلى قبرس ، فاضطر أهل بيروت إلى التسليم لبلدوين بعد أن حصلوا على وعد منه بالأمان[3] . ومع ذلك فإن الجنوية والبيازنة أحدثوا مذبحة رهيبة فى أهل بيروت المسلمين ، ولم يستطع الملك بلدوين استعادة الأمن والسلام إلا فى صعوبة بالغة[4] .

ولم يلبث أن وصل عكا فى صيف سنة ١١١٠ أسطول من الحجاج النرويجيين تحت زعامة سيجورد Sigurd ملك النرويج ، فرحب بلدوين الأول بالملك النرويجى ورجاله أجمل ترحيب ؛ ثم رأى — كعادته — أن يستغل تلك القوة فى تحقيق مكاسب جديدة لمملكة بيت المقدس ، وليتجه الصليبيون تلك المرة ضد صيدا التى فشلوا من قبل فى الاستيلاء عليها . وعندما أخذ النرويجيون يحاصرون صيدا بحرا فى الوقت الذى كان بلدوين الأول يحاصرها برا (أكتوبر

(١) ابن القلانسى ، ص ١٦٢ & Albert d'Aix : p. 654—655.
(2) Michaud : op. cit, I, p. 40—44.
(3) Foucher de Chartres p. 421 & Albert d'Aix, p. 671.
(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ — ١٦٨ .

١١١٠) ، شاء حسن حظ الصليبيين أن يأتى إلى الشام أسطول بندقى كبير تحت زعامة دوج البندقية نفسه ، فاشترك مع الأسطول النرويجى فى حصار صيدا ومهاجمتها من ناحية البحر [1]. وهكذا أدرك قاضى صيدا وشيوخها أنه لا أمل فى النجاة إلا بالتسليم فطلبوا الأمان (٤ ديسمبر ١١١٠) وعندئذ أمنهم بلدوين، وسمح للقاضى ومعه عدد كبير من الأهالى بالخروج إلى دمشق « وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان »[٢]. وبعد ذلك عاد النرويجيون إلى بلادهم ، فى حين أنعم بلدوين على البنادقة بامتيازات كبيرة فى عكا[٣].

أطماع بلدوين الأول فى عسقلان وصور :

أما مدينة عسقلان — وهى القاعدة الحربية الرئيسية للفاطميين فى فلسطين — فقد أوشكت هى الأخرى أن تدخل تحت حماية الفرنجة . ذلك أن حاكم عسقلان ـ شمس الخلافة ـ أرسل إلى بلدوين الأول « مالا وعروضا » طالبا منه عقد اتفاقية دفاعية بين الطرفين ، مع استعداده لدفع الجزية للصليبيين[٤]. وقد انزعج الوزير الأفضل لتلك الأخبار ، لأن عسقلان بالذات مفتاح فلسطين ، فأرسل حملة تحت ستار محاربة الصليبيين ولكنه أعطى تعليمات سرية لقائد الحملة لكى يعزل شمس الخلافة ويحل محله فى حكم المدينة[٥]. على أن شمس الخلافة أوجس خيفة من تلك الحملة ، فرفض أن يفتح لها أبواب عسقلان ، كما رفض أن يخرج لمقابلة قائد الحملة ، فعادت أدراجها إلى القاهرة . ويروى ابن الأثير أن

(1) Heyd : op. cit, I, p 142.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٤ هـ & Guillaume de Tyr, p. 478.

(3) Heyd : op. cit; I, p. 142.

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٥) ابن القلانسى ؛ ص ١٧٢ & Albert d'Aix p.p. 679—680.

شمس الخلافة أخذ يتشكك فيمن حوله من العرب « فأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جنداً »[١]؛ الأمر الذى أساء إلى شعور أهل عسقلان فثاروا على شمس الخلافة وقتلوه ونهبوا داره ، كما قتلوا عدداً كبيراً ممن بالمدينة من الفرنج فى يوليو سنة ١١١١ ؛ وفى الحال أرسلت القاهرة حامية قوية أعادت الأمور إلى نصابها[٢].

وعندما سمع بلدوين بخبر تلك الثورة ضد شمس الخلافة ، أسرع إلى عسقلان ، ولكن بعد أن كان كل شىء قد انتهى ، فلم يسعه سوى العودة « وبذلك قدر لعسقلان أن تظل أربعين سنة أخرى شوكة فى حلق الصليبيين »[٣].

أما مدينة صور فكانت — مثل عسقلان — من المدن التى استعصت على بلدوين الأول لأنها اعتمدت دائماً على الخلافة الفاطمية وتلقت منها الإمدادات ولكن أهل صور لم يلبثوا أن أحسوا بحرج موقفهم أمام الإغارات الصليبية المتكررة من ناحية، وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم فى كثير من الحالات من ناحية أخرى ، ولذلك اتجهوا نحو طغتكين أتابك دمشق طالبين حمايته بوصفه أكبر قوة اسلامية قريبة منهم . وفعلا أرسل أهل صور إلى طغتكين يطلبون منه أن يرسل إليهم أميراً من عنده يتولاهم ويحميهم «وإلا سلمنا البلد إلى الفرنج». فأجابهم طغتكين إلى ما طلبوا وعين عليهم والياً اسمه مسعود وفرق عليهم المؤن والأموال « فطابت نفوس أهل البلد »[٤]. وفى الوقت نفسه تم الاتفاق على أن

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ . & Albert d'Aix, p. 481.

(3) Runciman : op. cit; II, p. 95.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

يرسل أهل صور ما لديهم من ثروات وأموال يخشون عليها إلى دمشق ، حيث تحفظ أمانة لأصحابها . وعندما علم بلدوين — الذى استاء لهذه الاتفاقية — بموعد خروج القافلة التى تحمل ثروة الصليبيين إلى دمشق ، أطبقت قواته عليها ، وغنم الصليبيون تلك الثروة الطائلة[١] .

ويبدو أن الحصار الذى فرضه بلدوين على صور فى نوفمبر سنة ١١١١ لم يكن تاما لعدم وجود أسطول صليبى قوى يحبس المدينة من ناحية البحر ، مثلما كان الحال فى حصار بيروت وصيدا . حقيقة إن بعض السفن البيزنطية وصلت أمام صور ، ولكن هذه السفن كانت على درجة من القلة والضعف حالت دون قيامها بعمل حاسم . و بعد أن حدثت عدة اشباكات محلية لم يوفق فيها الصليبيون ، لجأ بلدوين الأول إلى بناء ثلاثة أبراج من الخشب قرب صور لمهاجمة المدينة منها ، ووضع فى كل برج ألف رجل . و يروى ابن الأثير أن شيخاً من أهل طرابلس أحرق تلك الأبراج ، بعد أن رماها بحطب « سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت »[٢] .

أما طغتكين فقد استجاب لنداء أهل صور الذين أرسلوا إليه يعرضون تسليمه مفاتيح أبواب المدينة مقابل حمايتهم ، فذهب إليهم حيث تسلم البلد ، وقال لهم « أنا ما فعلت ما فعلت إلا لله تعالى لا لرغبة فى حصن ومال ، وحتى دهمكم عدو جئتكم بنفسى ورجالى »[٣] . ثم رحل عنهم وأرسل فرقة قوية من جيشه إلى صور ، مما جعل بلدوين يقنط تلك المرة أيضاً من حصار صور ، فانصرف عنها

(1) Albert d'Aix, p. 690.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(٣) ابن الجوزى : مرآة الزمان سنة ٥٠٦ هـ — ٥٠٨ هـ .

وأخذ يباشر نشاطه فى منطقة طبرية ضد أتابك دمشق[١] . كذلك لجأ بلدوين الأول الى تهديد القوافل التجارية بين دمشق والقاهرة ، فكان يهاجمها فى وادى موسى جنوبى البحر الميت و ينهب ما تحمله من ثروات وبضائع[٢] .

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر .(p. 467)

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٨ — ٢١٨ . &
Albert d'Aix, p. 693.

الفصل الخامس عشر

بلدوين الأول والأتراك

هجوم الأتراك على الصليبيين سنة ١١١١ ، بلدوين الأول وشيزر :

سنعالج الأحداث الصليبية المرتبطة بأنطاكية وعلاقتها بالأتراك فى باب آخر مستقل ؛ ولكننا مضطرون هنا إلى التعرض لبعض هذه الأحداث فى إيجاز لإيضاح الدور الذى قام به الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس فيها .

ذلك أنه بينما كان بلدوين الأول مشغولا بموضوع خروج شمس الخلافة فى عسقلان عن طاعة الخلافة الفاطمية فى القاهرة واتجاهه نحو محالفة الصليبيين ، إذا برسالة تصله من بلدوين دى بورج أمير الرها تفيده بأن الأتراك غزوا إمارته . وكان بعض أهالى حلب قد شكوا إلى الخليفة العباسى وسلطان سلاجقة فارس من سياسة حاكمهم رضوان ازاء الصليبيين واستكانته لتنكرد حاكم الرها ، وطلبوا الجد فى جهاد الصليبيين[1] ، وفى الوقت نفسه وصلت إلى بغداد سفارة من الامبراطور البيزنطى لاستثارة الخليفة والسلطان ضد الصليبيين (تنكرد) « والإيقاع بهم والاجتماع على طردهم ، وترك التراخى فى أمرهم ، واستعمال الجد والاجتهاد فى الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم »[2] . ويبدو أن هذه

(١) وصف المؤرخ أبو المحاسن رضوان هذا بأنه « كان بخيلا شحيحاً قبيح السيرة ، ليس فى قلبه رأفة ولا شفقة على المسلمين . وكانت الفرنج تغاور وتسبى وتأخذ من باب حلب ولا يخرج إليهم » .
(النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٠٥) .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ .

التيارات استثارت المسلمين فى بغداد ضد الخليفة العباسى المستظهر والسلطان محمد السلجوقى لمماطلتهما فى الجهاد ، فهبت الثورة ، وصاح الناس فى السلطان « أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للاسلام ، حتى أرسل إليك فى جهادهم ! »[1]

وإزاء تلك الثورة العنيفة ، أرسل الخليفة إلى حميه السلطان محمد السلجوقى فى أصفهان يستحثه على القيام بعمل ما ضد الصليبيين ، فلجأ السلطان بدوره إلى تكليف مودود أتابك الموصل بجهاد الصليبيين فى إبريل سنه ١١١١[2] . وعندما استعان مودود بجيرانه من الترك والأكراد — مثل أمراء ميافارقين ومراغة وأربل وهمدان وغيرهم — أحس بلدوين دى بورج أمير الرها بتلك التجمعات الإسلامية على حدود إمارته ، فشرع فى تحصين الرها وخزن الميرة والطعام فيها ، مما جعل مودود ينصرف عن حصار الرها إلى ثانى مدن تلك الإمارة الصليبية وهى مدينة تل باشر غربى الفرات (٢٨ يوليو) .

على أن أمير تل باشر الصليبى نجح هو الآخر فى مقاومة الحصار[3] ، فى الوقت الذى طلب أمير شيزر بالشام النجدة ضد تنكرد صاحب أنطاكية ؛ كما أن رضوان ملك حلب تظاهر بالاستقامة فطلب مساعدة المسلمين ضد تنكرد . لذلك فكر مودود فى مهاجمة إمارة أنطاكية الصليبية بمساعدة حلب ، وعندئذ كشف رضوان النقاب عن وجهه وظهر أنه يخشى خطر سلاجقة فارس أكثر من خشيته خطر الصليبيين ، فأغلق أبواب مدينته فى وجه مودود ورفض أن يتعاون معه ضد الصليبيين . وهكذا لم يبق أمام مودود سوى طغتكين أتابك

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٥ هـ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ . ؟
Albert d'Aix, p. 681,

دمشق ، الذى كان يأمل فى غزو طرابلس بمساعدة مودود ، فالتقى به قرب معرة النعمان واتفقا على الاشتراك فى حرب الصليبيين[١] . ولكن طفتكين لم يلبث هو الآخر أن تخوف من ذلك الجيش السلجوقى الكبير الذى كان تحت إمرة مودود . ومن يدرى فربما انتهز سلاجقة فارس تلك الفرصة التى أتاحتها لهم الحروب الصليبية لانتزاع دمشق منه ! ويروى ابن الأثير أن طفتكين عندما اجتمع بالأمير مودود « اطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه ، فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع فى مهادنة الفرنج سرا ! »[٢]. وهكذا لم تلبث أن باءت جهود السلاجقه بالفشل ، بعد أن أخذ كل أمير منهم يتشكك فى الآخر ، وبقى مودود فى نهر العاصى مع طفتكين ، حليفه غير الوفى[٣] .

أما الصليبيون فسرعان ما أظهروا تماسكا قويا ، وتناسوا ما بين بعضهم وبعض من خلافات ؛ فانسحب تنكرد من أمام شيزر — التى كان يهاجمها — وعاد إلى فاميه مسرعا ؛ ومن هناك أرسل إلى الملك بلدوين الأول طالبا مساعدته ضد المسلمين[٤] . ولم تلبث أن تجمعت قوات بيت المقدس وطرابلس وأنطاكية والرها قرب فامية ــ فى الجزء الأوسط من حوض نهر العاصى ــ ومن ذلك الموقع بالذات كان يمكنهم الإشراف على شمال الشام فضلا عن شاطىء لبنان وفلسطين.

ويبدو أن مودود خشى الالتحام مباشرة مع تلك الحشود الصليبية التى بلغت نحواً من ستة عشر ألف ، فدخل على رأس جيوشه مدينة شيزر ومعه طفتكين فى ١٥ سبتمبر سنة ١١١١ ؛ وذلك للاحتماء بها ؛ ونصب جنودها خيامهم فوق أسطح

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧ .
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٥ هـ .
(3) Grousset : Hist· des Croisades, I, p. 266.
(4) Runciman : op. cit, II, p. 122.

المنازل[١] . وكان أن تحركت القوات الصليبية هى الأخرى ــ وعلى رأسها ملك بيت المقدس وأمراء طرابلس وأنطاكية والرها ــ إلى شيزر حيث عسكرت فى مواجهة المدينة . ولم تلبث أن ساءت الأوضاع فى معسكر المسلمين ، إذ أصر طفتكين على أن يستجيب له بقية أمراء المسلمين فى الزحف جنوبا لمهاجمة طرابلس ، وهو أمر لم يقره عليه باقى زعماء القوى الإسلامية المتحالفة . أما برسق أمير همدان فقد مرض ورغب فى العودة ، فى حين توفى فجأة سكمان صاحب ميافارقين فانسحبت قواته ومعها جثمانه راجعة من حيث أتت . وكذلك اختار أحمد بك الثانى صاحب مراغة العودة إلى إمارته لبعض المشاغل الداخلية[٢] . وهكذا رأى مودود حلفاءه وقد انفضوا عنه ، مما جعله لايقوى بمفرده على منازلة الجيش الصليبى الكبير الذى ظل متماسكا مستعدا للمعركة . لذلك لم يتعد الأمر بعض المناوشات التى قام بها فرسان السلاجقة لمنع الصليبيين من الوصول إلى مياه النهر للشرب ، ثم عاد مودود إلى الموصل وطفتكين إلى دمشق[٣].

وإذا كانت تلك الحملة السجلوقية لم تحقق شيئا للجانب الإسلامى ، بل على العكس أظهرت تفكك المسلمين عندئذ وعدم وحدتهم ، فإنها حققت الكثير بالنسبة للصليبيين . ذلك أنها جمعت صفوف القوى الصليبية فى شمال الشام وجنوبها وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعا من الزعامة والأولوية على بقية أمراء الصليبيين[٤] . وكفى أن تنكرد ــ الخصم العقيد لبلدوين الأول ــ اعترف بتلك الزعامة ؛ وحاكاه فى ذلك بلدوين دى بورج ، فصار بلدوين الأول يتصرف

(١) ابن القلانسى ، ص ١٧٧ .
(2) Runciman : op· cit, I, p. 123.
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ .
ابن القلانسى : ص ١٧٧ — ١٧٨ .
Albert d'Aix. p. 684.
(4) Setton : op· cit, I, p. 400.

فى حملة سنة ١١١١ بوصفه القائد الأعلى لقوات الصليبيين والزعيم الأوحد الذى دان له بالطاعة أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا – حتى سنة ١١٨٦ – صار الصليبيون فى بلاد الشام يؤلفون جبهة متماسكة ، على الرغم من قيام تلك الجبهة على أسس إقطاعية . و بعبارة أخرى فإن النظم والتقاليد الملكية التى وضع أساسها الملك بلدوين الأول نجحت فى أن تحقق للصليبيين ببلاد الشام قدراً من الاستقرار السياسى استمر نحوا من خمسة وثمانين سنة [1] .

هجوم الأتراك سنة ١١١٣ ؛ موقعة الصنبرة :

على أنه إذا كانت حملة سنة ١١١١ التى قام بها السلاجقة ضد الصليبيين قد باءت بالفشل وانتهت إلى لا شىء ، فإن هذه النتيجة لاينبغى أن تقلل من قيمة جهود مودود أتابك الموصل ، وهو رجل عرف بالتقوى والورع وتمسكه بفكرة الجهاد الدينى [٢] . والواقع إن فشل تلك الحملة إنما يرجع أولا إلى عدم إخلاص رضوان ملك حلب وطغتكين أتابك دمشق وتخوفهما من قوة مودود . لذلك عاد مودود إلى الموصل حزينا كاسف البال ، واكتفى مؤقتاً بمراقبة حدود الجزيرة ومسالك الشام ، تحقيقا لرغبة الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى .

ثم كان أن تغيرت الأوضاع فى بلاد الشام سنة ١١١٣ ، وكان ذلك عندما دخل طغتكين فى صراع مع الملك بلدوين الأول حول صور – كما سبق أن رأينا – مما أثار الحزازات بينهما مرة أخرى . وعندئذ اتجه طغتكين نحو مودود أتابك الموصل « فأرسل إليه يعرفه الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 268.

(٢) وصف أبو المحاسن مودود بأنه « كان من خيار الملوك ديناً وشجاعة وخيراً » . (النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٢٠٧) .

إليه . » [١] والواقع إن مودود – لم يكن فى حاجة إلى تحريض لمواصلة الجهاد ، فعبر الفرات عند منتصف مايو سنة ١١١٣ ، وتبعه بعض أمراء السلاجقة فى إقليم الجزيرة ، و بعد أن تجمعت الجيوش السلجوقية عند سلمية – إلى الجنوب الشرقى من حماه – اتجهت مباشرة صوب بحيرة طبرية . ولم يلبث مودود وطغتكين أن حاصرا مدينة طبرية المنيعة ، وعندما استعصت عليهما ، أخذ السلاجقة يدمرون وينهبون الممتلكات الصليبية المجاورة حتى جبل الطور [٢] . على أن طغتكين ومودود سمعا باقتراب الصليبيين ، فاحتميا بسرعة فى شبه الجزيرة التى يصنعها نهر الأردن مع نهر اليرموك جنوبى بحيرة طبرية ، وهى الجهة التى تعرف بالأقحوانة [٣] .

وكان الملك بلدوين فى عكا عندما بلغه نبأ الحملة السلجوقية على إقليم طبرية فأرسل فى الحال يطلب المساعدة من أمراء أنطاكية وطرابلس . وفى ذلك الوقت كان روجر الصقلى Roger de Sicile قد خلف عمه تنكرد – الذى توفى سنة ١١١٢ – فى حكم أنطاكية ؛ فى حين خلف بونز Pons أباه برتراند فى حكم طرابلس ، فقرر الأميران الإسراع لنجدة الملك بلدوين . غير أن بلدوين الذى طلب المساعدة لم يشأ أن ينتظر وصولهما ، فتعجل فى مهاجمة السلاجقة دون أن يعتبر بما سبق أن حل به عند الرملة سنة ١١٠٢ . ولم يكد الملك بلدوين الأول يصل إلى جسر الصنبرة – إلى الجنوب الغربى من بحيرة طبرية – فى ٢٠ يونيو سنة ١١١٣ ، حتى فكر مودود وطغتكين فى نصب كمين له [٤] . وكان أن وقع بلدوين الأول فى الكمين ، ولم ينج ومعه البطرق أرنول مالكورن – إلا بمشقة

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ . ؛ Albert d'Aix, p. 694.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٤) ابن الجوزى : مرآة الزمان ص ٥٤٦ — ٥٤٧ . ؛ ابن القلانسى : ص ١٨٥ هـ .

بالفة ، فى حين وقع جميع المشاة ، ومعهم متاع الملك نفسه فى أيدى السلاجقة هذا عدا من غرق من الصليبيين فى نهر الأردن أو فى بحيرة طبرية[١] ؛ حتى قدرت خسائر الصليبيين فى تلك الموقعة بألف ومائتين من المشاة وثلاثين من الفرسان (٢٨ يونيه ١١١٣)[٢] .

ولم يلبث أن وصل روجر أمير أنطاكية وبونز Pons أمير طرابلس ومعهما رجالهما ؛ وبذلك « قويت نفوس الفرنج » وأخذت تتجمع القوى الصليبية مرة أخرى لمواجهة السلاجقة . وقد أحس الصليبيون بالتفوق العددى لخصومهم ، ولذلك تحاشوا الاشتباك معهم فى موقعة فاصلة ، وا كتفوا بالاحتماء ببعض المرتفعات الواقعه غربى بحيرة طبرية ؛ «فالتجأوا إلى جبل فى المنزل » وظلوا قابعين فى مكمنهم ستا وعشرين يوما « والمسلمون بازائهم يرمونهم بالنشاب ، ومنعوا الميرة عنهم ، لعلهم يخرجون إلى قتالهم ، فلم يخرج منهم أحد »[٣] .

ومن الواضح أن هذه الخطة الجامدة التى لجأ إليها الصليبيون أتاحت الفرصة للسلاجقة ، فخربوا المراكز الصليبية فى إقليم الجليل حتى وصلوا إلى بيسان ونابلس « ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة . »[٤]

ثم كان أن ازداد موقف الصليبيين حرجا فى ذلك الوقت عندما قامت حامية عسقلان بهجوم على بيت المقدس نفسها ، مستغلة فرصة جمود الملك بلدوين

(١) يذكر ابن الأثير أن الملك بلدوين نفسه وقع أسيراً فى تلك المعارك ، ولكن المسلمين لم يعرفوه فأخذوا سلاحه وأطلقوا سراحه (الكامل ، سنة ٥٠٧ هـ)

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 485. &
Foucher de Chartres, p. 426,

وقد قدر صاحب مرآة الزمان عدد قتلى الصليبيين فى موقعة الصنبرة « بألفى فارس من الشجعان والأبطال » (p. 547)

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٦ ؟
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

الأول والجيش الصليبى قرب طبرية[١] . وهكذا تقدم الجيش الفاطمى من عسقلان يدمر وينهب ويقتفى أثر الصليبيين حتى وصل إلى أسوار بيت المقدس . ولكن حامية بيت المقدس ومن بقى فيها من الفرسان ظلت متيقظة تماما ، فى الوقت الذى كان الجيش الفاطمى الذى خرج من عسقلان صغير العدد لا يستطيع القيام بعمل حربى ضخم ضد المدينة ، مما جعل المسلمين يشرعون فى العودة إلى عسقلان فى الليلة نفسها التى بلغوا بيت المقدس[٢] . ومن الواضح أنه لو كانت هناك عندئذ خطة شاملة توحد جهود القوى الإسلامية ، لأمكن أن تقوم الدولة الفاطمية بعمل حربى كبير يهدد الصليبيين تهديدا خطيرا ويجعلهم بين نارين[٣] .

ولم يلبث أن وصل إلى عكا فى شهر أغسطس عدد من الحجاج الغربيين ، قدرتهم المراجع بستة عشر ألفا[٤] مما بدّل الموقف فجأة لصالح الصليبيين ، لاسيما وأن مودود وطغتكين لم يحاولا إطلاقا الاستفادة من النصر الذى أحرزاه على بلدوين الأول عند الصنبرة . وكان أن انصرف مودود وطغتكين إلى دمشق ، وهناك أذن مودود لرجال جيشه « فى العودة والاستراحة ثم الاجتماع فى الربيع لمعاودة الغزاة »[٥] . أما مودود نفسه فقد بقى — ومعه بعض خواصه — فى دمشق فى ضيافة طغتكين ، وذلك لحين استئناف الحرب ضد الصليبيين (أوائل سبتمبر ١١١٣)[٦] .

(1) Stevenson : op. cit; p. 63.
(2) Foucher de Chartres, p. p. 426—427.
(3) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 274.
(4) Albert d'Aix, p. 696 &
Guillaume de Tyr, p. 487.
(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ .
(6) Setton : op. cit, p. 402.

مقتل مودود ؛ التحالف بين أتابك دمشق والصليبيين :

ولم تمض بضعة أسابيع حتى قتل مودود في الجامع الأموى بدمشق بيد أحد الباطنية ، وذلك عند ذهابه لتأدية صلاة الجمعة [١] . وقد اتهم المؤرخون – مثل ابن الأثير وابن القلانسى – طغتكين بالتآمر على ضيفه وتحريض ذلك الباطنى على قتله [٢] . والواقع أننا لا نستبعد أن يكون وجود مودود فى دمشق قد أثار مخاوف طغتكين الذى خشى أن يكون الغرض من حركة الجهاد هو رغبة سلطان السلاجقة فى بسط سيطرته على دمشق تحت ستار محاربة الصليبيين . وربما كان فى تعجل طغتكين فى قطع رقبة القاتل فى الحال وإحراق جثته دليلا على رغبته فى طمس معالم الجريمة والتخلص من أداتها ، فضلا عن اظهار استنكاره لتلك الجريمة [٣] . ولم ينفرد المؤرخون المسلمون وحدهم بتوجيه ذلك الاتهام إلى طغتكين ، بل شاركهم فى هذا الرأى أيضا بعض المؤرخين الصليبيين [٤] .

ومهما يكن من أمر ، فإن الصليبيين هم الذين استفادوا من تلك الجريمة ، فى الوقت الذى أحس طغتكين باتهام الرأى العام الإسلامى له ، فلم يجد حليفا يطمئن إليه سوى الصليبيين . وهكذا ثبت أن أمراء الشام فى ذلك الوقت لم يقدروا المصلحة العليا للعالم الإسلامى ، وأنهم رفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة فى سبيل الصالح العام ، مما دفعهم إلى محالفة الصليبيين للاحتفاظ بإماراتهم ، خوفا من أن تلتهمها سلطنة السلاجقة فى فارس واحدة بعد أخرى [٥] .

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٩ .

(٢) « فقيل ان الباطنية بالشام خافوه وقتلوه ، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله » . (ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٧ هـ) .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .

(4) Guillaume de Tyr, p. 487. &
Albert d'Aix p· 700.

(5) Grousset : Hist. des Croisades, I; p. 276—277.

حملة السلاجقة سنة ١١١٥ :

وكان أن تعرضت الممتلكات الصليبية فى شمال الشام والعراق لزلزال عنيف فى نوفمبر سنة ١١١٤ ، دمر بلادهم من أنطاكية والمصيصة إلى مرعش والرها [١] ، فرأى السلطان محمد السلجوقى أن يستغل ذلك الظرف وما نجم عنه من تصدع أسوار المدن والقلاع الصليبية لإرسال حملة جديدة إلى بلاد الشام بزعامة برسق ؛ لمحاربة الصليبيين فضلا عن الانتقام من طغتكين أتابك دمشق والقضاء على إيلغازى أمير ماردين [٢] . ولم تكد تلك الحملة تعبر الفرات فى مايو سنة ١١١٥ ، حتى أجمع الأمراء – سواء من المسلمين أو المسيحيين – على مقاومتها . فمن الجانب الإسلامى قاوم تلك الحملة إيلغازى بن أرتق أمير ماردين ، ولؤلؤ الخادم الوصى على حلب ، وطغتكين أتابك دمشق ؛ فى حين قاومها من الجانب المسيحى ، روجر أمير أنطاكية وبونز أمير طرابلس . ومعنى ذلك أنه لم يبق على ولائه من أمراء الشام المسلمين لسلطان السلاجقة سوى بنى منقذ فى شيزر وابن قراجه صاحب حمص ، ومع ذلك فإن برسق لم يبال بذلك العداء الذى صادفه من أمراء الشام على اختلاف أديانهم ومللهم ، فمضى فى طريقه يهاجم الأمراء المسلمين والمسيحيين جميعاً [٣] .

وهكذا استولى برسق على حماه التى كانت تابعة لطغتكين « وبها ثقله » كما هاجم قامة فامية (أفامية) التى كانت تابعة لإمارة أنطاكية الصليبية [٤] ، الأمر الذى أدى إلى التقارب بين الأمراء المسلمين والمسيحيين بالشام وجعلهم

(1) Archer : op. cit; p. 151.

(٢) خرج مع برسق « الأمير جيوش بك والأمير كنتغدى وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم (السلطان) بالبداءة بقتل إيلغازى وطغتكين ، فإذا فرغوا منهم قصدوا بلاد الفرنج وقاتلوهم وحصروا بلادهم » . (ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٩ هـ) .

(3) Runciman. op. cit,; I, p. 131.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

يتفقون على مقاومة العدو المشترك . . من ذلك ما يرويه ابن الأثير من أن طغتكين وقائد حلب شمس الخواص أسرعا إلى طلب معونة أمير أنطاكية الصليبي ضد برسق [١] ؛ في حين ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن أمير أنطاكية هو الذي بدأ بطلب محالفة طغتكين ضد الخطر المشترك . وسواء صحت هذه الرواية أم تلك فالمهم هو أن حملة برسق أدت إلى نوع من التقارب بين الأمراء المسلمين والصليبيين بالشام ، مما أدى إلى عقد اتفاقية بين أتابك دمشق والوصي على حلب من جهة و بين ملك بيت المقدس وأمير أنطاكية « وغيرهما من شياطين الفرنج » من جهة أخرى ، واستهدف ذلك الحلف الإسلامي الصليبي الجديد مقاومة سلاجقة فارس ومنعهم من غزو بلاد الشام [٢] .

وكان أن احتشدت فعلا قوات دمشق وقوات حلب جنبا إلى جنب مع قوات بيت المقدس وأنطاكية عند أفامية لمواجهة برسق ، الأمر الذي جعل برسق يدرك صعوبة موقفه وأنه من المجازفه الاشتباك مع ذلك العدد الضخم المتحالف من الأعداء ، فآثر الانسحاب إلى الجزيرة . ولم يكد برسق ينصرف عائداً إلى الجزيرة حتى اعتقد ملك بيت المقدس وأمير طرابلس أن الخطر زال ، فانصرفا بجيوشهما . ولكن برسق لم يلبث أن عاد بعد قليل ، وعندئذ واجهه الصليبيون وأنزلوا به الهزيمة عند دانيث في ١٤ سبتمبر ، وقضوا على معظم جيشه « وتفرق العسكر وأخذ كل واحد جهة » . أما برسق نفسه فلم يستطع الفرار إلا في صعوبة ، ويقال إنه مات بعد عدة أشهر « وقد ندم على الهزيمة » ؛ وعندئذ لم يفكر السلطان محمد السلجوقي في المغامرة بحملة أخرى ضد الصليبيين في بلاد الشام [٣] .

---

(١) المرجع السابق .

(2) Setton : op. cit., I, p. p. 404.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٩
وقد وصف ابن الأثير برسق بأنه كان « خيراً ديناً » .

وفي الوقت الذي كان بلدوين الأول مشغولا بحملة برسق على شمال الشام ، عادت حامية عسقلان إلى مهاجمة يافا برا و بحراً ، ولكن حامية يافا الصليبية صمدت أمام ذلك التهديد . وعندما علم الفاطميون بعودة الملك بلدوين من شمال الشام ، أسرعوا بالانسحاب إلى عسقلان دون أن يحققوا غرضهم (سبتمبر ١١١٥) [١] .

---

(1) Guillaume de Tyr p. p. 494 – 495.

الفصل السادس عشر

سياسة بلدوين الأول

وصوله إلى البحر الأحمر وغزو مصر :

و بعد أن اطمأن الملك بلدوين الأول من ناحية سلاجقة فارس وانفصام العروة التى كانت تربطهم بامارات الشام الإسلامية ، بدأ يفكر فى عدة مشاريع توسعية قام بها فى جرأة بالغة . ذلك أن بلدوين الأول عمل على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقى وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة ، وهى المنطقة المعروفة باسم وادى عربة . ومن الواضح أنه معما لهذا المشروع من أهمية دفاعية،فإنه يمكن الصليبيين أيضا من عزل مصر عن بقية العالم الإسلامى فى الشرق وقطع الطريق البرى بينها و بين الشام والعراق والحجاز[1]

وقد بدأ بلدوين الأول بالسيطرة على وادى عربة جنوبى البحر الميت ، ثم شيد سنة ١١١٥ حصن الشوبك ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على وادى عربة بأجمعه[2] . وفى العام التالى (سنة ١١١٦) خرج بلدوين فى حملة أخرى ، ومضى حتى أيله على ساحل خليج العقبة حيث فر الأهالى من وجهه خوفا . وقد بنى بلدوين فى أيله أيضاً قلعة حصينة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام[3] ، كما شيد قلعة أخرى فى جزيرة فرعون

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. 213.
(2) Runciman op. cit, I, p. p. 97-98.
(3) Settoв : op. cit; I, p 406.

الواقعة قبالة أيلة فى خليج العقبة . وبذلك تمكن الصليبيون من الإشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة التى أخذت تحرك فى قلوبهم ذكريات ومشاعر دينية عزيزة عليهم. هذا وإن كان رهبان دير القديسة كاترينة فى شبه جزيرة سيناء قد رفضوا أن يستضيفوه بديرهم خشية انتقام الفاطميين فى القاهرة ، مما جعل بلدوين ينصرف عائداً إلى بيت المقدس[1] .

و بعد أن أبل بلدوين الأول من المرض الذى أصابه أثناء عودته من أيله إلى بيت المقدس ، قام بمحاولة أخرى للاستيلاء على مدينة صور التى لم يبق للفاطميين غيرها ــ فضلا عن عسقلان ــ من موانى الشام . و يبدو أن صور كانت مركز متاعب كثيرة للصليبيين فى الشام ، حيث خرجت منها فى تلك الفترة عدة اغارات لمهاجمة الممتلكات الصليبية القريبة ، فضلا عن أنها كانت مركزا بحريا تأوى إليه السفن الفاطمية التى تهدد الأساطيل الصليبية[2] . ولكن حاجة بلدوين إلى أسطول قوى لم تمكنه من الاستيلاء على صور ، وعندئذ شيد قلعة منيعة جنوبى صور ــ هى اسكندرونة ــ لإحكام الحصار على صور،وكان ذلك سنة ١١١٦[3] .

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس الصليبيه وصلت سنة ١١١٦ على يد ملكها بلدوين الأول إلى حدودها التاريخية المعروفة،وذلك باستثناء عسقلان وصور ؛ ولم يبق بعد ذلك أمام بلدوين إلا أن يهاجم الفاطميين فى عقر دارهم ليشعرهم بقوته بعد أن أحس هو بضعفهم[4] وربما استهدف بلدوين من مهاجمة الفاطميين أن يضطرهم إلى الاستعانة بحاميتى صور وعسقلان ، فيستولى على هاتين

(1) Albert d'Aix, p. 703.
(2) Stevenson : op. cit; I, p.p. 65—66.
(3) Guillaume de Tyr, p. p. 507.
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 283.

المدينتين فى غير عناء[1] . على أن بلدوين الأول لم يحاول أن يحشد جميع قوى الصليبيين فى الشام لغزو الدولة الفاطمية، وإنما خرج على رأس مائتين من الفرسان تقريبا وأربعمائة من المشاة فقط ، مما يثبت أنه لم يكن ينوى القيام بعمل حربى واسع النطاق[٢] .

وكان ان استطاع بلدوين أن يعبر الصحراء الممتدة من غزة حتى العريش والفرما دون أن يتعرض لتهديد من جانب البدو ، الذين خشوا خطر الصليبيين فسهلوا لهم الحصول على مالزمهم من زاد وماء[٣] . ولم يلبث أن وصل الصليبيون فى ٢١ مارس سنة ١١١٨ إلى الفرما واستولوا عليها ، وهى أولى المراكز الأمامية فى الأراضى المصرية[٤] . وكانت دهشة الصليبيين عظيمة عندما دخلوا الفرما فوجدوها خالية بعد أن هجرها أهلها من المصريين وتركوا فيها متاعهم ، مما هيأ للغزاة قدراً كبيراً من الغنائم. وبعد أن أحرق بلدوين جامع الفرما ومساجدها[٥]، اتجه غربا نحو مصب النيل . ويروى ابن الأثير أن بلدوين الأول وصل إلى مدينة تنيس جنوبى بحيرة المنزلة ؛ كما يشير بعض المؤرخين الصليبيين إلى أنه وصل إلى مصب نهر النيل فعلا[٦] .

على أن بلدوين الأول كان لا يستطيع أن يمضى أكثر من ذلك لصغر قوته

---

(1) Archer : The Crusades, p. 140.

(٢) ويلاحظ أن هذا الرأى يتعارض مع ما ذكره ابن الأثير من أن بلدوين فى تلك الغزوة إنما كان « قاصداً ملك مصر والتغلب عليها وقوى طمعه فى الديار المصرية » . (الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ) .

(3) Albert d'Aix, p. 705.

(4) Michaud : op. cit, I, p. 52.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧١ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ . ؟

Guillaume de Tyr, p. 508.

أولا ثم لمرضه ثانيا ، وهو المرض الذى لم يلبث أن توفى بسببه قرب العريش فى ٢ أبريل سنة ١١١٨[١] .

تعمير بيت المقدس بالسريان والأرثوذكس :

ومن الأعمال الداخلية التى قام بها الملك بلدوين الأول قبل أن يقوم بحملته على مصر ، تعمير بيت المقدس بجموع المسيحيين الشرقيين من الأرثوذكس والسريان . وكان الباعث لبلدوين على هذا التفكير التجربة القاسية التى مر بها أثناء هجوم السلاجقة على إقليم الجليل سنة ١١١٣ ، إذ انتهز المزارعون وأهل الإقليم من المسلمين تلك الفرصة وخرجوا عن طاعة الصليبيين فى الوقت الذى هدد الفاطميون بيت المقدس وهى شبه خاوية لتغيب بلدوين ورجاله عنها . وكان من الطبيعى أن يبدأ بلدوين بتعمير بيت المقدس أولا وهى كبرى مدن المملكة، فضلا عما لها من مكانة فى قلوب الصليبيين جميعا[٢] .

والواقع إن بيت المقدس وغيرها من مدن الشام كانت زاخرة بأعداد كبيرة من المسيحيين المحليين ، وذلك عند وصول الصليبيين إلى الشرق . ولكن مافعله أولئك المسيحيون الشرقيون من الترحيب بالصليبيين ومساعدتهم — وبخاصة فى أنطاكية والرها — جعل المسلمين لايطمأنون إليهم ويطردونهم من بقية المدن

---

(١) ذكر ابن الأثير أن سبب وفاة بلدوين أنه سبح فى النيل عند تنيس « فانتقض جرح كان به » (حوادث سنة ٥١٢ هـ) . فى حين ذكر غيره من المؤرخين أن وفاته كانت بسبب أكله سمك من بحيرة المنزلة . ويذكر أبو المحاسن أنه عند وفاة بلدوين شق أصحابه بطنه وصبروه (حنطوه) ورموا أحشاءه هناك فعرف ذلك المكان حتى اليوم بسبخة بردويل أو البردويل (قرب بور سعيد الحالية) واعتاد الناس أن يرجموها إلى أيام أبى المحاسن . (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧١).

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 284.

التى كانت لاتزال تحت سيطرة المسلمين ، وبخاصة بيت المقدس[١] . ولم يلبث أن استولى الصليبيون على بيت المقدس وكثير من أقاليم الشام ، فعمدوا بدورهم إلى طرد المسلمين منها . وهكذا أمست بيت المقدس تشكو فراغا ضخما ونقصا كبيرا فى السكان بعد أن فقدت معظم أبنائها المحليين من المسلمين والمسيحيين سواء[٢] . هذا فى الوقت الذى كان الصليبيون أنفسهم قلة ، وتعجل كثير من الحجاج الوافدين من الغرب فى العودة إلى أوطانهم بعد زيارة الأماكن المقدسة . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الصليبيين الذين استقروا فى الشام اشتغلت غالبيتهم بشئون الحرب والحكم ، وأنهم كانوا موزعين على عدد كبير من المدن والمعاقل لحراستها، أدركنا مدى حاجة مملكة بيت المقدس بوجه خاص إلى سكان نشيطين تطمئن إليهم للنهوض بأعباء النشاط العمرانى من زراعة وتجارة وصناعة وغيرها[٣] .

ولما كان من المستحيل أن يفكر بلدوين فى الاعتماد على المسلمين فى هذه المهام ، فإنه لم يبق أمامه سوى المسيحيين المحليين ، وبخاصة المشتتين منهم شرق نهر الأردن وفى حوران . وكانت بلاد الشام بوجه خاص تضم طوائف عديدة من المسيحيين المحليين مثل الموارنة فى طرابلس والسريان والأرمن فى أنطاكية والأرمن والنساطرة فى الرها . وعندئذ فتح الملك بلدوين الأول أبواب مملكته أمام هذه الطوائف جميعها واتصل بهم سرا وأغراهم على الهجرة إلى المدينة المقدسة حتى اكتظت بيت المقدس بأعداد من الأرثوذكس والأرمن[٤] .

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس قامت على أساس الترابط الشديد بين سكانها من المسيحيين الغربيين الكاثوليك من جهة والمسيحيين

(1) Guillaume de Tyr, p. 500.
(2) Runciman : op. eit; II, p. 100.
(3) Grousset : L'Empire du Levant, p. p 311—312.
(4) Richard : Le Royaume Latin, p.124.

الشرقيين من جهة أخرى . وقد استطاع الملك بلدوين الأول أن يوفق بين الجميع رغم اختلاف مذاهبهم ،ليعملوا جميعاً فى إنعاش الأرض المقدسة وحمايتها . ولتحقيق هذا الترابط شجع بلدوين الأول التزاوج بين المسيحيين الغربيين والشرقيين ، وضرب هو نفسه مثلا لذلك بزواجه من شرقية ، وإذا كان قليل من الأمراء الغربيين قد أقبلوا على الزواج من المسيحيات الشرقيات فإن جمهرة الفرسان الصليبيين وصغار جندهم لم يجدوا غضاضة فى ذلك ، الأمر الذى أدى إلى ظهور جيل مولد فى بلاد الشام قدر له أن يحمل عبء الدفاع عن الصليبيين فيما بعد عندما تناقص عدد الوافدين من الغرب[١] .

سياسة بلدوين الأول الدينية :

على الرغم من أن شخصية بلدوين الأول ليس لها الطابع الدينى القوى الذى اعتادت الأساطير المعاصرة أن تلصقه بأخيه جودفرى[٢] ، إلا أنه من الثابت أن بلدوين الأول كان حريصاً على أن يجعل سيطرته على الكنيسة حقيقة واقعة[٣]. وقد دفع ذلك الملك بلدوين إلى العمل على محاربة فكرة إقامة حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس ، وهى الفكرة التى رأينا مدى حرص دايمبرت على تنفيذها. وإذا

(1) Runciman : op. cit, I. p. 100.
وقد ذكر Thompson أن ثمة زيجات تمت بالشام فى عصر الحروب الصليبية بين الصليبيين والعرب وأطلق على أبناء هذه الزيجات اسم (pullani) أى الأفراخ . كذلك أشار الى أن الأرثوذكس كانوا أحط طبقة فى المجتمع الصليبى ببلاد الشام ، وقد خشى الصليبيون دائماً تآمرهم مع الدولة البيزنطية أو المسلمين ، ولو أنه لم يكن غنى للصليبيين عنهم ، بسبب معرفتهم باللغات .

(Thompson : Economic & Sociol Hist. of the Middle Ages; vol. I, p. 398).
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5. p. 304.
(3) Runciman : op. cit; I, p. 100.

كان دايمبرت قد تنازل عن آرائه فى إقامة حكومة دينية حتى هدأ الموقف بينه و بين بلدوين ، وقام دايمبرت بتتويج بلدوين ملكا فى كنيسة بيت لحم سنة ١١٠٠ ، إلا أن النزاع لم يلبث أن تجدد بين الطرفين فى مارس سنة ١١٠١ . و يقف المؤرخ وليم الصورى فى ذلك النزاع الى جانب دايمبرت ، ويؤكد حسن نيته ، وأن ارنولف ما لكورن – بطرق بيت المقدس السابق – هو المسئول عن إفساد العلاقات بين الملك بلدوين ودايمبرت [1] أما المؤرخ ألبرت الآكسى – وهو المدافع دائما عن بلدوين الأول ومبدأ الملكية – فيقول إن الملك بلدوين كان لا يمكن أن يغفر لدايمبرت محاولاته للحيلولة دون وصوله إلى حكم بيت المقدس وحرمانه من أن يرث أخاه جودفرى و يخلفه فى الحكم ، فضلا عن مؤامرة دايمبرت لإعطاء ملك بيت المقدس إلى بيت بوهيموند الأنطاكى [2].

ولعل استياء كل طرف من الآخر وعدم صفاء نياتهما ، هو الذى جعل النزاع يطول بين الرجلين ، حتى انتهى الأمر – كما سبق أن أشرنا – بعزل دايمبرت نهائيا سنة ١١٠٢ ، واختيار إبرمار بطرقا جديدا لبيت المقدس . وقد أيد الملك بلدوين هذا الاختيار لما لمسه فى البطرق الجديد من ورع وتقوى ورغبة تامة فى الابتعاد عن الاشتغال بالمسائل السياسية ؛ وهذا كل ما كان يبتغيه بلدوين فى الشخص الذى يتولى بطرقية بيت المقدس [3] .

ولكن ابرمار لم يستمر طويلا فى منصبه، إذ وصل النزاع حول شغل كرسى بطرقية بيت المقدس إلى البابوية ، فأرسل البابا باسكال الثانى مندوبا اسمه جبلين للتحقيق فى الموضوع ، وانتهى الأمر باختيار جبلين نفسه بطرقا على بيت المقدس سنة ١١٠٨ [4] . وكان هذا البطرق الجديد متقدما فى السن ، فلم يلبث أن توفى

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 438—439.
(2) Albert d'Aix, p. 538.
(3) Idem; p. 622
(4) Guillaume de Tyr, I, p. 457.

فى ابريل سنة ١١١٢ ، فاختير بعده أرنولف ما لكورن بطرقا من جديد على بيت المقدس بعد أن ظل اثنتى عشرة سنة يترقب تلك الفرصة التى أعادت إليه كرسيه المسلوب [1] .

وهكذا يبدو أن بلدوين الأول اتبع سياسة دينية اتصفت بالمهارة ، ومكنته من الاحتفاظ لنفسه بالسلطان الأعلى فى حكومة بيت المقدس ، وتجنيب تلك المملكة الناشئة صراعا بين السلطتين الدينية والعلمانية . هذا إلى أن إخلاص أرنولف مالكورن للملك بلدوين الأول ، لم يمكن الملك من إحكام إشرافه على كنيسة بيت المقدس فحسب ، بل ضمن أيضا لتلك المملكة الناشئة نظاما وراثيا فى بيت بلدوين ، مما أتاح لها فرصة الاستقرار والثبات ، وجنبها النزاع والقلاقل [2] .

و إذا كانت بطرقية بيت المقدس قد غدت – بفضل سياسة الملك بلدوين الأول – الحليف المخلص الوفى للملكية ، فإن الملك بلدوين لم يتقاعس من جانبه عن مؤازرة تلك البطرقية وتوسيع اختصاصها الدينى ، وزيادة نفوذها على حساب أنطاكية . وكان ذلك عندما نشب نزاع بين بطرقية بيت المقدس وبطرقية أنطاكية حول أسقفية بيروت ، وذلك بعدما استولى بلدوين على هذه المدينة الأخيرة من الفاطميين سنة ١١١٠ . ذلك أن تنظيم الكنيسة البيزنطية كان يقضى بأن يتبع أسقف بيروت رئيس أساقفة صور ، وهذا الأخير يتبع بطرق أنطاكية. ولكن ذلك الوضع صار غير ذى موضوع سنة ١١١٠ عندما كانت بيروت فى أيدى الصليبيين فى حين ظلت صور نفسها فى قبضة المسلمين . لذلك طالبت بطرقية بيت المقدس بأن تكون أسقفية بيروت تابعة لها ، فى حين تمسك بطرق أنطاكية بتبعية تلك الأسقفية له [3].

(1) Besant, Palmer : Jerusalem, p. 248.
(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. 296.
(3) Richard : Le Royaume Latin, p. 97.

وعندما اشتد الخلاف ، عرض الملك بلدوين الأمر على البابوية فأفتى البابا باسكال الثانى سنة ١١١١ بأن الفتح الإسلامى غير الأوضاع القديمة التى كان معمولا بها فى الدولة البيزنطية ، وبناء على ذلك فإن البابوية ترى أن تكون الكنائس فى جميع البلاد التى يفتحها بلدوين الأول تابعة لبطرق بيت المقدس [١] . ويبدو أن ما حققه الملك بلدوين الأول لنفسه من سيادة على أمراء أنطاكية ، والرها وطرابلس جعله يتمسك بأن تكون بطرقية بيت المقدس من جانبها لها الألوية على بطرقية أنطاكية . وهكذا انتهى الأمر عند منتصف القرن الثانى عشر بأن ظلت أسقفيات إمارة طرابلس تابعة لبطرق أنطاكية ، ما عدا بيروت وصور وصيدا وعكا وبانياس فقد أصبحت تابعة لبطرقية بيت المقدس [٢] .

زواج بلدوين الأول :

وثمة ناحية شخصية خاصة بالملك بلدوين الأول ولكنها ارتبطت بالكنيسة ، هى أنه طلق ، زوجته الملكة أردا Arda ، وتزوج من أدلياد الصقلية Adelaide de Sicile [٣] . أما عن أردا فهى ابنة زعيم أرمنى تزوجها بلدوين أيام أن كان أميرا على الرها ليضمن ولاء الأرمن ، وهم كثيرون فى إقليم الرها . ومن الواضح أن هذا الزواج السياسى كان يحقق كثيراً من النفع لبلدوين وهو أمير للرها ؛ ولكنه لم يلبث أن أحس – بعد أن أصبح ملكا على بيت المقدس – أنه ليس فى حاجة إلى ولاء الأرمن ، وبالتالى فإنه لم يعد حريصا على تلك الزيجة السياسية ، لا سيما وأن أردا فقيرة لم تستطع أن تشبع حاجة الملك الجديد إلى المال ، فضلا عن أنه لم يعش له منه أولاد يربطونه بها [٤] . وكان أن سعى الملك بلدوين سنة

(1) Guillaume de Tyr, p. 502.
(2) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 312.
(3) Setton : op. cit; I, p. 406.
(4) Runciman : op. cit, I, p. 102.

١١١٠ لدى كنيسة بيت لحم لإتمام الطلاق من زوجته بعد أن اتهمها بالزنا. ولكى يغرى تلك الكنيسة على تأدية هذه الخدمة له أضفى عليها وعلى أسقفها كثيراً من النعم والامتيازات . كذلك استخدم الملك نفوذه لدى بطرق بيت المقدس من ناحية ولدى البابوية من ناحية أخرى لرفع كنيسة بيت لحم إلى أسقفية [١] . أما أردا فقد طلبت من زوجها السماح لها بزيارة ولديها فى القسطنطينية ، وهناك لم تعبأ ببلدوين أو بيت المقدس وإنما حاولت أن تشبع نفسها بمباهج العاصمة البيزنطية .

ولم يلبث الملك بلدوين أن أخذ يبحث لنفسه عن صفقة أخرى رابحة ، وعثر على ضالته فى أدلياد أرملة روجر الأول صاحب صقلية الذى توفى سنة ١١٠١ وقد استهدف بلدوين الأول من وراء تلك الزيجة تحقيق مكاسب عدة سياسية ومالية ، منها ضمان صداقة النورمان فى إيطاليا وصقلية ، وبخاصة الملك روجر الثانى ابن الأميرة أدلياد ، ومنها أيضاً كسب الثروة الطائلة التى كانت تملكها تلك الأميرة والتى كانت كفيلة بإنعاش خزانة مملكة بيت المقدس [٢] . وبعد أن حصلت أدلياد على موافقة ابنها روجر الثانى على تلك الزيجة ، اشترطت على بلدوين الأول أنه فى حالة إذا ما رزقت منه بمولود ذكر ، فإن هذا المولود يرث أباه فى عرش روجر الثانى . وكان أن وافق بلدوين الأول على هذا الشرط ، وأبحرت العروس من صقلية إلى عكا فى بداية أغسطس سنة ١١١٣ فى أسطول كبير يحمل ثروة طائلة من الذهب ، والفضة والتحف وغيرها [٣] .

على أن خصوم بلدوين لم يلبثوا أن أثاروا موضوع طلاق أردا وقالوا إن هذا الطلاق لم يكن قانونيا ، وأنه تم بالتواطىء مع صنائع بلدوين من رجال

(1) Guillaume de Tyr, p. p. 473—474.
(2) Cam. Med Hist, vol. 5. p. 184.
(3) Albert d'Aix, p. 597.

السكنيسة وأولهم أرنولف ما لكورن ، ومن ثم أصبح بلدوين متهما بالزواج من امرأتين وهى تهمة لها خطورتها فى المسيحية[١]. ولم تفلح جهود بلدوين الأول أو جهود ربيبة أرنولف مالكورن أسقف بيت المقدس فى دفع هذه التهمة عنه ، إذ أصر البابا باسكال الثانى ومندوبه الذى أرسله إلى بيت المقدس للتحقيق فى الموضوع على أن طلاق إردا من بلدوين الأول باطل ، و بناء على ذلك يجب أن يطلق الملك زوجته الصقلية الجديدة . وصادف أن مرض بلدوين الأول مرضا خطيراً فى أوائل سنة ١١١٧ ، فاستمر طريح الفراش فى عكا بضعة أسابيع بين الحياة والموت ، مما جعله يخشى أن يموت مغضوبا عليه من الله والكنيسة بسبب زواجه من امرأتين فى وقت واحد . وهكذا انتهى الأمر بطلاق أدلياد فعادت كسيفة البال إلى صقلية فى إبريل سنة ١١١٧ [٢].

ولا شك فى أن طلاق أدلياد جاء لطمة قوية لابنها روجر الثانى وجميع الأمراء النورمان فى إيطاليا وصقلية . وإذا كان بلدوين الأول قد أراد بتلك الزيجة كسب النورمان فى إيطاليا وصقلية وضمان مورد ثابت من الرجال والمال ليغذى مملكة بيت المقدس ؛ فإن النتيجة جاءت عكسية بالنسبة للعلاقات بين مملكة بيت المقدس من ناحية ومملكة النورمان فى إيطاليا وصقلية من ناحية أخرى .

وفيات الأعيان :

ولم تلبث سنة ١١١٨ أن شهدت وفاة مجموعة من أعيان المسلمين والمسيحيين فى الشرق والغرب ، ممن لهم علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحركة الصليبية . ففى

(1) Runciman : op. cit; II, p. 104.
(2) Guillaume de Tyr, I, p. 509.

٢١ يناير سنة ١١١٨ توفى البابا باسكال الثانى فى روما ؛ وفى ٢ إبريل توفى بلدوين الأول ملك بيت المقدس ؛ وفى ٥ أبريل توفى السلطان محمد السلجوقى فى فارس ؛ وفى ١٦ إبريل سنة ١١١٨ توفيت فى صقلية أدلياد زوجة بلدوين الأول والملكة السابقة على بيت المقدس ؛ و بعد ذلك ببضعة أيام توفى أرنولف بطرق بيت المقدس ، وفى ٦ أغسطس توفى الخليفة المستظهر العباسى فى بغداد ، وفى منتصف أغسطس توفى ألكسيوس كومنين امبراطور الدولة البيزنطية بعد مرض طويل[١].

بلدوين الأول فى نظر التاريخ :

و بعد ، فإن أهمية بلدوين الأول فى التاريخ ترجع إلى أنه لم يكن مثل أخيه جودفرى محاربا صليبيا فحسب ، بل كان أيضاً سياسيا ومنظما ومؤسسا لمملكة لها أهميتها فى تاريخ العصر الذى عاش فيه . فبلدوين الأول هو الذى استطاع بمهارته أن يحقق لمملكة بيت المقدس مكانة مرموقة وسط المحيط الإسلامى فى الشرق الأدنى ، و إليه يرجع الفضل فى وضع دعائم تلك السياسة الناجحة التى سار عليها خلفاؤه ملوك بيت المقدس من بعده ، والتى حققت نوعا من التوازن بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية فى الشرق الأدنى[٢].

هذا إلى أن سياسة بلدوين الأول التوسعية أكسبته أهمية خاصة فى تاريخ الصليبيين بالشام ؛ إذ تسلم دولة بيت المقدس الصليبية محدودة المساحة ، تكاد لا تتعدى المدينة المقدسة ذاتها وضواحيها القريبة ، فما هى إلا سنوات قليلة حتى حولها إلى مملكة قوية تشمل كل فلسطين تقريباً ، وتتمتع بشاطىء طويل على

(1) Runciman : op. cit II, p. p. 105—106.
(2) Cam Med. Hist, vol 5, p. 304.

البحر المتوسط مما حقق لتلك المملكة الصليبية اتصالا آمنا مستمراً مع العالم الأوربى الغربى(١). ثم كان أن توج بلدوين الأول أعماله قبل وفاته بأشهر معدودة بالسيطرة على وادى عربة والضفة الشرقية للأردن ، والاستيلاء على أيلة على خليج العقبة ، بل لقد أوغل فى الأراضى المصرية نفسها شرق الدلتا ... كل ذلك ليقطع الصلة بين المسلمين فى أفريقية وآسيا ، أو بين الدولة الفاطمية من جهة والدولة العباسية من جهة أخرى ؛ وهى الصلة التى كانت تهدد بوقوع الصليبيين فى الشام بين شقى الرحى . ولا شك فى أن سيطرة الصليبيين على ميناء أيله كان من شأنها أن تمكنهم من قطع طريق القوافل بين القاهرة من ناحية ودمشق وبغداد من ناحية أخرى ، فضلا عن تهديد الحجاج المسلمين وهم فى طريقهم إلى الحرمين(٢). وكما أن إمارة الرها الصليبية صارت تقف حاجزا بين الامارتين الإسلاميتين الكبيرتين فى شمال الشام والعراق — وهما حلب والموصل — فكذلك أراد بلدوين الأول أن يجعل من أيلة ووادى عربة حاجزا صليبيا بين القاهرة ودمشق . ولم تلبث تلك الخطة التى وضع أساسها بلدوين الأول أن نجحت فى تمزيق أوصال العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى ، وتمكين الصليبيين فى الفترة الواقعة بين سنين ١١١٦، ١١٨٩ من التحكم فى المسالك المؤدية إلى الحجاز(٣).

أما عن سياسته الداخلية فإن بلدوين الأول كان لا يقل مهارة فى توجيهها عنه فى توجيه السياسة الخارجية ، مثلما يتضح ذلك فى إشرافه على الكنيسة ورجالها ، وفى منع رجال الدين من إقامة حكومة ثيوقراطية فى بيت المقدس.

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. p. 314—315.
(2) Settou : op. cit; I. p. 406.
(3) Grousset; Hist. des Croisades, I, p. p. 315—316.

الفصل السابع عشر

ريموند الصنجيلى والصليبيون

ريموند والدولة البيزنطية :

رأينا ما أصاب ريموند الصنجيلى Raymond of St. Gilles من خيبة أمل واضحة فى الحملة الصليبية الأولى ، إذ ظل يمنى نفسه حينا بعد آخر بأنطاكية ، أو على الأقل باقتسامها مع بوهيموند ، حتى انتهى الأمر باستئثار بوهيموند بها وحده(١). فلما حاول ريموند أن يؤسس لنفسه إمارة فى شمال الشام على حساب سلاجقة حلب — حول البارة ومعرة النعمان — انبرى له بوهيموند مرة أخرى ونافسه فى الاستيلاء على معرة النعمان ، مما اضطر ريموند إلى التخلى عنها فى يناير سنة ١٠٩٩(٢). وكان أن فكر ريموند فى تأسيس إمارة على شاطىء الشام ، فهاجم أنطرطوس وعرقه إلى الشمال الشرقى من طرابلس ، ولكنه نجح فى احتلال الأولى فى فبراير سنة ١٠٩٩ وفشل فى الاستيلاء على عرقه فى مايو سنة ١٠٩٩(٣). وعندما رشح اسمه حاكما لدولة بيت المقدس الصليبية، أدى حسد زملائه الأمراء له وتخوفهم منه إلى ضياع تلك الفرصة من يده . وعندئذ اتجه ريموند إلى مهاجمة الثغور الفاطمية فى فلسطين — مثل عسقلان وأرسوف — ولكن عداء جودفرى بوايون له لم يمكنه من تحقيق غرضه (أغسطس ١٠٩٩) .

(1) Runciman : op. cit, I, p. p. 249—251.
(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ . &
Gesta Francorum, p. 172—178.
(3) Raymond d'Agiles, p. p. 279—288.

وأخيراً لم يجد ريموند وسيلة سوى تملق الدولة البيزنطية وخدمة سياستها وتحقيق أغراضها ومطامعها فى بلاد الشام ، والمناداة بحقوقها فى أنطاكية وغيرها من أقاليم الشام[١].

وقد أخذت سياسة ريموند هذه تظهر فى وضوح عندما استولى على اللاذقية فى صيف سنه ١٠٩٨ ، إذ سلمها للبيزنطيين بعد قليل مما قوى الرابطة بينه و بين الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين ، وجعل الأخير يثق إلى حد بعيد فى إخلاص ريموند له[٢].

ولم يلبث هذا التحالف بين ريموند والامبراطور البيزنطى أن اتخذ وجهة خاصة ضد بوهيموند صاحب أنطاكية الذى كان وجوده فى ذلك الجزء من شمال الشام بالذات مهدداً لأطماع الامبراطور البيزنطى من ناحية وريموند من ناحية أخرى[٣]. ومن أمثلة هذا التعارض بين الطرفين ماحدث فى صيف سنة ١٠٩٩ ، إذ بينما تقدم ريموند إلى جانب جودفرى صوب بيت المقدس للاستيلاء عليها من المسلمين ، اختار بوهيموند — كما سبق أن أشرنا — أن يبقى حيث هو فى أنطاكية لينتهز فرصة تغيب منافسه و يحاول الاستيلاء على اللاذقية من البيزنطيين بمساعدة الأسطول البيزى تحت زعامة دايمبرت[٤]. ولولا رجوع ريموند لسقطت اللاذقية فى يد بوهيموند لأن الأخير لم يلبث أن انسحب ـ وكذلك الأسطول البيزى عند اقتراب ريموند ـ حتى لا يقع صدام بين القوات الصليبية بالشام ، و بذلك استرد ريموند اللاذقية[٥]. وكان أن توسط دايمبرت فى الصلح بين ريموند

(1) Vasiliev op. cit, II, p. 409.
(2) Albert d'Aix, p. p. 500—501.
(3) Ostrogorsky : op. cit, p. 323.
(4) Stevenson : op. cit ,p. 39.
(5) Albert d'Aix,p. p. 502-504.

و بوهيموند ، فاجتمع الأميران قرب اللاذقية ، وسويا ما بينهما من خلاف . ولكن هذه التسوية ، كانت فى الظاهر فقط ، إذ ظل بوهيموند قائما فى أنطاكية على كره من الامبراطور البيزنطى ، فى حين ظل ريموند يحمل فى قلبه حقدا دفينا على بوهيموند ، واكتفى مؤقتا بأن سيطر على اللاذقية وانطرطوس باسم الامبراطور البيزنطى[١].

و إذا كان ريموند قد يئس من القضاء على قوة بوهيموند فى أنطاكية ، فإنه سرعان ما فكر فى استغلال تحالفه مع البيزنطيين لإقامة إمارة جديدة لنفسه فى شمال الشام تنافس إمارة أنطاكية . وهكذا استمرت روح التنافس والكراهية تسود العلاقات بين ريموند و بوهيموند . من ذلك أن بوهيموند مر فى يناير سنة ١١٠٠ باللاذقية أثناء عودته من زيارة بيت المقدس ، وطلب من ريموند أن يمده بالزاد ، فاعتذر الأخير بحجة نقص المؤن لديه[٢] . هذا بالاضافة إلى الدور الذى قام به ريموند لمنع بوهيموند من الاستيلاء على عرش بيت المقدس عقب وفاة جودفرى بوايون ، إذ سبق أن رأينا كيف استطاعت قوات ريموند فى اللاذقية أن تمنع الرسالة التى أرسلها دايمبرت إلى بوهيموند مستدعيا إياه ليتولى الحكم فى المدينة المقدسة (مايو — أغسطس ١١٠٠)[٣] .

واخيراً رحل ريموند إلى القسطنطينية فى صيف سنة ١١٠٠ للاتفاق مع الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين على القيام بعمل حاسم ضد بوهيموند ، فى أنطاكية[٤]. ولم يكد ريموند يصل إلى القسطنطينية حتى جاءت الأخبار بوقوع بوهيموند أسيراً فى قبضة التركمان من بنى دانشمند فى كابادوكيا . ولكن

(1) Foucher de Chartres, I, p. 368.
(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 321.
(٣) انظر ما سبق ص ٢٨١ .
(4) Chalandon : Alexis Comnene p. p. 222—223.

هذا الحديث لم يكن له أثر فى سياسة ريموند والامبراطور ألكسيوس كومنين تجاه أنطاكية ، لأن تنكرد الذى تولى الوصاية على أنطاكية عند أسر خاله ، لم يقل خطرا عن بوهيموند ، فاتبع سياسة العداء نفسها تجاه الامبراطورية البيزنطية ، وبدأ بالاستيلاء على بعض المدن البيزنطية فى قيليقية مثل طرسوس وأذنه والمصيصة [1] . ولم يكد تنكرد يفرغ من ذلك حتى اتجه إلى اللاذقية ، ولكنها قاومته مقاومة شديدة استمرت سنة ونصف حتى استولى عليها فى النصف الثانى من سنة ١١٠٢ [٢]

وفى الوقت الذى أخذ ريموند وألكسيوس كومنين يعدان العدة لإرسال حملة ضد تنكرد و إنقاذ اللاذقية ، إذا بحملة صليبية جديدة تصل إلى القسطنطينية وتستأثر بتفكير الامبراطور وحليفه . وكان أن عين الامبراطور البيزنطى حليفه ريموند للاشراف على هذه الحملة وتوجيهها إلى الأراضى المقدسة . ويبدو أن ريموند سر لتلك المهمة ، إذ رأى فى الحملة الصليبية الجديدة أداة صالحة يمكن أن يستخدمها فى تحقيق بعض أطماعه فى الشام [٣] .

ريموند والحملة الصليبية سنة ١١٠١ :

لم يكد الغرب الأوربى يعلم بالتوفيق الذى أصابته الحملة الصليبية الأولى فى بلاد الشام ؛ و بنجاح رجال تلك الحملة فى استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين حتى تحمس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا فى الحملة الأولى للذهاب إلى الشام ليفوزوا بنصيب من الأسلاب قبل ضياع الفرصة ؛ فضلا عما كانو يرجونه

(1) Raoul de Caen; p. 706–707.
(2) Idem, p. 708.
(3) Grousset : Hist . des Croisades, I, p· 322

من المشاركة فى الحركة الصليبية وثوابها . ولا يخفى علينا أن الصليبيين فى الشام كانوا عندئذ فى حاجة ماسة إلى تلك المعونة البشرية ، لتعويض النقص فى الرجال من جهة ، ولاستئناف سياسة التوسع من جهة ثانية ، ثم لحراسة ما حققوه من مكاسب ضد أية محاولة انتقامية من جانب المسلمين من جهة ثالثة [١] .

وقد تألفت أول مجموعة من أولئك الصليبيين من اللمبارديين الذين تحركوا فى نهاية سبتمبر سنة ١١٠٠ نحو القسطنطينية عن طريق الدانوب تحت قيادة أنسلم رئيس أساقفة ميلان وألبرت وجيوبرت وهيو من الأمراء [١] . ويبدو أن هذه المجموعة من الصليبيين كانت شبيهة بحملة العامة فى الحملة الصليبية الأولى ، إذ لم تضم مع كثرة رجالها – سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين فى حين تألفت الغالبية العظمى من أفرادها من العامة والنساء والأطفال . هذا إلى أنهم أتوا من أعمال السلب والنهب ما جعل الامبراطور ألكسيوس كومنين يطالب منهم عند وصولهم إلى القسطنطينية فى مارس سنة ١١٠١ أن يعبروا إلى آسيا الصغرى [٢] . وقد عارض اللمبارديون تلك الأوامر الامبراطورية فى أول الأمر بحجة الرغبة فى انتظار بقية إخوانهم الوافدين من الغرب، ولكنهم اضطروا أخيرا إلى الاستجابة لنصيحة الأمير ريموند الصنجيلى ، فعبروا البسفور فى أبريل سنة ١١٠١ لينتظروا إخوانهم على الشاطىء الآسيوى [٤] .

ولم تلبث أن وصلت جموع صليبية أخرى من الفرنسيين والألمان ، فعبروا أيضاً البسفور وعسكروا عند نيقية على مقربة من اللمبارديين، حتى اجتمع الصليبيون جميعا فبلغت عدتهم نحو مائتى ألف ، ومن ثم بدأوا زحفهم تحت قيادة ريموند

(1) Setton : op. cit, I, p. p. 347–348·
(2) Runciman : op. cit, II, p. p. 18–19.
(3) Chalandon : Alexis Comnene p. p. 224–225.
(4) Albert d'Aix, p. p 560–562.

الصنجيلي . وكان الاتجاه الغالب فى أول الأمر هو أن يسلك الصليبيون أقصر الطرق للوصول إلى إخوانهم فى الشام ، وهو طريق ضور ليوم وقونيه ، وأيد هذا الرأى الامبراطور ألكسيوس والأمير ريموند نفسه[١] . ولكن جموع اللمبارديين أصروا على عدم اتباع ذلك الطريق وأصروا بأن تتجه الحملة ضد بنى دانشمند فى كابا دوكيا للانتقام لبوهيموند وفك سراحه من الأسر[٢] . ومن الواضح أن هذا الاتجاه كان خاطئاً لأن الملك غازى كمشتكين بن دانشمند كان قد نقل بوهيموند بعيداً فى قلعة نيكسار على حدود بلاده ، أى فى المنطقة الجبلية الواقعة على حافة البحر الأسود ، الأمر الذى تطلب من الصليبيين المغامرة للوصول إلى تلك الأطراف النائية[٣] . ولكن اللمبارديين ردوا على ذلك الاعتراض بأنه إن لم يمكن الوصول إلى بوهيموند فيكفى الانتقام له بتدمير أماسية وسيواس ، وهما المدينتان الرئيسيتان لبنى دانشمند . وهكذا أدى جهل اللمبارديين بطبيعة البلاد وعدم رغبتهم فى الاستماع للنصح إلى الانحراف بحملة سنة ١١٠١ عن طريقها الطبيعى ، مما عرضها لكوارث بالغة[٤] .

وكان أن أذعن البيزنطيون والأمير ريموند الصنجيلي و بقية الصليبيين لرأى اللمبارديين ، فوصلت الحملة إلى أنقرة فى أواخر يونيه سنة ١١٠١ واستولت عليها فى سهولة ، ومن هناك اتجه الصليبيون فى الاتجاه الشمالى الشرقى إلى كنغرى ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على هذه المدينة ، فاتجهوا شمالا للاستيلاء على قسطمونى على ساحل البحر الأسود . وهناك أخذ التعب يحل بالصليبيين لصعوبة

(1) Runciman : op. cit; II, p. 21.

(٢) ذكر ابن الأثير أن هدف تلك الحملة الصليبية كان تخليص بوهيموند من الأسر فقال : « ... وصل من البحر سبعة قامصة من الفرنج وأرادوا تخليص بيمند ... » .
(الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٣ هـ) .

(3) Setton : op. cit, I, p. 354.

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 324—325.

البلاد وجدبها وطول الطريق وقلة المؤن ، بعد أن دأب قلج أرسلان على الانسحاب من أمامهم مدمراً كل ما يمكن أن يستفيد منه الصليبيون ، و بخاصة مواد التموين[١] .

وفى ذلك الوقت أخذت تتجمع قوى الأتراك المشتتة لمواجهة الخطر الصليبى الجديد ، فأسرع قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ورضوان ملك حلب السلجوقى لنجدة الملك غازى كمشتكين ، واستعد الجميع للمعركة الحاسمة بين أماسية وسيواس[٢] وعندما وقعت الواقعة فى أوائل أغسطس سنة ١١٠١ كان اللمبارديون — وهم السبب فى تلك الكارثة — أول من ولى الأدبار ، وعبثاً حاول الأمير ريموند الصنجيلي و بقية الأمراء الفرنسيين والألمان حثهم على الثبات والمقاومة . وهكذا اضطر ريموند ومعه القوات البيزنطية التى رافقت الصليبيين إلى الانسحاب ، ولم يلبث ريموند أن فر شمالا نحو البحر الأسود — قرب سينوب — ومن هناك ركب سفينة إلى القسطنطينية[٣] .

وكان فرار ريموند بمثابة إعلان نهاية تلك الحملة ، إذ لم يلبث بقية الأمراء الصليبيين أن لاذوا بالفرار واستطاع معظمهم الوصول سالمين إلى ميناء سينوب البيزنطى ، ولكن بعد أن تركوا فى أيدى الأتراك أتباعهم ونساءهم وأطفالهم ومتاعهم ... ، و بذلك استولى السلاجقة على صفقة رابحة من الأسرى والغنائم. و بعد ذلك أخذ الأتراك فى مطاردة فلول الصليبيين ، فقتلوا منهم عدداً ضخماً قدره المؤرخون الصليبيون أنفسهم بما يتراوح بين مائة وستين ألفاً وخمسين

(1) Runciman : op. cit; II, p. 22.

(٢) ذكر ابن الأثير أن المسلمين نصبوا كميناً للصليبيين ، حتى إذا ما وصلوا الى ذلك الموضع بين أماسيه وسيواس « خرج الكمين عليهم » .
(الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣) .

(2) Albert d'Aix, p p. 569—570. &
Foucher de Chartres, p. 398.

ألف [١] فى حين ذكر ابن الأثير أنه « لم يفلت أحد من الفرنج وكانوا ثلاثمائة ألف غير ثلاثة آلاف هربوا ليلا وأفلتوا مجروحين [٢] » .

وهكذا محت تلك الكارثة التى حلت بالصليبيين على أيدى السلاجقة الأثر الرنان الذى تركه انتصار الصليبيين على السلاجقة فى ضوروليوم سنة ١٠٩٧ . وزاد من وقعها أنها لم تكن الكارثة الأخيرة ، إذ لم يلبث أن وصل إلى القسطنطينية فى منتصف يونيه سنة ١١٠١ وليم الثانى كونت نفرز Nevers (١٠٨٩ — ١١٤٧) على رأس خمسة عشر ألف من الفرسان والمشاه الفرنسيين [٣] . وقد أظهر أولئك الصليبيون الجدد رغبة فى اللحاق بإخوانهم اللمبارديين ، فأدركوا أنقرة فى غير صعوبة ، ومن هناك لم يستطيعوا اقتفاء أثر اللمبارديين ، فاتجهوا نحو قونيه التى وجدوها محصنة تحصيناً قوياً ففشلوا فى الاستيلاء عليها [٤] . وفى ذلك الوقت كان السلاجقة قد فرغوا من إبادة حملة اللمبارديين السابقة ، فتقدم قلج أرسلان والملك غازى ابن دانشمند نحو أولئك الصليبيين الجدد ، واستطاعوا أن يبيدوهم إبادة شبه تامة قرب مدينة هرقلة فى أواخر أغسطس سنة ١١٠١ . ولم يتمكن كونت نفرز من الفرار من مدينة أرمناك البيزنطية إلا فى صعوبة بالغة ، ومنها أخذه بعض البيزنطيين إلى أنطاكية [٥] .

وفى الوقت الذى كانت تلك الجموع الفرنسية تسعى إلى حتفها فى آسيا الصغرى ، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الحملة المشئومة فى أوائل يونيه سنة ١١٠١ إلى القسطنطينية ، وقد تألفت من ستين ألف صليبى بزعامة وليم التاسع دوق اكوتين — وهو شاعر التروبادور الشهير — وولف الرابع دوق بافاريا . وعندما عبر

(1) Albert d'Aix, p. p. 571—572.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٣ هـ .

(3) Setton : op. cit, I. p 358.

(4) Runciman: op. cit, II, p. 26.

(5) Albert d'Aix, p. p. 575—578.

هؤلاء الصليبيون البسفور على سفن بيزنطية ، تعرضوا أثناء عبورهم الأناضول لكثير من المتاعب بسبب صعوبة البلاد ونقص الماء والزاد [١] . وقد اتبع الأتراك مع تلك المجموعة من الصليبيين الخطة نفسها التى اتبعوها مع من سبقهم من الصليبيين ، فتركوا المدن مفتوحة أمامهم بعد إخلائها تماماً ، ومع إحراق أو إتلاف كل ما يمكن أن يفيد منه الصليبيون من مؤن وخلافه ، حتى إذا وصل الصليبيون فى طريقهم إلى أقصى ما يمكن أن يصلوا إليه من جوع وظمأ و إنهاك هاجموهم وقضوا عليهم فى سهولة [٢] . وهكذا وصل الصليبيون إلى قونيه ليجدوا المدينة خاوية الوفاض ، فواصلوا زحفهم فى الوقت الذى اجتمع قلج أرسلان سلطان قونيه والأمير غازى بن دانشمند وقراجا أمير حران ، وتربصوا جميعا للصليبيين على مقربة من هرقلة . وعندما انقض الأتراك على الصليبيين فى أوائل سبتمبر سنة ١١٠١ أبادوا الجيش الصليبى أولا عن آخر ، ولم يتمكن من النجاة بصعوبة إلا قلة قليلة ، منهم وليم التاسع دوق اكوتين وولف الرابع دوق بافاريا ، فاتجها إلى طرسوس ومنها إلى أنطاكية [٣] .

وهكذا لقيت حملة سنة ١١٠١ بأقسامها الثلاثة مصيرها المشئوم الذى جرتها إليه جموع اللمبارديين . ولو كان اللمبارديون استمعوا للنصح فى أول الأمر ولم يتجهوا إلى شمال شرق الأناضول ، لأمكن لهذه الحملة أن تبدأ بداية طيبة وأن تتفادى الكوارث التى حلت بها . ولاشك فى أن هذه الحملة كانت لها نتائج خطيرة أهمها تقوية الروح المعنوية عند الأتراك بعد أن تمكنوا من إنزال تلك الهزائم المتتالية بالصليبيين ، مما محا أثر الهزيمة التى حلت منذ سنوات بالسلاجقه فى ضوروليوم [٤] . وبذلك انسد طريق آسيا الصغرى مرة أخرى فى

(1) Matthieu d'Edesse (Hist. Arm. I) p. 59.

(2) Setton : op. cit; I, p. p. 361—362.

(3) Foucher de Chartres p. 399 & Guibert de Nogent. p. 243.

(4) Runciman : op. cit, I, p. 29.

وجه الصليبيين بعد أن كانت الحملة الأولى قد نجحت فى اقتحامه وفتحه ، واستمر هذا الطريق مغلقا طوال عدة سنوات مقبلة ، أى حتى أيام فردريك بربروسا فى أواخر القرن الثانى عشر . أما بالنسبة للموقف فى بلاد الشام ، فإن الكارثة التى حلت بحملة سنة ١١٠١ حرمت الصليبيين فى الشام من آلاف عديدة من الرجال كانت الإمارات الصليبية الناشئة — ومملكة بيت المقدس بوجه خاص — أحوج ماتكون إليهم للدفاع عن كيانها ، بعد أن تناقص عدد الصليبيين بالشام بصورة ملحوظة[١] . وأما بالنسبة للمدن التجارية الإيطالية ، فإن انسداد الطريق البرى مرة أخرى إلى الشام جعل اعتماد الصليبيين فى الشرق على الطريق البحرى الذى سيطرت عليه الأساطيل الإيطالية ، مما ضاعف من مكاسب البندقية وجنوا و بيزا وغيرها من قوى الغرب البحرية[٢] .

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 332—333.
(2) Runciman : op. cit, I, p. 30.

الفصل الثامن عشر

ريموند وتأسيس إمارة فى الشام

تنازل ريموند عن مطالبه فى أنطاكية واللاذقية :

اتجه بعض أمراء حملة سنة ١١٠١ الصليبية — بعد الكارثة التى حلت بهم — إلى أنطاكية ، فى حين استطاع معظم الناجين الفرار إلى القسطنطينية حيث أعد لهم الامبراطور ألكسيوس كومنين فى أوائل سنة ١١٠٢ سفنا حملتهم إلى الأراضى المقدسة[١] . وكان أن صحب ريموند الصنجيلى الفريق الأخير إلى الشام ، فوصلوا فى غير صعوبة إلى السويدية ، وهو الميناء الطبيعى لأنطاكية . ولكن ريموند لم يكد ينزل إلى البر فى يناير ١١٠٢ حتى قبض عليه أحد الفرسان متهما إياه بخيانة الصليبيين فى الأناضول مما عرضهم للكارثة التى حلت بهم ، وانتهى الأمر بتسليم ريموند لغريمه تنكرد الذى اعتقله فى قلعة أنطاكية[٢] . ولم يلبث تنكرد أن وجه إلى ريموند تهمة خيانة الصليبيين الغربيين والتواطىء مع الدولة البيزنطية ضدهم وضد مصالحهم بالشام . ولكن تنكرد وافق — تحت ضغط الأمراء الصليبيين — على إطلاق سراح ريموند ، بشرط أن يتعهد بالتنازل عن جميع ادعاءاته ومطالبه ، ليس فى أنطاكية فحسب ، بل فى اللاذقية أيضا . وعندما وافق ريموند على ذلك وأقسم على التخلى عن جميع المطالب السابقة ، أطلق تنكرد سراحه[٣] .

(1) Chalandon : Alexis Comnene, p. 231.
(2) Matthieu d'Edesse (Doc. Ar. I.); p. 57.
(3) Albert d'Aix, p. p. 582—583.

ولا شك فى أن هـذه الاتفاقية جاءت فاتحة خير بالنسبة للصليبيين بالشام ، لأنها وضعت حـدا للتنافس بين النورمان بزعامة بوهيموند ثم تنكرد من ناحية وبين أبناء بروفانس بزعامة ريموند الصنجيلى من ناحية أخرى ، وضمنت لإمارة أنطاكية اعترافا جديداً بوجودها مما ثبت أركانها . هذا فضلا عن أن ريموند أخذ منذ ذلك الوقت يعمل لحسابه الخاص على ساحل الشام، بعد أن كان معظم نشاطه السابق مكرسا لخدمة الإمبراطورية البيزنطية وتنفيذ سياستها ، فاتجـه نحو تأسيس إمارة لنفسه على حساب المسلمين بدلا من العمل على تقويض أركان إمارة أنطاكية الصليبية[1]. ويبدو أن ريموند أدرك أخيراً أن سياسته فى محالفة الإمبراطور البيزنطى لم تأت له بثمرة سوى الخسارة الفادحة ، إذ اعتبر الصليبيون هـذه السياسة خيانة لهم ؛ فى حين اكتشف الامبراطور البيزنطى فى نهاية الأمر أن حليفه ريموند أضعف من أن يقدم له معونة فعلية تخدم مطامع الامبراطورية ضد الصليبيين بالشام[2].

استيلاء ريموند على أنطرطوس :

وعندما اتجهت بقايا حملة سنة ١١٠١ من أنطاكية إلى بيت المقدس للحج، فكر ريموند الصنجيلى فى الاستفادة من تلك البقايا فى الاستيلاء على أنطرطوس (طرطوس)، وهى المدينة التى كانت وقت مجىء الحملة الصليبية الأولى تابعة لبنى عمار —أمراء طرابلس— حتى استولى عليها ريموند سنة ١٠٩٩ ثم سنة ١١٠٠. ولكن بنى عمار عادوا فاستردوها أثناء غياب ريموند مع الحملة اللمباردية فى آسيا الصغرى، مما جعل ريموند يحرص على الاستيلاء عليها من جـديد . وفعلا بدأ حصار

(1) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 334—335.
(2) Runciman op. cit, II, p. 56.

انطرطوس بمساعدة من معه من زعماء حملة ١١٠١ الفاشلة[1]، وصادف فى ذلك الوقت وصول أسطول جنوى إلى الشام فاستعان به ريموند فى حصار المدينة من ناحية البحر حتى سقطت المدينة فى يده فى فبراير سنة ١١٠٢[2]. ولم يكد ريموند يستولى على انطرطوس حتى اتخذها قاعدة لأعماله ومشروعاته المقبلة على ساحل الشام ، وأول هذه المشروعات فتح مدينة طرابلس ذاتها[3].

وكان صاحب طرابلس عندئذ هو القاضى فخر الملك أبو على بن عمار (١٠٩٩- ١١٠٨) الذى سبق أن رأينا سياسته المرنة تجاه الحملة الصليبية الأولى ، وكيف أنه لم يعاد الصليبيين ، حتى عندما هاجموا عرقة التابعة له ، أو طرابلس ذاتها . كذلك أشرنا إلى أن القاضى فخر الملك هذا حالف بلدوين الأول ملك بيت المقدس وحذره من الكمين الذى نصبه سلاجقه دمشق . والواقع إن فخر الملك لم يأت بجديد فى سياسته هذه ، إذ حرص أسلافه دائما على الاحتفاظ باستقلالهم وسط النزاع بين الفاطميين من ناحية وسلاجقه الشام من ناحية أخرى ، وكذلك حرص هو على أن يمسك العصا من الوسط بين الفاطميين والدماشقة من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى .[4]

على أن الموقف تبدل عندما استولى ريموند على أنطرطوس وأخذ يصر فى عناد على الاستيلاء على طرابلس ، فعندئذ أصبح لزاما على فخر الملك أن يقبل مضطرا مبدأ الحرب دفاعا عن كيانه ، وأن يلقى بنفسه — مكرها أيضا — بين أحضان القوى الإسلامية القريبة لمواجهة ذلك الخطر[5]. وكان أن أرسل فخر الملك أبو على بن عمار مستنجداً بملك دمشق دقاق من ناحية ، وبأمير حمص

(1) Albert d'Aix, p. 583.
(2) Heyd : op cit, I, p.—139.
(3) Archer : op. cit p.156.
(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 337.
(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ .

— جناح الدولة — من ناحية أخرى. وفى ذلك الوقت كان أعوان ريموند من الصليبيين قد اتجهوا نحو بيت المقدس، ولم يبق معه سوى جيش صغير من ثلثمائة رجل، استغلهم فى مهاجمة الجهات القريبة، بل لقد بلغت به الجرأة حد مهاجمة طرابلس نفسها بذلك الجيش الصغير[١]. وكان من الممكن للمسلمين إذا تعاونوا أن يقضوا على ريموند وهو فى تلك القوة الصغيرة، إذ يذكر ابن الأثير أن فخر الملك أرسل إلى دقاق وإلى صاحب حمص يقول لهما « من الصواب أن نعاجل صنجيل إذ هو فى هذه العدة القريبة »[٢].

وكان أن أرسل جناح الدولة صاحب حمص قوة إلى طرابلس، كما أرسل دقاق ألفى فارس، واجتمعت تلك الجيوش مع جيش ابن عمار عند أسوار طرابلس حيث بدأت المعركة ضد ريموند. وهنا يروى ابن الأثير كيف ثبت ريموند، فخصص مائة من رجاله لقتال أهل طرابلس، ومائة لقتال الدماشقة، وخمسين لقتال عسكر حمص، واحتفظ لحراسته بالخمسين الباقين. وبفضل تلك الخطة استطاع ريموند أن ينزل الهزيمة بالمسلمين الذين قتل منهم سبعة آلاف فى حين ارتد الباقون داخل أسوار طرابلس![٣].

ومهما يكن فى هذا القول من مبالغة واضحة، فالذى يهمنا هو أن ريموند لم يشأ أن يضيع ثمرة انتصاره، وإنما شرع فى حصار طرابلس فوراً، وأقبل لمساعدته المسيحيون من الجهات القريبة مثل الجبل والسواد. ولكن يبدو أن ريموند سرعان ما أدرك صعوبة المهمة التى تنتظره وأن طرابلس ليست بالسهولة التى يظنها، فقنع بما عرضه عليه صاحب طرابلس من جزية من المال

(1) Raoul de Caen, p. 707.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، سنة ٤٩٥ هـ .

والخيل، وانسحب بعد ذلك إلى أنطرطوس (مارس - ابريل ١١٠٢)[١]

ريموند وإمارة حمص :

وبعد أن عقد ريموند الهدنة السابقة مع ابن عمار، خرج فى ربيع سنة ١١٠٢ لغزو سهل البقاع حيث كانت ممتلكات أمير حمص تمتد غربا حتى جبل عكار. وقد بدأ ريموند أولا بمهاجمة حصن الطوبان — إلى الشمال الشرقى من حصن الأكراد — وذلك لأن ابن العريض مقدم حصن الطوبان أسر فارسا من « أكابر فرسانه » ورفض إطلاق سراحه مقابل مبلغ كبير من المال[٢]. وفى السنة نفسها — ١١٠٢ — هاجم ريموند حصن الأكراد أيضا، وهو حصن يمتاز بموقعه الحربى الفريد حيث أنه يشرف على كل الإقليم بين أنطرطوس وطرابلس من جهة وحمص من جهة أخرى[٣]. وكان ريموند قد سبق أن استولى على حصن الأكراد فى يناير سنة ١٠٩٩، ولكن أمير حمص عاد فاسترده. وعندما سمع جناح الدولة صاحب حمص أن ريموند عاد إلى تهديد حصن الأكراد سنة ١١٠٢، أخذ يستعد ويجمع قواته للدفاع عنه، عندما دهمه ثلاثة من الباطنية فى جامع حمص الكبير أثناء تأديته الصلاة وقتلوه بغتـــة فى مايو سنة ١١٠٢[٤].

(١) المرجع السابق & Raoul de Caen, p. 707.
ويذكر ابن الأثير أن ريموند عندما انصرف من منطقة طرابلس إلى أنطرطوس فتح هذه المدينة الأخيرة . والحقيقة إن فتح أنطرطوس سبق زمنياً الموقعة بين ريموند من ناحية وقوات طرابلس وحمص ودمشق من ناحية أخرى .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

(3) Stevenson : op. cit, p 54.

(٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (Rec. Hist. Or. p. p. 525—526).
وابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .
ويروى صاحب مرآة الزمان أن أولئك الباطنية كانوا من العجم وأنهم اقتربوا من جناح =

ولا شك فى أن هذه الجريمة التى خلصت ريموند من ألد خصومه تعطينا فـكرة واضحة عن مدى انحلال المحيط الإسلامى فى بلاد الشام عندئذ ، مما مكن الصليبيين من تحقيق أطماعهم وسهل عليهم الحصول على مكاسب كبيرة ، ما كانوا ليحصلوا عليها بتلك السهولة لولا ذلك الانحلال فى صفوف خصومهم [١] . والتاريخ لا يتهم فى جريمة مقتل جناح الدولة سوى رضوان ملك حلب ، الذى ربطته به رابطة وثيقة . ذلك أن جناح الدولة كان متزوجا من أم رضوان ، ولـكن النزاع دب بين الرجلين سنة ١١٠٠ ، مما جعل رضوان يستأجر ثلاثة من الباطنية الفرس لتنفيذ جريمته الوحشية فى زوج أمه [٢] .

ولم يكد ريموند يسمع بمقتل جناح الدولة صاحب حمص ، حتى أسرع بمغادرة حصن الأكراد واتجه صوب حمص ذاتها للاستفادة من حالة الاضطراب والقلق التى غدت فيها المدينة بعد مقتل صاحبها ، وفعلا وصل ريموند إلى حمص «ونازلها وحصر أهلها وملك أعمالها [٣] » فأرادت الخاتون - أرملة جناح الدولة - أن تستدعى ابنها رضوان صاحب حلب للدفاع عن حمص ؛ ولـكن رجال جناح الدولة عارضوا ذلك الاتجاه ، وفضلوا أن يستنجدوا بدقاق ملك دمشق . وعندما أحس ريموند باقتراب دقاق ، أدرك أن قوته أصغر من أن تستطيع الوقوف بين نارين ، فقنع بما فرضه على حمص من جزية مالية وانصرف عنها .

= الدولة وهم فى زى الزهاد وأخذوا يدعون له ويستحثونه ثم ضربوه بسكاكينهم فخر قتيلا .

(١) وصف المؤرخ أبو المحاسن صاحب حمص حسين بن ملاعب جناح الدولة بأنه « كان أميراً مجاهداً شجاعاً يباشر الحروب بنفسه » (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٨) .

(٢) ذكر أبو المحاسن أن سبب قتل حسين بن ملاعب جناح الدولة « أنه كان عند رضوان بن تتش ملك حلب منجم باطنى ، فندبه لقتل جناح الدولة هذا أولئك النفر ، ثم قتل المنجم بعد ذلك بأربعة عشر يوماً » . (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٩) .
أما ابن الأثير فقد قال فى صراحة : « وقيل إن الملك رضوان ربيبه وضع عليه من قتله » .
(الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

وهكذا وضع دقاق يده على حمص ، وأناب عنه فى حكمها أتابكه طغتكين (أيتكين) [١] .

أما عن ريموند الصنجيلى فقد عاد أدراجه ليقوم بعملية حربية أخرى ناجحة . ذلك أنه انتهز فرصة وصول أسطول جنوى إلى اللاذقية فى شتاء سنة ١١٠٣ واستغل تلك القوة البحرية فى مهاجمة طرابلس . وعندما فشل الصليبيون فى الاستيلاء على طرابلس «ولم يروا فيها مطمعا » ، اتجهوا جنوبا لمهاجمة جبيل [٢] ، وهى قلعة صغيرة تقع على الساحل بين طرابلس و بيروت وكانت هى الأخرى تابعة لبنى عمار [٣] . ولم تستطع جبيل الصمود فى وجه الحصار البحرى الذى فرضه عليها الجنوية ، والهجوم البرى من جانب ريموند ، فاضطرت إلى الاستسلام فى أواخر سنة ١١٠٤ [٤] . ويرى ابن الأثير أن الصليبيين لم يفوا بالأمان الذى منحوه لأهالى جبيل ، فأخذوا أموالهم واستنفذوها بالعقوبات وأنواع العذاب [٥] أما الجنوية فقد كافأهم ريموند بإعطائهم ثلث جبيل ، مما مهد فيما بعد لأن تصبح جبيل ذاتها مستعمرة جنوية لها أهميتها تحت إشراف أسرة امبرياتشى Embriaci [٦] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. p. 591.)

(2) Heyd : op. cit, I, p. 139.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ . ٩
ابن الأثير : الـكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(4) Albert d'Aix, p. 606.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(6) Heyd : op. cit, I, p. p. 139—141 ; 150&158.
وكان الأسطول الجنوى الذى ساعد ريموند فى الاستيلاء على جبيل بقيادة أمير البحر هيوامبرياتشى .

خاتمة: ريموند الصنجيلي:

وبالاستيلاء على انطرطوس فى الشمال وجبيل فى الجنوب تم وضع الإطار الخارجى لإمارة طرابلس الصليبية، ولم يبق سوى الاستيلاء على العاصمة الطبيعية لتلك الإمارة، وهى مدينة طرابلس ذاتها. ولكن هذه المدينة كانت محصنة تحصينا طبيعياً يجعل من الصعب على ريموند انتزاعها، إذ أنها قائمة على شبه جزيرة داخلة فى البحر، مما مكن صاحبها ابن عمار من الحصول على ما يحتاج إليه من مؤن عن طريق البحر فى حالة حصار مدينته براً. لذلك لجأ ريموند إلى بناء قلعة أسماها المسلمون قلعة صنجيل نسبة إلى ريموند (Saint — Gilles) فى مواجهة طرابلس مباشرة، أى على الجبال المقابلة لها، وذلك لإحكام الرقابة عليها وقطعها عن العالم الداخلى؛ وأعانه فى بناء هذه القلعة الامبراطور البيزنطى الذى أرسل له الميرة والأخشاب والمعدات اللازمة لبنائها من جزيرة قبرس[1].

وهكذا أصبح موقف بنى عمار فى طرابلس خطيرا ولم يعد أمامهم طريق للانتصال بالعالم الخارجى سوى طريق البحر، فى حين تكاتف المسيحيون المحليون — من الموارنة وغيرهم — مع ريموند لإحكام الحصار المفروض على طرابلس[2].

وتروى المراجع العربية أن بنى عمار حاولوا هدم قلعة صنجيل (أغسطس — سبتمبر ١١٠٤) وإشعال النار فيها، ولكنهم لم يحققوا غرضهم[3]. وكل ما هنالك هو أن ريموند أصيب بجروح نتيجة لسقوط بعض أجزاء القلعة المشتعلة

(١) ابن الأثير: الكامل، سنة ٤٩٩ هـ &
Guillaume de Tyr, I. p. 441.

(٢) المرجعان السابقان.

(٣) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٩٩ هـ.

عليه. ويشير صاحب مرآة الزمان إلى أن ريموند توفى بعد أن عقد هدنة مع ابن عمار، تقضى بأن يكون للأول « ظاهر طرابلس دون أن يقطع الميرة والمسافرين عنها » ولكن هذا الرأى الاخير لا يوجد ما يدعمه فى المراجع الصليبية، فضلا عن بقية المراجع العربية[1].

ومهما يكن من أمر، فإن ريموند لم يلبث أن توفى فى قلعة صنجيل فى نهاية فبراير سنة ١١٠٥ متأثرا بجروحه، قبل أن يحقق أمنيته فى الاستيلاء على مدينة كبرى من مدن الشام مثل أنطاكية أو بيت المقدس يتخذها مركزاً لإمارة جديدة لنفسه. وإذا كانت مدينة طرابلس ذاتها لم تسقط فى يد ريموند، إلا أنه صاحب الفضل فى تأسيس إمارة طرابلس ووضع إطارها العام وتسهيل مهمة الاستيلاء عليها أمام خلفائه.

وقد شاءت الظروف أن تكون طرابلس آخر مدينة كبرى بالشام تسقط فى أيدى الصليبيين وآخر إمارة كبرى يؤسسها الصليبيون بعد الرها وأنطاكية وبيت المقدس، ولكنها فى الوقت نفسه كانت آخر إمارة صليبية فى بلاد الشام يستردها المسلمون عندما دالت دولة الصليبيين فى أواخر القرن الثالث عشر. فالرها التى سقطت فى أيدى الصليبيين سنه ١٠٩٨ عادت إلى المسلمين سنة ١١٤٤، وبيت المقدس التى استولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٩ استردها المسلمون سنة ١١٨٧، وأنطاكية التى غزاها الصليبيون سنة ١٠٩٨ استعادها المسلمون ١٢٦٨. أما طرابلس التى لم تقع فى أيدى الصليبيين إلا سنة ١١٠٩، فقد ظلت باقيه فى قبضتهم حتى سنة ١٢٨٩[2].

(١) سبط بن الجوزى: مرآة الزمان (p. 528).

(2) Grousset: Hist. des Croisades, I, p. p. 344—345.

الفصل التاسع عشر

أعمال وليم جوردان

وليم جوردان وحصار طرابلس :

ترك ريموند الصنجيلي ابنه الأكبر برتراند يحكم أملاكه فى الغرب الأوربى (تولوز) ؛ فى حين اختار أفصال ريموند وفرسانه فى الشام ابن خالته وليم جوردان ليتابع سياسته فى الشرق . وكان أن استأنف وليم سياسة ريموند بجميع أركانها ، فاحتفظ بالعلاقات الطيبة مع البيزنطيين من جهة ، واستمر فى إحكام الحصار البرى حول مدينة طرابلس عن طريق قلعة صنجيل من جهة أخرى[1] . ودليل ذلك كله ما يرويه ابن الأثير من أن الإمبراطور البيزنطى « أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس فحملوها فى البحر (من قبرس) »[2] . وقد دارت عندئذ معركة بحرية بين السفن البيزنطية وسفن بنى عمار ، أسرت فيها سفينة بيزنطية واقتادها المسلمون إلى ميناء طرابلس[3] .

على أن ابن عمار وجد نفسه فى حاجة إلى معونة خارجية عاجلة لمقاومة حصار وليم جوردان ، وبخاصة بعد أن ساءت أحوال طرابلس وارتفعت أسعار الطعام فيها ارتفاعاً فاحشاً ، وهجرها الفقراء وافتقر الأغنياء وفشلت جهود فخر الملك بن عمار فى تخفيف حدة الأزمة[4] ، ولما كان ابن عمار لا يستطيع طلب هذه العونة

(1) Runciman : op. cit, II, p. 62.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٢ — ١٦٣ .

من طغتكين أتابك دمشق وحمص بسبب ماوقع بين الطرفين من خلاف وعداء أو من الفاطميين الذين يرغبون فى انتزاع طرابلس لأنفسهم من بنى عمار ، فإنه لم يبق سوى الأمير الأسبق لبيت المقدس وهو سكمان بن أرتق التركمانى الذى أصبح عندئذ صاحب حصن كيفا فى ديار بكر . وكان أن تحرك سكمان فعلا لنجدة طرابلس ولكنه لم يلبث أن توفى فى الطريق ، وبذلك انقطع آخر أمل تعلق به بنو عمار للحصول على معونة خارجية تمكنهم من إنقاذ طرابلس (سنة ١١٠٥)[1] .

وهكذا ضاقت دائرة الحصار حول طرابلس ، فاضطر أهلها إلى بيع ما لديهم « من الحلى والأوانى الغريبة » لشراء ما يلزمهم من قوت ، فى حين آثر بعضهم الفرار إلى صفوف الفرنجة[2] . ومع ذلك فقد استمرت المدينة تقاوم الحصار ثلاث سنوات أخرى بفضل قوة عزيمة ابن عمار من ناحية ، وافتقار الصليبيين إلى أسطول بحرى يحكم الحصار على طرابلس من ناحية البحر من ناحية أخرى[3] . ويبدو أن ثراء طرابلس وكثرة ما فيها من ذهب وفضة ، ثم استعداد أهلها فى محنتهم لدفع الأثمان الباهظة مقابل القليل من الغذاء ، ساعد كل ذلك على تهريب المؤن إليها من جزيرة قبرس البيزنطية ، بل من إمارة أنطاكية الصليبية « وجزاير البنادقة »[4] .

وإزاء إصرار الصليبيين على حصار طرابلس ، اضطر فخر الملك ابن عمار إلى السفر فى ربيع سنة ١١٠٨ إلى بغداد لطلب النجدة من زعيمى العالم الإسلامى فى المشرق ، وهما الخليفة المستظهر العباسى (١٠٩٤ — ١١١٨) والسلطان محمد السلجوقى (١١٠٤ — ١١١٧)[5] . وقد أناب فخر الملك عنه فى حكم طرابلس

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ ، ٤٩٩ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٩ هـ

(3) Setton : op. cit, p. 396.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ .

ابن عمه ذو المناقب بن عمار ، ودفع مرتبات الجند لستة أشهر مقبلة ، ثم اتجه إلى
بغداد حاملا معه الهدايا الفاخرة للعاهلين العباسى والسلجوقى[1] وتلقى رواية ابن
الأثير عن رحلة ابن عمار إلى بغداد ضوءاً ساطعاً على مدى تفكك المسلمين فى
المشرق عندئذ ، وانحلال الخلافة العباسية ، فضلا عن السلطنة السلجوقية ، إذ لم
يجد ابن عمار من الطرفين سوى الكلمات المعسولة والسؤال « عن حاله وما يعانيه
فى مجاهدة الكفار ويقاسيه من ركوب الخطر فى قتالهم » ؛ ولكنه لم يظفر بشىء
من المعونة المنشودة ! [٢] .

وهكذا لم يسع ابن عمار سوى أن ينصرف عائداً إلى إمارته فى أغسطس
سنة ١١٠٨ بخفى حنين ؛ ولكنه لم يكد يصل إلى الشام حتى سمع أن طرابلس
نفسها قد طارت من يده أثناء غيابه . ذلك أن أهل طرابلس عندما ضاق بهم
الحال أرسلوا إلى الوزير الأفضل الجمالى فى القاهرة يطلبون منه حماية الدولة
الفاطمية لهم ، ويعرضون عليه تسلم المدينة للدفاع عنها ؛ فأرسل إليهم شرف الدولة
ابن أبى الطيب والياً سنة ١١٠٨ « ومعه الغلة وغيرها مما يحتاجون إليه أهل البلاد
فى الحصار ، فلما سار فيها قبض على جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه وأخذ ما وجده
من آلاته وذخائره وغير ذلك وحمل الجميع إلى مصر فى البحر » . وبذلك خرجت
طرابلس من قبضة بنى عمار وآلت إلى الفاطميين[٤] . ولم يبق لابن عمار بعد ذلك
سوى جبلة ، وهى قلعة صغيرة على الساحل بين اللاذقية والمرقب[٣] .

ولكن إذا كان الفاطميون قد حققوا أمنيتهم فى امتلاك طرابلس إلا أنهم

(1) Stevenson : op. cit, p. 56.

(٢) سبط ابن الجوزى p. 535 &
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠١ .

(٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان p. 536 .

كانوا أضعف من أن يستطيعوا حمايتها . ويعبر أبو المحاسن عن ذلك بالتنديد
بعدم اكتراث الفاطميين بالفرنج « من كل وجه وتقاعدهم عن المسير »[١] .

استيلاء وليم جوردان على عرقة :

ولم يلبث أن كثر الطامعون فى حطام إمارة بنى عمار ، فبينما فاز الفاطميون
بمدينة طرابلس ذاتها ؛ إذا بطغتكين أتابك دمشق يسعى للاستيلاء على عرقة
الواقعة شمالى طرابلس . والمعروف أن حصن عرقة كان « من الحصون المنيعة »[٢] ،
ويتمتع بموقع حربى هام لأنه بمثابة الباب الشمالى لطرابلس ، ويؤدى استيلاء
الدماشقة عليه إلى قطع الطريق على الصليبيين بين أنطرطوس (طرطوس)
وطرابلس[٣] .

وكان فخر الملك أبو على ابن عمار فى أواخر أيام حكمه قد عهد بقلعة عرقة
إلى أحد رجاله ، ولكن هذا « الغلام » طمع فى الاستقلال بعرقة « وعصى على
مولاه » ؛ وفى الوقت نفسه لم يستطع الصمود فى وجه وليم جوردان فعرض على
طغتكين أن يعطيه إياها ، وبعث إليه يقول « أرسل من يتسلم هذا الحصن منى ،
قد عجزت عن حفظه ، ولأن يأخذ المسلمون خير لى دنيا وآخرة من أن يأخذه
الفرنج » . لذلك أرسل طغتكين على الفور ثلثمائة من رجاله إلى عرقة تحت رآسة
رجل اسمه اسرائل[٤] .

وعندما خرج طغتكين من دمشق فى مارس سنة ١١٠٨ للقيام بعدة هجمات

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة سنة ٥٠٢ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

(3) Stevenson : op cit; p. 56

(٤) ابن الأثير : الكامل ،حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

على القلاع الصليبية القريبة ، ولزيارة حصن عرقة « والاطلاع عليه وتقويته بالعساكر والأقوات وآلات الحرب » ؛ تصدى له وليم جوردان ، فلاذ الدماشقة بالفرار وعلى رأسهم طغتكين نفسه ، وظل وليم يطاردهم حتى مشارف حمص ، ثم عاد متجها صوب شيزر . وقد حاول الأخوان مرشد وسلطان ــ أميرا شيزر ــ الإيقاع بوليم جوردان وأسره ، ولكنه انتصر عليهما [١] . وهكذا عاد وليم بعد ذلك النصر المزدوج ليستولى على عرقه التى سقطت بعد حصار ثلاثة أسابيع (ابريل سنة ١١٠٨) . ويروى بعض المؤرخين الصليبيين أن حامية عرقه عندما يئست من المقاومة فرت ليلا وتركت القلعة خالية ليحتلها الصليبيون فى الصباح التالى [٢] ؛ فى حين يؤكد ابن الأثير أن أهل عرقه طلبوا « الأمان ، فأمنهم (جوردان) على نفوسهم » [٣] .

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٥٠ . ويطلق أسامة وابن الأثير على وليم جوردان اسم « السرداني » .

(2) Albert d'Aix, p. 663.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ .

الفصل العشرون

برترام وظهور إمارة طرابلس

التنافس بين وليم جورداں وبرترام :

وهكذا ظل وليم جوردان أكثر من ثلاث سنوات يواصل جهوده الصليبية على ساحل الشام مؤملا أن يتوج تلك الجهود بالاستيلاء على طرابلس نفسها . ولكنه قبل أن يتمكن من تحقيق تلك الأمنية تعرض لمنافس خطير وصل إلى الشام لينتزع منه تلك الإمارة الصليبية الجديدة التى أوشكت أن تولد . ولم يكن هذا المنافس سوى برترام (برتراند) الابن الأكبر لريموند الصنجيلى ، وصاحب الحق الشرعى فى تركة أبيه [١] .

وكان برترام قد أعد العدة لرحلته إلى الشرق ، وعمل حساب ما قد يواجهه من مصاعب ، فخرج من بلاده ــ بروفانس ــ على رأس أربعة آلاف فارس يحملهم أسطول قوى من أربعين سفينة . ويبدو أن برترام أتى إلى الشام وقد وضع فى برنامجه ضرورة الاستيلاء على مدينة طرابلس ، لأنه حرص فى طريقه من الغرب على أن يمر بجنوا حيث أجرى مباحثات عن الشروط التى تقبل بها جنوا مساعدته فى تحقيق أغراضه [٢] . هذا فى الوقت الذى كان وليم جوردان من ناحية أخرى

(١) خلف برترام أباه ريموند الصنجيلى فى إمارة تولوز كما سبق أن ذكرنا . ولكن حق برترام فى وراثه أبيه كان مزعزعاً لأنه كان ابناً غير شرعى له . وكان لريموند ابن آخر شرعى صغير السن هو ألفونسو جوردان ، فاستدعاه أهل تولوز وأمروه عليهم ، وتم الاتفاق بين الأخوين سنه ١١٠٨ على أن يرث ألفونسو أباه فى ممتلكاته الغربية ، فى حين يرث برترام أباه فى ممتلكاته بالشام . انظر :

(Runciman : op. cit, I, ps. 61,64—65.)

(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 352.

قد أدرك ضرورة الحصول على مساعدة إحدى القوى البحرية الإيطالية للاستيلاء على طرابلس ، فأرسل هو الآخر سفيرا إلى جنوا للغاية ذاتها . ولكن وجود برترام بنفسه فى جنوا جعله يكسب الجولة ، فتعهدت له جنوا بأن تساعده فى الحصول على تركة أبيه فى الشام من ناحية وفى الاستيلاء على طرابلس من الفاطميين من ناحية أخرى ، مقابل تعهد برترام بمنح الجنوية امتيازات تجارية واسعة فى طرابلس [1] . وهكذا أبحر برترام من جنوا إلى الشرق وبصحبته أسطول جنوى قوى مؤلف من ثمانين سفينة . وعندما مرت هذه الحملة بالدولة البيزنطية ، رحب الامبراطور ألكسيوس كومنين ببرترام ابن حليفه ريموند ، وأكرم وفادته فى القسطنطينية وقدم له كثيرا من الهدايا ؛ وفى مقابل كل ذلك أقسم برترام يمين الولاء للامبراطور مجددا الحلف بين أمراء بروفانس والامبراطورية البيزنطية [2] .

على أن الأسطول البروفنسالى — الجنوى لم يتجه نحو انطرطوس مباشرة ، وانما اختار برترام أن ينزل فى ميناء السويدية حيث قابل تنكرد أمير أنطاكية . وقد طلب برترام من تنكرد إعطائه نصيب أبيه ريموند فى أنطاكية ، فأجاب تنكرد بأنه مستعد لبحث هذا الموضوع بشرط أن يساعده برترام فى الحملة التى يوشك تنكرد القيام بها ضد مدينة المصيصة فى قيليقية لاستردادها من البيزنطيين [3] . وعندئذ تذكر برترام عهده للامبراطور البيزنطى، فرفض الموافقة على هذا الشرط ، الأمر الذى استثار غضب تنكرد ، فطلب منه الرحيل فوراً وألا تطأ قدمه بعد ذلك أرض إمارة أنطاكية [4] .

(1) Heyd : op. cit, I, 140.
(2) Albert d'Aix, p. 664.
(3) Runciman : op. cit; II. p. 66.
(4) Albert d'Aix, p. p. 665—666.

وهكذا أبحر برترام ومعه حلفاؤه الجنوية نحو أنطرطوس التى كانت حتى ذلك الوقت أهم مركز فى ممتلكات أسرة ريموند بالشام . وعندما طالب برترام قريبة وليم جوردان بتسليمه تركة أبيه من المدن والبلاد ، رد الأخير بأن هذه البلاد جميعاً من حقه وحده ، لأنه هو الذى ظل يدافع عنها — بعد وفاة ريموند — قرابة أربع سنوت ، ولولاه لضاعت تلك البلاد بين المسلمين من ناحية والنورمان فى أنطاكية من ناحية أخرى . هذا بالإضافة إلى أنه — أى وليم — ضاعف تلك التركة بالاستيلاء على عرقه وحصن عكار [1] . وبذلك تعقد الموقف بين وليم جوردان من ناحية وبرترام من ناحية أخرى ، مما جعل الأول يستنجد بتنكرد بعد أن تعهد بأن يصبح تابعا له ، فوعده تنكرد بالحضور على رأس قواته إلى أنطرطوس للاشتراك مع وليم فى طرد برترام [2]

على أن برترام لم ينتظر وصول تنكرد ، وإنما ترك أنطرطوس واتجه على رأس قواته وصحبته الأسطول الجنوى إلى طراباس ليحاصرها براً وبحراً ، وفى الوقت نفسه أرسل برترام رسالة عاجلة إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس يخبره بتحالف وليم جوردان وتنكرد ضده لحرمانه من تركة أبيه ، ويطلب إليه الحضور على عجل لمساعدته ، مع تعهده بالولاء والتبعية لمملكة بيت المقدس [3] .

ولم يكن بلدوين الأول بالرجل الذى يترك تلك الفرصة تفلت من يده ، وهو الحريص على أن يجعل من مملكة بيت المقدس سلطة عليا تهيمن على جميع الإمارات الصليبية ببلاد الشام . لذلك أسرع بإيفاد رسولين إلى تنكرد ووليم جوردان لإحاطتهما علماً بأن برترام تحت رعاية الملك بلدوين نفسه وحمايته ،

(1) Foucher de Chartres; p. 419.
(2) Settou : op. cit, I, p. 397.
(3) Albert d'Aix : p. 666.

ويحذرهما من القيام بأى عمل عدوانى ضده . ثم اختتم الملك رسالته إليهما بدعوتهما إلى الحضور لمقابلته أمام طرابلس للنظر فى رد تركة ريموند إلى ابنه برترام [١] . ولم يلبث أن خرج بلدوين الأول على رأس خمسمائة من فرسانه قاصداً طرابلس حيث التقى به برترام ، وأقسم له يمين الولاء . أما وليم جوردان ، فذهب إلى تنكرد وأراد أن يستحثه على القتال ، ولكن الأخير هدأ من ثورته ، وصحبه إلى طرابلس حيث لحق بهما بعد قليل بلدوين دى بورج أمير الرها [٢] .

وهكذا التقى جميع زعماء الصليبيين بالشام وشمال العراق فى قلعة صنجيل أمام طرابلس، حيث عرض النزاع بين برترام ووليم جوردان على بساط البحث . وفى ذلك الموقف أظهر الملك بلدوين الأول براعة وحكمة فى تسوية الخلافات بين صفوف الصليبيين ، فتم الصلح بين تنكرد و بلدوين دى بورج ، كما تم الصلح بين برترام ووليم جوردان [٣] . وقد قام الصلح الأخير على أساس تقسيم تركة الأمير ريموند بين المتنازعين ، فأخذ وليم جوردان عرقه وانطرطوس فى حين أخذ برترام قلعة صنجيل وجبيل، علاوة على طرابلس عندما يتم فتحها . وتقرر أنه إذا مات أحدهما دون ولد فإن الآخر يرثه فى ممتلكاته .

استيلاء الصليبيين على طرابلس :

وكان النجاح فى الوصول إلى الاتفاقية السابقة إيذاناً بتوجيه جهود الصليبيين ضد طرابلس، تلك المدينة التى ظلت تقاوم الحصار ست سنوات متواصلة. ولم يكن بوسع طرابلس فى تلك المرة أن تقاوم فرسان بيت المقدس و بروڤانس وأنطاكية،

(1) Runciman : op. cit, II. p. 68.
(2) Grousset : op. cit, I, p. p. 355—356.
(3) Stevensen : op cit, p. 57.
(4) Albert d'Aix, p. p. 668 & Guillaume de Tyr, p. 466.

والرها مجتمعين ، فى الوقت الذى أخذ الأسطول الجنوى الكبير يحكم الحصار عليها من ناحية البحر [١] . ولو كانت الحكومة الفاطمية قد اتخذت إجراءاً سريعا عندئذ لتموين طرابلس وتزويدها بالرجال والسلاح ، لأمكن للمدينة أن تقاوم ، ولكن الأسطول الذى أعدته القاهرة لنجدة طرابلس ظل منتظرا فى موانى الدلتا لحين صدور تعليمات بشأن الخلاف بين قادته ؛ فلما أزمع الحركة صادفته رياح مضادة عرقلت سيره . وفى تلك الأثناء ساءت أحوال أهل طرابلس « وسقط فى أيديهم ، وذلت نفوسهم ، وزادهم ضعفا تأخر الأسطول المصرى عليهم بالنجدة والميرة » [٢] . وأخيراً أبحرت العمارة الفاطمية نحو طرابلس بعد فوات الأوان ، ولم تكد تصل إلى مياه طرابلس نفسها « حتى وجدوا البلد قد أخذت ، فعادوا كما هم!! » [٣] .

وهنا يقف المؤرخ أبو المحاسن وقفة قصيرة ليلقى على الفاطميين تبعة سقوط طرابلس ويلومهم لعدم اكتراثهم بمحاربة الصليبيين ، ثم يحدد مظاهر عدم الاكتراث بالدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور : الأول تقاعدهم عن المسير تلك المدة الطويلة ؛ والثانى ضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد ؛ والثالث عدم خروج الوزير الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية . « هذا مع قوتهم (الفاطميون) فى العساكر والأموال والأسلحة ! » [٤] .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٩ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .
(٣) المرجع السابق ؛ ويذكر أبو المحاسن أن الأسطول الفاطمى حضر بعد تأخير « وصار كلما سار نحو البلدة رده الفرنج إلى نحو مصر » حتى تمكن من الوصول الى طرابلس أخيراً فوجدها قد أخذت . (أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٩) .
(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٩ .

والواقع إن أهل طرابلس عندما وجدوا أنفسهم وحيدين أمام مجموعة من الأعداء ، واضطروا إلى التفكير فى التسليم ، طلبوا أن يكون تسليمهم للملك بلدوين الأول والأمير برترام ، بشرط عدم الاعتداء على حياة من يرغب فى الخروج من المدينة وعلى ممتلكات من يرغب البقاء فيها[1] . وقد قبل الملك بلدوين تلك الشروط ، وبذلك دخل الصليبيون طرابلس فى ١٢ يوليه سنة ١١٠٩ فاحترموا الشروط السابقة ، وسمحوا للقائد الفاطمى – على قول ابن الأثير – بمغادرة المدينة ومعه فريق من رجاله ، وأمن الصليبيون طريقهم إلى دمشق[2] . ولكن ذلك لم يمنع ابن الأثير من الإشارة إلى ما ارتكبه الصليبيون داخل طرابلس من حوادث النهب والسلب[3] .ولعل تفسير هذا التناقض فى مسلك الصليبيين إنما يبدو فى أن بلدوين ورجاله دخلوا المدينة من جانب ، فاحترموا شروط الصلح ولم يتعرضوا لأملاك المسلمين وأرواحهم ، ولكن الجنوية دخلوا المدينة فى الوقت نفسه من جانب آخر فأتوا من أعمال السلب والعنف ما أشار إليه ابن الأثير[4] .

(1) Guillaume de Tyr, p. 468.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٣) « إذ نهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال ، وغنموا من أهلها الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يحصى ؛ فإن أهلها كانوا أكثر البلاد أموالا وتجارة » .

(ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنه ٥٠٣ هـ) .

أما أبو المحاسن فيقول : « ... وهجموا على طرابلس فأخذوها ونهبوا واسروا رجالها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالها وذخائرها ، وكان فيها ما لا يحصى ولا يحصر ، واقتسموها بينهم » . (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٠) .

(4) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 358.

الجنوية وامتيازاتهم التجارية

ولم تكد طرابلس تسقط فى أيدى الصليبيين حتى طالب الجنوية بالثمن ، بعد المساعدة الكبيرة التى قدموها لهم . وقد سبق أن رأينا كيف أعطى ريموند الصنجيلى الجنوية ثلث جبيل مقابل مساعدتهم له ؛ وبذلك أصبحت هذه المدينة الصغيرة مستعمرة جنوية . وقد عين لحكم هذه المستعمرة أحد أمراء الأسطول الجنوى — هو هيو امبرياتشو — الذى لم يلبث أن حصل من جنوا على حق الحكم الوراثى فى جبيل ، مع تعهده بدفع المال اللازم لحكومة جنوا[1] .

وعندما مات هيو سنة ١١٣٥ تعاقبت سلالته فى حكم جبيل . وليست هناك أهمية خاصة لهؤلاء الحكام الجنوية الذين توارثوا تلك المدينة سوى أنهم أخذوا يبتعدون تدريجياً عن أصلهم الإيطالى ونزعتهم التجارية ، ويندمجون فى الوسط الفرنجى البروفنسالى المحيط بهم ، حتى أصبحوا مجرد أفصال تابعين لأمراء طرابلس[2] . وساعد على ذلك أن حكام جبيل من بيت امبرياتشى الجنوى ارتبطوا برباط نسب ومصاهرة مع البيوت الصليبية فى المدن المجاورة — مثل نابلس وطرابلس وأنطاكية — مما أدى إلى ذوبان تلك الأسرة الجنوية فى المحيط الصليبى الواسع الذى يحف بها . ولا أدل على نسيان حكام جبيل لأصولهم الجنوية وتنكرهم لمصالح جنوا ذاتها ، من أنهم منحوا سنة ١٢١٧ امتيازاً تجاريا للبنادقة فى جبيل[3] .

(1) Albert d'Aix, p. 669 & Foucher de Chartres, p. p. 420.
(2) Heyd : op. cit. I, p. p. 162—163.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p.359—360.

توحيد إمارة طرابلس :

اتخذ برترام لقب أمير طرابلس ، وحرص على تأكيد تبعيته لملك بيت المقدس ، وفى الوقت نفسه تناسى وعوده العريضة للامبراطور البيزنطى[1] . على أن إمارة طرابلس ولدت ممزقة ، وأخذت تعانى من ذلك التمزيق مالم تعانيه إمارة أخرى من الإمارات الصليبية ببلاد الشام ؛ لأن معنى استيلاء برترام على مدينة طرابلس واستيلاء وليم جوردان على أنطرطوس وعرقه ، هو تقطيع أوصال الإقليم الواحد ، مع ماينتج عن ذلك من ضعف وحزازات . هذا إلى أن اختلاف اتجاهات الحاكمين وتوزيع ولاءهما توزيعاً متضاداً زاد من حدة الفرقة والانقسام ؛ لأنه بينما اعترف برترام أمير طرابلس بالتبعية لملك بيت المقدس ، إذا بوليم جوردان صاحب انطرطوس وعرقه يقدم ولائه لأمير أنطاكية. وجميع تلك الظواهر — وغيرها — كانت بدون شك لاتبشر بخير ، وأنذرت بالصدام بين الرجلين الذين اقتسما أملاك بيت ريموند الصنجيلى فى الشرق .

ولكن شاء حسن حظ إمارة طرابلس الصليبية ان ينتهى ذلك الوضع بمقتل وليم جوردان بيد أحد رجاله فى ظروف غامضة أشارت إليها المراجع الصليبية اشارة مقتضبة غير واضحة[2] . وهكذا ضم برترام جميع الممتلكات البروفنسالية فى الشام تحت سيادته ، وأصبحت إمارات طرابلس إمارة كبيرة مترابطة لا تقل عن إمارة الرها أو أنطاكية فى أهميتها ، ويحكمها برترام بن ريموند الصنجيلى مؤسس الإمارة ، وهو الذى ربطته علاقات وثيقة بملك بيت المقدس .

(1) Runciman : op. cit, I, p. 69.
(2) Albert d'Aix, p. 669 & Foucher de Chartres, p. 420.

أما تنكرد — الذى « قامر على الحصان الخاسر » — فلم يعد له نفوذ إطلاقا فى إمارة طرابلس الجديده بعد مقتل حليفه[1] .

استيلاء الصليبيين على بانياس وجبلة وحصن الأكراد :

وسرعان ما أعقب سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين استيلاؤهم على ماتبقى من المعاقل الإسلامية على شاطىء الشام . من ذلك أن تنكرد احتل فى طريق عودته من حصار طرابلس مدينة بانياس التى لم تبد سوى مقاومة ضعيفة ، مما جعل تنكرد لايتعرض لأرواح أهاليها[2] .

ومن بانياس زحف تنكرد على جبلة التى أوى إليها أمير طرابلس السابق فخر الملك بن عمار ، كما سبق أن أشرنا . ولم تستطع جبلة هى الأخرى أن تقاوم حصارا طويلا « وكان القوت فيها قليلا » فاضطر ابن عمار إلى تسليمها فى يوليو سنة ١١٠٩ . وقد سمح تنكرد لابن عمار بأن يخرج سالما إلى شيزر ومنها إلى دمشق ، حيث أشفق عليه طغتكين « وأقطعه الزبدانى وأعماله »[3] . وهكذا أصبحت بانياس وجبلة أجزاء من إمارة أنطاكية الصليبية .

أما فى داخلية البلاد فيروى لنا ابن القلانسى أن الصليبيين من أتباع برترام زحفوا فى السنة السابقة نفسها (١١٠٩ — ١١١٠) على رفنية شرقى أنطرطوس .

(1) Runciman : op- cit; I, p. 69.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ . &
ابن القلانسى ، ص ١٦٣ — ١٦٤ .
وقد أخطأ ابن الأثير فقال : إن تنكرد استولى فى تلك السنة على جبيل من المسلمين ؛ والحقيقة إنها جبلة . أما جبيل فاستولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤ كما سبق بنا ، وتم ذلك على يد ريموند الصنجيلى لا تنكرد .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ .

على أن طغتكين عندما سمع بذلك أسرع من دمشق للدفاع عن تلك القلعة ، واكتفى مؤقتاً بأن عسكر على رأس قواته قرب حمص لمراقبة الأمور؛ « فلم يقدروا (الصليبيون) على منازلة رفنيه »[١] . وكان أن انتهى الموقف بعقد اتفاق ودى بين طغتكين والصليبيين ، وافق بمقتضاه الطرف الأول على أن يستولى الصليبيون — برترام — على ثلث دخل البقاع ، فضلا عن حصنى المنيطرة وابن عكار[٢] . ولا شك فى أن استيلاء الصليبيين على هذين الحصنين الأخيرين أمر له أهميته ،لأن المنيطرة تسيطر على الطريق بين جبيل و بعلبك ، فى حين أن سيطرتهم على حصن ابن عكار تمكنهم من الإشراف على الطريق بين عرقه وحمص . وفى مقابل ذلك كله تعهد برترام أمير طرابلس بعدم الاعتداء على مصيات وحصن الطوفان وحصن الأكراد ، وكان الأخير تابعاً لقراجا صاحب حمص .

على أن الصليبيين لم يحافظوا على كلمتهم مدة طويلة ، إذ لم يلبث تنكرد صاحب أنطاكية أن استولى على حصن الأكراد سنة ١١١٠ أثناء قيامه بغارة على شيزر[٣] . ومن الواضح أن حصن الأكراد بحكم موقعه كان يجب أن يتبع إمارة طرابلس لا أنطاكية ؛ ولذلك لم يلبث تنكرد أن تخلى عنه للامير بونز Pons الذى خلف أباه برترام فى حكم طرابلس سنة ١١١٣ . ومنذ هذه السنة ظل حصن الأكراد تابعاً لإمارة طرابلس حتى أعطاه ريموند الثانى أمير طرابلس للفرسان الاسبتارية سنة ١١٤٢[٤] .

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (p. 537)

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ ؛ سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (p. 537) .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ ؛ سبط بن الجوزى ، (p. 539) .

(4) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 36.

سياسة بونز أمير طرابلس :

أما عن العلاقات بين الصليبيين بعضهم و بعض فى تلك الفترة ، فأهم مايميزها التقارب الشديد بين الإمارات الصليبية الأربع فى الشرق الأدنى ، وهى الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس ، حتى أن تاريخها فى الفترة التى أعقبت سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين جرى فى اتجاه واحد[١] . وقد ظهر ذلك التقارب عندئذ أشد ما يكون وضوحاً بين أمراء طرابلس وأنطاكية حتى أن برترام أرسل ابنه وخليفته بونز إلى بلاط غريمه القديم تنكرد فى أنطاكية ليتلقى هناك تعاليم الفروسية وآدابها . ويقال إن بونز تعلق فى تلك الفترة بغرام سيسيل — زوجة تنكرد الشابة — حتى إذا ما توفى تنكرد فى ١٢ ديسمبر سنة ١١١٢ ، تزوج بونز من أرملته سيسيل على الفور[٢] . ولاشك فى أن هذه الزيجة كان لها أثرها الخطير من الناحية السياسية ، إذ ربطت بين الأسرتين الحاكمتين فى طرابلس وأنطاكية .

وفى الوقت نفسه ، لم يتخل بونز عن علاقته الودية مع ملك بيت المقدس ، فرافقه سنة ١١١٥ لصد الأتابك برسق عندما هدد الأخير إمارة أنطاكية[٣] .

هذا عن سياسة بونز أمير طرابلس تجاه القوى الصليبية المجاورة . أما عن سياسته تجاه المسلمين ، فقد اتبع الخطة التى وضعها أسلافه بخصوص مهاجمة ممتلكات دمشق وحمص ، وذلك لمد حدود دولته فى الاتجاه الشرقى . من ذلك مايرويه ابن الأثير من أن الصليبيين استولوا سنة ١١١٥ على رفنية ، وهى

---

(1) Setton : op. cit, I, p. 399.

(2) Guillaume de Tyr, I, p. 483 & Albert d'Aix, p. 701.

(3) Albert d'Aix, p. 701.

من أملاك طغتكين صاحب دمشق « وبالغوا فى تحصينها » . ولكن ابن الأثير يضيف أن طغتكين لم يلبث أن حضر بنفسه واقتحم رفنية واستردها من من الصليبيين بعد أن « أخذ كل من فيه من الفرنج أسيراً فقتل البعض وترك البعض ، وغنم المسلمون من دوابهم وكراعهم وذخايرهم ما امتلأت به أيديهم ، وعادوا إلى بلادهم سالمين »[1] .

أما الحصن الثانى للصليبيين فى إقليم البقاع فكان حصن بعرين الذى شيده بونز أمير طرابلس حوالى ذلك الوقت . وهناك إشارات فى المراجع الصليبية تفيد أن برسق استطاع أن يستولى على ذلك الحصن من الصليبيين سنة ١١١٥ . على أن الصليبيين لم يلبثوا أن استردوا رفنية وحصن بعرين ، فهاجم بونز رفنية واستطاع أن يستولى عليها بمساعدة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس فى نهاية مارس سنة ١١٢٦ ، وذلك بعد حصار بضعة أيام[2] . أما قلعة بعرين فقد استولى عليها أيضاً بونز بعد ذلك بقليل ، بدليل ما تواتر فى المراجع من أن بعرين كان سنة ١١٣٢ إحدى القلاع المنيعة التابعة لإمارة طرابلس .

وخلاصة القول إن إمارة طرابلس ظلت فى نمو حتى بلغت أقصى اتساعها سنة ١١٣٢ عندما صارت تمتد من المرقب شمالا حتى نهر الكلب جنوبا ، ومن شاطىء البحر المتوسط غربا حتى بعرين ورفنية وحصن الأكراد وعكار شرقا . ومنذ ذلك الوقت وتاريخ إمارة طرابلس مرتبط إلى حد كبير بتاريخ إمارة أنطاكية من جهة وتاريخ مملكة بيت المقدس من جهة أخرى ، مما يجعلنا نتعرض له أثناء كلامنا عن هاتين الوحدتين[3] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٠٩ هـ ؟
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (p. S. 555, 557)

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. p. 652) &
Foucher de Chartres, p. 480.

(3) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 367—368.

الفصل الحادي والعشرون

حياة الصليبيين ونظمهم فى الشام

البناء السياسى :

لم يقدر للصليبيين منذ دخولهم بلاد الشام سنة ١٠٩٧ حتى طردهم منها سنة ١٢٩١ أن يسيطروا على تلك البلاد بأجمعها ، وإنما احتلوا أجزاء متفرقة منها لا تربط بينها رابطة ، وتفصل بينها أراضى ومدن وبلاد إسلامية . ويمكن تشبيه دولة الصليبيين فى أقصى اتساعها بشبه منحرف كبير امتد ضلعه فى الشمال من أنطاكية غربا إلى الرها شرقا ، وضلعه الأيمن من الرها إلى أيلة على البحر الأحمر ، وضلعة الجنوبى من أيله إلى غزة ، وضلعه الغربى من غزه إلى أنطاكية . هذا مع ملاحظة مع مافى هذا التشبيه من تجاوز ملحوظ ، إذ امتلك الصليبيون أراضى ومدن عديدة خارج حدود تلك الرقعة ، وفى الوقت نفسه وجدت داخلها مدن كبرى ظلت محتفظة بوضعها الإسلامى دون أن يستطع الصليبيون الاستيلاء عليها مطلقا ، مثل حلب وحماه ودمشق[1] .

وقد سبق أن رأينا كيف ظهرت النوايا والأطماع السياسية للأمراء المشتركين فى الحملة الصليبية الأولى ، وذلك قبل وصولهم إلى بلاد الشام ذاتها ، الأمر الذى جعل من المتعذر قيام وحدة سياسية تضم شمل الصليبيين فى الشرق الأدنى . وهكذا قامت إمارة الرها ثم إمارة أنطاكية ثم مملكة

---

(1) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages, p. 396.

بيت المقدس وأخيراً إمارة طرابلس [1] . وعلى الرغم مما ادعاه كل واحد من أمراء تلك الوحدات الصليبية من استقلال وسيادة ، إلا أن مملكة بيت المقدس الصليبية تمتعت بأولوية ظاهرة ، وذلك بحكم أوضاعها الدينية والتاريخية . ويكفى أن المسيحيين جميعاً نظروا إليها على أنها مدينة المسيح وبها كنيسة القيامة ، مما جعلها مقصد الحجاج من جميع أنحاء العالم المسيحى [2] .

والواقع إن الفضل فى بناء مملكة بيت المقدس الصليبية التى قامت فى أواخر القرن الحادى عشر ، إنما يرجع إلى الملوك الستة الأوائل الذين تعاقبوا على عرش تلك المملكة ، والذين حملوا أسماء بلدوين وفولك وعمورى . وقد رأينا كيف أن بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠ — ١١١٨) جمع من الصفات السياسة والحربية والخلقية والعقلية ، ما جعل منه حاكماً ناجحا ، استطاع أن يرسى الدعائم الأولى التى قامت عليها مملكة الصليبيين فى بيت المقدس . وقد شاء حسن حظ تلك المملكة أن يخلف بلدوين الأول مجموعة من الملوك عرفوا جميعاً بالمقدرة والكفاية والحرص على الصالح الصليبى العام بالشام ، وهم بلدوين الثانى ، وفولك الأنجوى ، وبلدوين الثالث ، وعمورى الأول ، وأخيراً بلدوين الرابع (١١٧٣ — ١١٨٥) [3] . ومصدر نجاح هؤلاء الملوك جميعا هو مقدرتهم على استغلال الظروف واختيار الرجال والإفادة من المنافسات والحزازات بين الترك والعرب ، وبين السنة والشيعة، وبين حكام حلب وحكام دمشق . هذا فضلا عما لجأ إليه بلدوين الثانى من محالفة الباطنية ، وتمكين تلك الفرقة الهدامة من إشاعة الفوضى فى المجتمع الإسلامى بالشام ، وقتل جماعة من أعلام المجاهدين [4] .

---

(1) Longnon : Les Francais d'Outremer au Mayen Age p. p. 108—109.
(2) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 197—199.
(3) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. XIV.
(4) Setton : op. cit; I, p. p. 119—120.

نظم الحكم والادارة :

وقد طبق الصليبيون بالشام كثيراً من النظم الإقطاعية التى خبروها وعاشوا فى ظلها فى الغرب الأوربى قبل حضورهم إلى الشرق .

ففى مملكة بيت المقدس كان الملك على رأس الهرم الاقطاعى وتتألف أملاكه الخاصة (الدومين) من ثلاث مدن رئيسية هى بيت المقدس وعكا ونابلس ، ثم أضيف إليها الداروم بعد ذلك [1] . وكان يلى الملك أربعة من كبار الأمراء — أشبه بالدوقات فى الغرب الأوربى — هم أمراء يافا والجليل وصيدا وشرق الأردن — ؛ ولكل واحد من هؤلاء الأمراء الأربعة الكبار موظفوه وإدارته ، أشبه بالملك نفسه ولكن على مقياس أصغر . وبعد ذلك جاءت مجموعة الأمراء الذين حكموا بقية مدن المملكة ، وعددهم حوالى اثنى عشر أميراً أهمهم أمير قيسارية وأمير تبنين [2] . وكان على كل فصل من أولئك الأمراء — الكبار والصغار — أن يعترف بالتبعية لسيده الإقطاعى ، ويقدم له الخدمة العسكرية والفرسان المحاربين وفقا للقواعد والأصول الإقطاعية . هذا مع ملاحظة أن الخدمة العسكرية لم تكن محدودة فى بلاد الشام بموسم معين أو أيام معدودة فى السنة كما هو الحال فى الغرب الأوربى ، وإنما تطلبت ظروف إقامة الصليبيين فى الشام ، وما كان بينهم وبين المسلمين من حروب شبه مستمرة ، أن تكون الخدمة الحربية غير مشروطة إلا من ناحية عدد الفرسان الذين يقدمهم الفصل لسيده الإقطاعى فى الحرب [3] .

وكان إقطاع كل أمير وحدة متماسكة من الأرض — مدينة وأعمالها أو حصن

---

(1) Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem, p. p. 71—72.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 302.
(٣) من ذلك أن أمراء يافا وصيدا والجليل كان على كل منهم أن يقدم للملك مائة فارس كاملى العدة فى وقت الحرب ، فى حين كان على أمير شرق الأردن تقديم ستين فارساً فقط .

أو عدة قرى متلاصقة مثلا — إلا فى حالة ضياع الـكنيسة التى آلت إليها عن طريق الإحسان ، أو ضياع هيئات الفرسان — وبخاصة الاسبتارية والداوية — التى آلت اليهم عن طريق الفتح والغزو ، فـكانت متناثرة فى مختلف أنحاء الشام .

أما الموارد المالية التى عاش عليها الملك والأمراء فـكانت عديدة ، منها ما يتحصل من السلب والنهب عن طريق الإغارة على القرى والضياع والقوافل الإسلامية ، ومنها ما يتحصل من الحقول والمزارع التابعة للصليبيين والمحيطة بهم ؛ وأهمها الضرائب العديدة التى فرضت على الصادرات والواردات والمبيعات والمشتريات ، فضلا عن الحجاج والموانى والسفن [1] .

أما عن دستور مملـكة بيت المقدس فأول ما نلاحظه عليه أنه لم يـكن ثابتاً على حال واحد ، و إنما تعرض لـكثير من التغيير والتبديل حسب الظروف . ويبدو مما كتبه المتأخرون أن ملك بيت المقدس — على الرغم مما تحقق له من سيادة على أمراء أنطاكية والرها وطرابلس — إلا أنه كان محدود السلطان فى مدينته أمام سطوة الدين ورجال الدين ، إذ لا ينبغى لملك أن يرفع رأسه فى مدينة المسيح . ولعل هذا هو السبب الذى جعل أمراء الحملة الصليبية الأولى — واحدا بعد آخر — يرفضون شرف تولى حكم مدينة بيت المقدس بعد أن فتحها الصليبيون سنة ١٠٩٩ ، حتى إذا ما قبل جودفرى ذلك المنصب بعد ضغط شديد اشترط عدم تتويجه ملكا ، اعتقادا منه بأنه لا يجوز أن يقوم ملك فى مدينة المسيح [2] .

وبينما كان أمراء أنطاكية وطرابلس يتوارثون منصب الإمارة وفقاً للقانون الإقطاعى المعروف فى الغرب ، إذا بالملـكية فى بيت المقدس تظل

(1) Runciman : op. cit, II, p. 298.
(2) Cam. Med. Hist, vol. 5, p. 300.

انتخابية من ناحية المبدأ ، وإن كان أمراء المملـكة قد أخذوا بعد ذلك بالمبدأ الوراثى ، كما حدث عنه تولية بلدوين الرابع ملـكا سنة ١١٧٤ وهو فى الثالثة عشر من عمره بعد وفاة أبيه [1] . ومهما تعددت سلطات الملك ، فإنه كان مقيداً فى كثير من المسائل برأى أمرائه فضلا عن رأى المحـكمة العليا ؛ فـكان مثلا لا يستطيع أن يعزل أميراً من إقطاعه إلا بموافقة تلك المحـكمة .

وكانت المحـكمة العليا فى أساسها هيئة قضائية ، ولـكن لم يلبث أن اتسع اختصاصها فأصبحت بمثابة هيئة تشريعية لابد من موافقتها على أى قانون أو تشريع جديد فى المملـكة ، فضلا عن الفصل فيما ينشأ بين الأمراء بعضهم و بعض من خلافات ومنازعات أو ما يرتـكبونه من مخالفات وجرائم [2] . وفوق هذا وذاك ، فقد كان لتلك المحـكمة رأى مسموع فى توجيه السياسة العامة للمملـكة ، لأن المحـكمة العليا تألفت من أفصال الملك المباشرين — وهم كبار الأمراء — ، فضلا عن أنها ضمت ممثلين للـكنيسة من كبار رجالها ، وممثلين للجاليات الأجنبية التى امتلـكت أراضى ومدن فى المملـكة — مثل البنادقة والجنوية والبيازنة — وممثلين لهيئات الفرسان مثل الإسبتارية ، والداوية . ومن الواضح أن ملك بيت المقدس كان لا يستطيع أن يتخذ قراراً سياسياً خطيراً دون الرجوع إلى رأى جميع الفئات السابقة [3] .

وبالإضافة إلى المحكمة العليا التى اختصت بالتشريع والسياسة العليا للمملكة ، والمنازعات والمخالفات بين النبلاء بعضهم وبعض ، وجدت محاكم أخرى فى مملكة بيت المقدس تعددت اختصاصاتها وتنوع نشاطها . من هذه المحاكم مثلا تلك

(1) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 609.
(2) Longnon : op. cit, p. 137.
(3) Runciman : op. cit, II, p. p. 300—301.

التى أطلق عليها اسم المحاكم البورجوازية Cours des bourgeois ، وهى خاصة بالفرنجة من غير النبلاء - أى عامة الفرنجة من البورجوازيين - وتفصل فيما يجرى بينهم من معاملات مالية ومدنية فضلا عما صار لها من نفوذ فى القضايا الجنائية[١]. وقد قامت هذه المحاكم البورجوازية فى كل مدينة من المدن الصليبية الكبرى ، وتولى رآستها فيكونت المدينة يساعده إثنا عشر محلفا يختارهم الأمير الذى تتبعه المدينة. أما المدن الإيطالية أو التى كان للتجار الإيطاليين أحياء بها، فقد ظهر بها نوع آخر من المحاكم ذات الطابع التجارى : النوع الأول هو محاكم المدن Cours de la fonde وقد قامت فى المدن ذات النشاط التجارى ، والنوع الثانى محاكم الموانى والسفن Cours de la chaine وقد قامت فى الموانى البحرية ويتولى رآستها جميعاً القناصل أو وكلاؤهم[٢] .

هذا عن المحاكم ، أما الجهاز الإدارى فى المملكة فكان يشرف عليه مجموعة من كبار الموظفين أولهم القهرمان Seneschal وكان يشرف على الإحتفالات الكبرى وعلى الشئون المالية والخزانة ؛ ويأتى بعده كند اسطبل المملكة Constable وهو قائد الجيش تحت رآسة الملك العليا ويشرف على كل مايتعلق بتنظيماته وإمداداته ويساعده المارشال . وبعد ذلك يأتى الياور Chamberlian ويشرف على القصر الملكى وعلى مالية الملك الخاصة . وهكذا تعدد الموظفون فى مملكة بيت المقدس بتعدد الاختصاصات واتساع النشاط الإدراى[٣].

ومع أنه لم يصلنا الكثير عن النظم التى كانت سائدة فى إمارة الرها ، إلا أنه بدراسة ماوصلنا من نظم إمارتى أنطاكية وطرابلس يمكننا القول بأن

(1) Grousset: L'Empire du Levant, p 283.

(٢) باركر : الحروب الصليبية ص ٧٨ -- ٧٩ .

(3) Runciman : op. cit, II, p. p. 303—304.

الإمارات الصليبية شابهت مملكة بيت المقدس فى نظمها القضائية والإدارية مع بعض الاختلافات المحلية البسيطة التى نتجت عن الظروف التى أحاطت بكل إمارة من ناحية والعناصر البشرية التى تألفت منها الإمارة من ناحية أخرى[١] . فإمارة الرها مثلا أدى تطرفها فى الشمال الشرقى ، وإحاطة الأرمن والأتراك بها ، وبعدها نسبياً عن التيار الصليبى العام فى بلاد الشام ، إلى وقف تطورها الدستورى وإلى اعتماد أمرائها على نسبة كبيرة من الموظفين الأرمن الذين تأثروا بالنظم البيزنطية[٢] . وفى إمارة أنطاكية أيضاً نجد روح النورمان ونزعتهم الاستبدادية ورغبة أمرائها فى كبت أية معارضة من جانب كبار النبلاء فى الإمارة ، كما نجد التأثيرات البيزنطية تبدو فى بعض النظم والتشريعات لاسيما تلك الخاصة بالضرائب[٣] .

وهكذا كان من المتعذر على الصليبيين أن يتجاهلوا فى نظمهم بالشام آثار البيئة والظروف التى أحاطت بهم .

الكنيسة والهيئات الدينية :

كان من الطبيعى أن يكون للكنيسة أهمية كبرى فى مجتمع ادعى أنه قام على أساس الدين وزعم أنه يسعى لتحقيق أهداف دينية . ومهما تكن الأسباب التى دفعت البابوية إلى الدعوة للحروب الصليبية فالمهم هو أن قيام البابوية فعلا بتلك الدعوة جعل لها هيمنة عليا على الحركة الصليبية من أولها لآخرها ، وعلى الصليبيين جميعاً بالشام ، الكبير منهم والصغير[٤] .

(1) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 304.

(2) Longnon : op cit, p 137.

(3) Runciman : op. cit; II, 306—307.

(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. 295.

وإذا كان لملك بيت المقدس نفسه ثمة رئيس أوسيد ، فإن هذا الرئيس كان البابا في روما . وقد سبق أن أوضحنا كيف كان من المتوقع أن تقوم حكومة ثيوقراطية في بيت المقدس لولا وفاة أدهمار المندوب البابوي في الحملة الصليبية الأولى ، ثم سوء سيرة دايمبرت . هذا إلى أن البابوية رأت من صالحها عدم قيام حكومة دينية في بيت المقدس ، لأن ظهور أحد رجال الدين الأقوياء في مدينة المسيح معناه قيام بابوية جديدة في الشرق ، وفي تلك الحالة يستطيع البابا الجديد في بيت المقدس أن يطالب — بوصفه خليفة المسيح في مدينته — بالسيادة على بابا روما ، الذي لن ينفعه عندئذ أنه خليفة القديس بطرس في كنيسته . ولعل هذه المخاوف هي التي جعلت بابوات روما يؤيدون دايمبرت في خلافه مع ملك بيت المقدس ، ولا يشجعون بأي حال قيام حكومة ثيوقراطية في الأراضي المقدسة [1] .

ولعل أول ما يسترعي انتباهنا عن الكنيسة في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية هي أنها فازت بنصيب الأسد ، إذ أنها ربحت كثيرا ولم تفقد سوى القليل . فعند دخول الصليبيين إلى الشام طردوا رجال الدين الأرثوذكس واستحوذ أخوانهم الكاثوليك على كل شيء ليظهروا جشعا كبيرا في امتلاك الأراضي والأموال ، عدا الهبات والهدايا التي انهالت عليهم [2] . وهكذا تميزت الأديرة والكنائس التي أقامها الصليبيون بالشام بوفرة ثروتها واتساع أملاكها التي لم تقتصر على بلاد الشام ، بل امتدت إلى القارة الأوربية نفسها . ويكفي أن نعرف أن أحد تلك الأديرة — وهو دير جبل صهيون في بيت المقدس — امتلك سنة ١١٧٨ حيا بأكمله في مدينة القدس ذاتها مع تمتعه بحق فتح بوابة في أسوار المدينة . وكانت لذلك الدير أيضاً ممتلكات وأراضي وبساتين وأسواق في عسقلان ويافا ونابلس وقيسارية وعكا وصور وأنطاكية وقيليقة ؛ بل إن

(1) Setton : op. cit, I, p. p. 379—383.
(2) Longnon : op. cit, p. 133.

بعض الخيرين من حجاج بيت المقدس وهبوا ذلك الدير بعد عودتهم إلى أوربا ضياعا وأملاكا فصارت له ممتلكات في صقلية وإيطاليا فضلا عن فرنسا [1] . وهذا مثل واحد من أمثلة كثيرة يضيق المقام عن ذكرها ، وإنما سقناه لنأخذ فكرة عامة عن مدى ثروة الكنيسة ومؤسساتها في الشام على عصر الحروب الصليبية . ويبدو أن تلك الثروة الطائلة التي تمتعت بها المؤسسات الدينية أثارت حقد النبلاء في بلاد الشام ، لاسيما وأن ممتلكات الكنيسة معفاه من الضرائب كما كان رجالها معفين من الخدمة العسكرية ، مما جعل النبلاء والفرسان يشعرون أن الكنيسة ورجالها يتضخمون على حسابهم ويجمعون الأموال والثروات ، في الوقت الذي يتحملون هم المغارم وعبء الدفاع عن الكيان الصليبي بأجمعه في بلاد الشام .

أما عن التنظيم الكنسي في بلاد الشام ، فيلاحظ أن الوضع جرى منذ القرن الرابع للميلاد على أن يكون بتلك البلاد كرسيان بطرقيان كبيران أحدهما في بيت المقدس والآخر في أنطاكية ؛ وقد استمر هذا الوضع سائداً في العصر الصليبي . أما بطرق بيت المقدس فقد ضعف مركزه أمام الملك بعد الفشل الذي مني به دايمبرت . وعندما يخلو منصب بطرقية بيت المقدس ، كان رجال البطرقية ينتخبون اثنين للمنصب ، يختار الملك أحدهما . ويتبع بطرق بيت المقدس خمسة من رؤساء الأساقفة في صور وقيسارية ، والناصرة والكرك وبصرى ؛ ويتبع هؤلاء تسعة أساقفة [2] أما بطرق أنطاكية ، فكانت تتبعه كنائس أنطاكية وطرابلس والرها ، بمعنى أنه كان يتبعه رؤساء أساقفة طرابلس وأنطرطوس وجبلة والبارة وطرسوس والمصيصة فضلا عن الرها [3] .

(1) Thompson : op. cit, p. 406
(2) Richard : Le Royaume Latin, p.98.
(3) Runciman : op. cit, II, p. p. 311-312.

وقد شهدت بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية عديداً من الهيئات الدينية ، أهم ما يعنينا منها هيئات الفرسان ، وبخاصة الاسبتارية والداوية . وقد أشرنا فى موضع آخر إلى نشأة هاتين الهيئتين ، ويهمنا فى هذا المقام أن نؤكد نموهما السريع فى القرن الثانى عشر وازدياد أملاكهما عن طريق الهدايا والهبات والغزو والنهب،حتى صارتا على درجة خطيرة من القوة والثروة واتساع النفوذ(١) .

والواقع أن منظمتى الداوية والاسبتارية سدتا فراغاً ضخماً فى حياة الصليبيين بالشام ، فمن الناحية الروحية ، كان هناك كثيرون من الأتقياء الذين عز عليهم أن تحرمهم حياة الزهد والعبادة فى ظل الكنيسة أو الدير من المشاركة فى محاربة المسلمين ، وهؤلاء وجدو ضالتهم فى تلك المنظمات التى جمع أفرادها بين حياة المتعبد وحياة المحارب . ومن الناحية السياسية قام فرسان الاسبتارية والداوية بجهد ضخم فى حماية الكيان الصليبى بالشام والزود عنه وفى محاربة المسلمين وغزو بلادهم ودفع هجماتهم ، فى وقت قل عدد المحاربين الصليبيين بالشام نتيجة المرض والوفاة أو العودة إلى الغرب الأوربى(٢) . ويشهد تاريخ الحروب الصليبية بالشام على أن فرسان الداوية والاسبتارية كانوا أثبت فئات الصليبيين على القتال وأصلبهم عوداً وأكثرهم صبراً وشجاعة ، وأنه لولا ماقام به أولئك الفرسان من جهود حربية لانتهى أجل الكيان الصليبى بالشام قبل نهاية القرن الثالث عشر بمدة طويلة(٣) .

ومن الواضح أن نشاط هيئات الفرسان بالشام فى عصر الحروب الصليبية لم يقتصر على ما أسهموا به من جهد حربى ، وإنما قاموا أيضا بجهد كبير فى ميدان الخدمة الاجتماعية . من ذلك أن ملجأ الاسبتارية فى بيت المقدس كان يتسع

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 291—292.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. p. 305—306.
(3) Runciman : op. cit, II, p. 312.

لألف حاج ، فضلا عن المشفى الكبير المخصص لعلاج المرضى والعناية بهم(١) . وكان الاسبتارية والداوية يوزعون صدقات يومية ، على فقراء الصليبيين والمعوزين منهم ، وبلغت هذه الصدقات درجة من السخاء أثارت انتباه الزوار والأغراب . وبالإضافة إلى كل ذلك قام أولئك الفرسان بحراسة طرق الحجاج من يافا وعكا إلى بيت المقدس ، وبذلوا فى ذلك جهدا استحق شكر المعاصرين . أما عن نشاطهم المالى والمصرفى فقد بدأ بتقديم تسهيلات ائتمانية للحجاج الوافدين من الغرب ، ولم يتخذ هذا النشاط شكلا استغلالياً إلا بعد ذلك فى أواخر العصر الصليبى، مما أثار ضدهم سخط الكثيرين(٢) .

على أن هذه المزايا الضخمة التى حققتها هيئات الفرسان للصليبيين قابلتها مثالب كثيرة ترتبت على وجودهم . ذلك أن هذه الهيئات كانت مستقلة تماما فى بلاد الشام عن كل نفوذ سياسى ولا تعترف بالتبعية إلا للبابا فى روما مباشرة ، مما جعل منها دولة داخل الدولة . وكثيراً ما نجد إحدى الهيئتين تتخذ لنفسها سياسة خاصة معينة فى مشكلة من المشاكل أو تعقد صلحاً أو هدنة مع المسلمين دون أن ترتبط أو تتقيد بالسياسة العامة للدولة الصليبية . هذا إلى أنها ـ مثل الكنيسة ـ تمتعت بأملاك واسعة ، فلم تمتلك ضياعا وأراضى وأسواقا ومراعى ومواشى فحسب ، بل امتلكت أيضاً كثيراً من المدن والحصون والقلاع وتعهدت بالدفاع عنها ضد المسلمين . ولا شك فى أن هذه الممتلكات جاءت على حساب بقية الفئات الصليبية بالشام(٣) .

(1) King : The Knights Hospitallers, p. p: 64—67.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(3) Thompson : op. cit, p. 407.

الحياة الاقتصادية :

امتازت حياة الصليبيين فى بلاد الشام بنشاط اقتصادى واسع ، و إن كان الصليبيون أنفسهم لم يسهموا فى ذلك النشاط إلا بقسط ضئيل [1] . والمعروف أن معظم الأجزاء التى احتلها الصليبيون من الشام وأقاموا فيها مدة طويله ، فقير مجدب ، حتى أنهم اضطروا عندما انكمشت رقعة بلادهم فى المدن الساحلية إلى استيراد القمح من خارج بلاد الشام . ومع ذلك فإن سفوح الجبال والمروج هيأت لهم مراعى طيبة ، فضلا عن بساتين الفاكهة ومزارع الزيتون والخضروات التى أحاطت بالمدن . ومن الثابت أن الصليبيين شرعوا فى تصدير بعض تلك الحاصلات مثل الزيتون والموالح إلى الغرب . أما قصب السكر فقد عرف الصليبيون زراعته فى الشام ، كما تعلموا استخراج السكر منه ، فأقاموا مصانع للسكر فى عكا وصور وغيرها من موانى الشام ، ومنها صدروا السكر بكميات كبيرة إلى الغرب الأوربى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر [2] . كذلك صدر الصليبيون بالشام الأقمشة والملابس الحريرية والتيلية والمخمل إلى الغرب . واهتم اليهود فى المدن الصليبية — وبخاصة فى صور وأنطاكية — بإنتاج الزجاج وتصديره إلى غرب أوربا ، وإن تعرضوا فى هذه الصناعة لمنافسة شديدة من الزجاج المصدر من مصر .

وكان للملوك الصليبيين وأمرائهم من الرسوم التى فرضوها على تجارة المرور ، أى التجارة المارة ببلادهم من الشرق الأقصى إلى الغرب الأوربى عن طريق بغداد ودمشق فعكا وغيرها من الموانى الصليبية . هذا فضلا عما فرضوه على البضائع الواردة إلى بلادهم والمصدرة منها إلى الغرب . ومن الواضح أن الجزء الأكبر من ذلك النشاط التجارى تركز فى قبضة التجار الإيطاليين وبخاصة

(1) Longnon : op. cit, p. 141.
(2) Heyd : op. cit; II, p. p. 680 - 686.

البنادقة والبيازنة والجنوية ، وهم الذين امتلكوا أحياء بأكملها فى كثير من المدن الصليبية بالشام ، وأنشأوا فيها فنادق خاصة بتجارهم ، زودوها بكل ما يجعل الواحد منهم يشعر أنه يعيش فى بلده الأصلى [1] .

وقد برزت عكا بالذات فى النشاط التجارى للصليبيين ببلاد الشام ، وهو النشاط الذى بلغ ذروته فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر . وقد قال ابن جبير عن عكا إنها « قاعدة الإفرنج بالشام ومحط الجوارى المنشئات فى البحر كالأعلام » وشبهها بالقسطنطينية فى كونها مجتمع السفن « وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق » [2] . ذلك أن عكا كانت الميناء لطبيعى لإقليم دمشق، وإليها يتجه التجار الوافدون من اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية إلى الشام . وقد حكى ابن جبير أنه سافر من دمشق سنة ١١٨٤ « فى قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكة » ؛ وأشار إلى أن مثل هذه القوافل كانت كثيرة كما أظهر دهشته لسهولة الإجراءات المتعلقة بالمكوس [3] . هذه إلى أن الحجاج الوافدين من غرب أوربا إلى الشام كانوا يفضلون عادة النزول بعكا بالذات ، ومنها يتجهون إلى بيت المقدس وغيرها من المراكز الصليبية فى الداخل .

ومع ذلك فإن صغر ميناء عكا وعجزه فى كثير من الحالات عن استقبال عدد كثير من السفن الكبيرة ، جعلها تتعرض لمنافسة شديدة من جانب ميناء صور ، فضلا عن الموانى الأخرى فى شمال الشام مثل اللاذقية والسويدية [4] . وهنا نلاحظ أن هذه الموانى الصليبية لم تستقبل التجار المسيحيين فحسب ، بل

(1) Richard : op. cit, I, p. 217—277.
(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧٦ [طبعة بيروت] .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧١ .
(4) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 319—320.

استقبلت أيضاً فى عصر الحروب الصليبية كثيراً من التجار المسلمين ، و بخاصة من المغاربة الذين أتوا عن طريق البحر وقاموا برحلات داخل الشام حتى دمشق بقصد المتاجرة[١] . وكان للتجار المسلمين خانات ينزلون فيها فى الموانى الصليبية .

وأخيراً ، فإننا نلاحظ على النشاط الاقتصادى فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية عدة ملاحظات نوجزها فيمايلى : —

أولا : أن السلع التجارية التى كانت محوراً للتجارة عندئذ معظمها يدخل تحت باب الكماليات مثل الأقمشة الشرقية الفاخرة والحجارة الثمينة والزجاج المزخرف والعاج والعطور وغيرها .

ثانياً : إن النقود المتداولة فى بلاد الشام عندئذ تنوعت وتباينت تباينا شديداً لايقل عن تنوع العناصر والأجناس التى اجتمعت فى تلك البلاد . فبالإضافة إلى العملات الغربية التى أحضرها معهم التجار والحجاج الوافدون من غرب أوربا ، ظلت النقود العربية الإسلامية والنقود البيزنطية متداولة أيضاً فى بلاد الشام طوال العصر الصليبى[٢] .

ثالثا : أن ملوك بيت المقدس لم يستفيدوا كثيراً من ذلك النشاط الاقتصادى المحيط بهم فى بلادالشام . حقيقة إنهم فرضوا كثيراً من الضرائب على الصادرات والواردات ، وعلى القوافل المارة بأراضيهم ، فضلا عن الاحتكارات التى حاكى فيها ملوك بيت المقدس النظم البيزنطية[٣] . ولكن أولئك الملوك دأبوا دائما

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ .
وقد أظهر ابن جبير دهشته من أن التبادل التجارى يتم بين المسلمين والصليبيين رغم ما بينهما من حروب ، وأن القوافل تنتقل بين أراضى الطرفين فى سهولة ، فقال : « ومن أعجب مايحدث فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين » انظر رحلة ابن جبير ص ٢٨٠ (طبعة بيروت) .
(2) Thompson : op. cit, p. p. 404—405.
(3) Longnon : op. cit, p. 140.

على توزيع تلك الموارد على الكنيسة وهيئات الفرسان ، فكان ربع الضريبة الفلانية يخصص لمساعدة الاسبتارية ، وربع المكس الفلانى يخصص للداوية ، ودخل ميناء كذا يخصص للكنيسة الفلانية أو الدير الفلانى ٠٠٠٠ مما حرم المملكية نفسها من ثروة طائلة . هذا وإن ظل ملوك بيت المقدس أوفر ثروة وأحسن حالا بكثير من بعض ملوك الغرب الأوربى فى ذلك الوقت[١] .

الحياة الاجتماعية :

لعل الخلل الاجتماعى وعدم وجود انسجام بين الطبقات المختلفة التى تألف منها المجتمع الصليبى فى الشام ، كان من العوامل الرئيسية التى أدت إلى ما لحق بالصليبيين من فشل فى نهاية الأمر . ذلك أن الصليبيين الغربيين الذين عاشوا فى بلاد الشام ، ظلوا دائما قلة قليلة ، بعد أن عادت نسبة كبيرة ممن شاركوا فى الحملة الصليبية الأولى إلى بلادهم بعد فتح بيت المقدس ، فى حين تألفت الغالبية العظمى من سكان دولة الصليبيين بالشام من المسيحيين الشرقيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم . وإذا كانت الأقلية الغربية قد استطاعت أن تحتفظ بنفوذها السياسى فى بلاد الشام ، وتجعل من نفسها أرستقراطية حاكمة ، فإنها لم تستطع مطلقاً أن تحتفظ بعاداتها وتقاليدها وأصولها الغربية سليمة نقية ، وإنما اضطرت بحكم قلة عددها وسط محيط شرقى واسع أن تفقد كثيراً من صفاتها الأصلية وتكتسب الكثير من التعديلات الجديدة[٢] .

ونستطيع أن نحدد الطبقات التى تألف منها مجتمع دولة الصليبيين بالشام على عصر الحروب الصليبية بما يأتى —

---

(1) Thompson : op. cit, I, p. 406.
(2) Richard : op. cit; p. 122.

(١) الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان ، وهؤلاء كانوا قلة إذ لم يزد عددهم فى مملكة بيت المقدس عن ألف من الرجال ومثلهم من النساء والأطفال ، ومثل ذلك العدد أيضاً فى إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس مجتمعين. وقد ظلت هذه الطبقة — التى كان مفروضاً أن تظل بمثابة العمود الفقرى للمجتمع الصليبى بالشام — تعانى نقصا كبيراً فى العدد بسبب كثرة الضحايا فى الحرب ، وقلة الوارد من الغرب[1] . حقيقة إن جموع الحجاج لم ينقطع وصولها إلى الشام منذ سقوط بيت المقدس، ولكن قليل من هؤلاء اختاروا الإقامة فى الشام بعد الحج؛ وكانت الغالبية العظمى منهم تؤثر العودة إلى غرب أوربا . ثم إنه إذا كان الصليبيون قد أنجبوا كثيراً من الأطفال فى الشام ، فإنه لم يعش من تلك الذرية سوى نسبة ضئيلة بسبب العوامل الجوية والصحية التى لم يألفوها . وأخيراً فإنه يلاحظ أنه إذا كانت هذه الأرستقراطية الصليبية الحاكمة قد ظلت نقية فى مملكة بيت المقدس ، فإن الأمر فى أنطاكية والرها لم يظل كذلك ، إذ تزوج بعض نبلاء الصليبيين وفرسانهم من الأرستقراطية المحلية ، وبخاصة من عنصر الأرمن[2] .

(٢) طبقة عامة المحاربين من الصليبيين ؛ وهؤلاء عبارة عن عامة الصليبيين الذين لم ينتموا إلى الفرسان والنبلاء ، والذين شاركوا فى الحركة الصليبية . وكان هؤلاء العامة من الصليبيين الغربيين يؤلفون فرق المشاة فى الجيش الصليبى ، واضطروا بعد استقرارهم بالشام إلى التزاوج مع المسيحيين الشرقيين المحليين — وبخاصة الأرمن — ؛ مما أدى قرب منتصف القرن الثانى عشر إلى ظهور طبقة جديده هى :

(1) Longnon : op. cit, p. p. 153—155.

(٢) وخير مثل لذلك ما سبق أن أشرنا إليه من زواج أمراء الرها — بلدوين الأول وجوسلين — من أرمنيات .

(٣) طبقة الأفراخ pullani ؛ وهؤلاء نتاج التزاوج بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين الشرقيين المحليين من أرمن وسريان وغيرهم . ومن الواضح أنه مع مرور الوقت حلت هذه الطبقة الجديدة محل الطبقة السابقة ، وقامت بدورها فى خدمة المجتمع الصليبى بالشام[1] .

(٤) طبقة المسيحيين المحليين من أرمن وموارنة و بيزنطيين وسريان ويعاقبة وأقباط وغيرهم . وقد احتقر الصليبيون الغربيون هؤلاء المسيحيين الشرقيين عموما ، وأحسوا نحوهم بالكراهية نتيجة للخلافات المذهبية . ولعله من الواضح أن فئة البيزنطيين أو اليونانيين كانوا أبغض فئات المسيحيين الشرقيين إلى الصليبيين ، بسبب التخوف دائما من تآمرهم مع الإمبراطورية البيزنطية ضد مصالح الصليبيين . ومع ذلك فإن الصليبيين لم يطردوهم أو يقضوا عليهم — كما فعلوا مع اليهود — وإنما استبقوهم لمهارتهم اليدوية وقيامهم بالخدمات والأعمال الحقيرة التى أنف الصليبيون الغربيون من القيام بها . أما الأرمن فقد كانوا أحسن حالا ، وشجعهم ملوك بيت المقدس على الهجرة إلى أراضى المملكة ومدنها لتعميرها بعد أن هجرتها نسبة كبيرة من سكانها المسلمين . كذلك نسمع عن تولى الأرمن بعض الوظائف الهامة فى الدويلات الصليبية بالشام ، فضلا عما كان هناك من تزاوج بينهم وبين الصليبيين الغربيين[2] .

(٥) التجار الإيطاليون ، وهؤلاء تركزوا فى المدن الصليبية وبخاصة الموانى الساحلية مثل يافا وعكا وقيسارية وأرسوف وصور وبيروت وطرابلس وجبيل واللاذقية والسويدية . وقد ظل هؤلاء التجار يكونون طبقة مستقلة قائمة بذاتها،

(1) Grousset : L'Empire du Levant, p. p. 315—316.

(2) Thompson : op. cit, · pp. 398—399.

يتكلمون الإيطالية ، ولا يختلطون بغيرهم إلا فى نطاق المعاملات المالية والتجارية . ويشبه التجار الإيطاليين فى وضعهم تجار مرسليا فى عكا ويافا وصور وجبيل وتجار برشلونة فى صور[١] .

(٦) المسلمون ، وهم أهل البلاد **الأصليون** وسكان المدن والبلاد التى احتلها الصليبيون . ومع أن بعض تلك المدن هجرها أهلها من المسلمين عقب الغزو الصليبى ، إلا أنه لا يخفى علينا أن نسبة كبيرة من المسلمين ظلت قائمة وسط المجتمع الصليبى وتؤثر فيه[٢] . ومن أهم الجاليات الإسلامية التى ظلت باقية رغم احتلال الصليبيين لبلادها ، الجالية التى سكنت المنطقة الممتدة من بانياس إلى عكا ، والجالية القائمة فى حوض نهر العاصى وسهل البقاع . يضاف إلى هؤلاء قبائل البدو الرحل الذين ظلوا يتنقلون خلف المرعى من مكان إلى آخر ، معهم قطعانهم من المواشى ، وينتهزون أية فرصة مناسبة للانقضاض على قوافل الصليبيين وممتلكاتهم[٣] .

(٧) الرقيق والأقنان ؛ كان لا يمكن للصليبيين بالشام أن يستغنوا عن الرقيق والأقنان ، بعد أن اعتادوا فى الغرب وجود تلك الطبقة ليعمل أفرادها فى فلاحة الأرض وغيرها من الأعمال الشاقة . وكانت الغالبية العظمى من الرقيق فى الشام — على عصر الحروب الصليبية — من الأقنان . وإذا كانت أوضاع العبيد والأقنان قد أخذت تتحسن فى القرن الثانى عشر فى الغرب الأوربى ، وأصبح فى استطاعة كثيرين منهم أن يتحرروا ويمارسوا حقوقهم المشروعة فى الحياة[٤] ، فإن الوضع لم يكن كذلك ببلاد الشام . ذلك أن العبيد والأقنان

(1) Runciman : op. cit; II, p. 294.
(2) Richard : Le Royaume Latin, p. p. 123—124.
(3) Thompson : op. cit, p. 398.
(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٨٨ .

قاسوا الكثير من العنت بسبب تعسف الصليبيين وجورهم فى بلاد الشام ، مما جعلهم يترحمون على أيام الحكم الإسلامى[١] . وتنص قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية على أن « العبيد والفلاحين والأسرى كالمواشى يخضعون لقانون البيع والشراء ، وأن للسيد أن يفعل ماشاء بعبيده ! »[٢] .

هذا عن البناء الاجتماعى لدولة الصليبيين بالشام ، ومنه يتضح أن ذلك البناء تألف من طبقات متباينة معظمها غير متآلف مع بعضه البعض ، مما عاد بأوخم العواقب على الصليبيين . وكانت اللغة السائدة بين الصليبيين بوجه عام فرنسية الأصل وإن اختلفت لهجاتها ، فاستخدم الصليبيون فى أنطاكية ومملكة بيت المقدس اللهجة الشمالية من اللغة الفرنسية (Langue d'oeil) ، واستخدم الصليبيون فى إمارة طرابلس اللهجة الجنوبية من اللغة الفرنسية (Langue d'oc) أما الأقليات الأخرى التى وجدت داخل المجتمع الصليبى ، فاستخدم كل منها لغته الخاصة . ويشهد عصر الحروب الصليبية بالذات على انسياب بعض الألفاظ العربية فى اللغات الأوربية ، وهى ألفاظ اضطر الصليبيون إلى استخدامها بحكم البيئة[٣] .

أما العادات والتقاليد فإن تناقص أعداد الصليبيين الأصليين فى بلاد الشام جعل من المتعذر عليهم الاحتفاظ طويلا بعاداتهم وتقاليدهم الغربية[٤] . ويروى لنا أسامة بن منقذ كثيراً من غرائب أخلاق الصليبيين وعاداتهم وتقاليدهم ، وفى الوقت نفسه يحكى لنا كثيراً من القصص الطريفة التى تشهد على مدى تأثر الصليبيين

(1) Thompson : op. cit, I, p. 398.
(2 Besant, Palmer : Jerusalem, p. 226.
(3) Longnon : op. cit; p. p. 155—156.
(4) Runciman : op. cit, II, p. 291.

بالبيئة الشرقية ومحاكاتهم العرب فى كثير من عاداتهم[١] .

ولم يختلف نظام الأسرة وأوضاعها عند الصليبيين فى الشام عما كان عليه الوضع السائد فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى . وكل ما هنالك هو أن طبيعة الحرب الطويلة ووجود عدد كبير من شبان الغرب الأعزاب الذين طال بعدهم عن بلادهم،أدى أحياناً إلى شىء من الانحلال الخلقى بين الصليبيين بالشام. وقد ذكر أسامة بن منقذ بضعة ملاحظات على الصليبيين فى هذا الشأن فقال : أنه « ليس عندهم شىء من النخوة والغيرة » ، وقال إن الرجل منهم يمشى هو وامرأته عندما يلقاه صديق له فيأخذ المرأة و يعتزل بها ، ويتحدث معها ، والزوج منتحياً بعيداً ينتظر فراغهما من الحديث « فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى ! ! »[٢] .

كذلك يبدو أن الأوضاع التى عاش فيها الصليبيون فى الشام أدت إلى ظهور عدة أمراض خلقية ، حتى انحرف بعضهم نحو الشذوذ الجنسى[٣] ، الأمر الذى جعلهم يلجأون إلى فكرة جلب نساء من غرب أوربا وجزائر البحر المتوسط للترفيه عن الجند المحاربين . من ذلك ما يرويه عماد الدين الكاتب والمؤرخ أبو شامة من أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا سنة ١١٨٩ أن « وصلت فى مركب ثلثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر (جزر البحر) وانتدبن للجرائر ، واغترين لإسعاف الغرباء ، وقصدن بخروجهن

---

(١) انظر ما كتبه أسامة بن منقذ عن « طبائع الإفرنج وأخلاقهم » . (كتاب الاعتبار ص ١٣٢ — ١٤١) .

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٦ .

تسبيل أنفسهن للاسقياء ، وأنهن لا يمتنعن عن العزبان ، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هـذا القربان ، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة..»[١] .

---

(١) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ١٨٤ ؟ أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٩ .

الفصل الثاني والعشرون

القوى الاسلامية فى الشام والعراق

أحوال سلاجقة فارس :

استطاع محمد بن ملكشاه سلطان سلاجقة فارس (١١٠٥ — ١١١٨) أن ينقذ الدولة السلجوقية من الاستمرار فى طريق الانزلاق الذى ترددت فيه منذ عهد بركيارق، وأن يقوم بنصيب وافر فى محاربة الصليبيين فى العراق والشام. حقيقة إن بعض المؤرخين العرب مثل ابن الأثير يأخذون عليه عدم خروجه بنفسه للجهاد ، وأنه كان يكتفى بإرسال أتابكة الموصل وهمذان إلى الشام لقتال الصليبيين ، ولكننا يجب أن نقدر الظروف التى أحاطت بالسلطان محمد السلجوقى وأنه كان لا يستطيع أن يترك أملاكه فى فارس والعراق ليتنازعها أمراؤه ، فضلا عن تربص العرب بالعراق ورغبتهم فى التحرر من سيطرة السلاجقة . ولا أدل على ذلك من ثورة بنى مزيد ، وهى القبيلة العربية التى كانت تنتشر فى العراق غربى دجلة فى المنطقة من البصرة حتى هيت[1] ، إذ انتهز صدقه بن مزيد (١٠٨٦ — ١١٠٨) فرصة ضعف دولة السلاجقة للاستيلاء على المنطقة الواقعة حول الحلة ، غربى الفرات . ولم يلبث صدقه أن « عظم شأنه وعلا قدره وامتنع جاهه واتسع واستجار به صغار الناس وكبارهم فأجارهم » ؛ فاتخذ لنفسه لقب « سيف الدولة » ، وأخذ يعمل لإنشاء دولة لنفسه فى العراق مستقلة عن نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية جميعا ، مما جعل المؤرخ ابن الأثير يطلق عليه لقب « أمير العرب »[2]. كذلك لم يتردد صدقه فى مساعدة محمد بن ملكشاه ضد

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠١ هـ .

(٢) المرجع السابق .

أخيه السلطان بركيارق ، مما جعل محمد يكافئه باعطائه واسط و يسمح له باحتلال البصرة . ولكن لم يكد محمد بن ملكشاه يتولى السلطنة حتى تنكر لصدقه وخشى عاقبة أطماعه ، لا سيا عندما رفض صدقه إطاعة أوامر السلطان والمسير ضد الصليبيين للجهاد ، بل إنه رفض الاجتماع بالسلطان . هذا إلى أن بنى مزيد كانوا جميعا من الشيعة ، وصفهم أبو المحاسن بأن « الجميع رافضة » مما أثار حنق السلاجقة — وهم سنيون — عليهم[1] . وكان أن انتهى الأمر بان أرسل السلطان محمد شاه جيوشه ضد صدقه ، فأنزلت به الهزيمة ، وسقط صدقه قتيلا سنة ١١٠٨ ، و إن كان السلطان السلجوقى قد أكرم أرملة صدقه فأرسل لها أمانا « واعتذر إليها من قتل زوجها » وسمح لابنها دبيس بأن يحل محل أبيه صدقه فى إمارته[2] .

أما فى الميدان الصليبى فقد فشل السلطان محمد السلجوقى فى حملاته وجهوده ضد الصليبيين . ومع ذلك فقد نجح فى نشر نفوذ السلطنة على الأمراء الأتراك فى منطقة الشرق الأدنى . وعند وفاة السلطان محمد سنة ١١١٨ خلفه ابنه محمود الذى كان فى الرابعة عشرة من عمره ، فترك شئون الحكم فى أيدى وزرائه وعمه سنجار شرف الدين أنو شروان ، فى حين انغمس محمود نفسه فى اللهو . وفى ذلك العصر بالذات أخذ يبدو بوضوح ضعف السلطنة السلجوقية وتدهور أحوالها[3] ؛ وانعكس ذلك الضعف فى العلاقة بين المسلمين والقوى المسيحية فى الشرق الأدنى . ذلك أن سنجار وجه كل جهوده نحو الشرق والأجزاء الشرقية من الامبراطورية ، ولم يعبأ بالشام وما كان يجرى فيه من أحداث بين المسلمين والصليبيين . وكذلك فعل الفرع السلجوقى فى الأناضول ، إذ شغلت سلطنة الروم بالمنازعات

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٢ .

(٢) ابن الأثير : الـكامل ، حوادث سنة ٥٠١ هـ .
وقد اتهم البعض الأمير صدقه بأنه اتبع مذهب الباطنية ، ولكن ابن الأثير ينفى عنه هذه التهمة ويقول : « إنما كان مذهبه التشيع لا غير » .

(3) Grousset : Hist · des Croisades, I,p.p. 522—523·

بين أمرائها بعضهم و بعض ، أو بينهم و بين بنى دانشمند حينا والبيزنطيين أحيانا ، وتركوا إخوانهم فى الشام يواجهون الصليبيين وحدهم [1] .

الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية :

أما الخلافة العباسية فكانت فى ذلك الوقت مجرد صورة شكلية دون أن يكون للخليفة العباسى أى ظل من السلطان والنفوذ . ولعل ضعف الخلافة العباسية فى ذلك الوقت هو الذى شجع دبيس بن صدقة على مهاجمة بغداد نفسها سنة ١١٢٠ . وكان دبيس — مثل أبيه صدقة — شيعيا ، فلم يحجم عن نهب المدينة وسلبها « وأتى بها من النهب والقتل والفساد ما لم يجر مثله » ؛ بل إنه نصب مخيمه فى مواجهة قصر الخليفة العباسى المسترشد بالله ، الذى لم يجد وسيلة لدفع ذلك الخطر سوى الاستنجاد بالسلطان محمود السلجوقى [2] .

وهكذا ظل دبيس يهدد بغداد من مركزه — الحلة — حتى أمر السلطان محمود أحد رجاله — وهو آقسنقر البرسقى أتابك الموصل — بمحاربته ، ولكن الهزيمة حلت بأتابك الموصل على الضفة الشرقية للفرات سنة ١١٢٢ [3] . وقد أدى انتصار دبيس على البرسقى إلى ازدياد نفوذه ، مما جعل الخليفة العباسى يستغيث بالسلاجقة من جديد . وأخيرا حلت الهزيمة بالأمير دبيس عند المباركة - بين بغداد والكوفة — فى ربيع سنة ١١٢٣ ، فنقل دبيس نشاطه إلى البصرة ثم إلى قلعة جعبر فى شمال الشام حيث « التحق بالفرنج وحضر معهم حصار حلب وأطمعهم فى أخذها » [4] .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٣هـ.
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٤هـ.
(٣) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٦ هـ .
(٤) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٧ هـ .

ولعل فى قصة دبيس بن صدقة ما يكفى لإيضاح الوضع المؤسف الذى انحدرت إليه القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى ، فى الوقت الذى كان الصليبيون يمكنون لأنفسهم فى بلاد الشام وشمال العراق . وكان المفروض فى الخلافة العباسية عندئذ أن تتزعم القوى الإسلامية لدفع خطر الصليبيين عن البلاد الإسلامية ، ولكن ظهر أنها كانت أضعف من أن تحمى نفسها من المسلمين أنفسهم . ولما أراد الخليفة العباسى المسترشد (١١١٨ — ١١٣٥) أن يكون له كيان سياسى مستقل عن السلطنة السلجوقية ، وطالب بإنشاء جيش للخلافة خاص بها ؛ عارضه السلطان محمود السلجوقى ورأى أن يوقف الخليفة عند حده ، فزحف على رأس جيش كبير إلى بغداد . وكان أن خرج الخليفة ومعه أفراد أسرته إلى الضفة الغربية لنهر دجلة ومن ورائه أهل بغداد يبكون « بكاء عظيما لم يشاهد مثله » . وقد استطاع عماد الدين زنكى — حاكم الموصل من قبل السلطان محمود السلجوقى — أن ينزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط . ثم دخلت جماعة من عسكر السلطان دار الخلافة ونهبوها واعتدوا على الأهالى ؛ فى حين اضطر الخليفة إلى الخضوع فى نهاية الأمر « واعتذر السلطان مما جرى وعفا عن أهل بغداد جميعهم » (سنة ١١٢٧) [1] .

أما الخلافة الفاطمية — على الجبهة الغربية للصليبيين — فلم تكن أحسن حالا من الخلافة العباسية ؛ إذ جاء مقتل الوزير الأفضل فى ٥ ديسمبر سنة ١١٢١ بمثابة بداية النهاية فى تاريخ الخلافة الفاطمية . ولم تظهر بعد ذلك فى الدولة شخصية قوية تستطيع أن تقوم بما قام به بدر الجمالى أو الأفضل من رعاية سياسة الدولة وتدبير أمورها [2] . وهكذا ضمن الصليبيون فى الشام قسطا من الاستقرار فى أوائل القرن الثانى عشر أمام تدهور نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية فى الشرق

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٢٩ — ٣٠ .
(2) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 268.

من ناحية ، وانحلال الخلافة الفاطمية فى الغرب من ناحية أخرى [1] .

طائفة الإسماعيلية الباطنية :

وثمة طائفة لعبت دورا خطيرا فى تاريخ الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية وأثرت عن طريق مباشر أو غيرمباشر فى مجرى وأحداث تلك الحروب، مما يجعلها تتطلب منا عناية خاصة فى هذه الدراسة .ونقصد بهذه الفرقة الاسماعيلية، الذين ينسبون إلى اسماعيل بن جعفر الصادق (ت ١٤٥ هـ) . وقد نجح أتباع اسماعيل هذا فى إقامة الدولة الفاطمية ، ومن ثم ظلت هذه الدولة تتزعم الدعوة الإسماعيلية التى اشتد ساعدها بصفة خاصة فى مصر وفارس والشام . على أنه حدث عند وفاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٨٧ أن تصدعت الدعوة الإسماعيلية ، فانشق أتباعها فى فارس والشام وانتموا إلى نزار بن المستنصر ، ومن ثم أطلق على هذا الفريق اسم النزارية [2] .

ومن أهم المبادىء التى أقام عليها الإسماعيلية مذهبهم إيمانهم بأن للعقيدة ظاهراً و باطناً ، وأن الشخص الذى يدرك كنه الباطن و يتبعه لايستحق العقاب. وقد أدى بهم هذا الرأى إلى تأويل أحكام الشريعة ، فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادة باطناً مما جعل الناس يطلقون عليهم اسم « الباطنية » [3] .

وكان أول دعاة الباطنية ، أحمد بن عبد الملك بن عطاش الذى قدمه الباطنية عليهم وألبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال . و بعد وفاته حل محله الحسن بن الصباح ، الذى وصفه المؤرخون بأنه كان شهماً ذ كيًا عالمًا بالهندسة والحساب والنجوم . وسرعان ما اشتد ساعد الحسن بن الصباح فى فارس ، وساعده على ذلك تفكك

(1) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 530.
(2) Setton : op. cit; I, p. 101—102.
(٣) عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ص ٧١ .

الدولة الإسلامية وضعف الخلافة العباسية من ناحية ، ثم بعد فارس عن مركز الخلافة العباسية من ناحية أخرى . وقد لجأ الحسن الصباح فى نشر دعوته إلى سلاحين : الأول استمالة بعض الزعماء المحليين وأمراء القلاع فى بلاد فارس ، والثانى محاولة امتلاك بعض القلاع المنيعة لتكون معاقل له ولأتباعه يحتمون بها من مطاردة الخلافة العباسية السنية وحماتها من السلاجقة . وكانت أهم هذه القلاع التى استولى عليها الحسن الصباح قلعة الموت فى طبرستان قرب قزوين ، وقلعة شاه ذر وقلعة خان ، وهما على جبل أصبهان قرب أصفهان عاصمة السلاجقة عندئذ [1] .

وترجع أهمية الحسن الصباح فى التاريخ إلى براعته الفائقة فى التنظيم ، إذ نظم جماعته تنظيما محكما أساسه مبدءان هما : السرية التامة والطاعة العمياء . ولما كان هدف الحسن تأسيس دولة كبيرة ثابتة ، فإنه قسم مراتب الدعوة النزارية إلى خمس :

١ — مرتبة شيخ الجبل ، وهو الحسن نفسه وخلفاؤه من رؤساء الدعوة الذين جمعوا فى قبضتهم بين شئون الدين والدنيا ، — أى الدعوة والدولة جميعاً — فكانوا يصدرون تعاليمهم إلى أتباعهم فى فارس والشام وغيرها من البلاد [2] .

٢ — مرتبة كبار الدعاة ، وكانوا ثلاثة كل منهم يعمل على نشر الدعوة الباطنية فى جزء من العالم الإسماعيلى ، على أن يخضع ثلاثتهم للحكومة المركزية النزارية فى ألموت .

٣ — مرتبة الدعاة ، وهم جماعة من المعروفين بصدق عقيدتهم ، يتبعون دعاة

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 108—109.
(٢) طه أحمد شرف : دولة النزارية ص ٨٠ .

الدعاة ويتلقون تعاليمهم فى قلعة ألموت ، ثم ينشرون الدعوة ويعطون العهود للمستجيبين لها[1] .

٤ ـــ مرتبة الرفاق ، وهم دعاة تحت التمرين لم يسمح لهم بعد بنشر الدعوة ويصل الواحد منهم بالتدريج إلى مرتبة الدعاة بعد امتحانات واختبارات طويلة[2] .

٥ ـــ مرتبة الفداوية أو الفدائيين ، وهم الذين كانوا يضحون بأنفسهم فداء رئيسهم ، وصاروا بمثابة الأداة الفعالة التى استخدمها الحسن الصباح وخلفاؤه فى قتل خصومهم . ومن الواضح أنه روعى فى اختيار أولئك الفداوية الشجاعة التى هى أقرب إلى التهور ، والقوة البدنية الفائقة التى تمكنهم من تأدية المهام الخطيرة الموكولة إليهم[3] .

ومن التنظيم السابق يبدو لنا أن الفداوية كانوا أهم مراتب التنظيم الإسماعيلى ، بوصفهم الأداة العاملة التى قامت فعلا بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة فى عصر الحروب الصليبية . لذلك اهتم الحسن الصباح بتدريب الفداوية تدريباً خاصاً طويلا يتناول الجانبين الروحى والمادى ويبدأ منذ الطفولة ، فيدرب الأطفال المختارون لتلك المهمة على حياة الزهد والمخاطرة والرغبة فى التضحية[4] . وقد ذكر الرحالة البندقى ماركو بولو (١٢٥٤ ـــ ١٣٢٤) أن شيخ الجبل أنشأ قرب قلعة ألموت حديقة حرص على أن يجعل لهـــا جميع صفات الجنة من أنهار فيها خمر لذة للشاربين ، ولبن لم يتغير طعمه ، وعسل مصفى ، وفواكه شهية من كل الثمرات ، وفتيات حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ... وغير

---

(1) Sykes : History of Persia vol. 2, p. p. 37—38.
(2) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. 2, p. 206.
(3) Ivanow : An Islamic Ode in Praise of Fidawis, p. p. 63—64.
(4) Setton : op. cit, I, p. 108.

ذلك من مختلف أنواع المغريات التى جاءت فى أوصاف الجنة . وبعد أن يتسامر شيخ الجبل بعض الوقت مع الفتية الفداوية الذين تم اختيارهم ، يعطيهم مشروبا مخدراً ـــ لعله من نبات الحشيش ـــ مما جعل اسم « الحشيشية » يلصق بتلك الطائفة من الإسماعيلية فى التاريخ[1] . فإذا مافقدوا وعيهم حملوا إلى تلك الجنة ، حتى إذا أفاقوا حسبوا أنفسهم فى الجنة فعلا[2] . على أنهم لايتركون فى جنتهم طويلا ، إذ يخدرون مرة أخرى ليحملوا أثناء غيبوبتهم إلى دار شيخ الجبل حيث كان المجلس الأول . وعندما يفيقون ليسألهم أين كانوا فيؤكدون له أنهم كانوا فى الجنة ، وعندئذ يعدهم شيخ الجبل بالخلود فى تلك الجنة إذا هم قتلوا فلانا وفلانا من الأشخاص الذين يحددهم لهم . وبذلك يثير فيهم الحماسة لتنفيذ تعاليمه ، ويشعرون بالرغبة فى التضحية بكل شىء فى سبيل العودة إلى الجنة التى سبق أن رأوها وأحسوا بلذة الإقامة فيها[3] .

ومن الثابت أن نشاط الباطنية الهدام أخذ يمتد إلى بلاد الشام منذ بداية القرن الثانى عشر . وينقسم الدور الذى قام الإسماعيليـــة فى عصر الحروب الصليبية إلى قسمين : أولهما مقاومة المذهب السنى والعمل على الفتك بزعمائه وثانيهما : مقاومة الصليبيين وقتل بعض زعمائهم . ولم يفرق الإسماعيلية خـــلال كل ذلك بين المسلمين السنيين والصليبيين المسيحيين . وإنما اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الفريقين جميعا ، وفى سبيل هذه المصلحة الخاصة لم يتحرج

---

(١) تؤكد بعض علماء اللغويات أن الفعل الإنجليزى to assissinate بمعنى يغتال أو يقتل ، والاسم منه assassin بمعنى قاتل ، إنما مشتقة من كلمة الحشاشين ، وهم تلك الفئة من الفداوية الذين اشتهروا بالقتل والاغتيال فى عصر الحروب الصليبية والذين أطلقت عليهم بعض المراجع العربية اسم الحشيشية لتناولهم الحشيش . وقد جاء فى قاموس اكسفورد أن أصل هذا اللفظ الأوربى هى كلمتا « حشاش وحشيشية » العربيتان . ويدلل هؤلاء العلماء على رأيهم أن ذلك اللفظ لم يظهر بمعناه الحالى فى اللغات الأوربية إلا فى عصر الحروب الصليبية .
(2) Michaud : op. cit, II, p. p. 72—73.
(3) Marco Polo : Travels, p. p. 49—53.

زعماؤهم من محالفة الصليبيين حينا أو مهادنة السنين أحيانا . وهكذا أدى اتساع نشاط الباطنية فى بلاد الشام بوجه خاص إلى إضافة عامل جديد قوى إلى عوامل التفكك التى تعرضت لها تلك البلاد فى عصر الحروب الصليبية [1].

ذلك أنه حدث فى الوقت الذى كان المسلمون فى حالة دفاع ضد الصليبيين، **ان تعرضوا لطعنات قوية من الخلف من جانب الباطنية ، مما أضعف** المسلمين وأحدث ثغرة قوية فى جبهتهم ، فى حين تماسك الصليبيون وحرص أمراؤهم على شد أزر بعضهم بعضاً . وحسبنا مافعله الباطنية فى حصن شيزر سنة ١١٠٦ ، « إذ ثار جماعة من الباطنية فيه على حين غفلة من أهله . . . فملكوه وأخرجوا من كان فيه » وانتزعوه من أصحابه بنى منقذ [2].

وكان القتل هو السلاح الرهيب الذى استغله الباطنية فى تنفيذ أغراضهم والتخلص من خصومهم ، بحيث يضيق بنا المقام عن حصر ضحاياهم فى عصر الحروب الصليبية بالذات من الأمراء وغير الأمراء . ومن ضحايا الحسن الصباح كان الوزير الساجوقى نظام الملك الذى قتله الباطنية سنة ١٠٩٢ ، فخسرت دولة السلاجقة بمقتله شخصية من أعظم الشخصيات التى ارتبط بها تاريخ السلاجقة ، وأسف الناس عليه « لما كان عليه من حسن الطريقة وآثار العدل والنصفة والإحسان إلى أهل الدين والفقه والقرآن » [3].

وزاد من نفوذ الباطنية فى بلاد الشام منذ بداية القرن الثانى عشر ، عطف رضوان ملك حلب عليهم وحمايته لهم . وكان الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ

(1) Setton : op. cit; I, p. p. 109—110.

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٧٧ ؟
ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٠٢ هـ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

أول زعماء الباطنية بالشام ، وحصلا على مكانة كبيرة لدى رضوان ، فاستغل الباطنية تلك المكانة وأخذوا يباشرون أعمالهم الإجرامية ضد زعماء المسلمين والصليبيين جميعاً . وقد افتتح الباطنية نشاطهم فى بلاد الشام بقتل جناح الدولة أمير حمص سنة ١١٠٣ [1] ؛ ثم قتلوا خلف بن ملاعب صاحب فاميه بعد ذلك بثلاث سنوات « قتله قوم من الباطنية نفذهم إليه المعروف بأبى طاهر الصائغ العجمى من حلب » [2].

ويبدو أن بعض زعماء المسلمين وأمرائهم بالشام وجدوا فى الحشيشية أداة طيبة للتخلص من منافسيهم وخصومهم . ومن ذلك ما حاوله رضوان ملك حلب سنة ١١١١ من تحريض الباطنية على قتل طغتكين أتابك دمشق [3] ؛ وما لجأ إليه طغتكين أتابك دمشق فعلا من استخدام بعض الباطنية فى قتل ضيفه مودود أتابك الموصل سنة ١١١٣ [4]. وعندما أحس الباطنية أنهم مكروهون فى حلب وأن موقفهم صار حرجاً بعد وفاة رضوان ، حاولوا مرة أخرى الاستيلاء على شيزر ، ولكنهم فشلوا فى ذلك .

ولم يسكت سلاطين السلاجقة عن عبث الباطنية بمصالح البلاد وأرواح العباد ، ولكن يبدو أن جهودهم لم تكلل بالنجاح التام ، كما أنهم فشلوا فى الاستيلاء على قلعة الموت . ومن تلك المحاولات ماقام به السلطان محمد السلجوقى، « فإن لما علم أن مصالح العباد والبلاد بمحو آثارهم (الباطنية) وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم ، جعل قصدهم دأبه . وكان فى أيامه المقدم عليهم والقيم

(1) Lewis : The Sources for the Hist. of the Syrian Assassins, p. p. 485—486.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Or. Hist. III, p. p. 601-602)

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .

بأمرهم الحسن بن الصباح الرازى صاحب قلعة ألموت ؛ فأمر السلطان بعض أمرائه بمهاجمته ، ومازالوا يحاصرونه و يهاجمونه حتى وفاة السلطان . ولكن الحسن الصباح ظل رابضا فى قلة ألموت فى خراسان ، ومن ذلك المركز الحصين استمر يوجه تلك الشبكة الخطيرة حتى وفاته سنة ١١٢٤ . وطوال تلك السنوات استمر اسم الحسن الصباح يثير الرعب فى قلوب الناس فى الجهات المجاورة « لكثرة إغاراته عليهم وقتله لهم وأسر رجالهم وسبى نسائهم » ، دون أن تستطيع الجيوش السلجوقية الوصول إليه أو القضاء عليه[١] .

ثم إن نشاط الباطنية فى الشرق الأدنى فى ذلك الدور لم يقتصر على بلاد فارس و إقليم حلب ، و إنما امتد أيضاً إلى القاهرة ودمشق . ففى القاهرة نسمع من المراجع عن مقتل الوزير الأفضل بيد أحد الباطنية فى أحد طرق القاهرة سنة ١١٢١ . أما فى دمشق فقد ازداد نفوذهم وانتقل إليها مركز نشاطهم بعد أن توفى رضوان صاحب حلب سنة ١١٢٣ وتعرضوا لتنكيل ابنه الملك البارسلان الذى قتل زعيمهم أبا طاهر الصائغ واسماعيل الداعى وأخى الحكيم المنجم وغيرهم ، مما جعل أتباعهم يتفرقون فى البلاد[٢] . ولم يلبث أن وفد على الشام من فارس أحد زعماء الباطنية واسمه بهرام ، فنزل على حلب ، ثم انتقل إلى دمشق حيث حظى برعاية طغتكين « وأكرم لاتقاء شره وشر جماعته ، وحملت له الرعاية وتأكدت به العناية »[٣] . وهكذا أخذ بهرام ينشر الدعوة الاسماعيلية، حتى « استفحل أمره وعظم خطبه فى حلب والشام ، وهو على غاية من الاستتار والاختفاء وتغيير الزى واللباس ، بحيث يطوف البلاد والمعاقل ولا يعرف أحد شخصه »[٤] . على أن بهرام خشى أهل دمشق وهم من السنة ، فما زال يسعى

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١١ هـ .
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٩ هـ .
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ .
(٤) المرجع السابق .

عند طغتكين حتى منحه بانياس سنة ١١٢٦ . وسرعان ما غدت بانياس « حصنا يأوى إليه ومعقلا يحتمى به و يعتمد عليه »[١] . ويعبر ابن الأثير عن استيلاء الباطنية على بانياس بأن ذلك جاء كارثة على البلاد « إذ عظم خطبه (بهرام) وحلت المحنة بظهوره ، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين ، لا سيما أهل السنة ، إلا أنهم لا يقدرون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفا من سلطانهم (طغتكين) أولا ومن شر الاسماعيلية ثانيا ؛ فلم يقدر يقدم أحد على هذه الحال وانتظروا بهم الدوائر . . . »[٢] . أما ابن القلانسى فيقول إن بهرام لم يكد يستولى على بانياس حتى « اجتمع إليه أوباشه من الرعاع والسفهاء والفلاحين والعوام وغوغاء الطغام الذين استغواهم بمحاله وأباطيله ، واستمالهم بخدعه وأضاليله ، فعظمت المصيبة بهم وجلت المحنة بظهور أمرهم ، وضاقت صدور الفقهاء والمتدينين والعلماء وأهل السنة والمقدمين »[٣] .

وهكذا لم يستطع الناس الاعتراض على أعمال الباطنية ، نظراً لحماية طغتكين لهم من ناحية ولعنف وسائلهم ووحشية انتقامهم من ناحية أخرى ، إذ « شرعوا فى قتل من يعاندهم ، ومعاضدة من يؤازرهم على الضلال ، و يرافدهم بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير ولا يفل حد شرهم متقدم ولا أمير ! »[٤] .
و إذا كانت جهود السلطان محمد شاه السلجوقى فى فارس ضد الباطنية قدأسفرت عن محاصرة قلعتهم شاه ذر – المجاورة لأصفهان – وفتحها وقتل من فيها من الباطنية[٥] ، فإن هذه الضربة التى حلت بالباطنية فى فارس لم تؤثر فى نشاطهم

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ .
(٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ ، ابن القلانسى ؛ ص ٢١٥ .
(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص١٥١ هـ .

بالشام ، حيث استمروا يدعمون نفوذهم ويوسعون سلطانهم ويضاعفون نشاطهم يوما بعد يوم[١] .

ومن بانياس أخذ بهرام يبعث الدعاة والفداوية إلى مختلف أنحاء الشام لنشر الدعوة الاسماعيلية من ناحية ولتنفيذ ماراه من اغتيالات سياسية من ناحية أخرى . وقد نجح بعض أولئك الأعوان بدورهم فى الاستيلاء على حصون جديدة فى جبال الشام ، مثل حصن القدموس[٢] . وأخيرا أفاق طغتكين إلى خطر الباطنية وأخذ يفكر فى التخلص منهم ، ولكنه توفى فى فبراير سنة ١١٢٨ قبل أن يتمكن من القيام بأى عمل ضدهم . وعند وفاة طغتكين خلفه ابنه تاج الملوك بورى فى حكم دمشق ، فاحتفظ بأبى على طاهر بن سعد المزدقانى (المزدغانى) وزيراً له . وقد أفرط المزدقانى فى العطف على الباطنية ، وقرب مندوبهم فى دمشق ـــ واسمه أبو الوفا ـــ الذى وصفه ابن الأثير بأن سلطته فى دمشق فاقت سلطة تاج الملوك بورى نفسه «وأن حكمه أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك»[٣] .

ثم كان أن قتل بهرام أحد مقدمى وادى التيم واسمه برق بن جندل دون سبب ، فأصر قومه على الأخذ بثأره . وفى الاشتباك الذى حدث بين الطرفين سنة ١١٢٨ ، حلت الهزيمة بالباطنية ، وقتل منهم كثيرون ، وقطع رأس بهرام ، وبذلك ضعف شأن الباطنية « وقلت عدتهم وانقصفت شوكتهم وانفلت شكتهم[٤] » ! وقد خلف بهرام فى بانياس رفيقه اسماعيل العجمى الذى حظى هو الآخر بعطف الوزير أبى على طاهر المزدقانى فى دمشق « فى المساعدة على

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥١ ، ٢١٥ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣هـ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) ابن القلانسى ؛ ص ٢٢٢ .

مراده والمعاضدة على أغراضه »[١] . واستمر الأمر على ذلك حتى وجد ذلك الوزير الفرصة مناسبة لتدبير مؤامرة مع الصليبيين ، فعرض عليهم تسليمهم دمشق مقابل إعطائه — هو والإسماعيلية – مدينة صور بدلها[٢] . وكان أن أبرمت الاتفاقية ، وحدد أحد أيام الجمعة والمسلمون فى المساجد لفتح أبواب دمشق للصليبيين[٣] .

على أن المؤامرة انكشفت قبل موعد تنفيذها ، فقتل بورى وزيره الخائن أبو على طاهر المزدقانى وأحرق جثته[٤] ؛ وبذلك حانت الفرصة سنة ١١٢٩ للتخلص من الباطنية ، « ونادى (بورى) بقتل الباطنية فقتل منهم ستة ألف نفس » . وهكذا استمر أهل دمشق يذبحون فيهم ، فتعقبوهم « وتتبعوهم فى أماكنهم واستخرجوهم من مكانهم وأفنوهم جميعاً تقطيعا بالسيوف وذبحاً بالخناجر » . ولم تلبث أخبار ما حدث للباطنية فى دمشق أن وصلت إلى مسامع إخوانهم فى بانياس « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » ؛ واستنجد اسماعيل العجمى بالصليبيين وعرض عليهم تسليمهم بانياس ليحموه . وهكذا تسلل الباطنية من بانياس إلى البلدان المجاورة وهم « فى غاية من الذلة ونهاية من القلة » فى حين مات إسماعيل العجمى بعد قليل ودفن فى بانياس[٥] .

ومع ذلك فقد استمر نشاط الحشيشية الهدام فى منطقة الشرق الأدنى بقية عصر الحروب الصليبية . من ذلك أنهم قتلوا فى همذان قاضى القضاة زين الإسلام أبا سعد محمد بن نصر الهروى أثناء عودته من خراسان إلى بغداد ، ولم

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ ، ابن القلانسى ، ص ٢٢٣ .
(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٤١ (مخطوط) .
(٥) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (Rec. Hist Or. p. 567)

يجرؤ شخص على أن يتبعهم « للخوف منهم »[١] . وفى ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ قتلوا البرسقى أتابك الموصل[٢] . وفى سنة ١١٢٧ قتلوا المعين وزير السلطان سنجر بن ملكشاه صاحب خراسان ؛ وكان ذلك الوزير قد فتك بجماعة منهم وحرص السلطان على « النكاية فيهم وتطهير الأرض منهم »[٣] . وفى سنة ١١٣٠ أرسل الباطنية من مركزهم فى الموت اثنين من الخراسانية لقتل تاج الملوك بورى أتابك دمشق والانتقام منه لما حل بإخوانهم فى دمشق و بانياس . وقد تحايل هذان القاتلان على تنفيذ غرضهما حتى نجحا فى الاعتداء على بورى ، ولكن إصابته لم تكن قاتلة فبرأ وفشلت خطة الباطنية[٤] . وفى سنة ١١٣٥ نفى السلاجقة الخليفة المسترشد العباسى إلى أذربيجان حيث قتل بواسطة جماعة من الباطنية . وفى سنة ١١٤٠ استطاع الباطنية أن يمتلكوا حصن مصيات (مصياف) « بحيلة دبرت عليه ومكيدة نصبت له »[٥] . وفى سنة ١١٥٢ قتل بعض الباطنية ريموند الثانى أمير طرابلس . و يطول بنا الأمر لو حاولنا تسجيل كافة اغتيالات الباطنية ، ولكن يكفى أن نختتم هذه القائمة بالإشارة إلى أنهم حاولوا أكثر من مرة قتل صلاح الدين الأيوبى نفسه — كما سيلى فيما بعد — ولكن الله سلم .

وهكذا ظلت الاسماعيلية مصدراً خطيراً للانحلال السياسى والاجتماعى فى بلاد الشام بالذات على عصر الحروب الصليبية[٦] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٠ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Cr. III, p. 653)

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٦ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(6) Setton : op. cit: I, p. 109—110.

حلب والموصل :

اختار السلطان محمد السلجوقى سنة ١١١٨ آقسنقر البرسقى حاكم الموصل ليلى شحنكية بغداد ، أى ينوب عنه فى بغداد لدى الخليفة العباسى المسترشد[١] ؛ ثم عاد السلطان محمود سنة ١١٢٤ فأقطع البرسقى من جديد الموصل وأعمالها مع تكليفه بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين[٢] . ولم يلبث البرسقى وهو بالموصل أن تلقى نداء من أعيان حلب لنجدتهم ضد الصليبيين ، فرحب حاكم الموصل بتلك الفرصة التى أتاحت له السيطرة على حلب ، لا سيما بعد أن وافق الحلبيون على تسليمه قلعة المدينة؛ فخف إليها — وصحبته طغتكين أتابك دمشق وصمصام الدين خير خان بن قراجا صاحب حمص — ووصلوا جميعا إلى حلب فى أواخر يناير سنة ١١٢٥[٣] .

وهكذا اجتمعت حلب والموصل فى قبضة حاكم مسلم واحد — هو البرسقى — مما يعتبر نواة لتوحيد المسلمين فى أطراف العراق والشام ، ثم تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة فيما بعد . ولا شك فى أن هذا الارتباط بين حلب والموصل كان أخطر ما يخشاه الصليبيون نظراً لما يمكن أن ينجم عنه من قطع الصلة بين إمارة الرها من ناحية وبقية الإمارات الصليبية بالشام من ناحية أخرى ، فضلا عما فى تكتيل القوى الإسلامية نفسها من معانى القوة التى لم يشعر بها الصليبيون حتى ذلك الوقت بسبب تفرق كلمة المسلمين وعدم وحدتهم[٤] .

---

(١) أطلق على نائب سلطان السلاجقة أو ممثله لدى الخليفة العباسى فى بغداد لقب شحنه ، وهو لقب فارسى أما الوظيفة نفسها ، فقد أطلق عليها اسم « شحنكية بغداد » .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٣٠ — ٣١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(4) Grousset : Hist. des Croisades I, p. 631.

ثم إن هذه الخطوط التى اتخذها البرسقى زاد من خطرها أنه كان يتمتع بعطف السلطان محمود السلجوقى « لأنه كان ناصحا له ملازما له فى حروبه كلها »[١].

وقد ظل البرسقى محتفظا بولائه للسلطان الذى عهد إليه بمهمة الجهاد ، و بناء على ذلك فإن البرسقى كان يمثل فى تصرفاته وجهوده السلطة السياسية الشرعية الكبرى فى الجبهة الشرقية من العالم الاسلامى ، ولا تستطيع قوة أخرى من القوى الإسلامية الصغيرة المبعثرة فى أطراف العراق أو بلاد الشام أن تقف فى وجه البرسقى أو أن تنافسه فى مكانته وزعامته . وعلى هذا الأساس أخذ البرسقى يتصرف تجاه القوى الإسلامية المجاورة وتجاه الصليبيين فى بلاد الشام وشمال العراق ، طوال سنتى ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، حتى كان مقتله فى يوم الجمعة ٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ بأيدى الباطنية فى الموصل[٢] .

وقد خلف آقسنقر البرسقى فى حكم حلب والموصل ابنه عز الدين مسعود . على أن مسعود لم يلبث أن وقع فى خلاف مع طغتكين أتابك دمشق ، فدس له الأخير السم ، و بذلك توفى مسعود فى العام التالى بالرحبة[٣] . ولا شك فى أن هذه الأحداث أوقعت حلب بالذات فى حالة من الفوضى شديدة لاسيما وأن الحلبيين لم يرضوا عن قتلغ ، وهو الذى عينه السلطان محمود سنة ١١٢٧ على حلب بعد وفاة عز الدين مسعود بن البرسقى. لذلك استنجد أهل حلب ببدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ، وهو الذى سبق له أن حكم حلب سنة ١١٢٢ — ١١٢٣ ، قبل أن يطارده بلك[٤] .

ولا شك فى أن تلك التطورات كلها أضعفت من موقف المسلمين وقوت

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ١٠ (مخطوط) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢١ هـ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٣٩ (مخطوط) .

موقف الصليبيين، فتعرضت حلب بالذات لهجمات من جانب بوهيموند الثانى أمير أنطاكية وجوسلين أمير الرها[١]. بل إن الملك بلدوين الثانى — ملك بيت المقدس — هدد دمشق نفسها سنة ١١٢٩ ، كما سبق أشرنا[٢] . وهكذا حتى ظهر على المسرح عماد الدين زنكى ، فبدأت صفحة جديدة فى ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين فى الشرق الأدنى .

ظهور عماد الدين زنكى:

أما عماد الدين زنكى هذا ، فكان أبوه قسيم الدولة آقسنقر الحاجب ، قائداً من قادة جيش السلطان ملكشاه السلجوقى ، « ومن أعيان دولته وأكابر أمرائه وأخص أوليائه ، واعتمد عليه فى أموره كلها »[٣]. وقد كافأ ملكشاه قائده بإعطائه حكم حلب سنة ١٠٩٢ ، ولكن آقسنقر لم يلبث أن قتل سنة ١٠٩٤ ؛ قتله تتش أخو ملكشاه، فنشأ زنكى بعد أبيه نشأة بعيدة عن النفوذ والسلطان، ودخل فى خدمة اتابكة الموصل: جاولى ثم البرسقى ، حتى وصل إلى حكم البصرة ، وعندئذ كلفه السلطان محمود السلجوقى بإخضاع الخليفة المسترشد سنة ١١٢٦[٤] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٢ هـ . &
Guillaume de Tyr p. 590.

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان (p. 567—568) &
ابن القلانسى ؛ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ص ١١ (مطبوع) .

(٤) ولى المسترشد الخلافة العباسية سنة ١١١٨ ، وأراد أن يستغل المنازعات التى غرق فيها حكام السلاجقة عندئذ ليحرر الخلافة العباسية من سيطرتهم ، الأمر الذى جعل السلطان محمود السلجوقى يعهد إلى زنكى بإخضاع حركة الخليفة سنة ١١٢٦ . ويقول ابن الأثير إن برنقش الزكوى شحنة بغداد هو الذى سار إلى السلطان ، واستثاره على الخليفة « وحذر السلطان جانبه وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه عن العراق » .
(التاريخ الباهر ، ص ٢٨ — ٢٩) .

وكان أن أظهر زنكى همة كبيرة وكفاية عالية فى تلك المهمة التى كلفه بها السلطان ؛ فأنزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط وزحف على بغداد ، وانتصر على الخليفة المسترشد الذى اضطر إلى الإذعان للسلطان فى يناير سنة ١١٢٧ [١] . وهكذا لفت زنكى الأنظار إليه بشجاعته ومقدرته ، فولاه السلطان « شحنكية العراق » فى ابريل سنة ١١٢٧ ، وهو المنصب الذى جعل منه رقيبا على الخليفة [٢] . وحوالى ذلك الوقت — أو بعده بقليل — توفى عز الدين مسعود بن البرسقى أتابك الموصل وحلب ، فذهب وفد من أعيان الموصل إلى بلاط السلطان السلجوقى فى فارس طالبين تعيين حاكم جديد على مدينتهم ، يستطيع الدفاع عنها ضد تهديد الصليبيين [٣] .

وكان أن وقع اختيار السلطان على زنكى « لما يعلمه من كفايته لما يليه » ؛ فعينه أتابكا على الموصل سنة ١١٢٧ . وبعد أن نظم زنكى أمور الموصل ، استولى على نصيبين من الأراتقة ، ثم اتجه إلى حران التى كانت دائما تحت رحمة الصليبيين وشبه محاصرة بهم ، بسبب تعرضها للهجمات المتكررة من الرها وسروج والبيرة ؛ فاستولى عليها وفرح أهلها بذلك لأنهم اعتقدوا أن مدينتهم صارت فى يد أمينة [٤] . ثم إن زنكى اختار ألا يبدأ عملية الجهاد ضد الصليبيين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٠ هـ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٣٠ — ٣١ .

(٣) يروى ابن الأثير أن أهل الموصل عندما قابلوا الوزير شرف الدين بن خالد قالوا له : « قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها وقويت شوكتهم فاستولوا على أكثرها . وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين الى عريش مصر ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين . وقد كان البرسقى مع شجاعته وتجربته وانقياد العسكر إليه مكف بعض عاديتهم وشرهم ، فمذ قتل ازداد طمعهم ، وهذا ولده صغير . ولا بد للبلاد من رجل شجاع ذا رأى وتجربة يذب عنها ويحفظها ويحمى حوزتها . . . » .

وقد أورد ابن واصل أيضاً نصاً مشابها (مفرج الكروب ج ١ ص ٣٢ — ٣٣) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٣٤ — ٣٦ .

إلا بعد أن يضع يده على حلب أولا وينظم أمور تلك البلاد . لذلك أسرع عقب استيلائه على نصيبين إلى عقد هدنة مع جوسلين أمير الرها [١] .

وكانت حلب — كما سبق أن ذكرنا — قد وقعت فى حالة شديدة من الفوضى عقب وفاة الأتابك عزالدين مسعود بن البرسقى ، فأصبحت ميدانا للنزاع بين سليمان بن عبد الجبار الأرتقى ، وإبراهيم بن رضوان السلجوقى ؛ فى الوقت الذى أراد كل من جوسلين الثانى أمير الرها وبوهيموند الثانى أمير أنطاكية أن يستفيد من تلك الأوضاع للاستيلاء على حلب [٢] . ولكن وصول زنكى إلى حلب فى ذلك الوقت — سنة ١١٢٨ — أفسد على جميع أولئك الطامعين أغراضهم ، لأن زنكى كان يحمل تقليدا من السلطان بحكم حلب ، وبهذه الصفة الشرعية استطاع أن يمكن لنفسه فى حلب بسهولة ، فدخلها فى ١٨ يونية سنة ١١٢٨ ، حيث استقبله أهل حلب استقبالا رائعا « وأظهروا من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ... ولولا أن الله تعالى منّ على المسلمين بولاية الشهيد (زنكى) لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه » [٣] .

وهنا نلاحظ أن الظروف كلها كانت معدة عندئذ لأن يقوم زنكى بمشروعه الضخم الخاص بتوحيد القوى الإسلامية فى العراق والشام ؛ وذلك بعد وفاة طغتكين أتابك دمشق العتيد فى فبراير سنة ١١٢٨ ؛ وهو الرجل الذى حظى بنفوذ قوى فاق نفوذ بقية الأمراء المسلمين ببلاد الشام . ولكى يتمكن زنكى من إتمام ذلك المشروع بدأ بخطوتين : الأولى الزواج من خاتون بنت الملك رضوان

---

(١) « فهادنه مدة يسيرة ، وكان غرضه أن يتفرغ لإصلاح البلد » .
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢١ هـ .

(2) Stevenson : op. cit, p. 119.

(٣) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ص ٣٧ — ٣٨ .

ابن تتش ملك حلب السلجوقى [1] الأسبق ؛ وذلك ليثبت مركزه فى حلب ويرث عن طريق تلك الزيجة حقوق بيت رضوان فى شمال الشام . والثانية ذهابه سنة ١١٢٩ إلى بلاط السلطان محمود السلجوقى ، الذى منحه « التواقيع السلطانية بملك الغرب كله » [2] . وبعد ذلك عاد زنكى إلى حلب « فى عسكره عازما على الجهاد » [3] ؛ ومعه « منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بهما » [4] .

وكانت ممتلكات المسلمين فى بلاد الشام مقسمة عندئذ بين ثلاث قوى ؛ الأولى محورها بورى بن طغتكين أتابك دمشق وكان يسيطر على دمشق وحماه فى الشمال وحوران فى الجنوب. والثانية محورها صمصام الدين خيرخان (قيرخان) بن قراجا أمير حمص. والثالثة محورها سلطان بن منقذ، وهو الأمير العربى الذى سيطر على شيزر. ولم يستطع خيرخان بن قراجا أو سلطان بن منقذ مقاومة الأتابك زنكى ، فأعلنا ولاءهما وخضوعهما له؛ و بذلك لم يبق أمام زنكى سوى تاج الملوك بورى أتابك دمشق [5] .

والواقع إن بورى الذى تعرض لتهديد الصليبيين وغزوهم سنة ١١٢٩ ؛ كان يخشى خطرا دائما من جانب بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، ولذلك رحب بما عرضه عليه زنكى من محالفته ضد الصليبيين . على أن زنكى لم يلبث أن تنكر لذلك الحلف مع بورى ، وانقض على حماه واستولى عليها فى سبتمبر سنة ١١٣٠ ليبيعها مقابل مبلغ كبير من المال للأمير خيرخان (قيرخان) صاحب حمص [6] . ولم يكد خيرخان يدفع المبلغ المتفق عليه و يستولى على حماه فى ٢٠ سبتمبر

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٤٠ (مضبوع) .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 658)
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧ .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٤٠ (مطبوع) .
(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٨ ؟
(ابن العديم : زبدة الحلب p. 650)
(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٣ هـ .

حتى غدر به زنكى ، فانقض عليه هو الآخر فجأة وحبسه بقلعة حلب ثم اتجه ليستولى على حمص ذاتها مثلما استولى على حماه [1] . ولكن زنكى ظل يحاصر حمص و يهاجمها أربعين يوماً « لم يظفر منها بطايل [2] » ؛ فعاد إلى حلب فى أواخر سنة ١١٣٠ . ولاشك فى أن فشل زنكى أمام حمص جاء ضربة قوية عرقلت وحدة المسلمين فى شمال الشام بضعة سنوات .

على أنه يلاحظ أن زنكى لم يمض فى طريقه على الوجه السابق دون أن يصادف معارضة من الأمراء المسلمين المحليين . وقد ظهرت تلك العقبات من جانب الأراتقة الذين حكموا حلب فى وقت من الأوقات . وقد عز على الأراتقة أن يستأثر زنكى بحكم حلب وأن يزداد نفوذه فى شمال الشام والعراق بصورة تهدد مصالحهم ؛ فجمع حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى صاحب ماردين ، وابن عمه ركن الدولة داود بن معين الدين سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وغيرهما من أمراء الأراتقة فى ديار بكر ، قوة تبلغ عشرين ألف من التركمان ضد زنكى ؛ ولكن الهزيمة حلت بهم عند مدينة سرجى فيما بين ماردين ونصيبين . ولاشك فى أن هذا النصر ضمن لزنكى سيادته على شمال الشام وأطراف آسيا الصغرى [3] .

أما عن علاقة زنكى بإمارة أنطاكية الصليبية فى تلك الفترة فأهم ما فيها مؤامرة الأميرة إليس ، وطلبها مساعدة زنكى للوصول إلى حكم أنطاكية [4] . وقد سبق أن رأينا كيف أسرع الملك بلدوين الثانى إلى أنطاكية وأحبط المؤامرة ، و بذلك حال دون استفادة زنكى من اضطراب أحوال الصليبيين فى أنطاكية

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٤٢ .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 660)
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ . ؟
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٣٥ — ٣٦ .
(4) Stevenson : op. cit, p. 129.

فى ذلك الوقت . هذا وإن كان زنكى قد استغل تلك الفرصة وهاجم بعض الحصون القريبة التابعة لإمارة أنطاكية ، مثل الأثارب وحارم ومعرة مصرين . ويقول المؤرخ ابن العديم إن زنكى لم يستطع الاستيلاء على حصن الأثارب إلا بعد خمس سنوات ، أى سنة ١١٣٥ ؛ فى حين ذكر ابن الأثير وابن واصل أن زنكى استولى على ذلك الحصن فعلا سنة ١١٣٠ « وجعله دكا وبقى إلى الآن خرابا . »[١]

انشقاق المسلمين :

على أن زنكى لم يستطع أن يمضى قدما فى مشروعه الخاص بتوحيد قوى المسلمين بسبب الأحداث التى قامت فى فارس والعراق ،والتى أدى تدخل زنكى فيها إلى صرفه عن ميدان الشام .

ذلك أن وفاة السلطان محمود بن محمد السلجوقى سنة ١١٣١ أعقبها انقسام خطير فى دولة السلاجقة ، إذ تعرض ابنه البكر داود — الذى ورثه فى السلطنة — لثورة أعمامه : عمه الأول سلجوق بن محمد صاحب فارس ، وعمه الثانى مسعود ابن محمد ، وعمه الثالث طغرل بن محمد صاحب قزوين[٢] . ولم يلبث أن اشتد الصراع بين هؤلاء الأعمام الثلاثة ، وبخاصة سلجوق شاه ومسعود . وفى إحدى حلقات النزاع ، أيد الخليفة العباسى المسترشد سلجوق شاه ، فاستنجد مسعود بعماد الدين زنكى أتابك الموصل الذى «سار إلى بغداد لقتال الخليفة وسلجوق»؛

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (ps. 661,670) &
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٤ هـ ؟
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٤٣ .
وقد نص ابن واصل على أنه أخذ رأيه عن ابن الأثير .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ، أوراق ١٣ ، ١٤ ، ١٥ (مخطوط) .

وبذلك دخل زنكى دائرة الصراع الدائر فى العراق وفارس ، مما صرفه مؤقتا عن الشام وفلسطين[١] .

وعندما زحف زنكى على بغداد لمنازلة الخليفة وسلجوق شاه حلت به الهزيمة عند تكريت سنة ١١٣٢[٢] . على أن زنكى لم يلبث أن عاد فى السنة نفسها لمهاجمة بغداد بعد أن حالفه « ملك العرب » دبيس بن صدقة ؛ ولكن الهزيمة حلت بزنكى من جديد « وقتل بينهم خلق كثير » ، فاضطر إلى الفرار نحو الموصل[٣] .

ويبدو أن تلك الهزائم التى حلت بزنكى شجعت الخليفة المسترشد فزحف على الموصل فى صيف سنة ١١٣٣ للاستيلاء عليها فى ثلاثين ألفاً ؛ وعندئذ اضطر زنكى إلى الرحيل عنها ، وترك فيها بعض عسكره مع نائبه نصير الدين جقر[٤] . وفى الوقت الذى كانت جيوش الخليفة تحاصر الموصل ؛ لجأ أتابك دمشق اسماعيل بن بورى إلى مهاجمة أملاك زنكى فى الشام ، فحاصر حماة « وملك البلد قهراً » سنة ١١٣٣ . وهكذا أخذ البناء الذى أقامه زنكى يتداعى لبنة بعد أخرى على أيدى المسلمين أنفسهم سواء فى العراق أو الشام[٥] .

ولا شك فى أن سوء موقف زنكى أتاح فرصة طيبة للصليبيين الذين شددوا هجماتهم على حلب ، مما أدى إلى الهزيمة التى حلت بالأمير سوار — نائب زنكى

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

(٢) كان حاكم تكريت عندئذ هو نجم الدين أيوب الكردى والد صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية . ويقال إن نجم الدين أيوب حمى زنكى عندئذ وساعده على الفرار والعبور إلى الضفة الأخرى لنهر دجلة « وكان هذا الفعل من نجم الدين أيوب سبباً للاتصال بعماد الدين، حتى ملك بنو أيوب البلاد » . (أبو الفدا : المختصر ؛ سنة ٥٢٧ هـ) .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٤٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٧

(5) Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 55.

فى حلب – فى موقعة قنسرين (سنة ١١٣٢ – ١١٣٣)[١] .

على أن مجرى الأمور أخذ يتحول فى صالح زنكى بعد قليل ؛ إذ فشل الخليفة العباسى فى الاستيلاء على الموصل بعد حصار ثلاثة أشهر ، فارتد إلى بغداد بعد أن « ضاقت الأمور بالعسكر » بسبب قلة الميرة والقوت[٢] . هذا فى الوقت الذى اضطربت أحوال أتابكية دمشق بعد وفاة بورى سنة ١١٣٣ وقيام ابنه شمس الملوك أبو الفتح اسماعيل فى الحكم . وقد بدأ إسماعيل بن بورى حكمه بداية طيبة فاسترد بانياس من الصليبيين ، واسترد حصنى اللبوة والرأس من أخيه شمس الدولة محمد صاحب بعلبك ، كما هاجم بعلبك نفسها[٣] . ولكنه لم يلبث أن تعسف وتطرف مع رعاياه ، وأظهر « دناءة نفس » ![٤] ، فأمعن فى « ارتكاب القبائح والمنكرات ، وإيغاله فى اكتساب المآثر المحظورات الدالة على فساد التصور والعقل وصداء الحسن ، وظهور الجهل ، وتبلد الفهم وحب الظلم ! »[٥] . وهكذا أصبح كل أحد فى دمشق يخشى على حياته من تصرفات اسماعيل بن بورى ؛ ولم يسلم من ذلك أهل اسماعيل أنفسهم إذ قتل أخاه سونج « أشنع قتلة بالجوع فى بيت ، و بالغ فى هذه الأفعال القبيحة والظلم ، ولم يقف عند حد »[٦] . وكان أن دبرت المؤامرات ضد اسماعيل من جميع من حوله ، حتى بات يخشى على نفسه من أشد المقربين إليه ، فأرسل إلى زنكى يستعين به ، و يعرض عليه استلام دمشق « ليمكنه من الانتقام من كل من يكره من المقدمين والأمراء والأعيان بإهلاكهم وأخذ أموالهم وإخراجهم من منازلهم » . ثم إن اسماعيل هدد زنكى بتسليم

(١) انظر ماسبق .
(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٥٧ .
(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٥ هـ .
(٦) المرجع السابق ص ٢٤١ – ٢٤٢ .

دمشق للصليبيين وقال له « إن أهملت المجىء سلمت المدينة إلى الفرنج »[١] .

وقد وجد زنكى فى ذلك العرض فرصته التى طالما تمناها لتوحيد الشام الإسلامية ، فأسرع من الموصل لاستلام دمشق . على أنه فى الوقت الذى أخذ زنكى يشق طريقه إلى دمشق ، تبدلت الأحوال فجأة ، إذ قتل اسماعيل بن بورى فى مؤامرة دبرتها أمه – صفوة الملك زمرد – (أول فبراير سنة ١١٣٥) ، وتولى حكم دمشق أخوه شهاب الدين محمود بن بورى الذى التف حوله أهل دمشق ضد مطامع زنكى والصليبيين جميعاً . ولما راسل زنكى أهل دمشق « لم يجيبوه إلى مطلوبه ، وردوا عليه رداً خشناً يتضمن أن الكلمة قد اتفقت على حفظ الدولة والذب عنها »[٢] . وهكذا فشلت جميع الجهود التى بذلها زنكى أمام دمشق لضم المدينة ، وتزعم حركة المقاومة ضده أحد مماليك طغتكين واسمه معين الدين أنر ؛ فاضطر زنكى إلى عقد الصلح مع الدماشقة فى منتصف مارس سنة ١١٣٥ والعود إلى حلب ، لا سيما بعد أن أرسل إليه الخليفة المسترشد بالله العباسى يأمره « بالرحيل عن دمشق وترك التعرض لها والوصول إلى العراق لتولى أمره والتدبير له » . وهكذا ظلت دمشق أمداً طويلا تمثل عقبة كؤودا فى سبيل إتمام الجبهة الإسلامية ببلاد الشام نتيجة لسياسة حكامها الخونة[٣] .

على أن تحول مجرى الأمور فى العراق لم يلبث أن أدى إلى تعويض زنكى عما فاته فى دمشق . وذلك أن صحوة الخلافة العباسية على أيام المسترشد (١١١٨ – ١١٣٥) لم تدم طويلا ، لا سيما بعد أن هدأت الأمور فى الدولة السلجوقية ونجح

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٥٧ .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (III, p. p. 668—669) &
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ . ؛
ابن القلانسى ؛ ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .
(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٨ ؛
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ .

السلطان مسعود بن محمد (١١٣٤ — ١١٥٢) فى التغلب على منافسيه والفوز بالسلطنة[١] . وقد حاول الخليفة المسترشد بالله منازلة السلطان الجديد ، ولكن الأمر انتهى بهزيمته ونفيه ثم قتله بأيدى الباطنية فى نهاية أغسطس سنة ١١٣٥ ، حيث مثلوا بجثته تمثيلا شديداً[٢] . ولم يجد خلفاء المسترشد ؛ أعنى الخليفة الراشد (١١٣٥ — ١١٣٦) والخليفة المقتفى (١١٣٦ — ١١٦٠) بداً من الاستعانة بزنكى « على خلاف السلطان مسعود » ؛ مما قوى نفوذه فى شئون الخلافة العباسية ببغداد[٣] .

زنكى والصليبيون :

ولم يكد زنكى يطمئن إلى جبهة العراق ، ويحصل على تأييد الخليفة المقتفى العباسى والسلطان مسعود السلجوقى حتى انصرف إلى ميدان الشام من جديد[٤]. وكان أن بدأ زنكى فى ربيع ١١٣٥ بتوجيه هجماته ضد المراكز الصليبية شرقى نهر العاصى ، ونجح فى تلك السنة فى الاستيلاء على (الأثارب) وزردنا وتل أغدى ومعرة النعمان وكفر طاب[٥]. ثم إن زنكى حرص على

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ورقة ١٧ (مخطوط) .
(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٥٠ .
(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٥٣٠ هـ .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٦٧ — ٧٠ .
ويروى ابن واصل أنه عند ما صلحت الأمور بين زنكى والخليفة المقتفى لأمر الله ، أمر الأخير بإقطاع عماد الدين زنكى بعض نواحى من أملاك الخليفة الخاصة ، كما أمر بأن يزاد فى ألقابه « وهذه قاعدة لم يسمح لأحد من زعماء الأطراف أن يكون له نصيب فى خاص الخليفة » .
(٥) ابن العديم : زبدة الحلب (III, 670—671)
وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن العديم هو الذى قال بأن عماد الدين زنكى استولى على الأثارب فى تلك السنة . فى حين قال ابن الأثير — وأخذ عنه ابن واصل — إن زنكى استولى على الأثارب قبل ذلك بخمس سنوات ، أى سنة ١١٣٠ .

إعادة أهالى تلك المدن من المسلمين إلى بلادهم ورد إليهم أملاكهم ودورهم .
وبعد ذلك قام زنكى بإغارات متفرقة فى السنة نفسها على مناطق شيزر وحمص وقنسرين ، حتى عاد إلى الموصل فى خريف سنة ١١٣٥[١] .

وبينما زنكى فى الموصل مشغولا مرة أخرى بالخلافات بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية[٢] . إذا بنائبه فى حلب — سيف الدين سوار — ينتهز فرصة الاضطراب الذى كانت تعانيه إمارة أنطاكية عندئذ ويغزو أراضيها فى أبريل سنة ١١٣٦ حتى وصل إلى اللاذقية[٣] . وتروى المراجع أن سوار أغار فى تلك الغزوة على مائة قرية صليبية ، وعاد ومعه « ما يزيد على سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبى وصبية ، ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل والحمير... »[٤] .

ولم يتعرض الصليبيون لهجمات الحلبيين وحدهم فى ذلك الدور ؛ بل قام الدماشقة أيضاً بحملة كبيرة على إمارة طرابلس سنة ١١٣٧ . وكانت دمشق قد تعرضت لبعض الفتن والاضطرابات ، ظهرت خلالها شخصية أحد المماليك واسمه بزواش ، الذى لم يلبث أن توصل إلى منصب مقدم العسكر فى دمشق « وجعل إليه الحل والعقد »[٥]. ويبدو أن هذا الأمير أراد أن يمكن لنفسه ، ففكر فى القيام بحملة ضد الصليبيين تضفى عليه شيئا من المهابة والأهمية ؛ وشجعه على ذلك النجاح الذى أصابه سوار عندما غزا إمارة أنطاكية فى العام السابق[٦] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٢ هـ .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب (III, p. 671)
(3) Stevenson : The Crusaders, p. 134.
ويصف هذا المؤرخ إغارة سوار على إمارة أنطاكية بأنها ليس لها نظير عنفها فى تاريخ تلك الإمارة منذ قيامها
(٤) ابن لأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٠هـ .
(٥) المرجع السابق .
(6) Stevenson : op. cit, p. p. 137.

لذلك غزا بزواش إمارة طرابلس « واجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة ومن التركمان أيضاً خلق كثير » . وعلى مقربة من قلعة صنجيل ، دارت المعركة بين الدماشقة و بونز أمير طرابلس ، فقتل الأخير فى أواخر مارس سنة ١١٣٧ ، وأسر عدد كبير من أتباعه ، فضلا عن الغنائم الوفيرة التى حصل عليها المسلمون[١] . وهكذا ساء موقف الصليبيين فى أنطاكية وطرابلس فى الوقت الذى عاد زنـكى سنة ١١٣٧ من العراق إلى الشام لاستئناف الجهاد[٢] .

على أن زنـكى آمن دائما بأن قيام وحدة بين الإمارات الإسلامية فى الشام يجب أن يسبق أية خطوة عملية ضد الصليبيين . لذلك بدأ زنـكى فى يونيه سنة ١١٣٧ بمحاولة جديدة ضد حمص ، التى كان يحـكمها معين الدين أنر نائبا عن البوريين فى دمشق . وفى ١١ يوليه سنة ١١٣٧ عـلم زنـكى أن الصليبيين أتوا لنجدة حمص ، فاضطر إلى أن يترك حصارها واتجه لمواجهة الصليبيين عند قلعة بعرين (بارين)[٣] . وكانت الجيوش الصليبية التى تقدمت لصد زنـكى عند بعرين بقيادة الملك فولك ملك بيت المقدس والأمير ريموند الثانى أمير طرابلس الجديد . ولم تلبث أن حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين ، فقتل منهم أكثر من ألفين وأسر كثيرون ، من بينهم ريموند الثانى صاحب طرابلس ، « وحمل عليهم عسكر عماد الدين فـكسرهم ومحقهم قتلا وأسرا ، وحصل لهم من الغنائم الشىء الـكثير » . أما الملك فولك فقد استطاع الفرار إلى قلعة بعرين حيث حاصره زنـكى[٤] . على أن فولك استطاع أن يرسل طلباً للنجدة السريعة إلى بطرق

(١) ابن الأثير : الـكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ . &
Guillaume de Tyr p. 640.
(2) Grousset : Hist. des Croisades, I, p. 69.
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب (III, p. p. 672—673) &
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ .

بيت المقدس وجوسلين الثانى أمير الرها وريموند دى بواتيه أمير أنطاكية[١] . ويبدو أن زنـكى عمـــل حسابا لتلك النجدة التى بدأت تشق طريقها صوب بعرين[٢] ، فلم يمانع فى عقد صلح فى أغسطس سنة ١١٣٧ مع الصليبيين المحاصرين ينص على أن يأخذ المسلمون خمسين ألف دينار مقابل إطلاق سراح الملك و بقية الأسرى ، كما يستولى المسلمون على بعرين فضلا عن المراكز التى سبق أن استولى عليها زنـكى سنة ١١٣٥ شرقى نهر العاصى ، وهى زردنا ومعرة النعمان وكفر طاب[٣] .

(1) Guillaume de Tyr, p. 644—645.
(٢) ذكر ابن واصل أن الصليبيين بالشام عند ما علموا بحصر الملك فولك فى بعرين أرسلوا طالبين النجدة من الإمبراطور البيزنطى ، والغرب الأوربى « فدخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنصرين على المسلمين ، وأعلموهم أن زنكى إن أخذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم فى أسرع وقت ، وأن همة المسلمين مصروفة إلى فتح بيت المقدس ، فحشدت النصرانية وجمت وقصدوا الشام مع ملك قسطنطينية » .
(ابن واصل : مفرج الـكروب ، ج ١ ص ٧٣) .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣١ هـ . &
Guillaume de Tyr, p. p. 650—651.

فهرس الموضوعات